



میشیل ماغوریان

تصبح علی خیر یا سید توم

روایہ

دار المنی

Elisabetha Noman

telegram @yasmeeenbook

"تصبح على خير يا سيده توم"

رواية حازت على جائزة الـ "غارديان" لأدب الأطفال.

رواية مليئة بكثير من الشخصيات الحية التي قد نحبها.. وقد نكرهها في السياق القصصي، بفضل تتابع أحداثها الرائعة المجللة بالأسى العميق أحياناً، والمكلفة بالفرح المتوهج أحياناً أخرى. إنها، بكل بساطة، رواية ذات قدرة سحرية على أسر مشاعر القارئ منذ اللحظة الأولى.

يضطر الصبي ويلي بيتش إلى النزوح عن المدينة إلى الريف مع غيره من الأطفال، بعد وقوف بريطانيا على شفير الحرب العالمية الثانية. وفي الريف يجد هذا الصبي البائس نفسه مقيماً في منزل توم أوكلي العجوز. فيكتشف معنى السعادة الحقيقية وهو تحت رعايته. ولكن هذه السعادة سرعان ما تتلاشى عندما تطلب منه أمه أن يعود إلى لندن.

دار المنى

ISBN 978-91-88356-56-7



9 789188 356567



ميشيل ماغوريان

تصبح على خير يا سيد توم

رواية

النص العربي بقلم:

سكينة إبراهيم



telegram @
yasmeenbook

دار المنى

Bokförlaget Dar Al-Muna Stockholm 2018
Copyright © Michelle Magorian 1985
Original title: Goodnight Mr. Tom
First Arabic edition: Dar Al Muna 1999
Arabic text: Sukaina Ibrahiem
Cover: Elisabeth Nyman
Printed in Sweden
ISBN 978 91 88356 56 7

Bokförlaget Dar Al Muna
Box 127
SE 18205 Djursholm
Sweden
www.daralmuna.com



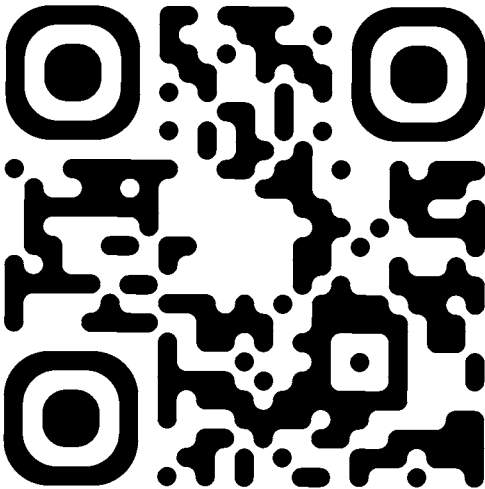
telegram @
yasmeenbook

ولدت الكاتبة ميشيل ماغوريان في بريطانيا في عام 1947. وترعرعت في طفولتها ما بين
سينغافورة وأستراليا.

كان طموح ميشيل ماغوريان الأول منصبا على دخول عالم التمثيل. وبعد التحاقها بكلية روز
بروفورد للمسرح والخطابة وقضائها ثلاث سنين فيها، قصدت مدرسة مختصة بفن التقليد في
باريس. وكانت خلال فترات الدراسة تلك، تكتب القصص سرا. ثم تحول اهتمامها الى كتب
الأطفال. فقررت الكتابة لهم بنفسها. وكان أن أسفر هذا القرار عن: تصبح على خير يا سيد توم
التي نالت جائزة الغارديان لأدب الطفل.
تعيش ميشيل ماغوريان في لندن وما زالت تواصل التمثيل والكتابة.

المترجمة سكينه إبراهيم - الإسم الأدبي - حائزة على ماجستير في الأدب المقارن من الجامعة
اللبنانية. تقيم في لبنان. ولها كتابات شعرية ونثرية مختلفة.
فازت سكينه إبراهيم بجائزة راشد بن حميد للثقافة والعلوم بعجمان في مجال الترجمة لرواية
الكتائب النرويجي بير بيترسون - لنخرج ونسرق الخيول - الصادرة عن دار المنى.

telegram @yasmeeenbook



تصبح على خير يا سيد نوم

١. لقاء
٢. قرية ويروولد الصغيرة
٣. صباح السبت
٤. التسوق
٥. تصريح تشامبرلين
٦. ماكس
٧. مواجهة بين أجمات العليق
٨. المدرسة
٩. الفتى والعيد
١٠. الحقيقة
١١. يوم الجمعة
١٢. لا بد أن تستمر الحياة
١٣. إنشاد الترانيم
١٤. بدايات جديدة
١٥. البيت
١٦. البحث
١٧. الإنقاذ
١٨. التماثل للشفاء
١٩. البحر، البحر، البحر!
٢٠. كوخ الأشباح
٢١. العودة الى المدرسة
٢٢. التفجّع
٢٣. الخاتمة

لقاء

"نسمع"، قال توم بصوت جلف وهو يفتح الباب الرئيسي للبيت.
 "ماذا تريدان؟"

كان الطارق امرأة في منتصف العمر، تعتمر قبعة صوفية، وترتدي معطفاً أخضر اللون. وكانت تقف عند عتبة الباب بارتباك. وعندما رأت توم يعاين الشريط الملصق على كمّ معطفها عاجلته بابتسامة خرقاء، وانبرت قائلة:

"أنا الموظفة المسؤولة عن هذه المنطقة."

"آ.. وما شأني أنا بهذا؟"

تخضّب وجه المرأة بالحمرة، فقالت بنبرة مترددة:

"في الحقيقة يا سيد .. يا سيد.."

"أدعى توماس أوكلي."

"أوه، تشرفت بلقائك يا سيد أوكلي"، هتفت، ثم سكنت لبرهة وأخذت نفساً عميقاً. "أترى يا سيد أوكلي، نظراً لوقوع الحرب الوشيك.."
 لوّح توم بيده.

"أعرف كل هذا"، قال بعصبية وهو يلقي نظرة خاطفة على الصبي الصغير الذي كان بصحبته. "ادخلي في صلب الموضوع مباشرة.
 ماذا تريدان مني؟"

"لقد.. لقد جنّت من أجل هذا الصبي يا سيد أوكلي، ثم سأتابع طريقي إلى قاعة اجتماعات القرية مع البقية."
 "أي بقية تعنين؟"

تحتّ المرأة جانباً، فظهرت خلفها عند البوابة الحديدية الضخمة التي تحدّ نهاية فناء المقبرة مجموعة كبيرة من الأطفال. كانت القذارة بادية على معظمهم، وكانت أسماهم البالية تفصح عن فقرهم المدقع. ولم يكن بينهم إلا فئة معدودة من الذين يلبسون معطفاً أو سترّة. لاحظ توم مدى ما ظهر عليهم من جفول وإعياء، واسترعى انتباهه منظر طفلة هزيلة، سوداء الشعر، وقفت في المقدمة وهي تحتضن بكل قواها



telegram @
yasmeenbook

دباً صغيراً من القماش. لكنه سرعان ما عاد والتفت نحو المرأة التي راحت تدفع الصبي إلى الأمام برفق، وزمجر قائلاً:
"لا داعي لتبرير أي شيء، فأنا أعرف أن هذا الأمر إجباري من أجل المشاركة في المجهود الحربي."
"طبعاً، لا شك أنه يحق لك يا سيد أوكلي اختيار الطفل الذي تريده،" بدأت المرأة بلهجة مشوبة بالاعتذار. فتصدى لها توم بنخرة من خياشيمه.
"لولا..". تابعت المرأة، "لولا رغبة والدّة هذا الصبي في أن يقيم مع شخص متدين، أو قريب من الكنيسة. كانت حازمة جداً بخصوص هذا الطلب، وقالت إنها لن توافق على إخلائه من لندن إلا إذا.."
"إلا إذا ماذا؟"

"إلا إذا أقام على مقربة من الكنيسة."
نظر توم إلى الطفل مرة أخرى. كان صبيّاً شاحباً، سقيماً، هزيل البنية. ذا شعر ملبد مائل إلى لون الرمل الداكن، وعينين رماديتين كئيبتين.

"اسمه ويلي يا سيد أوكلي،" قالت المرأة لتوم.
في تلك اللحظة، رفع ويلي رأسه، وشخص ببصره متفحّصاً ذلك المدعو توم أوكلي، فبان الشريط المعلق حول رقبتّه، والذي تتدلى منه بطاقة تعريف كتب عليها: *ويليام بيتش*.

كان توم في الحقيقة رجلاً يناهز الستين من العمر، سليم البنية، ممتلئ الجسم، معتدل القامة، كثيف الشعر أشيبه. لكنه بدا في عيني ويلي أشبه بمارد جبار، ذي بشرة تشبه الورق البنيّ الخشن المتغضن، وصوت كأنه الرعد.

"يُستحسن أن تدخل يا ولد،" قال توم أخيراً وهو ينظر إلى الصبي بعينين ممتعضتين. فانبسخت أسارير المرأة على الفور.

"أوه، أشكرك شكراً جزيلاً يا سيد أوكلي،" هتفت قبل أن تستدير لتهرول صوب بقية الأطفال، في حين ظل ويلي واقفاً في مكانه يراقبها وهي تمضي.

"ادخل يا ولد، هيا ادخل،" كرّر توم للمرة الثانية بصوت خشن. "فأنا لا أستطيع انتظارك اليوم بطوله."

وللحال تبعه ويلي بعصية إلى ردهة البيت المعتمة. واستغرقه الأمر عدة ثوان قبل أن تتكيف عيناه اللتان احتجبتا عن نور الشمس الباهر مع الظلمة الدامسة. ثم بدأ يميز أطياف المعاطف الضخمة المعلقة على مشجب خشبي، وأشكال الأحذية الكبيرة المستقرة تحتها.

"أظن أن أول ما تبغي معرفته هو المكان الذي ستعلق ملابسك عليه،" غمغم توم وعيناه تتأملان المسافة بين المشجب العالي وطول ويلي، ثم حك رأسه متفكراً. "أرى أن هذا المشجب عالٍ قليلاً عليك، لذلك يجدر بي وضع مشجب واطئ خصيصاً لك."

وبهذا، غادر توم موقعه وتوجّه نحو باب على شماله، ثم فتحه ودخل الغرفة الأمامية. وبقي ويلي في الردهة وحده وهو ما يزال قابضاً على حقيبة سفره البنية الصغيرة. وبينما هو كذلك، لمح من خلال الباب الموارد موقداً كبيراً أسود اللون متأججاً بالنيران، وأريكة قديمة بالية بالقرب منه، فارتعد جسمه رهبة. لكن توم ما لبث أن عاد وهو يحمل قلماً بيده.

"يمكنك وضع حقيبتك أرضاً يا ولد،" قال للصبي بفضاظة. "فأنت لن تذهب إلى أي مكان آخر."

امتثل ويلي لما طلب منه. لكنه لما رأى توم يناوله القلم، رفع نظره إليه، وحقق به فاغر الفم.

"هيا، هيا يا ولد،" قال توم، "ألم أخبرك أنني لا أملك اليوم بطوله، ارسم علامة على الجدار حتى أعرف أين يمكنني تثبيت المشجب لك، هيا."

رسم ويلي نقطة باهتة على الحائط عند حافة أحد المعاطف الضخمة. "ارسم علامة واضحة كي أستطيع رؤيتها بجلاء."

انصاع ويلي للأمر، ورسم دائرة صغيرة على الجدار ثم سوّدها. فانحنى توم ودقق النظر فيها.

"أرى أنك ولد نظيف ومرتب. حسناً، ناولني ممطرك الآن لأعلقه مؤقتاً فوق معطفي."

حل ويلي حزام ممطره بأصابع مرتعشة، وفك أزراره وخلعه، ثم حمّله بين ذراعيه. وبعد أن أخذه منه توم، وعلقه فوق معطفه الطويل، دخل الغرفة الأمامية وطلب من الصبي أن يتبعه. فتبعه ويلي.

كانت الغرفة الأمامية غرفة معيشة صغيرة ومريحة بنافتين. تطلّ النافذة الأمامية منهما على فناء مقبرة، وتطلّ الأخرى على حديقة صغيرة جانبية. وكان الموقد الأسود الكبير ينتصب بثبات داخل فجوة في الجدار، وتنبثق منه مدخنة مقوَّسة سوداء، من الحديد الصلب، ثم تمتدّ صعوداً إلى أن تبلغ كوة في السقف. كان الموضع تحت النافذة الجانبية مخصّصاً للرفوف التي اكتظت بالكتب، والجرائد القديمة، والأدوات المختلفة. بينما احتلت طاولة خشبية ضخمة، وكرسيان كبيران، البقعة المشرفة على النافذة الأمامية. أما الأرض المبلطة فكانت مفروشة بسجادة ذات ألوان بُنيّة، وخضراء، وقرمزية.

تابعت عينا ويلي تجوالهما في أنحاء الغرفة، حتى حطتا على الأريكة المجاورة للموقد، واستطاعتا استبيان الأشياء الموضوعة على الطاولة الخشبية الصغيرة المحاذية لها: غليون، وكتاب، وعلبة تبغ. ثم أفاق على صوت توم يقول له:

"اسحب ذلك الكرسي الصغير إلى جانب الموقد يا ولد، واجلس عليه ريثما أعدّ لك ما تأكله." لكنه لم يحرك ساكناً. فكرّر توم: "هيا اجلس يا ولد، أأذنك محشوتان بالصمغ؟"

عندئذ، سحب ويلي كرسيّاً خشبياً واطناً من إحدى زوايا الغرفة، وجلس قرب الموقد مثقلاً بمشاعر الخوف والوحشة التي أخذت تنهش صدره. وانصرف توم إلى إعداد الطعام له، فشوى شريحتين من اللحم، ووضعهما في طبق إلى جانب قطعة من الخبز، ثم حطّ الطبق على الطاولة مع كوب من الشاي الساخن.

في تلك الأثناء، واصل ويلي ملاحقة توم بعينه صامتاً، من غير أن يكفّ عن شدّ جوربيه إلى الأعلى بعصبية. كانت عظام مرفقيه النحيلين، وركبتيه الهزيلتين، واضحة النتوء تحت كنزته الرمادية، وسرواله القصير. وبينما هو جالس قرب الموقد، أخذت تتبعث من نعل حذائه الرياضي رائحة مطاط واهية.

"هيا، قُمْ وكلّ يا فتى،" قال توم أخيراً. فغادر ويلي مجلسه الدافئ مُكرهاً، وجلس إلى الطاولة.

"ويمكنك تحلية الشاي بكمية السكر التي تريدها،" أردف توم مزمجرأً.

أخذ ويلى بأدب ملء ملعقة واحدة من السكر، ثم غمس الملعقة في الكوب الأبيض الكبير وحركها. وما كاد يقضم لقمة من قطعة الخبز، حتى شعر بغصة عظيمة في حلقه جعلته يجد في الابتلاع مشقة كبيرة. لم يكن جائعاً على الإطلاق، لكنه تذكر بفزع تعليمات أمه له بضرورة إطاعة الأوامر. تأملت عيناه المقبرة من خلال النافذة. ورأى الشمس تسطع بأبهة في الخارج، إلا أنه مع ذلك لم يستطع مغالبة قشعريرة البرد التي سرت في أطرافه. رنا إلى الأشجار القليلة المنبتقة حول القبور، وراقته أوراقها المختلفة الألوان، خضراء باهتة، كهرمانية، وصفراء، و.. "ألسْتَ جائعاً يا ولد؟" باغته هدير صوت توم الذي كان في ذلك الحين قد اقتعد الأريكة.

نظر إليه ويلى مجفلاً.

"بلى.. يا سيد،" أجاب بصوت هامس.

"إذن أنت بطيء في مضغ الطعام، أهذا هو الأمر؟"

أوماً ويلى بحياء وعاین طبقه مهموماً.

رباه!! إن اللحم يُعدّ رفاهية نادرة لا يتنعم بها سوى الزوار والغرباء.. وهامو.. هامو لا يمدّ إليه يدًا!

"ربما سيكون بمقدورك أن تقبل على طعامك بشهية أكبر في وقت لاحق،" قال توم وهو يشير إليه ليعود إلى الكرسي الصغير قرب الموقد. "وضَعْ ملعقة أخرى من السكر في الشاي قبل أن تحمل الكوب إلى حيث تجلس."

نفذ ويلى ما طلبه منه توم، وعاد إلى كرسيه الصغير. وعندما قبض بيديه الباردتين كالتلج على الكوب الدافئ، شعر بالرجفة تسري في أوصاله. ثم رأى توم يميل نحوه.

"ماذا تحمل في حقيبتك يا ولد؟"

"لا أعرف،" غمغم الصبي. "لقد وضّبتّها أُمّي بنفسها، وحذّرتني من الإفلاّح على محتوياتها."

فجأة، انزلق أحد جوربيه حتى منتصف رجله، وكشف عن كدمة كبيرة زرقاء عند عظم ساقه، وعن جرح أحمر متورّم على جانب الساق. فهتف توم وهو يومئ إلى تلك الساق:

"يالها من جروح بغیضة، كيف أصبت بها؟"

امتقع وجه ويلي، وشدّ جوربه إلى الأعلى على الفور.

"حسناً، يُستحسن أن تشرب الشاي قبل أن يبرد"، أردف توم وقد شعر بضرورة تغيير الموضوع.

وهكذا، أبحر ويلي في تأمل نار الموقد المتموجة، وشرع يشرب الشاي ببطء. ورغم أنه كان يحاول جاهداً كي يعبه بصمت، إلا أن السائل ما انفكّ يقرقر في حلقه كلما ابتلعه. وفي ذلك الحين غادر توم الغرفة، ثم عاد إليها بعد بضع دقائق.

"أنا مضطر إلى مغادرة البيت لبعض الوقت، وعندما أعود سأوضّب لك غرفتك، هناك في الأعلى"، قال للصبي وهو يشير إلى السقف.

"وأرجو ألا تكون من الذين يرهبون الأماكن العالية، ها؟"
هزّ ويلي رأسه نافياً.

"هذا جيد، وإلا فإنك ستضطر إلى النوم تحت الطاولة"، أردف قبل أن ينحني فوق الموقد، ويضع بعض الفحم الجديد فيه. ثم اعتدل في وقفته وتناول وشاحاً كاكي اللون. "خذ هذا الوشاح القديم الذي يمكنك التلّفع به .. و.."

ما إن ألقى توم بالوشاح في حجر ويلي، حتّى استوقفته كدمة أخرى على فخذ الصبي، لكنه تابع حديثه بدون أن يعلّق عليها.
"و.. قم بجولة حول المقبرة. ولا تفرع من الأموات، فهم على الأقل لن يقذفوك بالقنابل."

"لا يا سيد، لن أفزع"، ردّ ويلي بأدب.

"ولا تنس أن تغلق الباب خلفك، وإلا سيلتهم سام طعامك."
"حاضر يا سيد."

سمع ويلي صوت الباب الرئيسي للبيت يُغلق خلف توم، وأنصت إلى وقع خطوات الرجل التي خفّت بالتدرّج. ثم احتضن نفسه بقوة متأرجحاً إلى الأمام والوراء وهو قابع فوق الكرسي الواطئ.
"يجب أن أكون ولداً صالحاً.." همس بنبرة ملّحة. "يجب أن أكون ولداً صالحاً.."

حكّ جرحاً متقرّحاً في ذراعه، واسترسل في أفكاره.

نعم.. إنه ولد سيئ جداً.. وهو يعرف هذا.. وكم.. كم قالت له أمه أنها تعامله برفق يفوق رفق معظم الأمهات.. وأنها لم تكن تضربه إلا ضرباً خفيفاً.

فجأة، سرت الرعدة في جسمه، وسيطر عليه الفزع من اللحظة المرتقبة التي سيكتشف فيها السيد أوكلي مدى سوء خلقه.. وفكر.. إن.. إن مظهر هذا الرجل يدل على أنه أقوى بكثير.. بكثير جداً من أمه.

شعت السنة الذهب في الموقد، ورقصت أمام عينيه، مرسلّة فرقعات مباغتة، لكنها غير عدوانية. بل.. بل شعر أنها كانت طقطقة ودودة بطريقة ما. تلفّت حوله باحثاً عن شيء مفقود. وقف.. ثم اتجه نحو الرفوف تحت النافذة الجانبية.

يا الله.. هاهو يعود إلى تصرفاته المشينة من جديد، حاشراً أنفه حيث لا ينبغي له!

رفع رأسه بسرعة ليتأكد من أن السيد أوكلي لم يكن يلتصص عليه من النافذة.

لقد.. لقد قالت له أمه إن الحرب هي عقاب من الله على خطايا البشر.. ولذلك يجدر به أن يلتزم جانب الحذر. لكنها لم تقل له مم ينبغي عليه الاحتراس.

أليكون ذاك النذير في هذه الغرفة؟ أم تراه يكمن له في المقبرة؟ جثا فوق أحد الكراسي القريبة من النافذة الأمامية، وأنعم النظر خارجها. ورغم يقينه أنه كان محاطاً بجثث الأموات، لم تبد له القبور مفزعة جداً كما صورتها له أمه. خامره مرة أخرى إحساسه بغياب شيء ما..

تري.. ما هو ذلك الشيء المفقود؟

فجأة.. غرّد طائر في الحديقة.

رباه!!.. إنه يفتقد ضجيج المواصلات في المدينة، وضوضاء الشارع، والصخب، والصياح.

نظر حوله مرة أخرى، وحطت عيناه على الكرسي الصغير حيث انطرح الوشاح الصوفي.

أجل، سوف يذهب إلى الخارج.

تناول الوشاح ولفه حول رقبتة، ثم اتجه إلى الردهة مغلقاً الباب خلفه بحرص بالغ.

أشرف ويلي على حديقة صغيرة كانت تفصل البيت عن فناء المقبرة، وقد انبثقت على امتداد حافتها أزهار شتّى. فمشى قدماً حتى بلغ نهاية الحديقة وبداية الفناء. ثم حشر يديه داخل جيبي سرواله القصير، ووقف هامداً للحظة.

كانت المقبرة والبيت وحديقته جميعها محاطة بسور من الحجر غير المصقول، ماعدا البقعة التي انتصبت عندها مؤخرة كنيسة صغيرة. وكانت الحشائش الخضراء، والأزهار البرية تتدافع عبر شقوق السور الحجري الرمادي. وبين القبور، عند الوسط، انبسط ممر ضيق مبلط ونظيف، ثم تفرّع باتجاهين، فرع شمالي يمضي إلى البوابة الضخمة التي كان ينتظر عندها الأطفال، وفرع يتجه يمينا صوب المدخل الخلفي للكنيسة المتواضعة. وفي الطرف الأدنى من المقبرة، قريباً من سور البوابة انتصبت شجرة حور. بينما بسقت حورة أخرى قرب بيت السيد أوكلي عند طرف الحديقة الأمامية. وثالثة عند مخرج الكنيسة. لكن الشجرة التي أسرت لباً ويلي كانت شجرة بلوط عتيقة تتوسط ممر المقبرة، وتميل بأغصانها العظيمة المزهرة فوق جانب منه.

رنا الفتى إلى تمثال ملاك حجري صغير كان شاخصاً بالقرب من الموضع الذي وقف فيه. ثم بدأ يمشي مستطلعاً شواهد القبور. لاحظ أن بعضها كان قديماً قدماً يستحيل معه تبيين أشكال الحروف المكتوبة عليها. لكنه لم يستغرق وقتاً طويلاً ليكتشف السمات الخاصة التي تميز بين تلك القبور. فقسم منها بدا نصيبه من العناية وافرأ، تزيينه زهريات تغصّ بالأزهار، كأنها فوق مفرش طاولة ما. وغيرها تعلوه ألواح حجرية كبيرة محاطة بالحشائش المشذبة. وأخرى تتكاثر عليها الأعشاب الضارة بفوضوية.

تملكه إعجاب بالغ بالقبور ذات الارتفاع المعتدل، تلك المكسوة بالحشيش والأزهار الصيفية الغريبة التي نأت أزوارها الصغيرة من

بين أوراقها الملونة. إلا أن ما استرعى جُلَّ انتباهه بالفعل، فهي بعض القبور القديمة التي لاحظ أنها صغيرة جداً.. لابد أنها قبور أطفال.. قال لنفسه وهو يقتعد حافة قبر اليزابيث تاتشر. وبينما هو جالس تنأى إليه صدى أصوات غريبة. فالتفت حواليه مستطلعاً، وشاهد شاباً يرتدي بزة عسكرية، وامرأة فتية يعبران الطريق وهما يتحدثان ويتضحكان. وعندما رأياه وقفاً، ثم اتكأت المرأة على حافة السور، وأخذت ترنو إليه. أما مرافقها الشاب فسارع إلى إحاطة كتفها بذراعه. كانت المرأة ذات وجه جميل مستدير ومتورد، متوجة الرأس بشعر أشقر طويل، ومضموم بأناقة. **لله ما أجملها!** همهم ويلي محدثاً نفسه وهو يتأمل تلك الشابة التي عاجلته بقولها:

"من المؤكد أنك أحد القادمين من لندن، أليس كذلك؟"
وقف ويلي وأخرج يديه من جيبى سرواله.
"نعم يا آنسة."

"لقد بلغني أنكم مجموعة كبيرة مختلفة الأجناس والمشارب،" قالت المرأة بوجه باسم. "وكم تبلغ من العمر إذن؟"
"ثمانية سنين يا آنسة."

"يبدو أنك صبي مهذب، ها؟ ما اسمك؟"
"ويليام بيتش يا آنسة."

"يمكنك أن تكفّ عن تلقيبي بالآنسة، فأنا أدعى السيدة هارتردج،" قالت وهي ترنو إلى مرافقها الذي افتر ثغره عن ابتسامة عريضة.
"وأظن أنك ستكون من تلاميذي. لذلك آمل أن أراك يوم الاثنين في المدرسة، فإلى اللقاء يا ويليام."

"إلى اللقاء يا آنسة... يا سيدتي،" همس ويلي، ووقف يراقب الزوجين يبتعدان. وعندما احتجبا عن ناظره، عاد وجلس على قبر اليزابيث تاتشر، ثم قبض على مجموعة من العشب، وانتزعها من الأرض انتزاعاً.

رباه.. كيف غاب عن ذهنه كل شيء يتعلّق بالمدرسة؟

عاودته صورة السيد باريت؛ معلمه في لندن، ذاك الذي كان يُمضي النهار بأكمله صائحاً وزاعقاً ومعاقباً. لكنه، ورغم نفوره المعتاد من المدرسة، لم يشعر أن السيدة هارتردج تشبه معلمه السابق في أي شيء. مستد صدره وتنفس الصعداء.

يا الله.. هاهي واحدة من المحن الكبيرة التي كانت تُفرقه قد انزاح همها عن قلبه..

نظر إلى شجرة البلوط، وتراعت له ملاذاً هادئاً ومريحاً..

آه.. حبذا لو يجلس تحتها الساعة، ليستظل في كنف أغصانها!

وهكذا، سارع إلى مغادرة مجلسه، وتوجّه نحو تلك الشجرة، لكنه تعثّر في طريقه بشيء صلب. وما كاد ينحني ويزيح الأعشاب جانباً، حتى رأى أمامه قبراً متوارياً تحت كومة من الأعشاب الكثيفة. فحدق به ملياً، ثم شرع يقطع الأعشاب اقتلاعاً، منتزِعاً جذورها من التربة بكلتا يديه. تحدوه الرغبة في أن يجعل ذلك القبر ظاهراً للعيان، إذ بدا له مهماً ومنسياً، ورأى أنه ليس من العدل أبداً أن يبقى محتجباً. وكان منهمكاً انهماكاً كاملاً في مهمته عندما بُغت بصوت خريشة ما. فالتفت بسرعة البرق، وشاهد سنجاباً ينكش أوراق الأشجار المتكومة عند جذع الشجرة، ويشمّها. ورغم أنه استطاع التعرف على ذلك الحيوان من صورته التي سبقت له رؤيتها، إلا.. إلا أنه لم يكن مستعداً كي يرى أمام عينيه سنجاباً حياً. اعتراه فزع رهيب، وبقي رابضاً في مكانه بلا حراك. لكن السنجاب لم يُظهر أي اكتراث به، وتابع نبش الأوراق، ملتقطاً البندق والثمار بيديه الصغيرتين.

ظلّ ويلي جاثماً في مكانه، من غير أن يجروّ على التحرك أو التنفّس، حتى سيطر عليه الإحساس بأنه بات مثل ذلك التمثال الحجري الذي رآه. أما السنجاب، فواصل تفحصه للمكان كله، بعينه السوداوين اللتين كانتا تتحركان بحيوية فائقة في جميع الاتجاهات. كان سنجاباً صغيراً رمادي اللون. وكان ذيله ذي الفراء الغزير ينتصب عالياً في الهواء كلما حشر رأسه وقوائمه داخل أكوام الأوراق الذهبية والخمرية.

بعد فترة من الوقت، بدأ كتفا ويلي المتشنجان يسترخيان، ثم أخذ التقلص الذي كمش معدته ينفرج قليلاً. فأخذ يحرك أصابع قدميه داخل حذائه ليتخلص من الخدر الذي أصابهما. ورغم أن المشهد برمته لم يكن قد تجاوز الدقائق العشر، ظنّ الفتى أنه بقي رابضاً في مكانه عدة ساعات. أخيراً، وعندما بدأ يشعر بأن ذلك المخلوق الرمادي ليس مفزعاً، بل وأن مراقبته كانت ممتعة، بُغت بنباح حادّ عالٍ خرق الصمت المخيم على المكان. حينئذ، قفز السنجاب واختفى بلمح البصر. وهبّ ويلي على قدميه الخدرتين، وبدأ يحجل على إحدهما، عساه يخفف من وطأة الوحز الشبيه بوخز الإبر والدبابيس الذي سرى فيهما. ثم.. وقع بصره على كلب صغير ذي فراء أسود وأبيض يهرول على مقربة منه متفقداً ما حول الشجرة، وما بين الأوراق. ثم.. ثم رأى الكلب يجري نحوه، ويدنو منه وهو يثب عالياً في الفضاء. فتنبّس في أرضه وقد غشيه فزع أعظم من الفزع الذي غشيه عندما رأى السنجاب.

"تلك الكلاب السامة!" سمع ويلي صوت أمه يهدر في رأسه، "إنها مخلوقات موبوءة، مليئة بالأمراض الفتاكة، عضّة واحدة من أنيابها ويكون مصيرك الموت."

ثم تذكر القبور الصغيرة التي رآها. فهرع إلى التقاط غصن شجرة غليظ من على الأرض. وقال بصوت واهٍ وهو يشتدّ قبضته على الغصن:

"ابتعد عني! ابتعد عني!"

قفز الكلب في الفضاء مرة أخرى، ونبح، وزمجر، مبعثراً أوراق الأشجار بقوائمه الخلفية. فصرخ ويلي بملء صوته، وتراجع إلى الوراء، لكن الكلب عاد ودنا منه.

"سأقتلك!" صاح ويلي بجزع.

"لن أفعل هذا لو كنت مكانك"، أرعد صوت خشن من الخلف. فاستدار ويلي ورأى توم واقفاً تحت الأغصان المتدلية. "إنه لن يؤذيك، ولو كنت مكانك لتخلصت من هذا القضيبي فوراً."

جمد ويلي في أرضه، وتحجرت يده القابضة على الغصن، وتقطر العرق من إبطيه وعلى جبينه. آه.. ها قد ننت ساعته أخيراً.. وهامو على وشك نيل العقاب المبرح الذي يستحقه.

اقترب توم منه، انتزع الغصن من يده، ورفع ذراعه. فأسرع ويلي إلى حجب وجهه بساعده من غير تفكير، و.. صرخ. لكنه لم يتلق أبداً تلك الصفعة التي توقعها، لأن توم كان بكل بساطة قد قذف القضيب إلى الناحية الأخرى من المقبرة. وللحال جرى الكلب ليلتقطه.

"تستطيع تنحية يدك عن وجهك الآن يا فتى"، قال توم بصوت هادئ. "وأظن أنه يجدر بنا دخول البيت لنوضح بعض الأمور. هيا، امش أمامي." أردف، ثم تنحى جانباً، مفسحاً الطريق للصبي كي يتقدمه على طول الممر.

توجّه ويلي إلى البيت دائخاً، مطأطئ الرأس. ومن خلال الغشاوة التي ظلمت عينيه، رأى شراريب الطحالب البازغة من بين شقوق الأحجار الصغيرة المسطحة التي تبلّط الممر. سال العرق على صدغيه وصدرة، ولسعه إبطاه، وطعنه ألم فظيع في معدته. وعندما تجاوز الباب ووقف في الردهة، أحسّ أن العرق الذي نضح منه قد أصبح بارداً ولزجاً.

قصد توم باب غرفة المعيشة ووقف ينتظر دخول ويلي إليها. "لا تتسمّر هناك يا ولد"، قال مستحثاً ويلي. "هيا ادخل."

انصاع ويلي لطلب توم، ولكنه شعر أن جسمه ما عاد ينتمي إليه. تهيأ له أن ذلك الجسم كان يتحرك من تلقاء نفسه. وشيئاً فشيئاً أخذ صوت توم يخفت في أذنيه وينأى، حتى صار أقرب إلى رجع الصدى المنبعث من خلال جدران كهف ما. جلس على الكرسي الصغير شبه غائب عن الوعي، ولمح توم يلتقط سيخاً حديدياً ويدنو من الموقد.

رباه.. س... س... سيال الآن نصيبه.. هذر ويلي.. وتشبّث بكل ما أوتي من قوة بمقعد الكرسي، لما رأى توم يؤجج النار، وينظر إليه قائلاً:

"بخصوص سام يا فتى.."

و.. و.. فجأة ما عاد يسمع شيئاً.

كان يعلم أن توم يخاطبه، لكنه لم يستطع زحزحة عينيه عن الشيخ الحديدي.. ذلك الشيخ الذي كان يُشَبَّب الفحم ويقلبه في جميع الاتجاهات. ثم.. ثم شاهد يد توم السمراء المتغضنة وهي تُخرج الشيخ من الموقد. كان طرفه العلوي مُحمرّاً يشوبه شيء من البياض في بعض أجزائه.

لاشك أنه سوف يُلسع به.. سوف يُلسع به.. سوف.. هذى ويلي من غير أن تحيد عيناه عن الشيخ الذي تراءى له بأنه كان يدنو ويدنو منه. سمع رجع صوته وصوت توم يهدران في اللحظة ذاتها. وبدا له أن الغرفة تميد وتميد به، كأنها تسبح في الفراغ. ثم أطبقت عليه الأرض، وأظلمت الدنيا. ثم.. ثم شعر بيدين ضخمتين تمسكانه من الخلف، وتدفعان رأسه بين ركبتيه، حتى أصبحت السجادة ضمن بؤرة تركيزه.. وتناهى إليه فحيح صوته وهو يعلو بالشهيق.

فتح توم النافذة الأمامية وحمله إلى الخارج من خلالها.

"تنفس بعمق،" سمعه ويلي يقول. "خذ نفساً طويلاً."

تنشق الصبي كمية من الهواء، وغمغم:

"س... س... سأتقياً."

"لا بأس، هيا، ولا تخف فأنا أحملك جيداً. اسحب نفساً عميقاً يا فتى، ودع حنجرتك تسترخي."

تنشق ويلي المزيد من الهواء، ثم اجتاحت موجة غثيان أرغمته على النقيض.

"هيا يا ولد، خذ نفساً جديداً."

وهكذا، تقياً ويلي مرة ثانية وثالثة، حتى أفرغ جميع ما في جوفه من طعام، وهمد متدلياً من بين ذراعي توم بلا حول ولا قوة.

مسح توم فم الصبي ووجهه بالوشاح الصوفي، ثم حمله إلى الغرفة وأجلسه على الأريكة، فغرق جسمه الصغير في المقعد القديم الطري الذي لم تكد قدماه تبلغان حافته. كان الوجد القابض على معدته قد زال نهائياً. إلا أن الوهن الذي جعله أشبه بدمية من القماش سرعان ما أسلمه إلى النوم. فدثره توم بغطاء صوفي، وجلس قبالتها على كرسي وضعه قرب الموقد.

حقاً، لم تكن الروايات التي بلغت توم عن الأطفال النازحين تتطبق على ويلي. "همج وجاحدون وناكرون للمعروف" هي الصفات التي كثيراً ما سمعها عنهم، أو حتى بكل بساطة معاناتهم من الحنين إلى البيت والأهل. أما هذه العينة الخجولة العيية، فهو، بكل صراحة، لم يكن جاهزاً أبداً لاستقبالها. نظر إلى السيخ المسنود قرب الموقد..
أ.. أ.. أتراه حسب أنني قد.. لا.. لا.. بالتأكيد لا! غمغم محدثاً نفسه..
ويحك.. ويحك يا توماس أوكلي، أي مصيبة هذه التي أقحمت نفسك فيها؟

سمع صوت خربشة عند الباب الأمامي.
ماذا الآن؟ أ مزيد من المشاكل؟ قال لنفسه وهو يمضي بهدوء إلى الردهة ليفتح الباب. وعلى الفور ولج سام البيت، وأخذ يقفز أمامه لاهثاً ونابحاً. فهمس له بنبرة حازمة:

"أغلق هذا الفم الكبير، ولا تتشيطان، لدينا شخص نائم هنا."
ثم جلس أرضاً، فوثب سام إلى حضنه، وراح يلحق له وجهه.
"هه.. هه.. أرى أنني لست في حاجة إلى الاغتسال ما دمت معي، أليس كذلك يا صغيري؟"

تابع سام تودته لسيده حتى شعر بالرضا، مكتفياً في النهاية باللهاث والبصاصة بذيله يمنة ويسرة. لكنه ما كاد يلمح ويلي النائم على الأريكة حتى بدأ ينبج من جديد. فضغط توم أنف الكلب بإصبعه ونظر مباشرة في عينيه.

"عليك الآن التزام الهدوء والتوقف عن النباح"، قال بصرامة، ثم تناول غليونيه وعلبة التبغ من على الطاولة الصغيرة، وعاد إلى مجلسه بالقرب من الموقد. فدنا منه سام، وانبطح على الأرض عند قدميه، مستنداً برأسه على إحداهما.

"أترى يا سام.. همس توم، "أنا لا أعرف شيئاً عن الأطفال، ولكنني أعلم علم اليقين أنه لا يجوز ضربهم وإخافتهم إلى هذه الدرجة."

رفع سام رأسه، ونظر إليه للحظة، ثم انبطح ثانية، وتوسّد قدمه من جديد.
"لا أدري حقاً، فأنا لست ضليعاً بشؤون الأمومة والأبوة"، تابع توم بنبرة قلقة، ثم نخر ونفخ دخان غليونيه. عندئذ نهض سام وحشر نفسه

بين ساقِي سيِّده، ووضع قوائمه الأمامية على معدته. فراح توم يدغدغه مداعباً.

"يبدو أنك يا شقي تفهم كل كلمة أقولها، أليس كذلك؟ حسناً، إنه على الأقل لن يطمر لي العظم بين شتيلات البسلة. وهذا واحد من الأمور التي ستعزيني،" غمغم وهو يتهدد وينهض من مكانه.

"أظن أنه يجدر بي الساعة القيام ببعض الترتيبات الضرورية،" همس أخيراً، ومضى خارج غرفة المعيشة. فسارع سام إلى اللحاق به بخطوات متبخترة.

"الزم مكانك ولا تتحرك!" قال للكلب بنبرة متشددة. فقبع الأخير على مؤخرته مستكيناً.

طبعاً، كان توم متأكداً من أن هذا الانصياع لن يدوم طويلاً. لكنه مع ذلك التفت لمباشرة ما عزم على القيام به. فيمّم صوب السلم الصغير المرتكز على الحائط إلى جانب المعاطف، ثم حمّله ووضعه تحت باب السقيفة الصغير. وبعد أن تسلّق السلم، ودفع باب السقيفة إلى الأعلى، سحب منها سلماً طويلاً من خشب الصنوبر الثخين، مثبتاً على ركيزتين متينتين عند الفتحة العلوية الصغيرة.

كان تاريخ صنع ذلك السلم يعود، على أقل تقدير، إلى أربعين سنة خلت. لكنه في الحقيقة لم يُستعمل منذ ذلك الحين إلا نادراً. لأن ريتشل؛ زوج توم الفتية، توفيت بعد صنعه بوقت قصير.

أزاح توم السلم النقال ليفسح مكاناً للسلم الخشبي حتى يبلغ أرضية الردهة. وعندما نفخ على إحدى درجاته، داهمته نوبة من العطس والسعال، وتغلّف رأسه بغمامة كثيفة من الغبار.

"هه، إنه أشبه بالسعوط،" غمغم بامتعاض، ثم رنا إلى الكلب، "والآن، ألا ترى يا سامو أنه يجب علينا ترك هذا السلم قائماً لبعض الوقت؟"

غادر توم موقع السلم وفتح باب حجرة نومه الواقعة قبالة غرفة المعيشة. كانت زاوية الحجرة المحاذية للنافذة الأمامية مشغولة بمنضدة صغيرة ذات أدراج ومرآة. أما السرير المجلل بلحاف سميك فكان يقع عند الجدار المقابل لباب الحجرة. وعلى مقربة من نهاية السرير، على الأرض، انطرح سرير سام الذي لا يشغله إلا لماماً، والمؤلف

من سلة مستديرة ودثار قديم. كانت أرضية الحجرة مفروشة بسجادة زرقاء عتيقة، بالإضافة إلى بعض الحُصر الصغيرة التي تحتل المسافة الواقعة بين النافذة والسرير.

فتح توم دفة خزانة محاذية للسرير، تشتمل على عدة رفوف، يحتوي العلويان منها على أغطية وملاءات مطوية بعناية. أما ثالثها فكان مخصصاً لبعض حاجيات ريتشل التي قرّر توم الاحتفاظ بها: علبة من الخشب الأسود فيها قوارير أصباغ للتلوين، وفرش للرسم، ورداء طفل صغير كانت ريتشل قد طرزته بنفسها من أجل مناسبة تعميد ابنهما.. ذلك الابن الذي لم يلبسه أبداً، لأنه لم يعيش طويلاً بعد وفاة أمه.

تناول توم بعض الأغذية والملاءات، ثم حملها وعاد إلى الردهة. وقال لسام وهو يرتقي درجات سلم السقيفة الخشبي:

"سأنزل بعد دقائق قليلة يا سامو، فلا تبرح مكانك."

وهكذا، وقف سام يراقب سيده وهو يختفي بالتدريج، داخل تلك الفُرجة العالية الغريبة التي ظهرت مؤخراً في السقف!

قرية ويروولد الصغيرة

انتفض ويلي، وأفاق من غفوته مجفلاً، وحملق عينيه. فبادر سام إلى النهوض والانتصاب على قوائمه. بعد أن ظل طيلة الوقت قابلاً في مطرحه، يراقب بدأب اختلاجات جسم الفتى المتشنجة أثناء نومه. أما توم الذي كان جالساً على كرسي مواجه له، يشرب الشاي، ويقرأ في كتاب، فرفع رأسه على الفور، وعينه بنظرة متفحصة.

"ألا تشعر ببعض التحسن يا فتى؟" سألته مستوضحاً. "مممم.. يبدو لي أنك أصبحت أفضل حالاً الآن،" غمغم وهو يصب له كوباً من الشاي المحلى. "خذ، اشرب هذا،" تابع مناولاً إياه الكوب، وملاحظاً في الوقت عينه نظراته القلقة إلى قدميه الصغيرتين اللتين أخذ سام يتشمهما.

"لا تخف يا فتى، فهو لن يؤذيكَ،" قال له بلهجة مطمئنة. "صحيح أنه شيطان صغير مشاغب، ولكنه أكثر طلاوة من الزبد. ألسنتك كذلك يا صغيري العاقل؟" أردف وهو يجثم على الأرض ليداعب الكلب. فاحتك سام بركبتيه، وانبرى يلحق له وجهه.

"هه.. أترى كم هو ودود يا فتى؟"

اغتصب ويلي ابتسامة مقتضبة.

"ما رأيك في أن أعلمك حركة تسعده؟" تابع توم.

أوما الفتى برأسه موافقاً.

"حسناً، ارفع يدك عالياً.. هكذا.. ودعه يرى راحتك."

قرن توم القول بالفعل، مظهرأ راحة يده السمراء الخشنة، فقلده ويلي. "هذه الحركة ستجعله يعلم أنك لا تبغي أذيته.. أ رأيت؟ والآن اذن بيدك منه، ودغدغه بها."

انحنى ويلي إلى الأمام بعصبية، ولامس فراء سام.

"نعم.. نعم.. هذا هو المطلوب. تابع ما تفعله يا فتى." تشجّع ويلي قليلاً، وواصل تربيته على ظهر سام، مستشعراً ملمس فرائه الناعم الأملس. فأخذ الكلب يلحق أصابع الصبي بحماس.

"آها.. أترى يا فتى؟ إنه يحبك حقاً. فهو عندما يلحق يدك بهذه الطريقة يقصد القول أنك تسعده، وأنه يحبك."

أبقى ويلي يده المتصلبة ممدودة، وانهمك سام في ترطيبها بلسانه.
"ولكن، لماذا لا يكف عن تشم كل شيء حوله يا سيد؟" استفسر ويلي بعد برهة، غافلاً عن سام الذي كان يتسلل زاحفاً تحت الدثار ليصل إلى ساقيه.

"إنه يحب معرفة رائحة كل ما حوله حتى يميز بين الصديق والعدو،" أجاب توم.

"لا.. توقف.. أيها الكلب السيئ الأخلاق!" صاح ويلي فجأة، زاجراً سام الذي واصل تسلله تحت الدثار، حتى نجح في حشر أنفه الفضولي بين فخذه. فبادر توم إلى جرّه بعيداً. لكن الكلب بدأ يُوقوق معترضاً، وأخذ ذيله يصبص بسرعة عظيمة.

"أرى أنك مهتاج اليوم كثيراً يا سامو!!" قال توم. "نعم، يبدو أنه في حاجة إلى جولة مرحة في الحقول،" أردف، ثم رمق ويلي بطرف عينه.. ولاشك أنك أنت أيضاً في حاجة إلى بعض الهواء النقي.. غمغم في سرّه وهو يتوجّه إلى النافذة الأمامية، ليلقي نظرة مستطلعة على السماء. وباشر ويلي النهوض من مكانه. فأزاح الدثار جانباً، وتمعج حتى بلغ حافة الأريكة، ثم انزلق منها نحو الأرض.
"هه.. يبدو أنها ستمطر،" همهم توم، ثم التفت إلى ويلي، "هل تحمل معك جزمة يا فتى؟"

هزّ ويلي رأسه.

"كلا يا سيد."

"لا بأس، ولكن يُستحسن أن ترتدي ممطرك."
وهكذا، قصد الثلاثة الردهة، وتجمّعوا فيها استعداداً للمغادرة. وهناك، وقعت عينا ويلي على السلم الطويل، فوقف يحدق فيه بذهول. لكن توم عاجله بقوله:

"تلك هي غرفتك، هناك في الأعلى. هي مكان يشبه السقيفة."

"غرفتي؟؟؟"

لم يستوعب ويلي ما قاله السيد أوكلي.

رباه!! أترأه يعني بأنه هو ويلي.. ويلي نفسه.. سيحظى بغرفة خاصة به.. به وحده!!

طبعاً، لم يكن هناك أي مجال للشك. إذ سرعان ما أوماً توم برأسه، ردّاً على سؤال الفتى بالإيجاب. ثم ناوله ممطره، والتفت ليهدئ سام الذي واصل الرثوب بانفعال.

"هيا، اهدأ قليلاً يا سام، إننا على وشك الانطلاق"، قال توم، وعيناه تجتليان ممطر الفتى الرث.

كان الوقت يُقارب أواخر المساء عندما غادر الثلاثة البيت، واجتازوا الممر إلى البوابة. وفي الخارج، طالعتهم ندف الغيوم السوداء التي كانت تتسابق لتحتشد في كبد السماء. واستقبلتهم الشمس الموشكة على الغروب، بازغة من بين الأشجار ككرة من نار، وأشعتها الذائبة مسترخية على الأوراق المستجيبة لمداعبة النسيم الخفيف.

مضي الثلاثة في طريقهم، يتقدّمهم سام، ويلي توم بخطواته الواسعة، مخلفاً وراءه ويلي الذي تأخر عنه كثيراً، وانبرى يتعقبه جرياً أملاً بمماشاته. وبما أن الإثارة كانت قد بلغت بسام مبلغها في ذلك اليوم، سارع إلى إطلاق ساقيه للريح، وراح يعدو ويعدو، غادياً ورائحاً في شتى الاتجاهات. فالتفت توم قائلاً للفتى:

"لاشك أن هذا الكلب نصف مجنون."

ثم اكتشف أن تعليقه ذهب أدراج الرياح، لأن ويلي، رغم سعيه الحثيث كي يلحق به، كان يبعد عنه مسافة عدة ياردات.

"يالكَ من ولد خجول"، قال توم للصبي. "لماذا لم تطلب مني تخفيف سرعتي؟"

لكن ويلي الذي عبق وجهه بالحمرة، نتيجة ما كان يبذله من جهد مضاعف، لم يستطع الإجابة.. فاكتفى باللهات.

عندئذ، تباطأ توم في سيره، مفسحاً المجال للفتى كي يماشيه بمزيد من السهولة. فمضى ويلي يحث الخطى، وعيناه تتفحصان الرجل المسنّ الجلف الذي كان يعامله بعطف أربكه كثيراً، وأعجزه عن استيعاب حقيقة ما كان يجري معه. تأمل جزمة توم البنية الضخمة،

ومعطفه السميك الكحلي، وقبعته الخضراء التي نفرت من على جانبيها خصلات الشعر البيضاء، وخرج التسوق الذي كان يتأبطه. "يا سيد.." قال ويلي أخيراً بأنفاس متقطعة، "يا سيد، أيمكنني أن أحمل الخرج عنك؟"

نظر إليه توم متمماً بكلمات غير مفهومة، وناول الخُرج. فتابع الصبي طريقه وهو يضمّ الخرج إلى صدره بقوة.

لم يكن ويلي، قادراً على استكشاف المنطقة حوله ببسر، وهم على ما هم عليه من عجلة. لكنه لاحظ أن الطريق الضيق المنبسط قد بدأ بالصعود قليلاً. وخيّل إليه أن خمائل الأشجار الكثيفة المتراصّة كانت لا تتفكّ تعبر من أمامه، مرسلّة باتجاهه وميض خطوطها الخضراء. وبدأ له الأمر أقرب إلى الوهم.. كأنه تداعيات حلم مشوّش. وحين بلغوا رأس التل، شاهد على امتداد جانبي الطريق، صفين من البيوت الريفية المسقفة بالقصب.

"يا سيد،" هتف مغالباً لهاته، "انظر، إن أسطح تلك البيوت مصنوعة من القش!!"

"ذاك قصب،" أوضح توم.

"ماذا؟" هتف ويلي، ثم تراجع وعضّ شفتيه مطبقاً فمه.

فرنا إليه توم، وقال:

"لدي في البيت صور لمثل هذه الأكواخ. سأريك إياها الليلة عندما نعود."

لم يقل ويلي شيئاً، لكنه تابع المشي، وهو يضمّ الخُرج إلى صدره بمزيد من القوة.

وصل المطاف بتوم وويلي إلى بيت جانبي. وشاهدا امرأة بدينة، متوسطة السن، ذات شعر أحمر يخالطه الشيب، تسترق النظر إليهما من إحدى نوافذه. ثم رأياها تختفي، وتعود للظهور عند عتبة الباب الأمامي للبيت.

"أهلاً بك يا توم،" بادرت المرأة إلى الترحيب بتوم وهي تحدج الصبي بنظرة فضولية.

نخر توم من خياشيمه.

"مساء الخير يا سيدة فليتش. كيف حال الأولاد؟"

"الأولاد بخير."

"ويليام،" قال توم للصبي، "اذهب وراقب سام، وسأوافيك بعد دقيقة." أوما ويلي باستحياء، ولحق بسام الذي كان منشغلاً في تفحص بعض أصص الأزهار المحطوبة على حافة نافذة أحد البيوت. "أرى أنه صبي هزيل جداً،" علقت المرأة وهي تعيد تثبيت أحد الدبابيس في شعرها المعقود. فنخر توم مرة أخرى.

"في الحقيقة، لم أصدق أنني عندما سمعت الخبر،" أردفت المرأة. "وفي جميع الأحوال، أنا لا أملك متسعاً في البيت لإيواء أحد. لكن السيدة بتشر استضافت طفلتين من هؤلاء النازحين، بلغني أنهما مشاكستان جداً. والسيدة هينلي أيضاً أوت ثلاثة منهم في الأسبوع الماضي. إلا أن هؤلاء الأطفال يداومون على الهرب شوقاً إلى أهلهم وبيوتهم."

أتبعت المرأة كلامها بزفرة طويلة ثم ربتت على صدرها.

"وما هي أخبارك مع حياكة الصوف؟" سألها توم محولاً دفة الحديث. فأجابت وهي تميل برأسها وتقرّس فيه:

"ما الذي تقصده بسؤالك؟ منذ متى أصبحت تهتم بحياكتي للصوف؟" "منذ هذه اللحظة،" ردّ توم بسرعة، مدارياً ارتباكاً بحشر يديه في جيبه معطفه، وحكّ طرف جزمته بحجر. "أأنت مشغولة كثيراً هذه الأيام؟"

"ليس أكثر من المعتاد."

"إذن، أريد منك كنزة صوفية سميكة، ولكن.. ليس لي أنا،" قال باقتضاب، مكتفياً بالنظر إلى ويلي الذي كان يقفز مع سام على مبعده منه.

"ولكن، أظنك تعرف أنه لا يتوجب عليكم تأمين الكسوة لهؤلاء الأطفال. إذ من المفترض أن يكونوا قد جلبوا حاجياتهم معهم." "حسناً، هو لم يفعل،" أجاب توم بفضاظة. "والآن أيمكنك حياكة هذه الكنزة أم لا؟ ولا أريد منك سوى الإجابة على سؤالي." "إذا كان هذا ما تريده، فأنا على أتم استعداد."

"و..و.. أتعرفين أين يمكنني الحصول على جزمة جيدة للأطفال؟ ولا أرغب في سماع أي تعليق آخر، فقط ذليني على المكان."
"أمهلني بعض الوقت ريثما أستعلم لك عن هذا."

غمغم توم شاكرًا، ثم غادر بخطى سريعة عائداً إلى الطريق. وظلّت السيدة فليتشر واقفة بلا حراك، تحقق به أثناء مُضيهِ الحثيث، إلى أن تأكدت من ابتعاده عن مدار السمع. وعلى الفور هرعت إلى البيت المجاور لبيتها وهي تتنادي:

"مادج.. مادج.. ستصعقن عندما أخبرك بما.."

كان الطريق الفاصل بين صفيّ البيوت الريفية يمتدّ مُشرفاً على الطبيعة الطلقة، ويتفرّع إلى أزقة فرعية بين مسافة وأخرى. وكان البيت الأخير القائم عند المنعطف عبارة عن حانوت صغير. وعندما وصلوا إليه قال توم للفتى وهو يأخذ منه الخرج تاركاً إياه مع سام:
"انتظرنني هنا، فأنا لن أغيب طويلاً."

جلس ويلي على درج حجري، وحملق في الحقول مشدوهاً، غير آبه بجوربيه الباليين اللذين تجمعا حول كعبيه. ولكنه استعاد انتباهه حالاً عندما رأى توم، فرفعهما بسرعة. أما سام فراح يحوم حول الخرج، ليشمّ ما احتواه من مأكولات. فنقعه توم بلطف على أنفه، وصفعه على قفاه، ثم قال للفتى:

"إذا عاودت المشي بسرعة ما عليك سوى أن تتبهنني."

كان الطريق الذي سلكوه بعد ذلك طويلاً وهادئاً. لا يعكّر صفو سكونه إلا دوي جرّار يهدير في حقل بعيد. وبعد فترة من الوقت، انعطف توم شمالاً وسلك درباً ضيقاً. فجأة، تريت ويلي مشدوهاً بمرأى عصفور صغير، بُني اللون، حطّ على غصن إحدى الأشجار. فما كان من توم إلا أن وقف ساكناً، ووضع أصابعه على شفّتيه، وأخذاً يراقبان معا ذلك العصفور وهو يقفز من غصن إلى غصن بين الأوراق المتمايلة.

"هذا عصفور دوري"، قال توم بصوت هامس. "انظر إلى منقاره، أترى كم هو لطيف؟" لكن العصفور ما لبث أن رفع رأسه عالياً، وحلق مبتعداً. "هه.. وهو عصفور خجول أيضاً"، أضاف وهما يتابعان سيرهما.

وصلاً أخيراً إلى مزرعة كان سام قد بلغها قبلهما، وجلس ينتظرهما عند بوابتها الخشبية، وهو يخطط الأرض بذيله يمناً ويسرة متملاً. تجاوزا البوابة الضخمة التي صرّت مفصلاتها، وزمّمت عندما أغلقها خلفهما. ثم قاد توم الطريق، واستدار ميمماً صوب مؤخرة بيت المزرعة الحجري الكبير المائل إلى لون القشدة. واتّجه نحو رجل كان منهمكاً في حلب بقرة، وهو يقعد كرسيّاً صغيراً على مقربة من حظيرة خشبية. كان الرجل في منتصف العمر، ذا شعر بلون الذرة، وعينين لم يسبق للفتى ويلي أن شاهد زرقة تشبه زرقتهما أبداً. تسمر ويلي في مكانه مشدوهاً بالمشهد الذي طالعه. أدهشته الطريقة الرقيقة التي أمسك بها الرجل ضرع البقرة، وحيره السائل الأبيض المتدفّق من الضرع نحو دلو تحته. فهتف وهو يجذب كمّ معطف توم بالحاح:

"يا سيد، يا سيد، ما هذا؟!"

صعق السؤال توم، فقال مستهجنًا:

"ألم تر في حياتك بقرة يا فتى؟!"

لكن ويلي لم يرد. إذ كان قد عاد واستغرق استغراقاً كاملاً في مراقبة الضرع الذي أخذ حجمه يتضاعل بالتدريج.

"سأكون في حاجة إلى كمية إضافية من الحليب منذ الآن فصاعداً يا أيفور،" أوضح توم للرجل. فأوماً الأخير برأسه، ثم رنا إلى ويلي.

"أهو أحد القادمين من لندن؟"

أجاب توم بنخرة من خياشيمه.

"يُستحسن إذن أن تأخذ إبيرقاً معك الآن. ستجد رو في البيت."

وهكذا، ترك توم الصبي وحده ليتابع النقرج على عملية الحلب الجارية. ويمّم شطر البيت وهو يحمل سام بين ذراعيه لئلا ينبج على الأبقار كعادته. ثم ارتقى الدرج، وقرع الباب الخلفي، ففتحته امرأة ثلاثينية، سمراء، نضرة، تأتزر مريلة مطبّعة برسوم الأزهار.

"أوه.. تفضل بالدخول،" قالت المرأة فور رؤيتها له. "أعرف أنك

ستكون في حاجة إلى كمية إضافية من الحليب."

"ها.. وكيف عرفت؟" سألها توم.

"لقد رأيتك لوسي وأنت تتجاوز البوابة مع الصبي".

كانت لوسي طفلة في السادسة من العمر، ذات شعر بني أجعد، وجسم مكتنز. وكانت في تلك اللحظة، تقف بوجنتيها السمينتين المعفرتين بالتراب، وهي ملتصقة بأמהا، ومتشبثة بطرف ثوبها.

"لا تتصرفي ببلاهة يا بنت"، قالت الأم لصغيرتها، "هيا اذهبي وسلّمي على الصبي، ودعيني أهتم بأشغالي".

وعلى التو، نزلت الصغيرة الدرج، متثاقلة بجزمته القصيرة، ومتهادية بفستانها الأزرق الصوفي. ثم دنت من ويلي ووقفت إلى جانبه بحياء، وراحت تعصر طرف فستانها بيدها، حتى بان سروالها الداخلي. فتريث توم ليتأمل الطفلين، ثم غمغم وهو يلج المطبخ الدافئ: "ليس هناك اختلاف كبير في حجميهما. إنني لا أعرف حقاً ما الذي يفعلونه بهؤلاء الأطفال في تلك المدينة".

أخذ توم ما يحتاجه من حليب، وغادر مطبخ آل بادفيلد، ثم وقف ونادى ويلي عدة مرات. لكنه لم يحصل منه على جواب. فاستسلم في النهاية، واقترب من الصبي ليريت على كتفه منبهاً.

"هاك أيها الحالم، احمل هذا"، قال وهو يناوله إبريقاً من الصفيح. "ويمكنك أن تلقي نظرة عليه، إذا كنت ترغب في هذا".

عندئذ، رفع ويلي غطاء الإبريق، واسترق النظر إلى الحليب الطازج، متغافلاً عن لوسي التي واصلت التحديق به مشدوهة، لأنها لم تر في حياتها كلها صبيّاً شاحباً وهزلاً مثله. وبما أنها لم تكن حتى تلك اللحظة قد تحدثت معه، ظنّت، عندما سمعت توم يخاطبه، بأنها قد عرفت اسمه أخيراً. فرنت إليه بعينين لامعتين، وقالت له على نحو مفاجئ: "إلى اللقاء يا حالم!"

ثم استدارت وطارَت إلى البيت طيراناً. "والآن، أين ذاك المشاغب الصغير؟" همهم توم متفقداً المكان بعينه. ثم لمح كومة من فراء أرقط عند البوابة، حيث كان الكلب يجلس بانتظارهما مطبقاً فكّيه على عظمة كبيرة. فهمّ بالمضي قدماً، لكن ويلي الذي التفت ليلقي نظرة على واجهة البيت، لمح المرأة المدعوة رو تجلّ النافذة الأمامية بملاء سوداء. فاستوقفه متسائلاً:

"ماذا تفعل تلك السيدة؟"

"إنها تضع أغطية التعتيم يا بني. علينا جميعاً أن نفعل هذا اعتباراً من الليلة."

كان ويلي على وشك الاستفسار عن السبب، لكنه شعر أن السؤال قد لا يكون لائقاً، فالتزم الصمت.

"أترى يا فتى، إن فائدة أغطية التعتيم هي التمويه على الطائرات حتى لا ترى مواقع القصف ليلاً،" قال توم، وكأنه قرأ ما دار بخلد الصبي. "ولو سألتني رأيي لقلت لك إنها مضيعة للوقت. وأنا واثق أن كل شيء سينتهي مع حلول عيد الميلاد. وفي جميع الأحوال من ذا الذي يرغب في قصف قرية ويروولد الصغيرة. ويروولد الصغيرة هو اسم هذه القرية يا بني."

ثم سكت لبرهة، ورفع عينيه متطلعاً إلى السماء، فلاحظ أنها قد أعتمت فجأة.

"هه، يُستحسن أن نرجع إلى البيت،" أردف وهو يفتح البوابة ليباشروا رحلة العودة.

تجاوز الثلاثة الدرب الفرعي إلى الطريق الرئيسي بخطى خفيفة. وكانوا قد تجاوزوا البيوت المسقفة بالقصب، وبلغوا منتصف التل عندما نزلت عليهم أول قطرة مطر. وما كادوا يبلغون السفح حتى انفتحت أبواب السماء على مصاريعها، مرسلّة فوق رؤوسهم مطراً مدراراً. فسارع توم إلى زرّ معطفه حتى رقبتة، ثم رفع ياقته عالياً. وقبل أن يغذّ السير قدماً، ألقى نظرة عجلى على الصبي والكلب اللذين تخضّلا بالماء.

أما ويلي الذي حجب المطر الرؤية عنه، وتسرّب إلى ملابسه من ياقة ممطره، فواصل العدو ليبقى ملازماً لتوم. رغم الوحل الذي لطخ حذاءه الرياضي، والماء الذي نفذ إلى كنزته الرثة.

أخيراً، بلغ الموكب الصغير البوابة المؤدية إلى فناء المقبرة، في حين والت السماء إرعادها، واستمر دفق مائها الغزير يقرع الطريق بعنف، قبل انسراجه في جداول صغيرة. وحالما فتح توم البوابة، اندفع منها سام مزمجرأً، ونابحاً على برك الماء المتجمعة. لكنه، عندما أغلقها

ثانية بعد دخول ويلي، فوجئ بقطرات الماء المتراكمة على حافتها وهي تتهاى على وجهه.

هرول ويلي إلى البيت، مطبطيناً بحذائه المبلل على أرض الممر بين القبور، وتحت شجرة البلوط. ثم احتشد الثلاثة في الردهة التي قعقت جزمة توم على أرضيتها، أثناء انهماكه في خلع معطفه وقبعته، ونفض الماء عنهما، قبل التفاته إلى نزع جزمته. ووقف سام على الحصيرة قرب الباب المفتوح، وراح ينفذ جسمه وهو يراقب خيوط الماء المنهمرة على المقبرة. أما ويلي الذي تلوّنت أصابعه الصغيرة بالزرقة فانشغل بالتعارك مع أزرار ممطره.

"أرى أنك قد تبللت من رأسك إلى أخمص قدميك"، قال توم وهو يتأمل ويلي، ثم أشار إلى حذائه الموحل، "اخلع هذا الحذاء هنا، والزم مكانك ريثما أفرش الأرض بأوراق الجرائد."

خلع ويلي الحذاء الذي أثقله الماء، وظلّ واقفاً ينتظر في الردهة المظلمة، بجسمه المرتجف برداً، وأسنانه المصطكة داخل حنكه المتيبس.

أخيراً، وبعد طول رواح ومجيء في غرفة المعيشة، فتح توم الباب، وقد انتهى من فرش بعض الجرائد على الأرض قرب الموقد. ثم بادر إلى حجب النوافذ بأغطية التعقيم التي كادت تشيع الظلمة، لولا بصيص النار في الموقد المتوهج. وقام أخيراً بإنارة مصباح غاز متدلٍ من السقف، وقنديل صغير كان على الطاولة.

"حسناً، عليك البقاء واقفاً فوق الجرائد أنت أيضاً"، قال وهو ينظر إلى الكلب الذي تسارع لهاته، واستمرّ ذيله يرسل رشاشاً متواصلاً من الماء. ثم لقم الموقد ببعض الفحم وغادر الغرفة.

لازم ويلي مكانه، مواصلاً القفز على قدم تلو الأخرى أمام الموقد، حتى بدأ البخار يتصاعد من ملابسه. لكنه، ما لبث أن سمع صوت انغلاق الباب خلفه. واكتشف أن توم قد عاد إلى الغرفة ومعه حقيبتة البنية الصغيرة التي وضعها على الطاولة، وجلس يتفحص محتوياتها. كانت الحقيبة تحتوي على منشفة صغيرة، ولوح صابون، وفرشاة أسنان، وإنجيل قديم، ومغلف كتب عليه: إلى من يهمه الأمر. نحى

توم المنشفة باحثاً عن لباس للنوم، لكنه لم يعثر على شيء. فالتفت إلى المغلف وفتحه.

سمع ويلي خشخشة الورق، واستدار ليراقب.

نعم، إنه يعرف أن الرسالة من أمه..

تفحص جوربيه المبللين.. تأكد أنهما كانا مرفوعين عالياً.. ووقف بسكون حابساً أنفاسه.

كانت الرسالة تقول:

"أيها السيد / السيدة .. المحترم، طلبت من أصحاب الشأن أن يقيم ويلي مع أناس يخافون الله؛ وأتمنى أن يكون هذا ما حدث. وأود القول أن ويلي مثل معظم الأولاد مثقل بالخطايا، لكنه وعدني التحلي بالأخلاق الحميدة. وبما أنني لن أستطيع زيارته، نظراً إلى ترملي، وافتقاري للمال بسبب الحرب وغيره، وضعت مع أغراضه الحزام الذي أعاقبه به، كي ينال ما يستحقه إن أخطأ. كما أنني خيطة جيداً من أجل الشتاء. أنا عادة أجعله يلزم البيت عندما أغسل له ثيابه المعدة خصيصاً للطقس البارد. لذلك أعتقد أنه سيكون على ما يرام. وأرجو إعلامه أن أمه تطلب منه أن يكون ولداً صالحاً السيدة بيتش."

أنهى توم قراءة الرسالة، ثم طواها ووضعها في جيبه. والتفت إلى الحقيبة مجدداً، ووجد في قعرها حزاماً جليداً، بُني اللون، ذا إبريم فولاذي. لكنه سرعان ما أعاده إليها بعد أن استخرج منها المنشفة، ولوح الصابون، وفرشاة الأسنان. وفي تلك الأثناء، كان ويلي الذي وقف متسماً في أرضه، مُستدبراً الموقد، يواصل التطلع إليه بقلق ما بعده قلق.

كان وجه توم الممتعض ينبئ عن الغضب العظيم الذي اشتعل في صدره. فظل قابلاً في مكانه ساكناً إلى أن استعاد شيئاً من رباطة جأشه. ثم قال للصبي بصوت شبه مخنوق:

"ما دمت مقيماً في منزلي يا ولد، فستعيش وفق قوانيني أنا. أنا لم أضرب في حياتي طفلاً، وإذا فعلت فسأستعمل يدي. أنتفهم هذا؟" أوما ويلي برأسه من غير أن ينبس بكلمة.

"إذن يمكننا أن ننسى ذلك الحزام اللعين"، أعلن وهو يتناول الحقيبة من على الطاولة، ويأخذها خارج الغرفة.

عندئذ، استدار ويلي واستقبل النار.. انحنى رأسه صوب الموقد.. سرى وخز مؤلم في كتفيه المتشنجتين.. وزفر عليه الجمر المشتعل لحظة عجز عن مغالبة دمة نفرت عنوة من عينيه. لكنه ما كاد يسمع الباب يُغلق خلفه، حتى سارع إلى مسح وجنتيه المبقعتين.

عاد توم وهو يحمل صرةً بادر إلى وضعها على الأريكة، ثم قرفص على مقربة من ويلي وقال:

"يُستحسن أن تنزع عنك هذه الملابس المبللة، حتى أستطيع تجفيفها لك من أجل الغد."

أذعن ويلي لهذا الأمر مُكرهاً، وترك توم ينضو عنه كنزته وسرواله المبللين. إلا أنه حاول التشبّث بجوربيه فعاجله توم بقوله:

"والجوارب أيضاً."

لم يعلق توم بكلمة عندما رأى جسم ويلي. لم يكن هناك من داعٍ للتعليق. إذ كانت الكدمات والقروح والجروح التي وسمت بدن الفتى وذراعيه وساقيه، أفصح من أي بيان. لكنه عندما همّ بنزع قميص الفتى التحتاني، تراجع الصغير مذعوراً، وحطّ يده على ساعد توم مبعداً أيّاه. فسأله بهدوء:

"أهو قميص جديد؟"

أوما ويلي، وتضرّج وجهه بحمرة الخجل.

فأردف توم وهو يحاول سحب القميص بلطف:

"علينا أن ننتبه إذن."

لكن ويلي قاطعه قائلاً:

"إنك لن تستطيع نزعه يا سيد!"

في تلك اللحظة فقط، فهم توم ما الذي قصدته أم الفتى بقولها أنها قد خيبت ويلي من أجل الشتاء. كان القميص موصولاً بالسروال التحتاني عند منطقة الخصر!

"سنعالج هذه المشكلة حالاً"، غمغم توم وهو يتناول مقصاً من المكتبة، فنقهق ويلي مذعوراً.

"لا تخف يا بني، سأخيطه لك من جديد عندما تعود إلى بيتك. أعدك بهذا،" قال توم مهدئاً الفتى. لكن ويلي لم يتحرك.
"أعدك يا بني،" كرّر توم من جديد. فدنا منه الصبي على مضض، وتركه يفتق تلك الخيوط المحبوكة.

انهك توم في تجفيف جسم ويلي الهزيل المقرح، ولفه بمنشفة، وأجلسه على الأريكة. ثم تناول من الصرة أحد قمصانه الداخلية القديمة، وقصّ حاشيته وأكمامه من منتصفها. وبعد أن أوقف ويلي على الأريكة، وألبسه القميص، واصل عملية القص حتى بانّت يدا الصبي وقدماه. ثم ناوله زوجاً من الجوارب الصوفية السمكية. وعندما لبسها الفتى، وجد أن عقبها يكاد يبلغ منتصف ساقه تقريباً. فنذت عنه ابتسامة صغيرة عصبية، وتابع مراقبة توم وهو ينشر له ثيابه على ظهر كرسي قريب من الموقد، ثم رآه يشير إلى منشفة كانت على الأريكة، ويقول:

"تستطيع تجفيف سام بتلك المنشفة القديمة."

فسارع ويلي إلى الجثو فوق أوراق الجرائد، وانهك في دحك فراء سام الذي رفع رأسه إلى الأعلى، سعيداً بما يحظى به من رعاية.
أما توم فتنفّغ إلى استخراج المأكولات من خراج المشتريات، وتنقلّ في أنحاء الغرفة واضعاً كل غرض في مكانه المناسب؛ سواء على الرفوف، أو داخل الخزانات الصغيرة. ثم كسر عدة بيضات في وعاء، وأضاف لها الزبدة والحليب. وبعد أن قطع بعض شرائح الخبز، شكّ إحداها في رأس شوكة والتفت إلى ويلي قائلاً:

"هل قمت بتحميم الخبز من قبل؟"

نظر إليه ويلي، وهزّ رأسه ناعياً. فناوله توم الشوكة.

"هاك، قم بمحاولة."

اقتعد ويلي الكرسي الصغير تاركاً جوربيه الطويلين يتدليان وراءه. وانبرى يعرض رأس الشوكة للنار، وعيناه تلاحقان توم الذي انشغل في إعداد زبدية من قطع اللحم والخبز. ثم رآه يضعها على الأرض أمام سام المستغرق في مضغ طرف أحد الجوربين المتدليين. ولما انتهى من تحميم الخبز، حطه في طبقه وطبق توم، ودلق الأخير

مزيج البيض المقلي فوق الخبز. ثم وضع في وسط الطاولة قدراً من البطاطس مسلوقة.

"هيا، يمكنك أن تجلس الآن يا فتى،" قال توم أخيراً.

فجلس ويلي إلى الطاولة، وبادر إلى تناول رأس من البطاطس الساخنة، لكنه سرعان ما شقق مقلباً به في طبقه. كان في تلك الأمسية مقبلاً على الطعام بلهفة كبيرة. وكان مرفقاه الهزيلان يبرزان إلى العيان كلما اقتطع لقمة، وتناولها بتلذذ. وعندما فرغ وتوم من الأكل، فضّ الأخير رزمة بُنيّة صغيرة فيها أربع قطع من كعك الزنجبيل المحليّ الصنع. وقال وهو يناول ويلي قطعة منه:

"واحدة لليلة، وأخرى للغد."

لم يكن ويلي قد تذوّق طعم الكعك من قبل. ورغم ذلك أتى على قطعه كلها بإقبال كبير. ثم تراجع مستنداً بكل ثقله إلى ظهر الكرسي، ويداه ترتاحان على معدته. وتابع بنظراته سام الذي كان يُصدر أثناء التهامه لطعامه سلسلة غريبة من الأصوات، بدون أن يتوقف ذيله عن البصيص.

بعد العشاء، سخن توم بعض الماء على الموقد لغسل الأطباق، وقال للفتى وهو يشير إلى رفوف الكتب تحت النافذة الجانبية:

"تستطيع تصفّح تلك الكتب إن شئت."

غادر ويلي مكانه جذلاً، واتجه نحو الكتب، ثم جمّد في أرضه مقطباً، وقال بصوت بائس:

"يجب أن أقرأ في الكتاب المقدس."

نخر توم.

"سأحكى لك قصة من قصص الكتاب المقدس بنفسى، وبطريقي الخاصة، أيناسيك هذا؟"

"نعم، نعم، شكراً لك يا سيد."

"اسحب ذلك المسند إلى هنا لتجلس عليه."

"مسند؟!"

أشار توم إلى مقعد مستدير واطئ وطري كان بالقرب من الأريكة. وهكذا، ربض ويلي أمام الرفوف، وانتقى ثلاثة كتب، ثم جرّ المسند وجلس عليه، ووضع الكتب على فخذه. فسأله توم:

"ألا تريد تصفّحها؟"

"سأفعل بعد الانتهاء من الكتاب المقدس."

عندئذ، اقتعد توم الأريكة، وأشعل غليونته، ثم رجع بظهره إلى الوراء مسترخياً، وأخذ ينفخ الدخان مفكراً بالحكاية التي سيرويها للصبي. أما ويلي الذي قبع في مطرحه مستكيناً، فانبرى يمسح قميص النوم الغريب الذي يشبه الكيس، حتى غطى به قدميه، ثم راح ينظر إلى توم بلهفة.

"أجل، أجل، سأروي لك الليلة حكاية سفينة نوح، فهي حكاية جيدة،" هتف توم وهو يلقي نظرة على الكتب التي انتقاها ويلي، ثم تناول كتاباً أخرى من المكتبة، تحتوي على صور للحيوانات، وبدأ قائلًا:

"حدث ذات مرة منذ زمن بعيد.. بعيد.."

أصغى ويلي إلى الحكاية بانتباه عظيم، حتى مال بكل جسمه إلى الأمام، ثم وقف واستند على ذراع الأريكة ليتمعن في الصور. وواصل توم قصّ الحكاية بأسلوبه الخاص، وقد عمر صدره بالفخر نتيجة ما لمسّه من اهتمام الصبي. كان مصباح الغاز يهسهس فوق رأسيهما بلطف، والفحم يشعشع في الموقد برفق، حتى المطر في الخارج بدا وكأنه قد خفف من غزارة انهمااره.

ما كاد توم ينهي حكايته، حتى تملكه الحرج من ذلك الإكبار الذي طالعه في عيني الصبي. ففتح ونظر إلى الساعة، ثم قام وأعدّ للصبي شراب الكاكاو الساخن، وصعد إلى السقيفة ليجلب نافذتها بغطاء التعتيم، تاركاً سام مع الفتى. فجلس الأخير على الأريكة، واستغرق في التفرّج على صور البيوت المسقفة بالقصب، متتبعاً إياها بإصبعه، ونافخاً على شراب الكاكاو بين فينة وأخرى. وعندما منح سام شيئاً من القشدة المتراكمة على سطح الكوب، شعر بأنه فتى ذو شأن. وبعد برهة، عاد توم ليظهر عند الباب، فخف إليه سام مترغاً بقدميه، وجاذباً ساق بنطاله.

"ها.. لقد قلت لنفسى إن هدوءك هو أفضل من أن يدوم أليس كذلك يا سامو؟" غمغم توم قبل أن يلتفت إلى ويلي. "والآن،" قال للفتى، "ناولني كوبك يا ويليام، واحمل الكتب واتبعني."

جاهد ويلي أثناء ارتقائه السلم الخشبي لأن الجوارب الكبيرة كانت لا تنفك تعيقه. وبعد كثير من العراك مع كوب الكاكو والكتب والكلب، تكلفت عملية الصعود إلى السقيفة بالنجاح.

كانت السقيفة غرفة صغيرة تشبه الخيمة بسقيفها المائلين من على الجانبين، حيث يلتقيان في الوسط عند ركيزة أفقية مستقيمة. وكانت أرضيتها الخشبية مفروشة بحصيرتين، ونافذتها المائلة محتجة وراء غطاء التعقيم، وسريرها الصغير يتمركز تحت إفريز الجدار المائل، مستقبلاً النافذة. ومن سقفاها الأبيض المكلس تدلى مصباح صغير مضيئاً المكان، كان توم قد ثبته عندما قام بإعداد الغرفة وكنسها.

نظر توم إلى طاولة صغيرة واطئة تحاذي السرير، وقال:

"هذه من أجل وضع كتبك عليها، أو غير ذلك."

ثم أردف وهو يشير إلى طست خزفي على الأرض عند نهاية السرير:

"وهذا من أجل قضاء الحاجة في الليل أعني.. حتى لا تضطر إلى مغادرة الغرفة إذا أردت استعمال المرحاض."

شعر ويلي بالدفء اللذيذ الذي تصاعد إلى السقيفة من غرفة المعيشة، عبر ألواح الأرض الخشبية. وأحس بالجوّ الحميم الذي فاضت به الغرفة رغم بساطتها. فزحف إلى تحت السرير بحبور، وتكوّم متوقفاً على نفسه.

"ماذا تفعل يا فتى؟" غمغم توم بنبرة مستكبرة. "عليك أن تنام في السرير وليس تحته يا بني."

"مساءذاً؟ في السرير؟" هتف ويلي مستغرباً. ثم غادر موقعه إلى السرير الذي نحى توم أغطيته. وعندما استقرّ فيه، أخذ يتحسّس ملمس الملاءات بكلتا يديه.

في ذلك الحين، كانت الإثارة التي اعتملت في نفس سام قد بلغت أوجها. وكان ذيله لا يكف عن البصبة بحماس شديد، رغم وقوفه قرب سيده متصبّراً.

"حسناً، حسناً، كفك هياجاً. هيا افعل ما تريد أيها الكلب الشقي،" قال له توم أخيراً.

فأسرع سام، ووثب إلى السرير، واستقر بين ذراعي ويلي، لاعتقاً وجهه. فلف الصبي ذراعيه حوله، وضمّه إليه بهدوء، ثم شهق،

وانفجر في نوبة من البكاء المرير، حتى بللت الدموع وجنتيه. فدفن وجهه في فراء الكلب وهمس:
"عفواً يا سيد."

جلس توم على حافة السرير ريثما يهدأ الصبي قليلاً. ثم ناوله منديلاً أبيض اللون.

"هاك يا فتى، امسح دموعك ونظف أنفك."

رنا إليه ويلي بخجل، وتمتم قبل أن يستسلم إلى نوبة أخرى من البكاء:
"لست أبكي يا سيد جحوداً.. صدقني.. ولكنني أبكي سعادة."
لحق سام دموع الفتى المنهمرة على وجنتيه، وطأطأ توم رأسه، ثم قال للفتى بعد برهة:

"يمكنك يا بني إبقاء المصباح لعشر دقائق. وأنت يا سام..". التفت إلى الكلب، وربّت على ظهره، "انتبه إلى تصرفاتك.. مفهوم؟"
غادر توم السقيفة، ونزل إلى غرفة المعيشة، حيث قلب ملابس ويلي المبللة، ثم التقط غليونه من على الطاولة، ونفض منه التبغ القديم ملقياً به في الموقد، وغمغم وهو ينوء بثقله على الأريكة:
"لا يجب أن تتعلق بهذا الصبي كثيراً يا توماس."

لكنه ما لبث أن استرخى في مجلسه، وراح يتأمل الدخان المتصاعد من الغليون نحو مصباح الغاز، ثم رمق ملابس ويلي الرمادية الرثة، وفكر..
نعم، إن شراء زوج من الجوارب، وطاقيّة سميكة، عمل لن يعود بالضرر على أحد.

وهكذا، غاب محلّقاً في حلم يقظة سلس، وعامر بالقمصان الصوفية والأحذية المتينة. لكن هذا الحلم انقطع فجأة عندما تنأهى إلى سمعه صوت خريشة من السقيفة. فغادر مجلسه إلى السلم، وتسلفه وقد أطبق فمه على غليونه. وبينما هو صاعد، همهم ببعض الكلمات من بين أسنانه، ليتنبّه الفتى إلى وجوده، ثم ولج السقيفة وأطفأ المصباح.
وهكذا، عمّ الظلام الغرفة، إلى أن تقدّم توم صوب النافذة لينزع عنها الحجاب الأسود وهو يقول:

"سأنزع غطاء التعتيم الآن. أتشعر بالدفع يا فتى؟"
رفع ويلي رأسه لبرهة، وتمتم:

"نعم يا سيد."

ثم غاص بين ثنأيا وسادته البيضاء الطرية.

وقف توم يحدق في الفضاء من خلال النافذة.. مضغ طرف غليونه..
خبط بقدمه الأرض الخشبية خبطة خفيفة. ثم دنا من السرير وداعب
رأس ويلي بحنان، قبل أن يغادر الغرفة حاملاً سام بين ذراعيه. ولما
بلغ منتصف السلم تذكر شيئاً، فتوقف وقال للصبي:
"لا تنس تلاوة صلاتك يا فتى."

"حاضر يا سيد."

وبعد برهة صمت، وقف خلالها توم يغالب تردده، قال:
"و..و.. يُستحسن أن تدعوني توم. تصبح على خير يا بني،
وليحفظك الله."

وبهذا، نزل مغلقاً باب السقيفة بيده.

"تصبح على خير يا سيد توم،" همس ويلي، وأصاخ السمع منصتاً إلى
صوت الباب في الأسفل وهو يُغلق خلف توم، ثم غادر السرير ليلقي
نظرة من النافذة.. عندئذ.. سبحت غمامة سوداء حول القمر..
وأرعدت السماء.. وأرسل البرق وميضاً أضاء الفضاء.
"إن أغطية التعتيم ليست بذات فائدة كبيرة."

نعم، هذا ما سمعه ويلي من توم في وقت مبكر من تلك الأمسية. مع
ذلك، شعر الصبي أن الوقوف في العتمة تحت ضوء القمر كان شيئاً
محبباً ولطيفاً.

تصاعد نباح كلب ما من مكان بعيد، وزاد ويلي من حملقة عينيه،
مستشفاً أطياف صفى البيوت الريفية، وما وراءها من حقول، تلك التي
كان بالكاد يستطيع استبتيان شيء من معالمها.

أما توم الذي اقتعد أريكته الأثيرة تحت السقيفة، بينما انبطح سام عند
قدميه، فجلس يتفرس في حضنه، حيث استقرت علبة ألوان خشبية
سوداء. ثم بادر إلى رفع غطائها، وتأمل محتوياتها لبرهة، قبل أن
ينفخ، بكل تأن، الغبار المتراكم على سدادات القوارير التي فيها،
والتي كانت عامرة بأصباغ التلوين الزاهية.

صباح السبت

كان الظلام لا يزال مخيمًا عندما فتح ويلي عينيه. ولم يتمكن من تمييز السحارتين المكوّمتين عند زاوية الغرفة، وإطار الصورة المرتكز عليهما، إلا بعد أن طرف بصره عدة مرات. رفع ذراعيه فلامست يده السقف المائل فوق رأسه. كان ألم معدته الحارق الذي أيقظه، يلسعه بسياط من نار. فجأة.. حبس أنفاسه، ودس يده تحت الغطاء متحسبًا ملابسه. نعم، لقد كانت مبلة. عندئذ.. عندئذ فقط أدرك أنه كان مستلقيًا في السرير بين الملاءات. رياه.. هذا ما يفعلونه بالناس بعد موتهم.. يضعونهم في الأسرة! انتصب جالسًا بسرعة، فصدم رأسه بإفريز الجدار. زحف مغادرًا السرير وهو يتلوّى من الألم القابض على أحشائه. استرق النظر من النافذة، وأطلق صرخة فزع.. إنه.. إنه في المقبرة.. وسوف يُدفن حياً! تزايد وجع أمعائه تقاقمًا.. فأن بصوت عالٍ، وتقيًا فوق أرضية الغرفة كل ما كان في جوفه من طعام.

في الصباح، عثر عليه توم متكومًا تحت السرير، واكتشف أن ملاءات السرير، وأغطيته كانت تتضح بالبول، فنزعها، ثم نزل وهو يحمل ويلي إلى غرفة المعيشة.

كان اليوم قائظًا جدًّا، وعالي الرطوبة، لدرجة أن البيت بدا خاليًا من أي نسمة هواء، رغم نوافذه المشرّعة. وكان باستطاعة ويلي الذي وقف أمام الموقد، أن يرى من النافذة الجانبية، سرواله الداخلي، وثيابه الرمادية المعلقة على حبل الغسيل. وبينما هو كذلك، دنا منه توم، ونزع عنه قميص النوم الفضفاض، ملقيًا به في حوض نحاسي مع الملاءات. ثم راح يمسح له جسمه المرتعش برفق، مستخدمًا الماء البارد والصابون.

كانت الكدمات والقروح المنتشرة على ضلوع الصبي النائثة، وبطنه المنتفخة مصطبغة بلون بنفسجي داكن. وكان في تلك الأثناء، يجاهد جهاداً عسيراً ليقف بثبات على قدميه المتخاذلتين، مردداً مرة تلو مرة:

"أنا آسف يا سيدي.. أنا آسف.. أنا آسف يا سيد توم.. أنا آسف." لكن توم لم يقل شيئاً، واكتفى بالهمهمة على طريقته الخاصة. وعندما فرغ من تجفيف جسم الصبي، أحضر له ملابس من على حبل الغسيل.

"إن الجو حار جداً اليوم يا فتى،" غمغم وهو يناوله الثياب. "ولا أرى داعياً لارتداء الجوارب."

"ولكنني لا أستطيع الظهور بدون جواربي، أرجوك يا سيد توم.. أرجوك،" توسل ويلى بذعر.

"هه.. لمه يا فتى؟"

"بسبب الكدمات،" همس ويلى الذي لم يكن يريد أن يرى الناس سمات خطاياهم.

فزفر توم زفرة يأس، وألقى بالجوارب على الطاولة. ثم جلسا لتناول الإفطار قرب النافذة المفتوحة. كانت حبات العرق لا تكف عن التدحرج على جانبي وجه توم الذي قد مشمراً كمّي قميصه. أما ويلى فظل طيلة الوقت يرتعش برداً، ولم يستطع تناول شيء، سوى فنجان صغير من الشاي، وكسرة خبز.

يا لهذا الشحوب البائس!! حدث توم نفسه وهو يتأمل وجه ويلى. ثم رفع الأطباق من على الطاولة، وترك الفتى مع البطاقة الصغيرة المعنونة التي أعطيت له، ليكتب رسالة إلى أمه. فقبع الصغير في مكانه مكتئباً، مكدّر النفس. وراحت عيناه تلاحقان توم وهو يسحب الحشية الصغيرة الندية من خلال النافذة. ثم تنهأ إلى صوت دعكها. فطأ رأسه بحزن.

كان خجلاً من نفسه إلى حد كبير. وبدأ له أن كل من سيمرّ بالكنيسة في تلك اللحظة، سيعرف أي صبي فاسد هو. لكنه كان متأكداً من أنه لم يقصد التبول في الفراش.. بل حتى لا يتذكر قيامه بمثل هذا الفعل. تفرّس في البطاقة الصغيرة أمامه، ترك يده تقبض على القلم بأصابع واهنة مرتجفة، وكور يده الثانية، وضغط بها الطاولة بكل ما أوتي من عزم، عساها تحول بينه وبين الانفجار بالبكاء. فجأة، أطل توم عليه من النافذة وسأله:

"كيف تجري الأمور معك يا فتى؟"
أجفل ويلي واصطبغ وجهه بالحمرة.
"لا تستطيع التفكير بما يمكنك قوله.. أهذه هي المشكلة يا ولد؟" قال
توم وهو يأخذ القلم من يد ويلي، ويُميل البطاقة نحوه. "يبدو أنه لا
يوجد فيها مساحة كبيرة للكتابة.. ها؟"
جذب ويلي خصلة من شعره محاولاً إخفاء ارتباكهِ.
"ماذا يا فتى أ فقدت صوتك؟"
"لا يا سيد توم،" أجاب ويلي بصوت هامس.
"إذن ما الذي تريد قوله لأُمكن؟"
رفع الصبي كتفيه، وغمضَ بصره محملاً في الطاولة الخشبية بذهول.
"أ أنت سعيد هنا؟"
عندئذ، نظر ويلي إليه بسرعة، وهتف:
"إيه.. نعم."
"إذن نكتب: وصلتُ سالماً، أنا سعيد و.."
"يا سيد توم.. يا سيد توم،" هتف ويلي مقاطعاً إياه. "هل ستخبرها
بأنني كنت سيئ السلوك؟"
"لا،" أجاب توم وتابع الكتابة. "هاك، استمع إلى هذا: السيدة بيتش
المحترمة، وصل ويليام.."
"إنها لا تدعوني ويليام بل ويلي."
غير توم الكلمة وتابع القراءة، "وصل ويلي سالماً، وهو حسن السلوك
وسعيد. ودمت.. السيد توماس أوكلي. خذ الآن،" ناول البطاقة والقلم
لويلي "اكتب اسمك هنا."
شحب وجه ويلي.
"أنا لا أحسن الكتابة يا سيد توم."
"لمه؟ أليس لديكم مدارس في لندن؟"
"ب.. بلى، ولكن.. تلعثم ويلي، ثم أطبق فمه، والتزم الصمت.
"ماذا عن القراءة؟ ألا تستطيع القراءة؟"
"كلا."
"ولكنك كنت تنتظر إلى الكتب ليلة أمس."

"كنت أنظر إلى الصور، والرسوم".
حكّ توم رأسه متعجباً. إذ كان يعرف أن باستطاعة أطفال القرية قراءة بعض الكلمات على الأقل، عندما يصبحون في السادسة من العمر. وهذا الصبي يبلغ الثامنة كما قال.
ألقي نظرة خاطفة على بطاقة التعريف التي كانت على الطاولة ليتأكد.
وقرأ:

ويليام بيتش، مواليد أيلول، ٧، ١٩٣٠.

سيصبح في التاسعة من العمر يوم الثلاثاء القادم.. حدثت توم نفسه، ثم قال لويلي:

"سيحل عيد ميلادك بعد ثلاثة أيام يا فتى."

لكن ويلي الذي لم يفهم ما هو الشيء المميز في هذا بقي صامتاً.
فكرّر توم:

"ستبلغ التاسعة يوم الثلاثاء القادم."

مرة أخرى لم يستطع ويلي التفكير بأي جواب مناسب.

"على كل حال"، تابع توم، "بالنسبة إلى المدرسة، ألم يحاول المعلم مساعدتك؟"

"بلى.. لكن.. " غمغم ويلي. "لكنه لا يحبني. و.. الباقون يسمونني ويلي الأبله المخنث."

"من تعني بالباقيين؟"

"الذين في المدرسة."

"وماذا عن رفاقك؟"

همس ويلي بكلام ما.

"لا أستطيع سماعك يا ولد."

تتحننح ويلي وقال بصعوبة:

"ليس لدي رفاق."

نخر توم ووقع البطاقة. ولاحظ بطرف عينه أن ويلي كان يحدق بالصندوق الأسود المطروح على الكرسي الصغير.

"يا للحرارة الخانقة!!" غمغم وهو يجفف جبهته بمنديل. "حسناً يا ويليام.. تابع ملتفتاً إلى الفتى، "قم، وأحضر ذاك الصندوق إلى هنا."

امتثل ويلي للأمر، ووضع الصندوق على الطاولة بعناية.
"هيا ارفع الغطاء."

حملق فيه ويلي فاغر الفم.

"هيا يا صاحب الأذنين الطينيتين، افتحه."

رفع ويلي غطاء الصندوق وحقق في قوارير أصباغ التلوين الزاهية.
"أهي ألوان للرسم يا سيد توم؟" سألته مستوضحاً.

غمغم توم بالإيجاب.

"إنها قديمة بعض الشيء، ولكنها ما زالت صالحة للاستعمال. هل تعلمت الرسم يا فتى؟"

تَعَكَّر وجه ويلي.. "الله.. كم يتوق إلى الرسم!"

"كلا.. فأنا لا أحسن القراءة."

"أتعني أن الذين يقرؤون ويكتبون هم فقط من يُسمح لهم بالرسم؟"

"نعم،" أجاب ويلي وهو يلمس إحدى القوارير برفق. ثم أبعد يده

بسرعة، "لكني رسمت بعض الرسوم وحدي مستعيناً بالطباشير والقلم."

"حسناً، يجدر بنا الآن أن نرسل بطاقتك بالبريد،" قال توم وهو يعتدل

في وقفته. "إذ لا يجب أن نسبب القلق لأُمك. هيا اقفز من النافذة،"

أردف وهو يمدّ يده ليساعد ويلي على عبور النافذة. "ولكن أين ذاك

العفريت المشاكس؟" قال قبل أن يصيح منادياً الكلب.

"سام.. سامو.. تعال.. تعال يا صغيري."

وعلى الفور، بادر ويلي إلى تظليل جبينه بيده، وراحت عيناه تبحثان

عن الكلب. ثم لمح كومة من الفراء الأبيض والأسود منبطحة تحت

شجرة البلوط، فقال مشيراً بيده:

"يا سيد توم، انظر.. هناك."

عندئذ، رفع سام رأسه بتناقل، ونهض مغادراً ملجأ الظليل علي

مضض، ثم قصدهما بخطى وثيدة متكاسلة. فباشروا الانطلاق فوراً،

والقفوا حول الحديقة الخلفية، من وراء كوخ المرحاض الخشبي الذي

استقرت فوقه حشية سرير ويلي الندية.

"لا تقلق يا فتى،" قال توم مطمئناً ويلي، "ستكون الحشية قد جفت مع

حلول المساء."

واصل الثلاثة سيرهم حتى بلغوا نهاية الحديقة، حيث توجد بوابة خشبية صغيرة، أضفت عليها الأجمات المحيطة بجانبها مظهراً أنيقاً. ثم استداروا شمالاً، ومضوا بضع خطوات، قبل أن يبلغوا بوابة أخرى تؤدي إلى حقل صغير، مجاور لفناء المقبرة. وعندما فتحها توم، تقهقر ويلي مذعوراً، إذ أبصر في الحقل فرساً كبيرة، كانت تغالب نعاس القیظ، وتمضغ شيئاً بين الحشائش.

"هيا، هيا، أقبل يا فتى"، قال توم بصبر نافذ مستحثاً ويلي على الإقدام. حينئذ، تجاوزهما سام بسرعة، واندفع وثباً نحو مربض الفرس، ووقف ينبج عليها. فرفعت الفرس رأسها، وشخصت بعينيهما لبرهة، ثم هزمت رأسها، وتابعت الأكل.

"لا تخف يا بني، لا تخف، إنها لن تؤذيك"، قال توم محاولاً تهدئة روع الفتى. "هيا.. تعال، وامش إلي جانبي"، أردف دافعاً إياه برفق إلى الحقل، ليغلق البوابة خلفه. فتعلق به ويلي، وتشبث بساق بنطاله اليسرى، ومشى ملتصقاً به، ومختلساً نظرات مذعورة إلى الفرس أثناء مرورهما بها.

"إنها لن تؤذيك يا فتى"، كرّر توم من جديد. ثم قرّر الكفّ عن الإلحاح عليه، عندما شعر بجسمه الهزيل، الملتصق به، يرتعد من الفزع. ولم يتنفّس ويلي الصعداء إلا بعد بلوغهما البوابة الثانية عند نهاية الحقل. إذ هرع إلى تجاوزها ما إن فتحها توم، وتوقّف خارجها مشرفاً على الدرب الضيق الآمن، في حين تریث توم منتظراً سام.

"سام"، صاح توم منادياً الكلب الذي قبع عند إحدى قوائم الفرس، لينعم بما أشاعه رأسها الكبير من ظل. "سامو، تعال إلى هنا يا صغيري".

لبى سام النداء أخيراً، فنهض، ومشى قدماً بخطى ثقيلة.

"والآن"، قال توم وهو يلتفت إلي ويلي، "دعنا نراك تغلق البوابة يا ويليام. وتذكّر أنه يجب عليك دائماً إغلاق أي بوابة خلفك".

أسرع ويلي إلى إغلاق البوابة بحماس.

"أحكيم الرتاج الآن يا فتى.. نعم.. نعم.. أحسنت."

ما كاد ويلي يسمع إطراء توم له، حتى تسمرّ في مكانه كمن أصابه مس. فهو لم يسبق له قط أن سمع أحداً يوجّه له أي مديح!

كانت البوابة الأخيرة التي تجاوزها توم وويلي، تُشرف على درب يحفّ به صفّان من الأشجار التي تشابكت أغصانها المتدلية مؤلفة ما يشبه النفق تحتها. وكانت تلك الأشجار رغم عريتها الواضح، وتراكم معظم أوراقها على الأرض، ما تزال محتفظة ببعض الأوراق الكافية لإشاعة شيء من الطراوة في الجو. ولم تكن قدما ويلي قد وطننا من قبل كمّا هائلاً من أوراق الأشجار كذاك، لدرجة أنه أصيب بالدهشة، عندما رأى أن أكوامها المتكدسة تحته، قد حجبت حذاءه الرياضي عن الأعين، وأخفته كلياً.

مرّا بالقرب من بوابة كبيرة، تُشرف على حديقة مشدّبة، شاسعة الأرجاء. وشاهداً فيها رجلاً متوسط السن، كان جاثماً عند أحد الأحواض، يقتلع بوجه مغموم عناقيد الأضاليا الذهبية والخمرية اللون. أما سام الذي سبقهما فقد كان جالساً ينتظرهما بتكاسل عند بوابة خشبية قديمة.

يا لقارئ الأفكار الصغير!! حدثت توم نفسه وهو يتعارك مع البوابة التي لم تفتح إحدى دفتيها إلا بعد طول قسقضة وصرير. إذ كانت الأجسام البرية المتكدسة على جانبيها تكاد تحتم إبقاءها موصدة على الدوام. وبعد أن هرع ويل إلى إغلاقها خلفهما بحرص، تبع توم إلى حديقة مشعّنة مهملة، بلغ طول أعشابها حدود ركبتيه. ثم وقفا أمام الباب الرئيسي للبيت، وقرعه توم عدة مرات بدون أن يتلقّى رداً. لكن صوت المذياع الذي كان يلعلع في الداخل، جعله متأكداً من وجود أحد في البيت. فقرر بعد فشله في جذب انتباه القاطنين، أن يمضي إلى الحديقة الخلفية.

هناك، كان الطبيب أوزوالد ليتل، الرجل البدين، ذو الوجه الأحمر، يجلس مسترخياً على كرسي من القش، وهو منهمك انهماكاً كاملاً في مسح عباب القيقظ عن عدستي نظارته. أما زوجته نانسي، المرأة الطويلة، النحيلة، ذات الوجه المنمش، والشعر الرمادي اللون، فكانت عاكفة على حفر خندق كبير في الحديقة، وقد تدلّت من بين شفتيها لفافة تبغ. ومن خلال نافذة المطبخ، تعالّى صوت المذياع، وهو يصدح بعزف على الأورغ.

"يا دكتور ليتل!" كرّر توم النداء للمرة الثالثة، قبل أن يتنبّه الطبيب إلى وجوده، ويسارع إلى تثبيت نظارته على عينيه، ليتطلع إليه. وما كاد يفعل ذلك، حتى انزلقت النظارة من على أنفه الناضح بالعرق.

"يا للمفاجأة!!" قال الطبيب ليتل. "أهلاً بك يا توم. ما القضية؟ أترك تشكو من علة ما؟"
"كلا."

عندئذ، ألقى الطبيب نظرة عاجلة على ويلي الذي كان قد انكمش وتراجع إلى الوراء، حالما سمع أن الرجل السمين يلقب بالدكتور. لكن نانسي لاحظت على الفور ما أصاب الفتى من ذعر، فجلست عند حافة الخندق، ونحّت لفافة التبغ من فمها، ثم قالت له بصوت أجش:

"أنا السيدة ليتل يا صغيري. ما رأيك في تناول كوب من عصير البرتقال، ريثما يتحدث السيد أوكلي مع الطبيب.. ها.. هل اتفقنا؟"
أوما ويلي برأسه موافقاً، وتبعها إلى المطبخ من الباب الخلفي. أما توم فبادر إلى الجلوس على مقربة من الطبيب.

"ما المشكلة يا توم؟" سأله الطبيب فوراً. "إنه الصبي، أليس كذلك؟"
"نعم يا دكتور، لقد أفرغ ما في جوفه من طعام لمرتين. ورغم أنه ليلة أمس أقبل على الأكل بشهية، تقياً كل شيء في وقت لاحق."

"هذا نتيجة سوء التغذية"، قال الطبيب موضحاً. "ولاشك أنه معتاد على الطعام الرديء، بحيث أن الطعام المغذي لا بد وأن يكون أشبه بالاعتداء على معدته. دواؤه الحساء، والراحة، والتمارين الرياضية، والحليب كبداية، وربما بعض الفيتامينات المنشطة. جرّب زيت كبد الحوت. وبالطبع، لا داعي لإخباري أنه يبول في الفراش أيضاً."

بدت الدهشة على ملامح توم، فتابع الطبيب قائلاً:

"إنه أمر طبيعي في مثل هذه الأحوال، خصوصاً إذا كان الطفل ضئيل الحجم. اصبر عليه شهراً أو شهرين، وسوف يتحسن. كم يبلغ من العمر؟ خمسة.. ستة أعوام؟"

"ثمانية، وعلى وشك بلوغ سن التاسعة."
كان دور الطبيب هذه المرة لتبدو الدهشة على ملامحه.

"أترى يا دكتور.. هو.. هو أشبه بأرنب مذعور."

"أجل.. أجل،" قال الطبيب متفكراً. "ومن الواضح أنه أنشئ بطريقة تجعله ينظر إلى الطبيب وكأنه ساحر شرير."

"هناك شيء آخر يا دكتور. أترى.. يبدو أن الصبي قد تعرّض للجلد، والقروح والكدمات منتشرة في جميع أعضاء جسمه. أظنها ناتجة عن إيزيم حزام جلدي. وهو يخجل كثيراً من رؤية الناس لها. ولكن، قد يكون بإمكانك إلقاء نظرة عليها."

"عليك بهذا،" نق صوت من الخلف. "وبالماء الدافئ المملح." التفتت نوم، ورأى السيدة ليتل تقف وراءه وهي تحمل صينية عليها مشروب بارد، وقنينة تحتوي على زيت البندق. وبعد أن ناولته إياها قالت موضحة:

"لقد تبادلت وإياه معاينة ما نحمله من جراح حربية، إذ لاحظت قروح ساقيه قبل دخولنا المطبخ. وأعطيته شريطاً من المطاط ليثبت به جوربيه. ولو رأيت فرحه، لظننت أنني وهبته القمر!"

"إن الأطفال الوافدين على ويروولد الصغيرة سيُفسدهم الدلال كما أرى،" علّق الطبيب مستكراً. "أتصدق أنني استدعيت ليلة أمس إلى مزرعة التعاونية، لأعالج أظافر قدم مغروزة باللحم. إن ذلك المكان يؤوي عائلتين كبيرتين، ويبلغ مجموع الأطفال فيه تسعة عشر طفلاً. وقد اضطرت نانسي والخادمة إلى تقليّة نصفهم من القمل. إنهم أشبه بأكياس من العظم. أليس كذلك يا عزيزتي؟"

أومأت نانسي برأسها موافقة.

"على كل حال، أشكرك على النصيحة يا دكتور،" قال نوم وهو ينهض من مجلسه. "ولن أعيقك عن عملك لمدة أطول."

"ماذا؟" هتفت السيدة ليتل، ثم أطلقت ضحكة عالية، سرعان ما تحولت إلى نوبة من السعال. أتبعته المرأة بعبءٍ نفس جديد من لفافتها، قبل أن تردف، "إن العمل كله من نصيبي أنا وحدي!"

فاحتجّ الطبيب قائلاً بصوت مرح:

"حسناً، يُفترض بي أن أكون الآن شبه متقاعد. كما أن حرارة الطقس لا تشجّع أبداً على العمل في حفر الخندق."

اكتفت نانسي بهزّ كتفيها. لكن توم سألها مستفهماً:

"أهو ملجأ ضدّ الغارات الجوية؟"

"نعم، وعندما تبدأ القنابل بالسقوط علينا، سيكون أول من يهرع إلى ذلك الخندق."

"إذا حدث وتعرّضنا للقصف، ثقي أنني سأبقى قابعاً في سريري،" ردّ الطبيب وهو يجفف العرق المتدحرج على خصلتي الشعر الوحيدتين المتبقيتين فوق أذنيه. "ألا توافقني يا توم أنه يحق لي بكل بساطة أن أموت ميتة مريحة؟"

لم يكن توم حتى تلك اللحظة قد أقام أي وزن لفكرة الملجأ. فهم، قبل كل شيء، يعيشون في الريف. ولكن.. ماذا عن المسؤولية الجديدة التي قامت على عاتقه بعد قدوم ويلي!

نعم.. يجب أن أفكر بالصبي، حدث توم نفسه وهو يتناول زجاجة زيت البندق.

"وبكم أدين لكما؟" قال للطبيب وزوجه.

"إنه على حسابنا يا توم،" أجابت نانسي بوجه باسم.

وهكذا، نادى توم كل من ويلي وسام، ثم غادروا المكان بعد معركة أخرى مع البوابة، وسلكوا الاتجاه المؤدي إلى نهاية الدرب الفرعي، وبداية الطريق حيث أشعة الشمس الحارقة. ورغم أن العرق أخذ يتصبّب من ويلي بغزارة، اكتشف توم، عندما لمس خدّ الفتى، أنه كان بارداً.

مرّ الموكب الثلاثي في طريقه بدار مُشيّدة بالطوب الأحمر، يعلوها سطح من القرميد، ويحدّها من الأمام ملعب، ومن الخلف حقل كبير، فأشار توم إلى تلك الدار وقال:

"هذه هي مدرستك يا ويليام."

جالت عينا ويلي في المكان، وحطّتا على أصص الأزهار فوق أفاريز النوافذ. وبدا له أن تلك المدرسة لم تكن تشبه في شيء ذلك المبنى الرمادي الكئيب، الذي كان يقصده في لندن.

أخيراً، لاحظ ويلي أنهم وصلوا إلى منتصف الطريق المحاط بصفيّ البيوت المسقّفة بالقصب. ورأى السيدة فليتشر تقف وإحدى جاراتها

خارج بيت تكاثفت أمامه أزهار دوار الشمس الفارعة. كان ذلك البيت، في الحقيقة، واحداً من البيوت القليلة التي تملك مدياعاً، وهذا ما جعل الناس يحتشدون فيه، وحوله، ليستمعوا إلى آخر الأخبار.

"حسناً يا ويليام،" قال توم وهو يرنو إلى ويلي، "اذهب، وأبرد بطاقتك الآن. يقع مركز البريد إلى جانب الحانوت، وسألقاك هناك بعد قليل،" ثم ترك ويلي ومضى نحو حشد المستمعين، يلحقه سام متتبِعاً أثره.

تابع ويلي طريقه إلى مركز البريد، ومضى يجتاز بخطى وثيدة المنازل الريفية التي كانت جميعها مشرعة النوافذ. ثم سمع صوتين خلفه يهتفان معاً:

"صباح الخير يا ويليام."

فتطلع بدهشة إلى الناحية التي صدر منها الصوتان، ورأى زوجين مُسنين يتكئان على بوابة حديقة بيتهما، في الجهة المقابلة للمكان الذي وقف فيه. وللحال بادره الرجل بقوله:

"لقد عرفنا اسمك من السيدة فليتشر."

كان العجوز يرتدي قميصاً أبيض اللون، مشمر الأكمام، لا ياقة له. وبنطالاً رمادياً فضفاضاً مُدعماً بشريط ينبتّه عند الخصر. أما زوجه فكانت تلبس ثوباً قطنياً مطبّعاً برسوم الأزهار، ومنزراً ليلكي اللون فوقه. كانت بشرة الزوجين السمراء المتغضنة تشبه كرة قدم قديمة. وكانا يعتمران خوذتين مضادتين للقصف الجوي، ويتأبط كل منهما علبة قناعه الواقية من الغاز.

"إذا كنت تبحث عن مكتب البريد يا صغيري،" قالت المرأة، "فأنت تقف أمامه مباشرة."

"ادخل يا بني، لا تخف، كل شيء على ما يرام،" أضاف زوجها. "إننا نتمنى لك إقامة سعيدة هنا يا صغيري،" أردفت العجوز. "أليس كذلك يا والتر؟"

"نعم، هذا صحيح،" وافقها الرجل.

"نحن آل بيردز يا صغيري،" تابعت المرأة.

"ادخل يا بني، ادخل، لا تخف،" عاد الزوج يردد.

وما إن وقف ويلي وقرع الباب، حتى هتف الزوجان معاً:

"ادخل يا صغير، ادخل ولا تخف."

فتح ويلي الباب ودخل. وجد نفسه في غرفة تقع عند نهايتها منضدة صغيرة، تعزلها نافذة من الشبك. رأى على يمينه أدوات مكتبية، وأقلاماً، وألعاباً ورقية، وصوفاً، وإبراً، ومقصات، وأشياء أخرى مشابهة. ورأى على شماله الحلوى، وزجاجات المشروبات المنعشة. كان هناك صبي صغير يقف أمام نافذة الشبك، مستنداً على حافة المنضدة الخشبية، ومنهمكاً في الكتابة بتأن. أما خلف النافذة الشبكية، وراء المنضدة، فشهد ويلي شاباً عشرينياً، ذا شعر قصير ونظارة. "لن نستطيع والداك قراءة هذا الخط أبداً." سمع ويلي الشاب يقول للصبي الغريب.

"بلى، سيفعلان"، أجاب الصبي الغريب.

حينئذ، خطا ويلي إلى الأمام ليستطلع الحكاية، واكتشف أن ذلك الصبي كان يصوّب عدسة مكبرة على بطاقة بريدية، راح يكتب عليها بأصغر خط ممكن على الإطلاق. ثم رآه يلوّح بالمكبر في وجه موظف البريد، ويقول:

"تملك أمي عدسة مكبرة مماثلة لهذه."

كان مظهر ذلك الصبي هو ما جذب اهتمام ويلي أكثر من أي شيء آخر. ورغم أنه بدا أطول منه قليلاً، استطاع ويلي التكهّن بأنه في التاسعة من العمر تقريباً. كان فتى نحيلاً، مشدود الجسم، ملوحاً بالشمس، ذا شعر أسود جعد في حاجة ماسة إلى القص. ولم يكن يرتدي سوى سروال قصير واسع، من القماش القطني السميك، تثبته الحمالات، وتحيط بمؤخرته مرقعات مختلفة الألوان، مخططة بأناقة. وبمعزل عن الصندل الجلدي الذي انتعلته قدماه، كان عاري الساقين والظهر تماماً. وبينما وقف ويلي متسماً في مكانه، من غير أن يستطيع زحزحة عينيه عن ذلك الصبي، فوجئ بموظف البريد يقول له:

"بِم أستطيع مساعدتك يا بني؟"

فاصطبغ وجهه بالحمرة على الفور، وسارع إلى تمرير البطاقة له. فألقي الشاب عليها نظرة عاجلة ثم قال:

"ممم.. إذن أنت تقيم مع السيد أوكلي..ها؟ في هذه الحالة عليك الانتباه كثيراً إلى لغتك."

يا الله!! قال ويلي لنفسه.. هل عرف جميع الناس أنه لا يحسن القراءة؟ رنا إلى الصبي الغريب من جديد. لاحظ أن وجهه كان قريباً جداً من البطاقة، وأن أنفه يكاد يلامسها. راقبه وهو يتلمّظ بشفتيه، ويرسم بأوداج منتفخة خطأً في أسفل البطاقة. ثم رآه يُحْكِم إغلاق قلمه، مُعلقاً إياه على إبريم حمالة سرواله، وملتفتاً أخيراً إلى موظف البريد.

"أ لديك نشافة حبر يا سيدي؟" هتف الصبي بصوت واضح. مرّر له الشاب النشافة، ثم قال له بنبرة فظة: "أي شيء آخر؟"

افتر فم الصبي عن كِشرة صغيرة.

"لا، لا أعتقد. أشكرك"، أجاب وهو ينشف البطاقة، ويمرّرها مع النشافة من تحت الشباك. "تُرى، أيمكنك أن تعرف متى ستصل يا سيدي؟"

"يوم الثلاثاء، ربما."

"أوه، هذا دهر."

"كان عليك إرسالها قبل الآن."

التفت الصبي جانباً، ونظر إلى ويلي. كانت أسنانه البيضاء، وعيناه البنيتان الواسعتان تبدو جميعها بارزة الواضح أمام بشرته الملوَّحة بالشَّمْس. تفحص سروال ويلي المتغصن، وكنزته الرمادية، وابتسم. فاستدار ويلي على عقبيه، وأسرع إلى المغادرة، وقد تلوّنت أذناه بحمرة قانية. وفي الخارج، وجد توم واقفاً بانتظاره عند عتبة الحانوت.

"ها أنت أخيراً، هيا ألن تدخل؟" غمغم توم حالما رآه. فأوماً ويلي برأسه وتقدّم نحو الحانوت مجتازاً ثلاث نساء كنّ واقفات يثرثرن خارجه، ثم أطل برأسه أولاً، مستكشفاً المتجر.

كان القسم الأيمن من الحانوت مكتظاً بأكوام من الأكياس، والعلب، والرزم الملونة. أما قسمه الأيسر فكان مشغولاً بمنضدة خشبية طويلة، وُضع عند إحدى نهايتيها ميزان، وسلّ قش كبير فيه أرغفة خبز. وعند

نهايتها الأخرى، كُدست صناديق الخضار والفاكهة. وفي أعلى اليمين، فوق الصناديق والعلب والأكياس، كانت هناك رفوف عليها أكواب وأطباق وأوانٍ وأوعية ومسامير، ومجموعة من علب الصفيح الملونة. تفحصت عينا ويلي المكان بسرعة، ثم التفت، وتلصص بحذر شديد إلى الخارج، ليرى ما إذا كان بإمكانه أن يلقي نظرة أخرى على الصبي الغريب الذي شاهده في مكتب البريد.

"شكراً يا سيدة ميلر،" قال توم مخاطباً امرأة متوسطة السن، كانت تنف خلف المنضدة. "وسأحضر لك ذلك التبغ الليلة يا سيد ميلر،" أردف ملتفتاً صوب زوجها. "والآن، هل أنت متأكد من أنك قد زودتني بكل شيء؛ شاي، سكر، بطاريات صغيرة، شريط مطاط."

"طبعاً، طبعاً، أنا متأكد كتأكدي من أن البيض بيض،" أجاب الرجل وهو يبتسم. فجأة، وقعت عيناه على ويلي الذي كان واقفاً قرب أحد أكياس الطحين، فصاح بصوت غاضب:

"أنت هناك، ماذا تريد؟ ها.. ماذا تريد؟"

"لا داعي لأن تكون فظاً إلى هذه الدرجة،" عاتبته زوجته على الفور. "ماذا؟ لاطفي هؤلاء النازحين اللندنيين ولسوف ينهبونك نهباً. لقد سُرقت مني علب تبغ، وألواح شكولاتة، وفاكهة، وأغراض لا تحصى، عندما جاءتنا مجموعة الأطفال الأخيرة."

تضرّج وجه ويلي بالحمرة وابتعد عن الكيس. لكن توم سارع إلى التصدي لهما قائلاً:

"الصبي معي."

"آ..أوه.. أنا آسف يا سيد أوكلي. أصبح الوضع مختلفاً الآن،" هتف السيد ميلر بنبرة مجفلة.

فالتفت توم إلى ويلي وقال:

"أقبل يا ويليام، وسلم على السيد، والسيدة ميلر."

"يسعدني لقاءك يا عزيزي،" بعبعت السيدة ميلر التي كان جسمها متقللاً بأطنان من الشحم المكّس، بحيث أن بطنها منعها تقريباً من الوصول إلى حافة المنضدة. انحنت قدر المستطاع، وأمسكت يد ويلي براحتها الطرية السمينة، وهزتها مصافحة. وكذلك فعل السيد ميلر

الذي كان رجلاً قصيراً، بديناً، ذا شعر أبيض خفيف. وعندما رأت السيدة ميلر أن توم وويلي كانا يتأهبان لمغادرة المكان، هرعت إليهما وهي تلمع تفاحة كبيرة بطرف منزرها.

"خذ يا صغيري،" قالت لويلي. "هذه لك."

حملق ويلي في التفاحة مشدوهاً.

"هيا، خذها يا فتى، وقل شكراً للسيدة ميلر،" استحثته توم.

فبادر ويلي إلى تناول التفاحة، وقال بصوت هامس:

"شكراً لك."

مضى توم وويلي في طريقهما، يتعبهما سام شبه زاحف، بعد أن أثقلت وطأة الحرّ خطواته. وكانا على وشك اجتياز منزل السيدة فليتشر، لما سمعا صوتاً من الخلف يصيح منادياً:

"يا سيد أوكلي! يا سيد أوكلي!"

فالتفتا حالاً، وشاهدا رجلاً قصيراً، ذا ملامح محنكة، وشاربين متدليين، يجري نحوهما. كان الرجل يرتدي بزة الإسعاف المدني.

"هذا تشارلي ردلز،" غمغم توم. "وهو يظن بأنه سوف يكون السباق إلى كسب هذه الحرب."

"أين قناعك الواقى يا رجل؟" زعق تشارلي بصوت متقطع الأنفاس فور دنوه منهما. "اعلم أنك إذا لم تحمل واحداً، فسوف تورط نفسك في مأزق كبير. ألم تسمع أن الحرب ستعلن في أي لحظة الآن؟" ثم لوح بيده مشيراً إلى ويلي، ومتابعاً صياحه، "يجب أن يحصل الصبي أيضاً على قناع واق."

"حسناً.. حسناً.." قال توم وهو يستدير ليمضي قدماً. لكن تشارلي واصل ملاحقته بنعيقه.

"ستستيقظ ذات صباح لتجد نفسك مختنقاً بالغاز حتى الموت." "قلت لك حسناً،" صاح توم من فوق كتفه. "سأبتاع هذه الأقنعة سريعاً." وهكذا، تابع توم وويلي سيرهما، ومرّ مرة أخرى بالقرب من المنزل الذي اشترابت أمامه أزهار دوار الشمس. ولاحظ الفتى أن الناس كانوا ما يزالون متجمهرين خارجه، وهم يتحادثون بجدية..

تري، لماذا تظهر عليهم سمات قلق عظيم؟

قال لنفسه وهو يتلکأ في مشيته ويرمقهم باستغراب. لكنه ما لبث أن
سمع توم يقول له بصبر نافذ:
"هيا يا ويليام، كفاك مماطلة، علينا أن نقصد البلدة حالاً."

التسوق

جلس توم وويلي في مقدمة العربية التي راحت الفرس دويس تجرها على مهل، وسط حقول الذرة، والبيوت الريفية، وأسراب النحل والفرشات الزاهية الألوان. كانا قد خلفا سايام في البيت لينعم ببرودة الردهة المبلطة. وكان ويلي يجلس متشبثاً بطرف المقعد الخشبي الطويل، وقد ثقلت أجفانه وأرخم عليه النعاس، بينما مضت العربية ترجرجهما وهي تتخع الطريق الحصوي.

فجأة، نذت عنه صيحة فزع، عندما شعر بأنه كان على وشك الإغفاء، وتراعت له الأرض تحته نائية.. نائية جداً عنه. فجذب توم عنان الفرس، وأوقف العربية على الفور.

"قم يا فتى، اقفز إلى الوراء وخذ قسطاً من الراحة"، قال وهو يمدّ يده ليساعد ويلي على بلوغ مؤخرة العربية، ثم ناوله غطاءً قديماً ليتندثر به، إذ لاحظ أنه ما يزال شاحب الوجه.

وما إن عاودت العربية سيرها الرتيب، حتى استسلم ويلي إلى نوم مقلقل، مشوب بالاستفاقات المفاجئة، كلما ارتطمت عظام مرفقيه وكنتفه بجانب العربي. لكنه ما كان يفتح عينيه إلا ليعود من جديد إلى نومه المتوتر المشحون بالأحلام المزعجة. وكان على وشك التعرض إلى هجوم جمهرة من الوجوه المخيفة، عندما شعر بيد تهزّه برفق.

"إننا على وشك الوصول يا بني، حاول أن تنشط نفسك قليلاً." وقف ويلي مترنحاً، وتمسك بطرف العربية أثناء عدوها بالقرب من نهر، ظللته أغصان الأشجار المتدلّية، قبل أن يتعرج ليحتجب خلف بعض الأبنية العتيقة.

"أ تذكر هذا المكان يا فتى؟"

هزّ ويلي رأسه وهمهم:

"كلا، يا سيد توم."

أخيراً، توقفت العربية أمام حانوت حداد. فترجل منها توم ثم حمل ويلي إلى الأرض. وحل رسن دويس، وساقها إلى حظيرة معتمة وفسيحة.

هناك، سمعه ويلي يتحدث مع شخص في الداخل. ولم يمض وقت طويل إلا وعاود الظهور مجدداً، وخف إلى تناول الخرج، والأكياس، والعلب، من مؤخرة العربة، ثم وضع يده على كتف ويلي وقال:

"لدينا الكثير مما ينبغي إنجازَه يا فتى، أظن أنك ستتمكن من الصمود؟" أوماً ويلي برأسه. فناوله توم واحدة من العلبتين الصغيرتين اللتين بلون جلد الجاموس، وتأبط كل منهما علبته قبل أن يباشرا الانطلاق. وسرعان ما تجاوزا متجر عجلات هوائية، وحانوت إسكافي. وانعطفوا إلى شارع رئيسي، يُشرف على ساحة واسعة، في وسطها قنطرة حجرية، ثبّتت على حائطها ساعة كبيرة، وأحاطتها المقاعد الخشبية من جوانبها الأربع. فقال توم للفتى وهو يشير إلى الساحة:

"إن هذه الساحة تكتظ عادة بشتى أنواع السلع خلال أيام السوق."

توقفاً أمام واجهة دكان لبيع الجرائد والمجلات، تركز على جداره منصتان لتعليق المناشير. يحمل منشور إحدى المنصتين عبارة: "بولندا تتعرض للغزو". أما منشور المنصة الأخرى فيقول: "تذكر أن هناك أناساً يؤدون واجبهم القومي، واخفض صوت مذياعك". كان باب الدكان مفتوحاً على مصراعيه. وعندما دخلاه طالعتهما امرأة مسنة، ضئيلة الحجم.

"إنه لطقس حار جداً، أليس كذلك؟" هتفت المرأة من وراء طاولة البيع. "حسناً، أهو طلبك المعتاد يا سيد أوكلي؟" أضافت.

أوماً توم برأسه، فبادرت المرأة إلى تناول صفيحة تبغ صفراء من فوق أحد الرفوف. ولاحظ توم على الفور أن ويلي كان مستغرقاً استغراقاً كلياً في تأمل أكداش مجلات الأطفال الهزلية.

"يمكنك الحصول على قطعة حلوى، ومجلة واحدة يا فتى"، قال بنبرة حادة. "هيا.. اختر ما تريد."

صُنع ويلي ممّا سمعه، فتسمّر في أرضه مذهولاً. لكن السيدة سارعت إلى ملاطفته قائلة:

"لا تستعجل يا بني، خذ وقتك"، ثم أشارت إلى بعض الأواني الزجاجية، "انظر، لدينا فاكهة مجففة، وعلكة، وحَب النعناع، وتفايح ملبّس بالسكر طبعاً، وهو مرغوب كثيراً. ولدينا أيضاً حلوى بنكهة التوت، والليمون، والبرتقال."

ظلّ الصبي واقفاً بلا حراك، ف شعر توم بالانزعاج من صمته الطويل، وهمّ بقول شيء ما. لكنه تراجع فوراً عندما وقعت عيناه على الوجه الصغير المرتبك الذي راح يزدرد ريقه بصعوبة كبيرة. إذ لم يكن أحد من قبل قد طلب منه اختيار أي شيء على الإطلاق.

"س... س... سأخذ تفاحة ملبسة بالسكر، إذا سمحت يا آنسة،" قال ويلي أخيراً.

"بأي نكهة تريدها؟"

قطب ويلي، وعأوده الإحساس بالارتباك للحظة، ثم أجاب بصوت مبجوح:

"بنكهة التوت."

فتحت السيدة الإناء الزجاجي، وناولته الحلوى التي كانت ملفوفة، على شكل قرن، بورقة مقلّمة باللونين الأسود والأبيض.

"والآن ما هي المجلة التي تريدها يا صغيري؟"

شعر ويلي بالعجز والتخاذل.

ما فائدة المجلة مادام لن يكون قادراً على فهم كلمة منها.. رغم أنه يستلطف ألوان تلك الرسوم.. كما أن الصور تبدو له مضحكة ومثيرة..

رفع رأسه ونظر إلى توم.

"أنا لا أحسن القراءة يا سيد توم."

"أعرف هذا يا فتى،" أجاب توم بسرعة. "لكنني أستطيع قراءتها لك بنفسني بعد الكتاب المقدس."

عاد ويلي والتفت إلى المجلات، بدون أن ينتبه إلى تعبير الاستهجان الذي ارتسم على وجه توم. إذ دُهِش الأخير من نفسه لعجزه عن كبج الكلمات التي تدافعت من فمه غصباً عنه. وشعر أنه فريسة أحاسيس يختلط فيها العجب بالانزعاج؛ العجب من تلقائيته مع الصبي، والانزعاج لأن نمط حياته القاسي كان على وشك التغيّر، بعد.. بعد أربعين سنة متواصلة من الرتابة.

أخيراً، انتقى ويلي مجلة، ودفع توم ثمن المشتريات وتوجّه نحو الباب. لكن ويلي ظل واقفاً كالمذهول وهو يمك مجلته الأولى بيدين

مرتعتين. ثم، قفز من أرضه مجفلاً عندما سمع توم يزمجر من ورائه قائلاً:

"تحرك يا فتى.. أ أنت أصم؟ هيا.. تعال."

تبع ويلي توم إلى الصيدلية المجاورة، فدكان البدال. ثم تريتاً أمام واجهة مقهى ليون الزجاجية التي صُفّت فيها مجموعة من قوالب الكعك. وشاهد الصبي عند طاولة قريبة من النافذة رجلاً يرتدي بذلة عسكرية، وشابة باكية. فييس في مكانه مأخوذاً بالظلال التي عكسها جسم الرجل على الوجه الباكي.

"حسناً، قد نعود في وقت لاحق يا فتى"، قال له توم الذي ظنه يرنو إلى قوالب الكعك.

وهكذا، تابعا طريقهما حتى بلغا الساحة. وعندما هما بعبورها، جذب ويلي كمّ توم.

"يا سيد توم.. يا سيد توم.." هتف بإلحاح، "أنا أعرف هذا المكان، لقد تذكرته. كنت هنا أمس."

فهمهم توم، وعادا يحثان الخطى قدماً، وأعينهما مسلّطة على محطة القطار الواقعة في النهاية الأخرى من الساحة. وشاهداً خارجها حشداً من الجنود الواقفين وهم يتحدثون بحماس، وقد أسندوا بأرجلهم حقائبهم المننقخة التي كانت محطوطة على الأرض. ثم رأيا مجموعة من الأطفال تمرّ بالقرب منهما، تصحبهم امرأة فتية، وموظف التذاكر الذي أحضر ويلي في اليوم السابق. راقب الفتى الجمع الماضي في طريقه إلى مبنى البلدية. وتأمل الأطفال المذهولين الذين مشوا وهم يجرجرون أقدامهم ويمسكون بأيدي بعضهم، وبطاقات التعريف بهم تتدلى من أعناقهم. كانوا مجموعة متباينة مختلفة الأشكال؛ منهم من ظهرت عليه الصحة والعافية، ورفل بالمعاطف والأحذية الجديدة. ومنهم من بدا عليه السقم والضمور، واكتسى بملابس ضيقة جداً، أو بالغة الكبر والانتساع.

"هيا يا ويليام أسرع"، قال توم مستحثاً إياه على السير. "معي لائحة يكاد يبلغ طولها ميلاً، يجب أن أجلبها من عند بائع الأقمشة." كان متجر بائع الأقمشة يقع على الرصيف المقابل، إلى جوار دكان للألعاب. وما كادا يصلان إليه حتى قال توم للفتى:

"أترغب في التفرّج على الألعاب ريثما أدخل متجر الأقمشة؟"
هزّ ويلي رأسه بسرعة..

كلا.. لم يكن يريد أن يُترك وحده.

"هه.. كما تشاء،" قال توم قبل أن يتواريا معاً في خضم الظلام الذي عمّ ذلك المكان.

كان متجر الأقمشة مزحوماً بلغافات القماش الهائلة من جميع الأصناف والأنواع. وكان على توم وويلي أن يتلمّسا طريقهما من خلالها تلمّساً. وفي نهاية ذلك السرداب المعتم الطويل وجدا نفسيهما أمام منضدة خشبية عالية وعريضة، يقف وراءها رجل متوسط السن، أنيق الهندام، ذو شاربين مبرومين حول طرفي فمه، وطقم أسنان اصطناعية. وكان منهما في قصّة قطعة من القماش. لكنه حالما رأى توم قال محيياً:

"صباح الخير يا سيد هوكلي، أكانت ملاءات التعنيم مناسبة؟"

غمغم توم بالإيجاب، بينما راح صدى عزف على الأورغ يتصاعد من مذياع كبير، كان يحتلّ طرف المنضدة.

"إنه من أجل سماع آخر الأخبار،" قال بائع الأقمشة موضحاً. "ولابدّ لي من القول إن هذا الانتظار أصبح يثير حفيظتي. إن تشامبرلين بطئ جداً، ونحن جاهزون لمواجهة هتلر. لذلك أرى أنه علينا المبادرة إلى وضع حدّ لتهديداته."

"ما فتئت أسمع موسيقى الأورغ هذه طيلة نهاري العتيد،" دمدم توم بنبرة ساخطة. "ألا يُنقن ذلك الموسيقي العزف على أي آلة أخرى؟"

"أوه، هذا ساندي ماكفرسون يا سيد هوكلي،" قال بائع الأقمشة. "وهو رجل عظيم يحاول شدّ عزيمة الإذاعة في هذه المحنة الوطنية العصيبة."

"أ واثق أنت من أنه ليس المسبّب لهذه المحنة؟" زمجر توم.

"أوه يا سيد هوكلي، أنا متأكد من أنك لا تقصد الـ...". جمدت الكلمات على شفّتي الرجل عندما وقعت عيناه على رأس ويلي بشعره الرملي الملبد، والذي كان يقف عند الناحية الأخرى من المنضدة.

"الفتى بصحبتني،" قال توم بسرعة. "وأنا، في الحقيقة، أحمل لائحة من السيدة فليتشر بالأقمشة التي أريدها. فالولد لا يملك من الثياب إلا ما يرتديه الآن."

أشرق وجهه بائع الأقمشة.

"هها، بكل سرور يا سيد هوكلي، ولكن يجدر بي أن آخذ له قياسه بنفسي. إني في الحقيقة أعاني الآن من بعض النقص في بضاعتي"، قال الرجل وهو ينقف متر قياس طويل كان متدلياً حول رقبته. إلا أنه حينما أمعن النظر في ويلي أصيب بخيبة أمل كبيرة. "يبدو أنه لا يوجد ما يستحق الذكر من جسم هذا الصبي الضئيل! أليس كذلك يا سيد هوكلي؟"

بعدئذ، انشغل البائع في قياس وقصّ قطعتي قماش من الفانيلا الحمراء والزرّقاء. ووقف ويلي في مكانه وقد اشرب أعنقه من وراء المنضدة، ليتمكن من متابعة ما كان يفعله الرجل. ثم رأى لفافة من قماش القطن المضلع عند طرف المنضدة. فتمطى ولمسها. شعر بملمسها الناعم المتماسك، وترك أصابعه تنزلق بروية فوق ثنياتِها. وعندما لاحظته توم يفعل هذا قال للبائع:

"دعنا نرى الألوان المتوافرة لديك من ذاك القماش أيضاً."

علت الدهشة ملامح البائع.

"أحقاً ترغب في هذا؟! إيه، حسناً، كما تشاء يا سيد هوكلي."

"يمكنك الحصول على لونين من هذا القماش يا ويليام. هيا، اختر بنفسك."

بسط بائع الأقمشة أمام ويلي لفافات ذات ألوان مختلفة؛ خضراء، بُنيّة، خمريّة، كحليّة، رمادية وحمراء. رموق ويلي بنطال توم الأخضر، وأشار إلى للفاة الخضراء. وبعد وقفة متأنية اختار للفاة ذات اللون الكحلي.

"جيد يا فتى"، غمغم توم، ثم قال لنفسه.. ها قد بدأ الصبي يعتمد على نفسه.

ندّت عن ويلي ابتسامة عصبية، واستند بظهره على المنضدة ليتفرّج على بقية الأقمشة التي توافرت من كل نوع ولون؛ قرمزية وعنبرية وفيروزية وأخرى بلون البحر. ثم رأى توم ينحني عليه ليجرّب له حمالة للسراويل، وسمعه يتمّم قائلاً للبائع وهو يضعها على المنضدة:

"سأخذ هذه."

تابع تحديقَه بالأقمشة. راقه اللون الأحمر كثيراً.. كثيراً جداً..
ولكن أمه تقول إن اللون الأحمر هو لون الخطيئة.. و..
"يجب أن أقصد المصرف"، سمع ويلي السيد توم يقول للبائع. "لا يمكن
من إعطائك مبلغاً على الحساب."

"لا داعي للعجلة يا سيد هوكلي، فأنا باق هنا النهار بطوله."
وهكذا، راح البائع يجاذب توم أطراف الحديث، معلقاً على ارتفاع
الأسعار، وهتكر، وثن الزبد. وكان توم يههم بين فينة وأخرى
موافقاً. ثم سمع ويلي الرجل يقول:

"لقد استدعيت إلى الخدمة هذا الصباح، لذا، أرجو أن تخبرني إذا بلغك
أن هناك من يبحث عن عمل. أنا مستعد لاستخدام أي شخص حتى لو
كان فتاة.. شرط أن تكون ذكية، و.."

كان البائع يلف الأقمشة بأطباق من الورق البني، وشعر ويلي بالتشوق
إلى لمسها بيديه، لكنها سرعان ما وُضعت تحت منضدة البيع. ولم
تمض هنيهة إلا وكان الفتى يغذ السير وراء توم إلى سرداب الأقمشة
الداجي، فالشارع حيث ضوء النهار.

كان المتجر التالي الذي قصده، متجر أحذية. ونظراً إلى أنه كان يعج
بالناس الذين ييغون شراء الأحذية المتينة، اضطر توم وويلي إلى
الانتظار لبعض الوقت قبل حصولهما على من يخدمهما. وعندما حان
دورهما، قال توم وهو يشير إلى قدمي ويلي:

"أريد جزمة للفتى."

أجلس البائع ويلي على كرسي، ووضع له قدميه داخل قالب القياس،
ليتمكن من معرفة قياس الحذاء المناسب لقدميه.

"في البداية يكون الجلد قاسياً قليلاً"، قال توم لويلي لما وقف الأخير
على قدميه، بعد أن ألبسه البائع جزمة قصيرة العنق من الجلد البني
الأصلي. "ولكننا سنشتري زيت بذر الكتان لتطريته."

في تلك اللحظة، شعر ويلي بغصة هائلة تقبض على صدره، وتتصاعد
ببطء لتستقر في حلقه.

"أ.. أ هذه الجزمة لي أنا يا سيد توم؟" سأل بصوت أجش.

"هه.. إنها في جميع الأحوال ليست لي"، أجاب توم بسرعة. وضع البائع الجزمة في كيس ورقي، وأعطاه لتوم الذي ناوله للفتى. ثم غادرا المتجر وعبرا الشارع نحو مجموعة أخرى من المحلات والدكاكين المحيطة بالساحة. وشاهدا رجلين يشيدان متراس حراسة بأكياس الرمل، قرب حانوت يبيع مشدات النساء وملابس تحتانية، ويضع إعلاناً عن توافر معدات الإسعاف الأولية لديه. وقف توم أمام الحانوت عند منعطف الشارع، ونظر إلى مركز الإطفاء المجاور لمبنى البلدية، فأبصر طابوراً من الرجال الواقفين برزانة وهم ينتظرون دورهم لتسجيل أسمائهم في لائحة الخدمة العسكرية. كانت الحرارة خانقة، ولم تكن في الجو نسمة هواء واحدة. تدرجت حبة من العرق على وجنته. فسارع إلى تجفيفها بمنديل، ثم شعر بيد تجذب بنطاله.

"ماذا هناك يا فتى؟" زمجر توم.

كان ويلي يشير إلى دكان صغير يقع عند آخر الطريق، ويحتل رأس زاوية تطل على زقاق مرصوف بالحصى. كانت واجهة الدكان من الخشب المصقول غير المدهون، تعلوها كتابة ذهبية باهتة، وتوجد في نافذتها فرش للرسم مرتبة على شكل مروحة، تحيط بها أنابيب الدهان، ودوارق الألوان الزيتية، وعلب التلوين المائي. غاص قلب توم بين ضلوعه. إذ كان ذلك الدكان مكان ريتشل الأثير. وهو لم يقصده أبداً منذ اليوم الذي ماتت فيه. منذ .. منذ أربعين سنة. ل.. لا.. إنه لا يستطيع المجازفة بدخوله الآن.. أبداً. بل، ولا يوجد لديه أي سبب لأن يفعل هذا، فهو لا علاقة له بالرسم.

لا شيء.. لا شيء في الحقيقة كان يمكن أن ينسيه مدى سرور ريتشل من مجرد التفكير بزيارة ذلك الدكان. كانت تقول له دائماً: "أليست رائحة الدهان جميلة؟ ألا توافقني على أنها تشيع في النفس شعوراً لطيفاً؟"

وكان يضحك ويضحك من أسلوبها السفسطائي المحبب في الكلام. ولكن.. "ماذا عن ذلك الدكان يا ويليام؟" قال توم صوت هادئ. "أترغب في إلقاء نظرة عليه؟" أوما ويلي بحماس.

"حسناً، ولكننا سننظر إلى الواجهة فقط، فلست أملك متسعاً من الوقت لنضيقه في الداخل."

عبر ويلي الطريق وهو يحدق بالدكان هائماً. وبُغت بسيارة نعتت عليه، بينما صاح سائقها بصوت غاضب:

"انتبه إلى طريقك يا ولد!"

قدمم توم باستغراب:

"إن الصبي في حالة ذهول!"

مثل ويلي أمام نافذة الدكان، يمعن النظر فيها، ويمسح بين برهة وأخرى تلك الغشاوة التي كانت أنفاسه تخلفها على الزجاج. رأى علماً من أقلام التلوين العادية، وأقلام الشمع، وأقلام الرصاص، وقوارير دهان الألوان لم يعلم بوجودها أبداً. شاهد أطباق الورق الناصع البياض التي كانت تنتظر من يملؤها. رنا بهيام إلى فرش الرسم. كانت هناك فرش رقيقة وجميلة من أجل رسم أكثر الخطوط دقة. وكانت هناك فرش أخرى أكثر غلظة؛ فرش يمكن للمرء أن يحملها بجسارة، ويضرب بها الورق ضربات جريئة.

أما توم، الذي وقف خلف الصبي وحملق عينيه، فسرعان ما طالعته صورة ريتشل.. وهي تتبخر في الدكان جذلة.. وشعرها الأسود الطويل، المعقوص عند مؤخرة عنقها، يتطاير بفوضوية كلما بلغ بها الحماس مبلغه. نعم، كان بإمكانها تأمل الألوان لساعات وساعات من غير أن يعثرها السأم أبداً. وفي ذات مرة قالت له:

"لو قررت رسم السماء فسأمضي حياتي كلها وأنا لا أقوم بأي عمل آخر سوى رسمها، لأنها دائمة التغير، ولا تبقى أبداً على حالها."

عاد ورنا إلى ويلي، وشاهده يرسم أشكالا على الزجاج الذي رشحت عليه أنفاسه.

"ماذا تفعل يا فتى؟"

"أرسم"، أجاب ويلي. "مستعيناً بتلك الفرشاة."

دقق توم النظر إليها.

"مممم!" غمغم. "هكذا إذن!" ثم استدار بطريقة مفاجئة، وحث خطاه إلى الشارع الرئيسي، فتبعه ويلي على الفور.

تجاوزا حانوت المشدّات النسائية، ودكان جزار، ومتجر أدوات منزلية، ثم وقفا أمام باب المكتبة العامة. فقال توم وهو يفتح الباب: "ما دمت ستبقى هنا، يُستحسن إذن أن تتضم إلى المكتبة". ولج توم وويلي ذلك المكان الذي كان يسوده سكون غريب. وما إن شوّش سكينته سعال أحد الأشخاص حتى سارع ويلي إلى جذب بنطال توم.

"ما الحكاية الآن يا فتى؟" همس بصوت يملؤه الغيظ. "يا سيد توم،" هسهس الصبي، "لماذا يعمّ الصمت هذا المكان؟" ندّت عن توم زفرة ساخطة.

"حتى يستطيع الناس سماع أنفسهم وهم يقرؤون"، أجاب وهو يمضي صوب طاولة خشبية كبيرة تكوّمت عليها مجموعات من الكتب، وجلست إليها امرأة ثلاثينية فارعة الطول، نحيلة الجسم، وقد مدّت ساقيهما الطويلتين تحتها. كان شعرها الناعم الكستنائي مضموماً عند قمة رأسها على شكل كعكة. وكانت تضع نظارة معلقة بخيط يحيط رقبتها. ولما شعرت المرأة بوجودهما، رفعت رأسها لتتطلع إليهما، وتركت نظارتها تسقط من على أنفها.

"جنّت لأسجل الفتى في المكتبة"، قال توم مشيراً إلى ويلي. "فهو يقيم معي."

عاينت الأنسة إميلي ثورن الفتى بدهشة، ثم حدقت بتوم، وعادت لتتظر إلى ويلي. وفجأة، قالت بنبرة مميزة في التشديد على مخارج الحروف: "يقيم معك أنت؟ أقلت يقيم معك؟ ولكن... ولكنك..". كانت على وشك أن تقول ولكنك رجل جلف، مسنّ، حادّ الطبع، متبلّد المشاعر.. غير أنها لجمت لسانها في اللحظة الأخيرة.

"لكني ماذا؟"

"لكنك... كثير الأشغال!"

هه.. كثير الأشغال.. حدثت الأنسة إميلي ثورن نفسها.. إن هذا الرجل لم يَقم أبداً بمدّ يد العون للقريّة، ولم يساهم في أي نشاط من نشاطاتها. بل ويصرّ على تجاهل جميع المؤشرات المؤكدة على وقوع الحرب الوشيك.

مطّت نفسها من فوق الطاولة وشهقت. إذ رأت كلاً منهما يحمل علية قناعه الواقى من الغاز. أغمضت عينيها وفتحتهما، ونظرت مرة أخرى.

لا..إنها ليست واهمة.. فهامى علب الأقنعة تتدلى من على كتفيهما. رباه.. السيد أوكلي.. السيد أوكلي من بين جميع الناس يحمل قناعاً واقعياً!.

فجأة، قاطع توم سيل أفكارها قائلاً بنبرة محتدة:

"أترين، لست أملك اليوم بطوله، سأترك الصبي هنا، وسأذهب لإكمال تسوقي".

عندئذ، شحب وجه ويلي. فتأوه توم في سرّه.

ويحه.. ويحه.. كيف سمح لنفسه أن ينتهي به المطاف مع طفل اتكالي عاجز مثله؟

إلا أن شحوب ويلي لم يكن ناجماً عن الخوف، بل عن الإثارة. فهو رغم جهله للقراءة، جعله منظر كل تلك الكتب يرتعش سروراً.

"كم يبلغ عدد الكتب التي يُسمح له باستعارتها؟"

"ثلاثة كتب يا سيد أوكلي".

"إذن، دعيه يختار كتابين مصورين، و.."

صمت توم لبرهة..

لله كم يكره أن يطلب معروفاً من أحد!

"وماذا يا سيد أوكلي؟"

"واختاري أنت كتاباً من الكتب التي ترينها مناسبة كي أقرأها له، فهو لا يحسن القراءة بعد، وأنا ما عدت أذكر نوع الكتب التي يحبها الأطفال".

عاد وصمت من جديد، ثم تتحنح بطريقة مفتعلة غريبة قبل أن يردف مغمغماً:

"إن على المرء أن يقوم بواجبه أليس كذلك؟"

"نعم.. نعم، بالتأكيد يا سيد أوكلي،" ردت الأنسة إميلي ثورن بسرعة، ولكنها ظلت تلاحقه بعينيها حتى رآته يغادر المكتبة. ثم تناولت بطاقة زرقاء، والنفتت إلى ويلي، وقالت وهي تبسّم له بمكر:

"والآن، ما اسمك؟ أما عنوانك فأنا أعرفه طبعاً."

عرج توم، بعد مغادرته المكتبة، على المصرف، ووجده لسوء الحظ مغلقاً. فغادر ردهته الظليلة إلى الطريق، حيث كان الناس المحتشدون في الساحة لا يزالون يتحدثون بحماس. ولمح أثناء مُضيهِ متجراً يبيع أجهزة راديو مختلفة الأنواع. فترتّب، ووقف أمام واجهته وقرأ: "الصوت والصدى"، ثم وقعت عيناه على مذياع صغير يعمل على البطاريات القابلة للشحن. وبدا له مذياعاً مثالياً بالنسبة إلى شخص لم يكن منزله مزوداً بالكهرباء. كان إطار المذياع مصنوعاً من الخشب الخفيف، وفيه فتحتان مدوّرتان إحداها مخرّمة الواجهة، والأخرى مجهزة بقرص مُرقم. ورأى توم أنه شئ ينبغي التفكير باقتنائه في حال اضطر إلى ترك الصبي وحده في البيت، رغم ثمنه الباهظ!

"يجب ألا أنسى شراء بطاريات"، غمغم وهو يتابع طريقه، فقد كان الإقبال على شراء بطاريات المصابيح اليدوية يزداد بتصاعد مستمر. "وبعض الملابس الداخلية للفتى"، أردف وهو يمعن النظر في لائحة السيدة فليتشر. "هه.. وصوف أيضاً."

توقف عند منعطف الطريق الضيق قرب حانوت مشدّات النساء. نظر إلى الزقاق حيث يقع دكان أدوات الرسم. ترتّب قليلاً ليفكر.. لا.. إنه لا يملك متسعاً من الوقت لذلك الحانوت.. قال محدثاً نفسه وهو يرتدّ على أعقابهِ ميمماً شطر دكان الحداد، وقد امتلأ خرجه بالمشتريات، وانتفخت أكياسه بالحاجيات.

كان عليه أن يقصد حانوت البدال ليأخذ ما سبق أن اشتراه من هناك، وعليه أيضاً إحضار بعض الصناديق الكرتونية التي رأى أنها ستكون ذات نفع في غرفة ويلي.

عاد إلى المكتبة العامة بعد نصف ساعة، ونظر إلى الداخل من خلال زجاج الباب. كان ويلي يجلس على أحد الكراسي، مسنداً مرفقيه على طاولة خشبية طويلة. وكانت الأنسة ثورن مائلة عليه وهي تشير إلى شيء ما في صفحة أحد الكتب. وقف توم متردداً للحظة، ثم عاد أدراجه بسرعة إلى الطريق الضيق حيث يوجد دكان أدوات الرسم.

"رباه.. إنها أربعون سنة مريرة"، غمغم وهو يتقرّس في واجهة الحانوت. "تري.. كيف مضى هذا الزمن الطويل كله؟"

دفع الباب بيده، وقال لنفسه وهو ينصت إلى الرنين العالي الذي أصدره الباب.. حتى الجرس مازال هو نفسه. تسمّر في وقفته لبرهة، ثم أوغل في المكان.

لم يكن قد مضى وقت طويل عندما شعر ويلي بيد تلامس كتفه. رفع رأسه مستطلعاً، ورأى توم واقفاً إلى جانبه وهو يحمل رزمة ملفوفة. "ها.. هل أنت جاهز للانطلاق يا فتى؟" قال توم بصوت هادئ. رنا إليه ويلي، ثم حطّ إصبعه على حرف كبير في الكتاب الذي أمامه. "هذا حرف النون، أليس كذلك يا سيدي؟"

انحنى توم لينظر. كان الكتاب مليئاً بصور هرة ذات فراء متعدد الألوان.

"هذا صحيح. أنت تعرف الأبجدية إذن.. ها؟" "تقريباً"، أجاب ويلي. ثم رفع رأسه، ونظر إلى توم. "أيمكن أن تساعدني يا سيد توم؟" قال بصوت هامس. لكنه ما كاد ينهي جملته حتى سارع إلى غضّ بصره نحو الكتاب، وقد كورّ يديه بشدة وحبس أنفاسه.

هاهو على وشك نيل ما يستحقه من عقاب.. ألم تقل له أمه حذار من طلب المساعدة من أي شخص؟ الآن.. الآن سيلتقى تلك اللطمة على أذنه.. "نعم يا فتى يمكنني مساعدتك"، أجاب توم. "وسوف أسأل السيدة هارتردج، أو المعلمة التي ستشرف عليك عن الأشياء التي يجب تدريبك عليها."

لكن الآنسة ثورن قاطعته قائلة: "لا داعي لأن تجهد الولد بالكثير من العمل. فهو يبدو في حاجة إلى بعض الهواء النقي."

"لا تخافي، سيحصل على الكثير من الهواء النقي"، زمجر توم. "فهناك خضراوات تنتظر من يزرعها. وهناك أيضاً الفرس دوبس التي يجب العناية بها، والأعشاب الضارة التي ينبغي اقتلاعها من الحديقة." لم تعلق الآنسة ثورن بأي كلمة أخرى..

يا للصبي المسكين.. قالت لنفسها.. وكأنه لا يكفيه مصابه بنزوحه عن بيته وحنان أهله، ليقع تحت رحمة رجل عجوز نزق!

أخذ توم كتب ويلي الثلاثة وناولها إياها. كان الكتاب الذي انتقته الأنسة ثورن لتوم هو مجموعة: قصص تحكى، للروائي: رديارد كيبلنغ. وللحال تصدّت له المرأة قائلة:

"أخشى أنه ليس بذاك الكتاب التعليمي يا سيد أوكلي."

"وهل قلت لك أنني أريد كتاباً تعليمياً؟"

"كلا يا سيد أوكلي."

"إذن، لا تضعي في فمي كلمات لم أقلها!"

"حاضر يا سيد أوكلي"، أجابت الأنسة ثورن وهي تداري ابتسامتها. وعندما اطمأنت إلى مغادرتها المكتبة، أسرعّت إلى الباب، ووقفت

تراقبهما وهما يجتازان الشارع الرئيسي خلف الساحة. ثم همست:

"يا لهذا الثنائي الغريب! رباه.. كم أتحرق شوقاً لإخبار ماي بما جرى."

"هيا، اركض يا فتى"، زار توم وهو يسارع وويلي إلى شقّ طريقهما عبر الممر المفضي إلى البيت. كانا، في الحقيقة، قد وصلا في الوقت المناسب. إذ أطلقت السماء رعدة عظيمة، ثم انشقت على نفسها، وأفلتت زمام الأمطار الغزيرة وحبيبات البرد التي راحت تنهال على الأرض انهياراً، لاذعة في طريقها سطح البيت المبلط بشراصة غريبة. حتى أصمّت قعقعتهما توم وويلي، وأجبرتهما على الصياح ليسمعا بعضهما، واستتفرت سام الذي وقف يزمجر ويعوي أمام النافذة. وعندما استقرّ توم ويلي أخيراً داخل جدران البيت الآمنة، هبّ توم إلى حجب النوافذ بأغطية التعقيم، وإلى إضاءة المصابيح، ثم انهمك في فضّ رزم المشتريات.

"هذه منامة يا ويليام"، قال للفتى وهو يخرج لباساً مقلماً باللونين الأبيض والأزرق. "وهي لباس يرتديه الناس للنوم عادة."

"منامة!" كرّر ويلي الكلمة من بعد توم، محاكياً طريقته في الكلام.

"نعم، هذا صحيح. والآن، هل ستنام في السرير الليلة؟"

ظهرت علامات الفزع على ويلي.

"أليست الأسرة للأموات يا سيد توم؟"

وقف توم، ثم أشار للصبي قائلاً:

"تعال، اتبعني يا ولد."

تبعه ويلي إلى حجرة نومه، لكنه وقف متردداً عند الباب.

"هيا ادخل يا فتى"، استحثه توم. "لا تقف مكانك مذهولاً."

خطا ويلي خطوة إلى داخل الحجرة.

"أترى هذا السرير يا فتى؟ إني ما فتئت أنام فيه منذ أربعين سنة،

وربما أكثر، وأنا لست ميتاً بعد. وتلك السلة هي سرير سام الذي ينام

فيه عندما يستخدم عقله."

عادا إلى غرفة المعيشة، وتناولوا عشاءً خفيفاً، مؤلفاً من البيض والخبز

المحمص والشاي. ثم ارتدى ويلي منامته الجديدة، وجلس على مقربة

من الأريكة إلى جانب توم.

وفي الخارج، كان المطر الذي واصل قرع النوافذ بعنف، ما يزال في

أوج هطوله.

"يبدو أنني مضطر إلى الصباح كي تسمعني يا فتى"، زعق توم وسط

ذلك الضجيج الصاخب الذي أحاط بهما.

قبع ويلي في مكانه بصمت، وقد استولى عليه شعور غريب.. غريب

من تلك المنامة التي ارتداها. نعم، لقد بدا له الأمر في الليلة السابقة

مستهجناً قليلاً، إذ أوى إلى الفراش بدون سرواله الداخلي. لكن لباسه

الجديد العجيب بدا له أكثر غرابة حقاً. وعندما تجاوز دهشته قليلاً،

وتأقلم مع زيّه الجديد، نظر إلى توم، وقال بلهفة:

"ألن نقرأ الليلة في الكتاب المقدس يا سيد توم؟"

"ألم تعجبك قصة أمس التي سردها لك من ذاكرتي؟"

"بلى..". أجاب ويلي. "بلى يا سيد توم، بلى."

"في جميع الأحوال، لا أظن أنك ستتمكن من استيعاب تلك الكلمات

الكبيرة، إذا حاولنا القراءة من الكتاب المقدس مباشرة."

"لا يا سيد توم"، قال ويلي وقد غمرت قلبه راحة مطلقة، لأنه ما عاد

مضطرباً إلى إظهار عكس ما كان يشعر به. "أيمكن أن تروي لي الليلة

حكاية سفينة نوح مرة أخرى؟"

روى توم الحكاية للمرة الثانية. وأتبعها بمغامرات بيكوس بيل الجريئة من مجلة الأطفال التي اختارها ويلي. وبعد شراب الكاكاو، فرك الصبي أسنانه فوق حوض من الألمنيوم، وأسرع إلى كوخ المرحاض الخشبي مرتدياً معطفه وجزمته الجديدة، يظله توم بمظلة واقية من المطر. ثم حملاً حشوية السرير إلى السقيفة. وهناك، جلّ لها توم بغطاء من الشمع، وفرش فوقه الملاءات والأغطية، متلقياً بعض العون من الفتى الذي حاول بذل جهده. ولما انتهيا قال توم:

"هاك الآن، يمكنك يا ولد أن تبول في سريرك إلى يوم الحساب."

فهمس ويلي بحياء:

"ألست غاضباً مني يا سيد توم؟"

نخر توم من خياشيمه.

"كلا، لست غاضباً منك يا فتى. عندما أحضرت سام إلى هنا كان لا يكفّ عن التبول في جميع أرجاء البيت. إن المرء يحتاج إلى بعض الوقت حتى يستقرّ في مقامه الجديد، ويعتاد عليه."

وهكذا، نحى توم الأغطية جانباً، فقفز ويلي إلى السرير، ثم تبعه سام، وقبع فوق قدميه.

"لقد وضعت لك مجلّتك وكتبك على طاولتك يا ويليام."

"شكراً يا سيد توم"، قال ويلي، وسارع إلى تناول الكتاب الذي يحتوي على صور الهرة الملونة. فراقبه توم وهو يتتبع الكلمات بأصابعه، ثم دمدم:

"عشر دقائق."

لكن ويلي لم يسمعه، فقد كان مبحراً كلياً في تأمل الصور والأشكال. فجأة، تصاعد صوت قرع عالٍ على باب البيت، فغادر سام السرير زحفاً وبدأ ينبج. تأكد توم بسرعة من ثبات غطاء التعتيم على النافذة، ونزل السلم وهو يحمل سام المتشنج بين ذراعيه.

رفع ويلي رأسه عن الكتاب للحظة مصغياً. وسمع توم يقول بنبرة تنمّ عن الدهشة:

"أهلاً بك يا سيدة فليشتر، تفضلي بالدخول."

فعاد إلى الاستغراق في كتابه. وبعد فترة من الوقت صعد توم إلى السقيفة ليطفئ نور المصباح. فالتحفت الغرفة بظلام دامس، ما لبث أن انقشع عندما نزع غطاء التعتيم.

"تصبح على خير يا ويليام،" قال توم مداعباً رأس الفتى. "وإذا احتجت إلى طست التبول فهو إلى جانب السرير."

كان ويلي مرهقاً. وكان رأسه يضجّ بوجوه وأسماء جميع الناس الذين قابلهم في يومه. ولم يمض وقت طويل، إلا وكان قد استسلم إلى نوم عميق، وهو يغالب طيف الصبي الغريب الذي رآه في مكتب البريد.



telegram @
yasmeenbook

تصريح تشامبرلين

"صباح الخير يا ويليام،" قال توم وهو يُطلّ برأسه من فتحة السقيفة. فتح ويلى عينيه ونظر حوله. رأى أشعة الشمس المتسلّلة إلى الغرفة، تسترخي منسابة ولامعة على الأرضية الخشبية.

"صباح الخير يا سيد توم،" أجاب.

"إذن، نمت ليلة أمس في السرير. أحسنت يا فتى،" قال توم الذي كان قد ولج الغرفة، وعبرها بخطواته الواسعة إلى النافذة. فافتر ثغر ويلى عن ابتسامة حيية، تلاشت فوراً عندما تحسّس منامته الجديدة المقلّمة، ووجدها مُنداة بالبول.

"قم، واستنشّق عبير هذا الصباح يا فتى،" تابع توم وهو يدفع شبّاك النافذة ليفتحه. لكن ويلى الذي اصطبغ وجهه بالحمرة، تشبّث بطرف الغطاء، وظلّ قابلاً في مكانه. "ولا تهتمّ لأمر المنامة والملاءات، فهناك حوض من الماء الساخن بانتظارها في الأسفل."

حينئذ، قفز ويلى خارج السرير وانضمّ إليه فوراً. فوقفا معاً أمام النافذة، وأسندا مرافقهما على حافتها، ومالا بجسميها خارجها.

"أظن أن عاصفة الأمس خلصتنا من بعض بيوت العناكب،" قال توم وهما يرنوان إلى خمائل الأشجار التي لاحت في المدى، وبدت وكأنها تحتضن الحقول الخضراء والصفراء المنبسطة بعد الدرب الصغير، عند نهاية فناء المقبرة.

"انظر.. أيمكنك رؤية تلك البقعة يا فتى؟" أردف توم مشيراً إلى يمين الغابة المشجّرة. "إن المزرعة التعاونية الكبيرة تقع هناك. لا.. لن تستطيع رؤيتها الآن يا فتى. ولكن عندما تتعرّى الأشجار من أوراقها، سيكون بمقدورك أن تلمحها لمحاً. أما في تلك الناحية.."

تابع مشيراً إلى شمال الحقول، حيث ينعطف درب صغير صاعد باتجاه التل،

"فتقطن إحدى معلمات المدرسة. وهي تدعى السيدة هارتردرج."

"كم يبلغ عدد المعلمين في المدرسة هنا يا سيد توم؟" سأله ويلى.

"اثنين؛ وتتولى السيدة هارتردج تعليم الأطفال الصغار، بينما يشرف السيد بوش على التلاميذ الأكبر سناً."
وما هي أعمار الكبار منهم؟

"إنها تتراوح ما بين الحادية أو الثانية عشرة، إلى الرابعة عشرة. وفي بعض الأحيان يقصد المتفوقون منهم المدرسة الثانوية في البلدة. أترى تلك الغابة يا فتى؟ إن فيها نهراً جارياً يمتدّ حتى يبلغ المزرعة التعاونية الكبيرة. وهي بقعة يقصدها أطفال المنطقة كثيراً."

ظلّ توم وويلي واقفين في مكانهما لبعض الوقت. وأبحرا في عالم أحلام اليقظة، يحدقان في الأفق، ويرمقان الطبيعة الخلابة حولهما. لكنهما ما لبثا أن أفاقا على صوت نباح عال تصاعد إليهما من المقبرة. وشاهدا سام يقفز عند الممر، وقد صوّب عليهما عينين يملؤهما الاحتجاج. فغادر توم موقعه مهمهما:

"يا لهذا الشقي الصغير الذي يحاول جذب الاهتمام. على كل حال، يجدر بك الاستعجال يا ويليام، فيومنا كأمس، حافل بالكثير من الأشغال. وعلينا في الظهيرة أن نحفر خندقاً لنشيد الملجأ. وهذا سيقوّيك، وسينمّي لك عضلاتك."

وهكذا، تعاون توم وويلي على نزع ملاءات السرير، وحملها إلى الأسفل. ثم غسل توم جسم ويلي برفق، ودلّك له جروحه وقروحه بزيت البندق. وحينما انتهى، تناول من على طاولة غرفة المعيشة صرة كانت السيدة فليشر قد أحضرتها في الليلة الفائتة، وفيها بعض ثياب ابنها الأصغر ديفيد التي غدت قصيرة وضيقة عليه. فقد كان الصبي أطول من ويلي بشبر تقريباً رغم أنه أصغر منه سناً.

فتح توم الصرة وأخرج منها قميصاً أبيض اللون أعطاه للفتى. ثم عقد له حول ياقة القميص ربطة عنق بُنِيّة اللون من النسيج الصوفي الخشن. ومع أن سرواله الرمادي بدا متغضناً أكثر من أي وقت مضى، جعلته الحمالة مقبولاً إلى حد ما. أخيراً، حشر ويلي طرف ربطة العنق داخل السروال، وثبّت الجوارب الجديدة التي أعطاه إياها توم بالشريط المطاطي.

"لقد دهنت لك جزمته بالزيت ليلة أمس يا فتى لتطريتها،" قال توم لويلي الذي هبّ واقفاً، وقد انتعل جزمته الجديدة. "ولكنك ستتولى هذه المهمة بنفسك الليلة."

كان على توم أن يقصد الكنيسة باكراً في ذلك اليوم، ليرى السيد بيترس القسّ. فأنهى مهامه المنزلية بسرعة، وشقّ طريقه إليها، تاركاً ويلي يتعقّبه بخطى متعثرة. إذ كانت الجزمة الجديدة تعيقه عن الحركة، لأن حافتها التي بلغت حدود كعبيه منعتَه من ثني قدميه أثناء المشي. وبمعزل عن هذا الإزعاج الطفيف، شعر ويلي أن تلك الجزمة منحتَه الحماية والدعم. بل وعمر قلبه بالسعادة من سماع وقع خطواته الجلي كلما قعقع نعلاه على الممر المبلط. وبدأ له أن ساقيه الهزيلتين اللتين لطالما ناعتا بحمله وقصفتا به، أصبحتا أكثر صلابة وقوة.

وصل الفتى إلى باب الكنيسة الخلفي ووجده مفتوحاً. وشاهد السيد توم يتحدث مع رجل طويل ضامر الجسم. كان الرجل أصلع الرأس، أما ما تبقى من شعره فكان أسود اللون يخالطه البياض. ولما لمح الرجل ويلي التفت إليه مرحباً.

"أهلاً بك يا ويليام،" قال بوجه باشّ. "لقد أخبرني السيد أوكلي أنك ستساعدنا اليوم. حسناً.." تابع وهو يشير إلى مجموعة كتب حمراء مكدّسة على الطاولة القريبة من الباب الرئيسي للكنيسة، "تلك هي كتب الترانيم. وعليك أن تتولّى توزيعها يا بني. ضع أربعة منها على كل مقعد، أما الباقي فوزعه بين صفوف الكراسي في المقدمة والمؤخرة. هه.. ما رأيك؟ أظن أنك تستطيع تولّي زمام الأمور؟"

أوما ويلي برأسه.

"عوفيت يا بني،" هتف القسّ مثنياً على الفتى، ثم استدار نحو توم ليكمل ما انقطع من حديثهما. "والآن يا توم، أين هي أفضل بقعة لوضع مذياعي؟"

يمّم ويلي شطر الطاولة، وحمل بعض الكتب بارتباك لا مثيل له. يا الله.. ألم تخبره أمه أن اللون الأحمر لون فاسد؟ قال لنفسه .. مع ذلك، هاهو القسّ يطلب منه وضع هذه الكتب في أمكنة تؤهل جميع

الناس كي يروها. فهل يُعقل أن يكون اللون الأحمر هو لون الخطيئة فعلاً؟ وماذا عن ذلك القسّ الذي أثنى عليه ومدحه؟ إن أمه لطالما قالت له أنه لا يمكن أن يفوز بحبها إلا إذا كان حسن الخلق، أما إذا انحرف عن الطريق السوي، فلن.. لن ينال رضاها أبداً، بل ولن يحظى بعطف الله، أو تعاطف أي مخلوق آخر.

آه.. آه كم هي موحشة الحياة عندما يكون المرء سيئ الخلق.. تحسّست راحته ظهر أحد المقاعد الخشبية العتيقة، وسرى في قلبه شعور عميق بالراحة. ألقى نظرة على الرواق الصغير المقنطر الذي يشرف عليه باب الكنيسة المفتوح على مصراعيه. تأمل أشعة الشمس الزاحفة إلى الداخل من فرجة الباب وزجاج النوافذ الملوّنة. وحلّق جذلاً بالجو الشفاف الذي عطّرتُه أنفاس الأزهار والحشائش، وأنسته شقشقة العصافير.

ربما.. ربما.. قال ويلي لنفسه.. ربما كانت الجنة شيئاً يشبه هذا! انغمس ويلي في تنفيذ المهمة التي أوكلت إليه، وأخذ يحطّ الكتب على المقاعد بعناية. ورغم أن جزمته لم تكفّ عن الخفق والحفحة مع كل خطوة خطاها في أرجاء الكنيسة، لم يوجّه إليه القسّ أي ملحوظة، بل وتابع حديثه مع توم بصوت عال جداً بالنسبة إلى شخص في كنيسة. لكن، وبينما كان الفتى منكباً على تنسيق الكتب على المقاعد الخلفية، دخل الكنيسة ولدان يكبرانّه بحوالي ثلاث أو أربع سنوات. واتّجها إلى شمال المذبح حيث مقاعد أعضاء الجوقة. وجلسا في الصف الثاني منها. فخطر له على الفور أن الكنيسة ستمتلئ سريعاً بحشود المصلين. ربا.. كم يكره الحشود.. وكم يخاف صلاة الأحد وما يتبعها من طقوس.. طقوس ما كانت لتكتمل عادة إلا بعد جلده بالحزام.. و.. باغتته يد حطّت على كتفه. فرفع رأسه ورأى السيد توم واقفاً أمامه. "عليك ملازمتي يا فتى"، قال توم بصوت هامس. فتنفس ويلي الصعداء، وتبعه إلى أحد المقاعد.

ولم تمض دقائق معدودات إلا وكانت الكنيسة تغطّ بالرجال والنساء والأطفال. ثم انضمّ أربعة أولاد آخرين إلى أعضاء الجوقة عند شمال المذبح. أما يمين المذبح فشغله ثلاثة رجال. استطاع ويلي أن يميّز

منهم السيد ميلر صاحب الحانوت، والشاب الذي رآه خلف النافذة الشبكية في مركز البريد.

وبمحاذاة المقعد الذي جلس عليه، وقعت عينا ويلي على بنتين متشابهتين ترتدي كل منهما فستاناً صيفياً، منفوخ الأكمام، مطرز الصدر، يتداخل فيه اللونان الأخضر والليموني، وتتأبطان مثله قناعيهما الواقيين من الغاز. كان شعر كل منهما المجعد الطويل الملموم بصفائير ثخينة يضاهي بحمرته لون الزنجبيل. أما ما نفر منه من خصلات قصيرة معوجة فبدا أشبه بحلقات صغيرة من الجزر. دُهِش ويلي من غزارة النمش في وجهيهما وأذرعهما، إذ لم يسبق له قط أن شاهد أكثر منه. ولاحظ أنهما كانتا تحاولان عبثاً كتم قهقهتهما. كما لاحظ أيضاً أن السيدة المجاورة لهما لم تكن تكف عن توبيخهما بعينيها. لابد أنها /مهما.. قال الصبي لنفسه وهو يتفحص الرجل الطويل ذي الشعر الفاقع الحمرة، والصبية السوداء الشعر اللذين كانا بصحبة السيدة والبنتين التوأم.

في تلك الأثناء، كان السيد بيترس وزوجه قد اتخذاً موقعهما عند مدخل الكنيسة، ليرحباً بالمصلين الوافدين. في حين شغلت بناتهما الثلاث اليافعات، والطاهية، ومجموعة من الأطفال النازحين مقاعد الصفين الأماميين من مقاعد الكنيسة. وما لبثت أن أعلنت نوبة من السعال المتقطع عن وصول نانسي ليتل، وزوجها الطبيب. تطلع ويلي إلى القادمين الجدد، ونذت عنه شهقة مكتومة.

كانت نانسي ترتدي سروالاً!

صوب الفتى عينيه على القس، وترقب محبوس الأنفاس، سماع ذلك السيل الجارف من كلمات التقرير والاستهجان التي ستوجه إليها.. سيحل عليك غضب الله.. وستحترق بنار جهنم الأبدية.. و.. و..

لكنه رأى الكاهن يكتفي بالابتسام لها ومصافحتها! وما كاد يفوق من دهشته حتى فوجئ برؤية الأنسة ثورن تدخل الكنيسة وراء آل ليتل، ترافقها امرأة أربعينية بدينة وقصيرة.

"يا سيد توم،" همس بنبرة ملحّة وهو يجذب كمّ توم. "هل تعيش تلك المرأة التي رأيناها في المكتبة هنا؟"

أوماً توم برأسه.

"وتلك أختها الأنسة ماي"، أردف توم بصوت هامس. "وهما تسكنان في واحد من البيوت المسقفة بالقصب، وتملكان مذياعاً." التفت ويلي مرة أخرى، فوقعت عيناه على آل فليتششر مع اثنتين من أبنائهما وهم يتجهون نحو مقعدهم. وعندما دنت السيدة فليتششر من توم وويلي حيثهما بإيماءة من رأسها، ثم همست: "لقد بدأت في حياكة الطاقية يا سيد أوكلي."

وللحال قطب توم في وجهها ليسكتها. فقد كان عيد ميلاد ويليام يوم الخميس القادم، وكان يريد مفاجأة الصبي بالطاقية.

بعد برهة من الوقت، غادر القسّ موقعه عند باب الكنيسة، وتوجّه إلى الطاولة الصغيرة تحت منبر الوعظ، حيث وضع مذياعه. ثم فتحه وبادر إلى تحريك أحد أزراره. فضجّت الكنيسة كلها بـ: "كيف تحصلون على أكبر فائدة من الطعام المقلب." ورغم أنه سارع إلى إسكاته، رأى ويلي التوأم تتبادلان نظرات ذات مغزى مع صبي من صبيان الصف الأمامي للجوقة، وعلى الفور حنى الثلاثة رؤوسهم، وجاهدوا كي يكتموا ضحكهم بأيديهم، بينما راحت أكتافهم تهتزّ بشدة. كان ذاك الصبي قصيراً، بديناً، ذا شعر بني غزير أملس، ويبلغ من العمر إحدى عشرة سنة تقريباً.

واصل ويلي تفحصه للناس الوافدين على الكنيسة، ورأى السيدة هارترديج تدخلها مع زوجها ذي الزي العسكري. فحملق الفتى فيها مشدوهاً..

لله ما أروعها! قال لنفسه.. إنها فاتنة.. فاتنة بذلك الجسم الممثلة، وهذه الشقرة الجذابة، وهاتين العينين اللتين تشعان بالحبور وسط تلك الهالة من نور الصباح.. و..

"أولئك هم آل بارنز يا فتى"، همس له توم، قاطعاً عليه سيل أفكاره، عندما ظهر جمع من الرجال والنساء وراء آل هارترديج. "وهم يملكون مزرعة هيلبروك؛ أكبر مزرعة في هذه المنطقة."

كان السيد بارنز المتوسط السن، الأحمر الشعر، مصحوباً بثلاثة شبّان أصحاء الأبدان، وصبيّتين متورّدتي الوجنتين. وبدا عليه أثناء دخوله

الكنيسة وكأنه يجد صعوبة بالغة في التنفس بسبب ياقته المنشأة. أما زوجه القصيرة البدينة فكانت ترافق ولداً وبناتاً من الأطفال النازحين. "نعم، بكل تأكيد، لابد أن يختار بارنز العجوز أولاداً أصحاء!" غمغم يوم لحظة وقعت عيناه على الطفلين.

بعدئذ، دخلت لوسي وأهلها. وجلسوا أمام توم وويلي. ورغم أن لوسي سارعت إلى الالتفات نحوها مبتسمة، لم يلحظها ويلي، لأنه كان مبحراً كلياً في تأمل الألوان المتمازجة الخلابة التي انعكست على زجاج النوافذ.

أخيراً، استقرّ كل شخص في مكانه، ووقف السيد بيترس أمام حشد المُصلّين، ثم شبك يديه وقال:

"أسعدتم صباحاً. أعرف أن جمعنا اليوم يضم طوائف دينية مختلفة، خصوصاً ضيوفنا الجدد الذين أتمنى لهم إقامة سعيدة وأمنة بين ظهرانينا. وأنا أناشدكم جميعاً بأن لا تترددوا في الاتصال بي أو بزوجي إذا تعرّضتم إلى أي مأزق، أو احتجتم إلى مساعدة ما. والآن، أرجو أن تفتحوا كتب الترانيم على الصفحة الخامسة والثمانين، لأننا سنرتل ترنيمة: سدّ خطاي يا رب."

كان السيد بوش، مدير مدرسة القرية الشاب، يجلس إلى الأورغ وراء منبر الوعظ. وللحال باشر بعزف المقطع الافتتاحي. لكن ويلي لم يكن يعرف اللحن، وبما أنه لا يحسن القراءة، لم يستطع تتبّع الكلمات في الكتاب. وعندما رنا بطرف عينه إلى التّوأم، ورأهما تتشارك كتاباً واحداً وترتلان بحماس، شعر بالغيرة منهما.

"حاول أن تتبّع الأصوات يا فتى"، سمع ويلي توم يهمس له. "هيا حاول."

عمل ويلي بالنصيحة، ودُهِش من نفسه لما وجد أنه استطاع التقاط الكلمات. وسرعان ما بدأ يستمتع بالتراتيل التي أردفت بمقطع من الإنجيل، تلتها ترنيمة أخرى من الجوقة، وبعض الصلوات البسيطة. ثم نظر الكاهن إلى ساعته، وتوجّه نحو المذبح. كانت أعين الناس جميعهم متسمرة عليه، وكل من استطاع العثور على أي متكأ يمكنه اقتعاده، جلس بهدوء تام.

خشخس صوت المذيع لبضع لحظات. لكن القسّ عاجل إلى تحريك زرّه يمنة ويسرة عدة مرات، حتى وضُح صوت السيد تشامبرلين الذي كان يقول:

"إنني أتحدث إليكم من مجلس الوزراء في شارع دوننغ، لأعلمكم أن السفير البريطاني قد سلّم في هذا الصباح إنذاراً أخيراً للحكومة الألمانية، ينصّ على أننا سنمنحهم مهلة إلى الساعة الحادية عشرة ليعلنوا عن انسحاب قواتهم العسكرية من بولندا، وإلا فهي الحرب. وبما أننا لم نحصل حتى هذه اللحظة على أي تعهّد من الحكومة الألمانية، فإن بلادنا تعلن الحرب على ألمانيا."

أطلق قِلّة من الناس شهقات مكتومة، وأسرع غيرهم إلى تناول مناديلهم، أما البقية فاعتراهم وجوم أخرس. ثم انكسر جليد الصمت فجأة، عندما قال صبي الجوقة ذو الشعر البنيّ بصوت هامس: "أيعني هذا أننا لن نذهب إلى المدرسة؟"

قطب السيد بوش في وجه الصبي أمراً إياه بالسكوت. وتابع الناس الاستماع إلى خطاب السيد تشامبرلين بدون مقاطعة.

"أنا على يقين من أنكم ستؤدون واجبكم بشجاعة وحكمة. وعليكم الالتحاق بالخدمة وفقاً للتعليمات التي تلقيتُموها، واعلموا أنه من المهم جداً أن تواصلوا أداء ما تقومون به من أعمال. وليبارككم الله، ولينصر الحق. وثقوا أننا ما دمنا نسعى إلى محاربة الشر.. وقمع العنف والعقيدة المزيّفة والظلم والاضطهاد، فلا بدّ أن تكون الغلبة للحق."

أقفل السيد بيترس المذيع. وبعد وقفة صمت بدت شبه أبدية قال: "دعونا نصلي."

وعلى الفور جثا الناس على ركبهم بخشوع، واستغرقوا في الصلاة. لكن ويلي الذي استرق النظر إلى الجوقة من فوق يديه المشبوكتين، رأى أن عيني الصبي ذي الشعر البنيّ كانتا مصوّبتين على التوأم، في محاولة يائسة منه لتبليغهما رسالة ما.

بعد الفراغ من الصلاة، نهض الناس للإدلاء بتصريحاتهم من على منبر الوعظ. وانفقوا على التلاقي مساءً في قاعة اجتماعات القرية،

لتسجيل أسماء الراغبين في التطوع للإسعاف والأمن المدني. وتقرر على النساء والأطفال أن يقصدوا المدرسة في الصباح التالي لإجراء الترتيبات المتعلقة بتدريس الأطفال النازحين.

بدأ الناس يغادرون الكنيسة بعد انتهاء القداس، ليتجمعوا خارجها. وجالت عينا ويلي في المكان بحثاً عن الصبي الذي شاهده في مركز البريد، فوقعنا أثناء ذلك على صبي الجوقة البني الشعر والتوأم، ورآهم يتحدثون بجدية، ثم رأى أطفالاً آخرين ينضمون إليهم. لكنه لم يجد لذلك الصبي الغريب أثراً. فجأة، شعر بيد تجذب كم قميصه، فالتفت لبيصر أمامه لوسي بوجهها المتورد، وشفتيها الممتلئتين، وعينيها الزرقاوين المستديرتين، ونظراتها الوالهة الخجولة.

"ملهباً"، قالت.

"أهلاً..". أجاب ويلي باقتضاب وهو يلبط العشب بمقدمة إحدى فرديتي جزمته الجديدة. ثم ران عليهما صمت مربك، لم يفرجه إلا صوت توم.

"ويليام، اذهب إلى البيت يا فتى، وضع إبريق الماء على النار،" صاح توم. "إذ سألنا هنا قليلاً لأتكلّم مع القس".

شعر ويلي بامتنان عميق لهذه المقاطعة، فاستدار بسرعة، وهرع بخطى متعثرة نحو الممر، تاركاً لوسي وراءه، ترنو إليه بصمت حتى غاب عن ناظرها.

وقف ويلي في غرفة المعيشة ينتظر عودة السيد توم إلى البيت بقلق عظيم. وواصل حملته الواجبة في الإبريق الذي لم يكف ماؤه عن البقبة والغليان، حتى غلّف الغرفة بغمامة كثيفة من البخار. ورغم أنه حاول جاهداً تنحية الإبريق من على الموقد، لم ينجح إلا في لسع يده. وما إن دخل توم الغرفة التي تغطت بالضباب الدافئ حتى سارع إلى رفعه، مستعيناً بخرقه قديمة، من غير أن يرف له جفن. ثم انهمك في إعداد الشاي. ولم يلحظ ويلي وجود شخص ثالث معهما إلا عندما رأى توم يضع ثلاثة أكواب على الطاولة. كان الضيف رجلاً قصيراً، بديناً، متوسط السن، ذا شعر بني خفيف، وعينين لامعتين. وكان في

تلك اللحظة ما يزال واقفاً عند مدخل الباب يرمق ويلي بنظرات متفحصة جعلته يحمرّ خجلاً.

"تفضل يا سيد فليتشر،" قال توم للرجل بنبرة جلفة. ثم جلس وإياه إلى الطاولة. فبادر ويلي إلى تناول كوبه، وتكؤم فوق الكرسي الصغير قرب الموقد. كان إحساسه بأنه محطّ الأنظار قد سبب له ارتباكاً كبيراً، فقبّع في مطرحة بلا حراك، وسمرّ عينيه على نار الموقد بينما انبرى الرجلان يتناقشان حول طول وعرض الملجأ الذي أزمعا حفرة. لكنه ما لبث أن أخذ أذنيه عندما تهياً له أنهما بدأ يتحدثان عنه.

"آ.. أجل.. أجل، سوف يتدبّر أمره،" سمع توم يقول للرجل. "ولا بأس عليه من أن يعمل بالتراب مثلنا كلنا." ثم لمحّه ينظر إلى ناحيته موجهاً إليه الخطاب. "ويليام، ستضطر اليوم إلى توسيخ يديك بالتراب. ولكني لا أظنك ستمانع هذا، ها؟"
"لا يا سيد توم."

كان هذا العالم الجديد عالماً مختلفاً اختلافاً جذرياً عن عالمه. ففي عالمه.. كانت أمه لا تكفّ عن تذكيره بأن العمل أو اللعب في أيام الأحاد خطيئة لا تغفر. كانت تقول له إن يوم الأحد مخصص للجلوس بهدوء ولا شيء بين يدي المرء سوى الكتاب المقدس. بل.. بل.. لطالما نال عقاباً ليس مثله عقاب إذا وسّخ يديه أو ملابسه. حتى اعتاد أترابه في المدرسة على تلقيه بالخشن، لأنه ما جرؤ يوماً على تسلّق الجدران أو مشاركتهم في ألعابهم الخشنة القاسية لئلا تتسخ ثيابه. إضافة إلى.. إلى.. أن جسمه المشبع ضرباً وجلداً كان يؤلمه على الدوام. هذا عدا عن أنه لم يكن يعرف شيئاً عن أصول اللعب!
"ماذا إذا اتسخت ملابسي يا سيد توم؟" قال الفتى بعد مغادرة السيدة فليتشر.

"يمكنك خلع قميصك فالיום حار بما فيه الكفاية."

عندئذ، تلمل ويلي بعصبية فوق مقعده. فقال توم محتدّاً:

"ما الحكاية الآن؟ أهى الكدمات؟"

أوما ويلي برأسه.

"لا بأس، يمكنك ارتداء كنزتك الصوفية، ولكنها ستجعلك تتصبّب عرقاً. وفي جميع الأحوال يُستحسن أن تلبس جوربك القديم أيضاً." بعد وجبة الغداء المؤلفة من اللحم والبطاطس، والتي لم يستطع ويلي أن يتناول منها سوى بضع لقيمات، عاد السيد فليتشر بصحبة ولديه المراهقين. كانوا جميعهم يحملون معاول، وأدوات للقياس. وما لبثوا قليلاً حتى أشار لهم توم إلى بقعة معشوشبة عند طرف الحديقة. "يُستحسن أن نحفر هناك"، قال بوجه ممتعض. "فذاك مكان بعيد نسبياً عن كوخ المرحاض."

وهكذا، انهمك الرجال في جزّ طبقة العشب السطحية، وانتزاعها على شكل مربعات صغيرة. ثم باشروا الحفر ببطء وروية بعد قياس المسافات اللازمة. وشاركهم ويلي في العمل مستخدماً المعول الصغير الذي أعطي له. كان في البداية يشعر بالحياء والضيق. ولكن، وما إن مضت ساعة من العمل الكادح على قطاع الأرض الأفقي، نسي أنه محاط بالغرباء، وبدأ يندمج في الحفر. ورغم أن السيد توم أكّد له أن لا مدعاة هناك للخوف من الأرض، إلا أنه لم يطمئن كثيراً لتلك التربة الندية الرطبة، المتشبعة بأمطار الليلة السابقة. ولم يستطع مغالبة صيحات الفزع اللاإرادية المنطلقة منه كلما رأى معوله يلامس واحدة من ديدان الأرض. وكان صياحه يجعل الآخرين يغرقون في الضحك، ويهتفون وهم منكّبون على عملهم: "يا لأولاد المدينة!!" لكن ويلي لم يشعر بالامتناع منهم، لأنه اكتشف أن ضحكهم لم يكن ناجماً عن طويّة خبيثة.

جلس الجمع لتناول الشاي بعد إنجازه نصف العمل في الخندق. وساعد ويلي توم في تقديم الشاي. وعرف أن الشابين يُدعيان مايكل وإدوارد. كان مايكل الأكبر سناً، أسود شعر الرأس، وذو زغب متناثر فوق شفته العليا. أما إدوارد المشرف على سن البلوغ، فكان أكثر بدانة من أخيه، ذا صوت أجش، وشعر بني متموج.

جلس ويلي عند حافة الخندق الضحل، وضمّ كوب الشاي الساخن بين يديه بقوة، حتى آلمت الحرارة راحتيه. وبينما هو سارح مع أفكاره تنأهى إلى سمعه وقع أقدام وأصوات تقترب من سياج الحديقة. فوثب

من مكانه، والتفت بلهفة، يحدوه الرجاء في أن يكون القادم ذلك الصبي الذي شاهده في مركز البريد. ثم خاب أمله عندما رأى الصبيين اللذين اقتربا من حافة البوابة الواطئة، واستندا عليها. كانا شقيقي مايكل وإدوارد الصغيرين. أحدهما صبي الجوقة البُنّي الشعر، والآخر شقيقه الصغير الذي كان، بمعزل عن شعره الأسود، نسخة مُصغرة عن أخيه.

قَطَبَ توم كالعادة حينما رأى المتطفّلين غير المرغوب فيهما. غير أن صبي الجوقة تجرأ وقال:

"أيمكنني الحصول على الدود الذي في حديقتك يا سيد أوكلي؟"
نخر توم من خياشيمه، وعلى الفور أطلق الشقيق الأصغر ساقيه للريح.

"ممم.. أظن أنه يمكنك هذا يا جورج. هيا تعال."
"شكراً يا سيد أوكلي"، هتف جورج بصوت يملؤه الفرح، وسارع إلى فتح البوابة، والاقترب من الخندق حاملاً علبة صفيح كبيرة. ثم انكبّ على أكوام التراب مدقّقاً فيها. فبيس ويلي في أرضه مراقباً إياه بهلع شديد وهو يلتقط الديدان المتلويّة، ويحتجزها داخل علبته. وبعد مضي عدة دقائق، اكتفى جورج بما حصل عليه من ديدان، فخلع قميصه وبدأ يشارك الآخرين في الحفر. وبينما هو غارق في العمل حانت منه التفاتة لا إرادية نحو ويلي فضبطه يحدّق به.

"هل أنت أحد القادمين من لندن؟" سألّه.
أوما ويلي برأسه.

"ألا تشعر بالقيظ وأنت تلبس هذه الكنزة؟"
هزّ ويلي رأسه نافياً. إلا أن حبات العرق التي انهالت على وجنتيه المحمرّتين فضحته. وأفشت سرّه تلك الكنزة الندية التي التصقت بصدره.

"ولكن يبدو عليك عكس ذلك. فلماذا لا تنزع عنك هذه الكنزة؟"
ازداد ويلي انكماشاً، وهمهم قائلاً شيئاً ما، لم يستطع جورج سماعه، فقال له بإلحاح:

"ماذا؟ ماذا قلت؟"

عندئذ، تصدّى له توم بصرامة.

"الصبي مصاب بالحمى"، قال بصوت جلف. "ومن الأفضل له أن يعرق جيداً حتى يلفظها."

لم ينظر ويلي إلى جورج مرة أخرى بعد ذلك، ولكنه تابع الحفر بمزيد من الحماس.

وفي وقت لاحق من تلك الأمسية، جاءت السيدة فليتشر، وهي تحمل عصير الليمون والكعك للجميع. ثم غادر جورج بعد وقت قصير من قدوم أمه، مزهواً بعلبته العامرة بالديدان!

أما سام الذي ظل طيلة النهار يراقب الجمع المنهمك في حفر الخندق من زاوية الحديقة، فقد كان يشعر بتعاسة كبيرة لأن الكل أهمله. إذ حاول لعدة مرات تقديم يد العون للعاملين، غير أنه لم يكن يُقابل إلا بالصياح الغاضب، كلما قام بإعادة ملء تلك الحفرة بالتراب.

أخيراً، انتهى الرجال من حفر الخندق. فسارع سام إلى التمدّد عند قدمي ويلي الذي افترش العشب، وانبرى يراقب الآخرين وهم يشيّدون الملجأ الفولاذي داخل الخندق الصغير. ثبتت الرجال ست صفائح على جانبي الخندق الواسعين، ثم وصلوها مع بعضها من الأعلى، بحيث شكّلت عند القمة سقفاً مقوّساً. ووضع مايكل وإدوارد صفيحة فولاذية مسطّحة عند إحدى نهايتي الخندق، ثبتّها توم والسيد فليتشر في مكانها. كانت تلك الصفيحة تمثّل مؤخرة الملجأ، وفيها مخرج للطوارئ جرّبوه جميعاً بعد فكّ رتاجه للتأكد من فاعليته. كان ويلي غارقاً حتى أذنيه في متابعتهم، لدرجة أنه لم يشعر بسام الذي راح يلحق ركبتيه. لكنه وبدون وعي منه، أراح يده على ظهر الكلب باطمئنان عفوي.

أحكم توم والسيد فليتشر تثبيت مقدمة الملجأ ذات الفتحة القريبة من مستوى الأرض، والتي تؤدي دور المدخل الرئيسي. ثم التفت توم إلى الصبي وهو يقول:

"ويليام.. أ..". وللحال جمدت الكلمات على شفّتيه، إذ اعترته دهشة بالغة من مرأى ذلك الانسجام الغريب بين الفتى والكلب. ثم تمالك نفسه وتابع، "أ.. أترغب في تجربة هذا المدخل؟"

نهض ويلي وتقدّم نحو تلك الفتحة. أدخل رأسه بحذر، خطا بتحفظ إلى الأمام، ثم ولج الملجأ الصغير المظلم العبق برائحة التربة الرطبة. وتبعه توم الذي أهله السقف المحدوب لأن يقف بارتياح. وبعد هنيهة، عاد توم وزحف خارجاً، ثم مدّ يده ليساعد الفتى. وبادر إلى مصافحة السيد فليتشر وولديه شاكرًا لهم مساعدتهم.

"هذا من دواعي سروري يا سيد أوكلي"، قال السيد فليتشر. "فمن واجبنا جميعاً أن نمدّ يد العون إلى بعضنا الآن."

وما إن غادر آل فليتشر المكان حتى قال توم للفتى: "أخشى أنه ما زال علينا مواراة هذا الملجأ بالتراب يا ويليام. فهل تبقت لديك همة لذلك؟"

كان ويلي مرهقاً، ولكنه كان عازماً على الاستمرار. فأوماً برأسه موافقاً.

وهكذا، انهمك الاثنان في إهالة التراب على الملجأ حتى حان وقت ذهاب توم إلى قاعة اجتماعات القرية. فقال للفتى وهو يغلق البوابة الخلفية وراءه:

"لا تستمر في العمل لوقت طويل يا ويليام."

مع ذلك، واصل ويلي الانكباب على تكوين التراب وتسويته براحته الصغيرة. فقد كان من المثير بالنسبة إليه أن يرى الفولاذ اللامع وهو يختفي رويداً.. رويداً تحت ذلك الغطاء الترابي التموهية. وجعله انغماسه في العمل بكل حواسه يغفل عن أفول النهار. كان متسخ اليدين، قذر الأظافر، معفر الوجه والساقين بالتراب، ومخضّل الثياب بالعرق والوحل. لكنه.. رغم ذلك، كان يشع بهاءً وسط كل ذلك العالم الطيني.

فجأة، وبينما هو مستغرق في بسط كومة من التراب، حطّ على يديه ظل ما. رفع رأسه بسرعة مستطلعاً.. وهناك.. وسط أخيلة سدائل الغسق رأى الصبي النحيل، ذا الشعر الطويل المجعد الذي صادفه سابقاً في مركز البريد.

ماكس

"مرحباً،" قال الصبي الغريب بوجه باشٍ ماذا يده لويلي. وما إن تصافحا حتى انبعث صوت جرش من بين راحتيهما.
 "هاه.. أوه.. عفواً،" غمغم ويلي الذي شهق حرجاً.
 ابتسم الصبي الغريب، ومسح التراب عن يده بمؤخرة سرواله القصير.
 "اسمك ويليام بيتش، أليس كذلك؟"
 أوماً ويلي برأسه.

"تسرفت بلقائك يا ويليام. أنا ماكسيميليان ترينش."
 "أو ه!" هتف ويلي.

"نعم أعرف شعورك. إنه اسم يملأ الفم. ولاشك أن أهلي يتمتعون بحسٍّ للمرح غريب من نوعه، حتى يطلقوا علي مثل هذا الاسم. على كل حال، يدعوني الناس ماكس، اختصاراً."

إزاء هذا التعليق تسلط على ويلي شعور غريب مبهم. إذ تهيأ له بأن عيني ذلك الصبي الغريب كانتا تستطيعان اختراق أعماقه وقراءة أفكاره. فحاول تحاشي نظراته، والتفت إلى الملجأ بسرعة ليواصل إهالة التراب عليه، لكن الصبي سرعان ما بادره بقوله:

"اسمع، أيمكنني مساعدتك؟ إنني أرغب في هذا من كل قلبي."
 بُغت ويلي من السؤال غير المتوقع.

"أنا أعتبر نفسي بارعاً في هذا المضمار،" تابع الصبي مفاخرأً. "ولقد ساهمت فيه عدة مرات من قبل. لذا، كن على ثقة من أنني لن أفسد شيئاً."
 "حسناً،" أجاب ويلي بصوت هادئ، "يمكنك مساعدتي إذا كنت ترغب في هذا فعلاً."

"شكراً. والآن أخبرني، أتحب الاستكشاف؟" قال ماكس وهو يتناول حفنة من التراب، ويكوّمها على طرف الملجأ. "ما رأيك لو عرّفتك على المنطقة هنا؟"

هزّ ويلي كتفيه وهمهم:

"لا أدري."

"أهي زيارتك الأولى للريف؟" سأله الصبي الغريب.
ولكن، وقبل أن يتمكن ويلي من الإجابة، كان ماكس قد استطرد في الحديث.

"بالنسبة لي يا صاح، أنا، على وجه الدقة، لا أستطيع القول إنها زيارتي الأولى. فقد تسنى لي سابقاً أن أزور بعض القرى مع أصدقائي وأحياناً مع والدي. ولكنها في الحقيقة تعتبر إقامتي الأولى في الريف. إلا أنني قرأت كتباً عديدة تجري أحداثها في الريف، وقرأت أشعاراً عنه بالطبع. كما أنني عشت في مدن مجاورة لقرى كثيرة ما قصدتها أيام الأحاد، أو عندما لا أكون مضطراً إلى ارتياد المدرسة." بعد هذا الاستطراد الطويل من ماكس، خيمت على الصبيين فترة من الصمت، واصلاً خلالها العمل. ثم عاد ماكس وقال فجأة:
"لا أظن أنه قد مضى عليك وقت طويل هنا، أليس كذلك؟"
هزّ ويلي رأسه نافياً.

"طبعاً، أنا متأكد من هذا،" أردف ماكس. "وإلا لكنت لاحظتك في الجوار، فأنت مختلف عن الآخرين."

عندئذ، رفع ويلي رأسه بعصبية، وعينه بنظرة قلقة، ثم قال:
"أحقاً؟"

"نعم، لقد تملكني هذا الشعور منذ أول لحظة رأيته فيها. وقلت لنفسي هذا مخلوق متوحّد، وروح قد تكون هائمة كروحي."

عاد ويلي واجتلاه بنظرة سريعة. وشعر أن لسانه قد انعقد تماماً.
"أقيم مع السيد أوكلي؟" سأله ماكس
أوماً ويلي برأسه.

"إنه إنسان انعزالي نوعاً ما، على ما أعتقد."
"ماذا؟!" هتف ويلي.

"انعزالي، أي لا يحب الاختلاط بالناس."
"أوه!!"

"اسمع يا صاح،" قال ماكس بسرعة. "أتعرف أننا سنكون في المدرسة معاً؟"

هزّ ويلي كتفيه مرة أخرى، وغمغم:

"لا.. لا أعرف."

كان وجود ذلك الصبي الغريب يشعره بشيء من الارتباك. إذ استعصى عليه فهم هذه الصداقة السريعة المتدفقة من ولد لم يتسن له سوى إلقاء نظرتين عابرتين عليه. وبدا له أن كل شيء يجري بأسرع مما يستطيع استيعابه..و..

"حسناً، أظن أنك تعتبرني شخصاً اقتحامياً بعض الشيء،" قال ماكس. "ماذا؟!"

"أي.. أي مندفع. ولكن دعني أوضح لك عذري يا صاح. أترى، إن والديّ يعملان في المسرح، ولذلك أنا معتاد على التنقل المستمر من مدينة إلى أخرى. وهذا يحتم عليّ ألا أضيع الفرص من يدي. لذلك، حالما أجتمع بشخص أحبه، أسعى إلى مصادقته فوراً."

كاد ويلي يفلت كومة التراب التي كانت في قبضته. فلا أحد، لا أحد أبداً قال له إنه يحبه. ولطالما تقبل هذه الحقيقة؛ حقيقة أنه لم يكن محبوباً. حتى أمه كانت تقول له أنها لا تحبه إلا عندما يكون عاقلاً وهادئاً. ولكي تحبه، كان ينبغي عليه أن يكون غير مرئي لها.. غير مرئي أبداً.

واصل تكوين التراب على سطح الملجأ ليداري ارتبাকে. وبعد برهة عاد صوت ماكس ليقول:

"اسمع يا صاح، أنا لا أستطيع بلوغ القمة، فهل يوجد سلم في البيت؟" أوما ويلي.

"أتعرف أين هو؟"

"في الردهة، ولكنه يخصّ السيد توم."

"وهل تظن أنه سيمنع إذا استعملناه؟"

"لا أعرف،" هسهس ويلي الذي شعر بأنه قد أخذ على حين غرة.

"إذا كانت هناك أي مشكلة في هذا، سأتحمل العواقب بنفسني،" قال ماكس بنبرة مطمئنة. "أترى، أظن أننا نستطيع إنجاز العمل، وإعادة السلم إلى مكانه قبل عودته. وفي هذه الحالة سيكون الأمر مفاجأة له. هه، ما رأيك؟"

أوما ويلي باستسلام. فصاح ماكس بابتهاج:
"هيا، قد الطريق إذن.. واحد.. اثنان.. إلى الأمام سر.. إلى الأمام..
إلى.."

وبهذا الهتاف توجه الصبيان إلى باب البيت الخلفي.
في تلك الأثناء، كان توم قد بلغ قاعة اجتماعات القرية، مجتازاً
الطريق الذي حطت عليه أوائل خيوط الظلمة، بدون أي ضوء يتلمسه،
سوى نور السماء الذي أخذ يزوي بسرعة كبيرة. وشعر بشيء من
الجفول عندما دخل المبنى الساطع بالأضواء. فحجب عينيه بيده،
وطرف جفنيه عدة مرات كي يستطيع التكيف مع ذلك التغير المفاجئ.
وما كاد يطل على قاعة الاجتماعات حتى دُهِش من رؤية تلك الجمهرة
الكبيرة التي لم يكن يتوقعها. فحاول الدخول خلسة أملاً بأن لا يلحظه
أحد. ولكن السيدة ميلر التي لمحتة فور وصوله فوتت عليه هذه
الفرصة.

"هه.. هه.. يا سيد أوكلي،" بقبت السيدة ميلر. "يا لها من مفاجأة!"
وللحال برطم توم في وجهها ليكفها عنه.

كان جسم السيدة ميلر البدين محشوراً داخل أبهى حللها. وكانت
قبعتها الوردية الكبيرة التي ثققلت على رأسها، مزينة بزهرة بنفسج
كبيرة اصطناعية، تدلّت حتى لامست خديها المرقّشين السمينين.

هه.. كان يمكن أن تكون هذه القبة جزءاً من وجهها.. حدث توم
نفسه.. فالألوان تكاد تكون واحدة! ثم تتحنج وقال بصوت عالٍ:

"لقد دعانا القس إلى هذا الاجتماع، وهأنذا."

فأجابت السيدة ميلر:

"أجل، طبعاً.. طبعاً يا سيد أوكلي."

ألقي توم نظرة عاجلة على المكان، ورأى بعض الشبان ببزاتهم
العسكرية، وأقنعتهم الواقية المعلقة على أكتافهم. ثم شاهد السيد بيترس
القس، ونشارلي ردلز يجلسان في مقدمة القاعة مع السيد تاتشر،
والسيد بتشر. فتحاشاهم، وانسحب بهدوء إلى مؤخرة القاعة، محيياً
بحركة طفيفة من يده نانسي وزوجها الطبيب اللذين لمحمها من زاوية
عينه.

ولم يُجدِ الوقوف بعيداً أي نفع لتوم في تحاشي الناس. إذ راح أهل القرية يتواكزون ويلتفتون إليه بعيون محملقة. نعم، لقد كان توم، كما قال ماكس، شخصاً محبباً للعزلة. ومنذ وفاة زوجته ريتشل، لم يحضر أي اجتماع من اجتماعات القرية، ولم يساهم في أي نشاط من نشاطاتها. فقد جعله حزنه على زوجته، يفصم ما بينه وبين الناس من أواصر. فنبذ جميع أهالي ويروولد الصغيرة. ولما نجح في تخطي آلامه لاحقاً، اكتشف أنه فقد رغبة الانخراط في المجتمع، فلم يحاول وصل ما انقطع بينه وبين الناس من علاقات.

وحالما استقرَّ توم في وقفته، التفتت إليه السيدة فليتش التي كانت تجلس على أحد كراسي الصف الخلفي، وقالت له وهي منكبة على حياكة الصوف الذي بين يديها:

"مساء الخير يا سيد أوكلي. أتركت الصبي في البيت؟"

"تركته مع سام"، أجاب توم بنبرة متحفزة. إذ كان في الحقيقة مندهشاً كثيراً مما أبداه سام من رغبة في ملازمة الفتى. بل ولم يكن بمقدوره أن ينكر إحساس الغيرة الذي ألمَّ به في المساء، ساعة رأى الكلب منبطحاً باطمئنان على العشب، عند قدمي الفتى.

أخيراً، اكتمل الحضور، وافتتح السيد بيترس الاجتماع ببيان ما ورد في خطاب الملك للناس الذين فاتهم سماعه. رغم أن كل من يملك مديعاً من أهل القرية، ترك باب بيته مفتوحاً ليتيح لغيره فرصة الاستماع إلى ذلك الخطاب. ثم أشار في نهاية حديثه إلى نظام التعتيم، وحمل الأقنعة الواقية. أما السيد تاتشر، الرجل الطويل الأصهب، ووالد التوأم، وأختهما اليافعة فتحدّث عن الإجراءات التي ينبغي القيام بها عند وقوع الغارات الجوية. ثم وُزعت الجزمات المطاطية والمعاطف الواقية من المطر على المتطوعين. وتقرر أن يكون مركز التدريب على الإسعاف الأولي في منزل الطبيب ليتل وزوجه نانسي، وأن تكون قاعة اجتماعات القرية مركز استشفاء.

فجأة، رفعت السيدة ميلر ذراعها السمينه عالياً، وأعلنت عن رغبتها في التطوُّع لإدارة مقصف مجاني من أجل الجنود الذين ربما سيمروُن بالقرية. فاستقبل اقتراحها بنوبة من الضحك، لمجرد التفكير بأنه قد

يوجد هناك أي شخص يرغب في تكليف نفسه مشقة ارتياد الطريق المؤدية إلى ويروولد الصغيرة. ولكن ليليان بيترس، التي لاحظت ما اعتري السيدة ميلر من حرج بالغ، قالت إنها تظنها فكرة جيدة، واقتрحت تعديلها إلى ترتيب لقاء أسبوعي بين الأطفال النازحين وأمهاتهم. فجلست السيدة ميلر مشرقة الوجه لاقتناعها بأنها هي صاحبة هذه الفكرة السديدة. ثم أعلن السيد بوش أن السيدة بلاك وافقت على المساعدة في المدرسة التي ستضم سبعين تلميذاً إضافياً. وعندما سمع توم هذا الخبر غمغم قائلاً:

"لاشك أنها ستجهد كثيراً قبل أن تتمكن من تولي زمام أولئك الأطفال المدنيين."

إذ كانت تلك السيدة الرزينة المسالمة قد تقاعدت عن العمل في المدرسة منذ سبع سنوات.

بدأ أهالي القرية بعدئذ، يتهافتون على إعلان تطوعهم لتولي مختلف المهام الأمنية. ولكن توم واصل التزامه لجانب الصمت. فحياته المنظمة الهادئة كانت، في الحقيقة، هائلة بما فيه الكفاية. مادام معنياً بشؤونه الخاصة بعيداً عن تطفل الناس.. وآخر.. آخر ما يبتغيه.. هو التحول إلى فاعل خير. لكن هذا الواقع ما كان ليحجب عنه الحقيقة؛ حقيقة إقبال أولئك المتطوعين على فتح قلوبهم، وبيوتهم بصدق ومحبة. ثم حان دور السيد تاتشر، فناقش موضوع ساعات المناوبة لمراقبة الحرائق. واختتم قائلاً:

"ليس من المسموح لأي شخص أن يناوب أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة في الشهر، أي بمعدل بضع ساعات فقط يومياً." في تلك اللحظة، رفع توم يده عالياً. فنظر السيد بيترس إلى مؤخرة القاعة، وسأله بدهشة:

"نعم يا توم؟ أترغب في قول شيء ما؟"

"أريد التطوع في نوبات مراقبة الحرائق"، قال توم.

"ماذا قلت؟!" هتف السيد تاتشر بذهول. "اعذرني يا سيد أوكلي، ولكني لا أظن أنني سمعتك بوضوح!"

"أريد الالتزام بساعتي حراسة في اليوم، باكراً في الصباح، أو خلال فترة تناول الشاي. فأنا لا أستطيع ترك الفتى وحده في الليل."

أسرع السيد تاتشر إلى تسجيل اسم توم وهو يقول:
"لا، لا، طبعاً لا تستطيع هذا."

سرت في القاعة همهمات دهشة وغبطة. وعلى الفور، وقفت امرأة
فارعة القوام، نحيلة الجسم، وقالت للسيد تاتشر:
"سجل اسمي أنا أيضاً."
كانت تلك المرأة إميلييا ثورن.

"وبما أننا مجتمعون كلنا هنا،" أردفت الآنسة ثورن موجّهة حديثها
للناس، "أود إعلامكم أن مسرح الهواة يرحّب بكل من يرغب في
الانضمام إلى فريقه. ونظراً إلى أن لقاءاتنا أُجّلت الآن إلى أيام
الخميس، سيظلّ بإمكانكم حضور جلسات التدريب على الإسعاف
الأولي أيام الأربعاء."

عندئذ، ارتفعت وفرة من الأيدي، وتمّ تسجيل أسماء أصحابها، مع التفاصيل
التي تشتمل عليها واجباتهم. وبذلك أوشك الاجتماع على الانقضاء.
غادر توم القاعة ليجد أن الليل كان قد خيم نهائياً. فيمّم وجهه شطر
الدرب المقنطر بأغصان الأشجار، تاركاً أصداء الثرثرة والضحك
تخبو خلفه بالتدرّج، ومسترجعاً بذهن منغلّ وقائع الاجتماع. تذكر أن
السيدة فلييتشر وإميلييا ثورن تحدثتا معه، وأن الطبيب سأله عن ويليام،
وأنه قال شيئاً عن ذهاب الصبي الذي يقيم عنده لزيارة ولي.

كان الظلام شاملاً تحت جوانح الأغصان المتشابكة، ولم يستطع توم
تمييز أشكال الأشجار، و دوبس، وجدار الكنيسة إلا بعد وصوله إلى
حدود مرعى الفرس. فسارع إلى فتح البوابة، ثم صفقها خلفه بعصبية.
"أراهن على أن ريتشل تضحك عليّ الآن من صميم قلبها،" غمغم
بوجه متجهّم. فهو إضافة إلى تطوّعه في نوبات مراقبة الحرائق،
عرض خدمات دوبس، والعربة عندما علم أن الأخبار الجديدة تنصّ
على تخفيض حصص الوقود.

دنا من الفرس وربّت على ظهرها بلطف.
"يجدر بي يا فتاتي العاقلة أن أحضر لك قناعاً واقياً أنت أيضاً،" تتمم
مخاطباً دوبس. "إذ يبدو لي أنني وإياك قد أصبحنا غارقين في هذه
القضية حتى قمة رأسينا."

رنا إلى النجوم التي تبعثرت في صفحة السماء..
رباه.. قال لنفسه.. أيمكنه التصديق أن الحرب على وشك النشوب،
وهو يرى هذه الليلة الساكنة المسالمة!
فجأة، تذكر ويلى، فحث خطاه نحو البيت.

"أرجو أن يكون عاقلاً إلى درجة تفكيره بالدخول إلى البيت،" غمغم
وهو يفتح البوابة الخلفية الصغيرة. ثم أخذ نظره مستشفاً موضع الملجأ
الذي كاد أن يصطدم به، لولا سماعه أصواتاً كانت تتصاعد منه،
فنادى بسرعة:

"ويليام! ويليام! أين أنت؟"

أجاب صوت قريب منه:

"هنا يا سيد توم."

نظر توم ملياً نحو مصدر الصوت.

"هه، ألا يوجد في رأسك عقل ينبئك بضرورة دخول البيت يا فتى؟
ستصاب بالمرض حتماً وأنت ترتدي هذه الكنزة المبللة،" قال موبخاً
ويلى. لكنه ما لبث أن سمع صوت خربشة من الملجأ، تلاها ظهور سام الذي
زحف خارجاً، وأقبل عليه جاذباً بنطاله بهياج. فحمله فوراً وقد عمرت نفسه
بالسرور لأنه في النهاية لم يحرم من ودّ ذلك الكلب.

وبينما انهمك سام في لعق وجه سيده وهو يلهث ويوعوع، سمع توم
صوتاً فصيح اللسان يقول:

"كانت فكرة البقاء في الملجأ فكرتي!"

"ماذا؟ من هذا؟" هتف توم بصوت فظ.

"أنا يا سيد أوكلي،" أجاب ماكس وهو يلمس كُم توم بيده. فزوى توم
ما بين عينيه ليتمكن من رؤية صاحب الصوت، لكنه لم يستبن في ذلك
الظلام سوى ما بدا له أشبه بهيئة بنت صغيرة.

"لقد رأيت أنه من المشين فعلاً أن ندخل البيت في ليلة كهذه،" تابع
ماكس. "ولذلك أقنعت ويل بالبقاء معي هنا لبعض الوقت."

"ومن يكون ويل هذا؟" سألته توم بنبرة وشت بحيرته.

"أوه، إنه الاسم الذي أطلقته على ويليام. أخبرني أن الناس ينادونه
ويلى، ولكنني اعتقد أن حامل اسم كهذا لابد وأن يستحث الناس على

السخرية منه، ألا توافقني الرأي يا سيد أوكلي؟ أعني.. أعني أنه يكاد يماثل اسم ماكسيميليان ترينش في سخفه."

"ماذا؟" استوضحه توم.

"ماكسيميليان ترينش. هذا هو اسمي، ولكنني أدعى ماكس اختصاراً."

"آها.. فهمت."

رأى السكون على الأخيلة الواقعة التي حدق بها ويلي طويلاً، حتى خيل إليه أن تحديقه بات أدياً. لكنه، رغم ذلك، كان قادراً على سماع خفيف لسان سام وهو يلحق وجه توم، ووشوشة نسيم لطيف راح يزحف متسللاً من بين الأشجار.

"يُستحسن أن ندخل البيت"، قال توم أخيراً.

فاندفع الجمع إلى الردهة، ومنها إلى غرفة المعيشة. وهناك سارع توم إلى وضع أغطية التعقيم، وإضاءة المصابيح. ثم أعدّ الشاي وأخذ موقعه المعتاد قرب الموقد. وفي غمرة الضوء الشاحب راح الثلاثة يتفحصون بعضهم.

كان ويلي معفراً بالتراب والوحل من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. وبدت قذارة يديه جليلة الوضوح بالتعاكس مع بياض الكوب الذي كان يمسكه. أما ماكس، الذي جلس مطوّقاً كتفيه العاريتين بكنزة حمراء، وثبت سرواله الأخضر القصير المرتوق بحمالة خاصة بالكبار، فقد اكتشف توم أنه كان صبيّاً مهذاراً، أجعد الشعر، عاري الساقين إلا من الصندل الذي انتعلته قدماء، أكبر من ويلي ببضعة أشهر فقط، ولكنه أطول منه. ورأى أيضاً أنه كان في حاجة ماسة إلى جزّ شعره الطويل.

"أنهيت الملجأ إذن يا فتى، ها؟" قال توم أخيراً وهو ينظر إلى ويلي.

أوما ويلي ونظر إلى ماكس.

"لقد ساعدني في العمل."

"يبدو لي أنكما أدبتما عملاً جيداً، ولكن كيف وصلتما إلى القمة؟"

عندئذ، خيمت على الغرفة لحظة صمت ثقيلة، ثم همهم ويلي بصوت

مبحوح:

"استعنا بالسلم."

"أجل،" قاطعه ماكس على الفور. "ولكن الفكرة كانت فكرتي أنا." "هه، هكذا إذن."

"نعم يا سيد أوكلي،" أجاب ماكس.

"وهل أعدتُما السلم إلى مكانه؟"

"طبعاً يا سيد أوكلي. ولكنني أخشى أنه قد تلتطّخ بالوحل قليلاً."

حشا توم غليونه ببعض التبغ وأشعله من جديد.

"وأين تقيم إذن يا ولد؟ من المؤكد أنك لست من أهل هذه المنطقة، ها؟"

"أقيم مع الطبيب وزوجه نانسي. وقد مضى على وجودي هنا أسبوع تقريباً."

"عجباً،" قال توم. "أنا لم أرك في الجوار من قبل."

"وأنا أيضاً لم أرك في الجوار يا سيد أوكلي،" أجاب ماكس، ثم التفت

بسرعة ليعاجل ويولي بلكمة على ظهره عندما شَرَق بجرعة من الشاي.

فقفز الأخير من مكانه مجفلاً، إذ كان جسمه المقرّح ما يزال يؤلمه.

"أوه، ما بك يا صاح؟" بعبع ماكس مستكراً. "أيعقل أنك واحد من

أولئك الأشخاص الهشين؟"

"لا، إنه ليس كذلك،" دمدم توم بنبرة حادة. "على الأقل ليس بعد الآن."

"ياه، لقد بلغ الوقت الساعة التاسعة!" هتف ماكس عندما وقعت عيناه

على الساعة فوق المكتبة. "أشكرك على الشاي يا سيد أوكلي،" تابع

وهو ينهض من مجلسه. "وأود استئذنانك في الحضور غداً لرؤية ويل،

فهل تسمح لي بهذا؟"

"عليك أن تسأل ويليام، فالقرار قراره هو."

كان ويولي خائر القوى بعد يومه المجهّد، لدرجة جعلته يشكّ في صحة

تلك العبارة الأخيرة التي طرقت أذنيه..

أتراها من نسج خياله.. أم.. أم أنه قد سمعها فعلاً؟!

وسرعان ما قطع ماكس الشك باليقين عندما سأله بجديّة:

"أيمكنني الحضور يا ويل؟ أنا أعرف لعبة رائعة يمكننا أن نلعبها معاً."

"آها.."

"أترى، إنها تسمى لعبة الساحر غلا غلا!!" هتف ماكس قبل أن ينهمك

في التعارك مع كنزته التي راح يحاول جاهداً إدخالها من رأسه. وبعد

كثير من الشدّ والجذب بدأت تنزل بالتدريج، منفرجة قليلاً عند أنفه وأذنيه، ومشعّنة شعره في جميع الاتجاهات، حتى بدا أشبه بالأسلاك الرفيعة. "أف، ها قد نجحت أخيراً!" قال بأنفاس متقطعة. "إن أمي لا تكفّ عن تحذيري من النمو، قبل أن تتمكن من الحصول على صوف كافٍ لتحكيك لي كنزة أكبر من هذه. والآن..". تابع وهو يربّت على فراء الكلب، "تصبح على خير يا سام."

"قُم يا ويليام، ورافق صديقك إلى الخارج"، قال توم لويلي. فوقف الأخير بجسم مترنح مثقل بالنعاس، وتبع ماكس إلى الردهة، مغلقاً باب غرفة المعيشة خلفه. فتعالى صياح ماكس على الفور. إذ جعله الظلام يتعثّر، ويخبط ركبته بطرف السلم. ثم فتح ويلي الباب الأمامي للبيت. وشعر بالقشعريرة تسري في جسمه حالما استقبل النسيم الطري المتلاعب بأوراق الحشائش، بين القبور الحجرية، تحت السماء الوديعّة المتلائنة.

"إن كنزتك رطبة كثيراً يا ويل"، قال ماكس وهو يتحسّس كنزة ويلي. "ولا داعي لأن تخرج كيلا تصاب بالتهاب رئوي"، أردف وهو يتلفت حواليه متفقداً فناء المقبرة بحذر. "إنني أحاول التأكد من عدم وجود جواسيس"، أوضح. "وبشأن لعبتنا غداً، أريد أن أسألك إذا كنت تعرف القائد ماك بليد."

"أتعني تشارلي ردلز؟!"

"لا..". ردّ ماكس بنبرة حانقة، "القائد بليد شرطي الفضاء..".

"أهو رئيس وزراء أو ما يشبه هذا؟!"

ألقي ماكس نظرة أخرى حواليه ثم قال:

"لا، لكنني سأخبرك المزيد عنه غداً، و سأخبرك أيضاً عن روجر ويلكو وعالم الماوراء. فالى اللقاء يا صاح."

ترى... من يكون روجر ويلكو هذا؟ وماذا عنى بعالم الما وراء؟؟

راح ويلي يسائل نفسه، بينما وقف يراقب ماكس وهو يعبر الممر باتجاه الكنيسة، ويقفز من فوق الجدار مختفياً. ثم عاد أدراجه إلى الردهة، وتحسّس طريقه إلى غرفة المعيشة. وهناك، رأى توم يصبّ الماء الساخن في مغطس نحاسي كبير وضعه على مقربة من الموقد. ورأى سام متكوماً تحت الطاولة وهو يعاين المغطس بارتياح.

"لا تقلق يا سامو، إنه ليس لك"، قال توم مطمئناً الكلب، ثم نظر إلى ويلي. "ستشعر بتغيير في جسمك غداً يا فتى، ولذلك يُستحسن أن تسترخي في الماء قليلاً."

حدق ويلي هلياً بفقااعات الماء الساخن، وتراجع مختبئاً خلف الطاولة، حيث راقب توم يتناول قدرتي ماء آخرين من فوق الموقد، ويفرغهما في المغطس مع قبضة من الملح.

"هيا تعال الآن يا فتى"، قال توم أخيراً.

"أهو من أجل ملابسك يا سيد توم؟"

"إنه لك."

ابتلع ويلي ريقه بصعوبة بالغة، وقال بنبرة متوسلة:

"أرجوك يا سيدي، أرجوك، أنا لا أحسن السباحة، وسأغرق في هذا الحوض."

"ولكن ألم يسبق لك يا فتى أن..". همهم توم، ثم أحجم عن تكملة سؤاله الذي بدا له سخيفاً. "لست مضطراً إلى غمر رأسك تحت الماء يا بني. كل ما عليك عمله هو الجلوس فيه لتغتسل، وتسترخي على ظهرك."

طبعاً، لم يكن أمام ويلي إلا أن يرضخ للأمر الواقع. لكنه استغرق فترة من الوقت قبل أن يترك نفسه على سجيبتها في الماء. ناوله توم لوح صابون كبير مربع وعلمه كيف يستعمله. ثم غسل له شعره عدة مرات بعزم كبير، حتى ظنّ الفتى أن رأسه سينفصل عن جسمه. وعندما حاول فرك عينيه ليخلصهما من أثر رغوة الصابون الحارقة، اكتشف أن هذا العمل قد سبب له المزيد من الوخز والألم.

بعد محنة الصابون والفرك والدعك، استبقاه توم في المغطس ليستلقي قليلاً. وشيئاً فشيئاً بدأ الفتى يشعر بالاسترخاء. فتمسك بجانب المغطس تاركاً ساقيه تطفوان باستسلام على سطح الماء. وأبحر مع بصيص مصباح السقف الذي كان يبقب فوق رأسه، ويرسم على الجدران أشكالاً من الأخيلة المتراقصة. ثم شعر بأنه على وشك ولوج عتبة النوم، فانتفض مذعوراً. وعلى الفور ناوله توم منشفة ليجفف نفسه.

لم يمض وقت طويل إلا وكان ويلي قد انتهى من تجفيف شعره، وتمشيطة، وارتداء منامته. ثم أخذ موقعه على المسند الصغير قرب

توم استعداداً لسماع حكاية ذلك المساء. أما سام فسارع إلى التمدد على الأرض بينهما.

"سأتصفح القصة أولاً، ثم سأرويها لك بطريقتي، كما فعلت بقصة نوح، أيناسبك هذا؟"

أوما ويلي موافقاً وهو يعانق ركبتيه بذراعيه.

"حسناً يا فتى، سأروي لك الليلة قصة خلق الله للكون."

وهكذا، بدأ توم يحكي عن النور والظلمة، عن خلق السماء والبحر، عن خلق الأسماك والحيوانات، وعن خلق آدم وحواء. ثم أعدّ كوبين من شراب الكاكاو، والتفت إلى قراءة أول قصة في كتاب: ريدارد كيبينغ.

"أنا لم أقرأ هذا الكتاب منذ زمن بعيد،" قال وهو يميل على ويلي.

"اقترّب.. اقترّب يا ويليام وتأمل هذه الرسوم."

دنا ويلي منه، واستند على ذراع الأريكة، وأصغى مشدوهاً إلى: كيف حصل الحوت على حنجرته. وكان توم يتابع القراءة ببطء، لأنه كثيراً ما اضطر إلى التوقف ليفسر للفتى معاني الكلمات الصعبة، أو ليبحث في المعجم عن الكلمات التي استعصت عليه هو.

في تلك الليلة، استلقى ويلي في سريره منهكاً وموجوعاً. لكنه، ولأول مرة في حياته شعر بأن الوجع الذي ألمّ به كان وجعاً لذيذاً. وحالما أخذ إلى النوم، رأى في أحلامه حوتاً كبيراً يلاحق آدم وحواء، ورأى نفسه واقفاً في جنة عدن يتساءل عن كنه الله، ويتناول مقادير لانهاية من حساء الذكاء!

مواجهة بين أجمات العُلق

عَلَقَ توم وويلي غطاء المشمع والمنامة على حبل الغسيل، ثم ألقيا نظرة على داخل الملجأ.

"هه.. مساء!" تتم توم بامتعاض. "كان يجدر بي أن أعرف هذا مسبقاً. يجب أن نضع مضخة لتصريف الماء على مقربة من هنا،" تابع وهو يسوي براحتيه جانب تلك الكتلة الترايبية العجيبة. "وسأهيل المزيد من التراب على سطح الملجأ اليوم، حتى نتمكن من زراعة اللفت، أو ما يشبه ذلك عليه. أخبرني يا فتى، هل زرعت أي شيء في حياتك؟" أردف ملتفتاً إلى ويلي.

هزّ ويلي رأسه نافياً. "لا بأس، هناك دائماً ما يسمّى بالمرّة الأولى. تعال اتبعني، أريد أن أريك شيئاً."

تبع ويلي توم إلى البوابة الخلفية، ثم مضيا عبر الدرب الصغير يلحقهما سام راكضاً. وبدلاً من أن ينعطفا شمالاً باتجاه القرية، تتبعا الطريق المؤدي إلى اليمين. وبعد قليل من السير أفضى بهما المطاف إلى مسلك ترابي صغير ناءٍ عن الطريق.

كان التيبس الذي شعر به ويلي في أعضاء جسمه عندما استيقظ، قد بدأ يخف شيئاً فشيئاً. ماعدا كعبيه طبعاً، فالجزمة كانت ما تزال تؤلمهما. وفي ذلك الصباح أفاق وهو يحس بطاقة متأججة غريبة عليه تعتمل داخله. طاقة، أثارته وأخافته.. هو.. هو الذي برع دائماً في التزام جانب الهدوء، لأنه من سوء الخلق ألا يكون هادئاً. أجل، كان يعرف هذا حق المعرفة. ولكن، ماذا عن هذه الرغبة الفتاكة التي تحفره على القفز والوثوب؟

ضغط على شفّتيه، كوّر قبضتيه بعزم، وقطّب جبينه.. عسى.. عسى أن ينجح في قمع تلك المشاعر الجديدة المستهجنة، أو حتى تخديرها.

لكن توم، ما كان ليخفى عليه ذلك الحماس المشتعل الذي راح يبصر من وجه الفتى. فقال له وهو يشير إلى البوابة التي تبعد عنهما مسافة مائة ياردة:

"ما رأيك يا فتى أن تسابق سام إلى البوابة؟ وسأمسكه لك لأمنحك فرصة الانطلاق قبله."

"أتعني أن أسابقه جرياً يا سيد توم؟"
"هه، لاشك أنني في جميع الأحوال لا أقصد أن تسابقه طيراناً. هيا استعد الآن. وعندما أقول انطلق، ما عليك سوى الانطلاق."

وهكذا، صفر توم مستدعياً سام، ثم أمسكه وطوقه بذراعيه. فانبرى الكلب يتلوى ويفرفر عندما وجد نفسه أسيراً.

"إنك مصاب بحمى مطاردة الأرانب والعظام يا صغيري، أليس كذلك؟" قال توم وهو يجاهد ليبقي الكلب تحت سيطرته. أما ويلي فبادر إلى الوقوف وقفة استعداد، بأنفاس محبوسة، وعينين مسمرتين على البوابة. "حسناً يا فتى"، قال توم. "والآن، استعداد، و... إلى...
الأمام.. انطلق!!"

اندفع ويلي قدماً، مكوّر القبضتين، نصف راكض، نصف متخطب. ثم.. دجججججج! هوى واقعاً على وجهه، فارتطمت ركبته بالأرض بعنف. لكنه، تحامل على نفسه، ونهض ليتابع الجري مترنحاً، يملأ قلبه مزيج من اليأس والغضب.

لقد.. لقد أراد أن يركض كما ينبغي، ولكن هاتين الساقين الغبيتين خذلته.

سمع سام ينبح خلفه، وتناهى إليه صوت توم مشجعاً.
"هيا، لقد كدت تصل"، صاح توم. "انطلق.. انطلق يا ويليام!" ثم، وقبل أن يعي توم ما الذي كان يفعله وجد نفسه هو الآخر يجري مع الفتى والكلب.

ما إن وصل ويلي إلى البوابة حتى استند عليها بوجه مكدر، واستكان قليلاً ليلتقط أنفاسه. أما سام؛ ذلك الرابع بدون مشقة، فربض على الأرض قرب قدميه رابط الجأش.

"هيا ابتهج يا فتى"، قال توم مواسياً. "إنها ليست نهاية العالم."

لكنها، كانت كذلك بالنسبة إلى ويلي.

إن ما يقوله عنه أترابه في المدرسة صحيح.. قال لنفسه متحسراً..
صحيح فعلاً.. فهو رغم كل شيء ويلي المخنث.. ويلي الضعيف..
الواهن.

شعر بغصة التعاسة تقبض على حلقه، فصرّ على أسنانه، وأطبق فكّيه
بقوة، كي لا يجلب العار لنفسه بالانفجار باكياً.
"ما بك يا فتى؟" سأله توم. "مبتئس لأن سام غلبك؟ أهذه هي الحكاية؟
ها؟"

أوما ويلي برأسه، وحقق في الأرض.
"لا تتوقع أن تكون ماهراً منذ المحاولة الأولى يا بني. إن الأمر يتطلب
بعض الوقت والتمرين. وتذكّر أن سام تمرّن أكثر منك بكثير.
ولكنك، في جميع الأحوال استطعت التغلب علي أنا. أليس كذلك؟"
رفع ويلي رأسه، وابتسم ابتسامة واهية.
"نعم.. نعم.. لقد غلبتك يا سيد توم!"

"لا داعي لأن تُظهر كل هذا الابتهاج لأنك غلبتني يا فتى،" دمد توم
بنبرة متبرمة، ثم فتح البوابة التي كانا يقفان عندها. "والآن.. ما
رأيك؟"

وجد ويلي نفسه أمام حقل كبير. تتوج في قسم منه كثبان وكثبان من
التربة الزراعية التي نتأت منها أوراق الخضار المختلفة. بينما عمر
قسمه الآخر بأجمات الأشجار الحبلية بالتفاح والأجاص.

"لدينا هنا ملفوف وفاصولياء وبسلة وقرنبيط وكرنب وبطاطس، وكل
ما يخطر على بالك من أنواع. وسيكون علينا أن نقطفها عما قريب.
وعندما يحين قطافها يمكنك مساعدتي يا فتى."

عاد توم وأغلق بوابة الحقل من جديد، وتتبع مع الفتى والكلب المسلك
الترابي إلى البيت. وهناك، انهمك وويلي في تغطية جوانب الملجأ
بمزيد من التراب. وبينما هما كذلك، وصل ماكس.

"أعبرت من مرعى دوبس يا ولد؟" سأله توم بصوت حادّ النبرة.
"نعم، وقد أغلقت خلفي البوابتين،" أجاب ماكس. فعبّر توم عن رضاه
بنخرة من خياشيمه.

"أيمكن أن يخرج ويل ليلعب معي يا سيد أوكلي؟" أردف ماكس.
"ألا ترى أنه هنا يا ولد؟"

"بلى، أعتقد هذا"، قال ماكس بعد برهة من التفكير. "ولكنني في الواقع استعملت التعبير المجازي للعبارة، ولم أعر المعنى المباشر الكثير من الاهتمام."

"من أين تأتي بكل هذه الكلمات الغريبة يا فتى؟"
"أهي حقاً غريبة يا سيد أوكلي؟"

"هه، إنها على أقل تقدير ليست مألوفة."

"هذا ما يُقال لي بين حين وآخر"، أجاب ماكس وهو يتنهد. "ولكن، يا للعجب! بالله عليك يا ويل ماذا فعلت بشعرك؟"

نظر ويلي إليه بدهشة، ومرّر أصابعه بين خصلات شعره. إنه يعرف أن الحكمة قد زالت من جلدة رأسه مخلفة مكانها لذلك الوخز الخفيف الذي يشعر به، ولكن..

"ما العيب في شعري؟"

"آ.. لا عيب فيه على الإطلاق، إلا أنه يبدو لي مختلف اللون. كل ما في الأمر هو أنني لم ألحظ من قبل أنك أشقر الشعر."

كانت ملاحظة ماكس صحيحة، إذ كان ذلك الشعر المتلبّد بلونه القاتم الخابي الذي كسا رأس ويلي في السابق قد اختفى، وحل محله شعر أشقر لامع.

"حسنًا.. هيا، اذهب والعب مع رفيقك يا ويليام"، قال توم.

"الْعَب؟"

"نعم.. لعب."

"معذرة يا سيد أوكلي"، قاطعهما ماكس. "أيمكنني قبل ذهابنا أن ألقى نظرة على الملجأ من الداخل؟ فأنا متشوق إلى رؤيته في وضوح النهار."

"افعل ما تريد، و..". بدأ توم، ولكن، وقبل أن يتمكّن من تحذير الفتى، كان ماكس قد قفز إلى الداخل. وعلى الفور، تصاعد من الملجأ صوت خوض في الوحل. ثم بدأت قدما الصبي تغوصان في التربة المشبعة بالماء، كما لو أنهما كانتا تغرقان في كثيب من الرمال المتحركة.

"ألا تنتظر أبداً قبل أن تقفز يا ولد؟" صاح توم.

"أحياناً، ولكن يبدو أنني لم أفعل ذلك الآن."

فجأة، سمع توم صرير البوابة الخلفية، فتحول عن ماكس، والتفت مستطلعاً، فرأى جورج الذي كان يتقدم نحو الملجأ بجبين مقطّب، ويدين محشورتين في جيبي سرواله.

"مرحباً يا سيد أوكلي"، قال جورج. "إننا ننوي أنا والتوأم الذهاب لقطف العليق، والتنزّه، فهل..". تابع رامقاً ويلي بطرف عينه، "هل يرغب ويليام في مرافقتنا؟ تقول أمي إنها ستعدّ طعاماً يكفيها جميعاً."

"اسمع يا صاح"، هتف ماكس وهو يقم رأسه خارج فتحة الملجأ. "أيمكنني مرافقتكم؟ سأجلب معي طعاماً أنا أيضاً."

حملق جورج في ماكس مصعوقاً، وتنهّد في سرّة..

يا لهم من مخلوقات غريبة الأطوار أبناء المدينة هؤلاء. وكم هي مختلفة طريقتهم في الكلام، وعجيبة أساليبهم. ألا يكفيهم اضطرابه إلى دعوة ذلك الصبي ويليام للخروج معهم، مع ما تعنيه دعوته من تطفل وإزعاج. أف من أمه ومن اقتراحتها!

"من فضلك"، توسّل ماكس بأسلوب ذكي.

"حسناً، يمكنك هذا."

أكان باستطاعته قول غير ما قاله؟ حدّث جورج نفسه بحنق.. رباه، كم يشعر بالغضب! بل وكم ستغضب منه الشقيقتان.. و..

انقطع سيل أفكاره على صوت ماكس وهو يقول:

"إنني يا رفاق أعاني من مشكلة صغيرة هنا. فأنا في هذه اللحظة أشبه العملاق كيتون."

تفرّس فيه جورج محتاراً.

نعم، نعم.. قال لنفسه.. لاشك أنه فتى غريب الأطوار.. لا جدال في هذا على الإطلاق.

لكن ماكس تابع:

"صديقاً إنني كذلك. ما عليكم إلا أن تلقوا نظرة علي."

أرعى ماكس يديه على جانبيه، ومال منحنيّاً إلى الأمام بدون أن يتعثّر، أو يخرّ على وجهه. وعندما لم يتلق أي ردّة فعل من الآخرين عاد وقال:

"ألم تفهموا ما أعني؟ ألا يعرف أحد منكم من هو العملاق كيتون؟"

حينئذ، صاح به توم زاجراً:

"أنتوي البقاء في الملجأ إلى آخر النهار يا ولد؟"

"رباه يا سيد أولكلي! هذا ما أحاول إخباركم إياه. أنا عالق في الطين، وأحتاج إلى عزمكم كي تخرجوني."

عندئذ، سارع الثلاثة إلى التجمع حوله، والإمساك به. وبعد الكثير من الصياح من ماكس، ومناوشة واحدة عظيمة منهم، جذبوه خارج الملجأ، فخرّ على العشب فوق سام المزمجر.

"شكراً لكم"، هتف الفتى وهو يتخبط ليستعيد توازنه. وعندما نجح في الوقوف على قدميه، سارع إلى إلقاء نظرة متفحّصة عليهما. فاكشف أن صندله كان مغلفاً بقلب ثخين من الطين اللزج. رفع إحدى قدميه بمشقة، وحطّها أمام الأخرى بمشقة مماثلة، ومضى يشق طريقه إلى البوابة بصعوبة وبطء شديدين. ثم وقف، واستدار بجسمه من غير أن يحرك قدميه.

"اسمع يا صاح"، هتف مخاطباً جورج. "أين سنلتقي؟"

"عند باب حانوت السيد ميلر"، دمدّم جورج. "بعد ساعة من الآن."

"عظيــــــــــــــــم!" صاح وهو يتابع دبذبتة الثقيلة، حتى تجاوز البوابة وغاب عن النظر.

لم تمض ساعة من الوقت، إلا وكان جورج والشقيقتان التوأم ينتظرون عند زاوية الطريق مع سلالهم، وأكياسهم، وأقنعتهم الواقية. فلمحهم ويلي وهو يسلك الطريق إلى رأس المنعطف. تسمّر للحظة، وبحث بعينه عن ماكس. ثم أبصر صبيّاً أسود الشعر، يرتدي كنزة حمراء، وسروالاً أخضر اللون، يخرج من الحانوت. فتنفس الصعداء وتابع سيره. وراح ماكس، الذي رآه هو الآخر، يلوح له بحماس شديد، ويعدو لملاقاته، وقد بدت آثار الطين على صندله ظاهرة للعيان، رغم عملية التنظيف الجيدة التي حاول إجرائها له. أما جورج والتوأم، فلأزموا مكانهم، ووقفوا يراقبون الصبيين بتمعّن أصاب ويلي بحرج بالغ.

كان عبوس التوأم وجهي التوأم واضحاً جداً منذ لحظة انضمام ويلي وماكس إليهم. وكان جورج لا يكف عن الهمس لهما بكلمات غير مترابطة.

"أقدم لكما ويل،" قال ماكس للتوأم في محاولة منه لكسر الجليد.
"ولكني ما عدت أذكر من منكما كاري ومن منكما جيني."
"أنا كاري،" قالت البنت ذات الثوب الأزرق.
"وأنا جيني،" قالت البنت ذات الثوب الأصفر.
"يسعدني لقاءكما،" همس ويلي بصوت مبجوح.

بعد هذا التعارف المقتضب، خيّم على الأطفال الخمسة فترة طويلة من الصمت المشحون بالتوتر. وكان جورج خلال ذلك الوقت يقف بين التوأم، وفي صدره يعتل ضيق وانزعاج هائلين. نعم، لقد أصاب في تخمينه. فالشقيقتان ساخطتان عليه سخطاً شديداً لأنه دعا الصبيين النازحين للخروج معهم. فهما، تعرفان، من القليل الذي لاحظتاه، أو الذي بلغهما، أن أحدهما لا يتكلم إلا نادراً، وأن الآخر لا يسكت إلا في ما ندر. وبدا لهما أنه من المشين أن يتجراً جورج على القيام بما قام به.

أخيراً، تتنح جورج، وقال:

"أرى أنه يجدر بنا الانطلاق."

فاستدار الجميع على الفور، وسلّكوا الدرب المؤدي إلى مزرعة أيفور. كان ويلي يحمل معه دلواً فارغاً، وكيساً صغيراً. أما ماكس فكان يتأبط سلة وحقيبة. وبينما سارا وراء الآخرين، قال له ماكس بصوت مفعم بالإثارة:

"ليتك رأيت وجه السيدة ليتل عندما ضببطتني وأنا أدخل البيت يا صاح. لقد هدّدتني بأنها ستزرع البطاطس في قدمي!" ثم وكز ذراع ويلي، وأشار بعينه إلى جورج والتوأم الذين كانوا يتقدمونهما، "يبدو أنهم ذوو آفاق محدودة، ها؟" قال بصوت هامس.

"ماذا تقصد بقولك أنهم ذوو آفاق محدودة؟" سأله ويلي.
"غير ودودين!"

"ولكنهم هم من دعانا إلى مرافقتهم في هذه النزهة."

"هممم.. معك حق."

عاد ماكس ووكز ذراع ويلي في موضع متقرّح منها، ثم همس:
"إننا في جميع الأحوال سنحظى ببعض الوقت الطيب، أليس كذلك؟"

هذا، لم يكن ويلي واثقاً منه كثيراً..

فقط لو لم يكن لسانه جافاً إلى هذه الدرجة.. ولو لم تكن رقبته متشنجة إلى تلك الحدّ، و..

وصل المطاف بالأطفال الخمسة إلى مزرعة أيفور، فجروا إلى البوابة وتسلقوها. وهناك، كانت لوسي ورفيقتها غريس بوش تلعبان أمام البيت. أما السيدة بادفيلد فكانت تعلّق غسيلها على الحبال. ولما رأتهم بادرتهم بقولها:

"مرحباً يا أولاد، إلى أين أنتم ذاهبون؟"

"إننا نريد اقتطاف شيء من توت السياج"، ردّ جورج.

في تلك اللحظة، وقعت عينا لوسي على ويلي، وبدأتا تتسعان وتتسعان، ثم سارعت إلى الاقتراب منه، وقالت له بحياء:

"ملهياً."

سيطر الارتباك على ويلي، فجر جر قدميه مبتعداً، لعلّه يتمكن من تحاشي عينيها المحملقتين فيه.

يا للبنات الحمقاوات.. حدّث نفسه بغضب.. حمقاوات.. حمقاوات.. بنات حمقاوات.

"إن فريد وهاري مشغولان هذا المساء"، قالت السيدة بادفيلد. "فهما يساعدان والدهما في العمل، بما أنه لا يوجد دوام مدرسي في الوقت الحالي. وأعتقد أنه يجدر بي تحذيرهما من الذهاب إلى البقعة التي ستقصدونها، لأنني واثقة من أنكم لن تتركوا شيئاً من العليق هناك"، ثم ابتسمت والتفتت لتتابع عملها.

"لا بأس، سنجلب لك كمية منه يا سيدة بادفيلد"، قالت كاري. "أليس كذلك يا جيني؟"

أومأت جيني برأسها.

"في هذه الحالة أتمنى لكم قضاء وقت طيب"، هتفت السيدة بادفيلد، بينما وقفت لوسي تراقب الجمع المبتعد بحزن. كانت تتمنى من صميم قلبها لو أنها تستطيع الانضمام إليهم. ولكنهم كانوا أكبر منها سناً. ولن.. لن يرغبوا أبداً في وجودها بينهم. شعرت بيد تجذب فستانها، وسمعت غريس تقول لها بصبر نافذ:

"هيسا، أريد أن ألعب."

تابع الأولاد سيرهم، وسلكوا درباً منعطفاً أوصلهم إلى حقل شاسع. فبادرت التوأم إلى انتباز الآخرين، واتجهتا معاً صوب إحدى أجمات العُلَيْقِ المثمرة عند الطرف القصي للحقل، مخلفتين جورج وحده مع ويلي وماكس.

"مَنْ المغضوب عليه إذن يا صاح؟" قال ماكس مماًزحاً جورج. "أنت أم نحن؟"

وعلى الفور افتر ثغر جورج عن ابتسامة صغيرة.

"لا بأس، اتبعاني، سأعثر لكما على بقعة جيدة،" قال للصبيين. ثم أشار إلى بعض الشجيرات، "أتريان هذا العُلَيْقِ الأحمر؟" أردف بنبرة تحذيرية.

"نعم، نراه، وهو يبدو مُشهّذاً!" أجاب ماكس. "مُشه ماذا؟"

"مشهّذ. هذه كلمة مركبة من مُشه ولذيد."

غير أن جورج الذي لم يثبط تعليق ماكس من عزيمته أكمل قائلاً: "المهم، حذار أن تأكلا شيئاً من هذا الثمر، وإلا ستموتان، فهو سام. ولا تأكلا أي شيء إلا بعد أن أراه." ثم دل بيده على أجمة عامرة بتوت السياج، "انظرا، تلك بقعة جيدة. يمكنكما مباشرة قطف العُلَيْق منها، وسأبحث عن أجمة أخرى لنفسى."

بعد مضي ساعة من الوقت، بانئت نتائجها على أذرع الصبية وسيقانهم المخدوشة، وعلى أيديهم وأفواههم المدبوعة بعُصارة التوت، افترش الجميع العشب، وراحوا يتناوبون بينهم زجاجة عصير الليمون الطازج. وبدأ من الواضح أن عبوس وجهي التوأم كان في ذلك الحين قد خف قليلاً، إذ جلسا تجتليان الصبيين المدنيين بدقة وفضول. فسببتا بذلك ارتباكاً عظيماً لويلي، وسعادة غامرة لماكس الذي أطربه أن يكون محط الأنظار.

فجأة، قالت كاري للفتى ويلي وهي تشير إلى ساقه:

"كيف أصبت بهذا الجرح؟"

شحب وجه ويلي فوراً، إذ اعتقد أن جوربه ربما كان منزلقاً إلى كعبيه. فألقي نظرة عاجلة عليه.

لا، لم يكن كذلك.. كل ما في الأمر هو ذلك الخدش في ركبته. "لقد وقعت"، همس بحياء.

"إنه يبدو جرحاً فظيلاً"، علقت جيني.

رمقها ويلي بنظرة خاطفة، وأشاح بوجهه بعيداً. ثم، وبعد أن أطفأ الجميع نار ظمأهم عادوا للاستزادة من العليق. ولكنهم في هذه المرة دنوا من بعضهم أكثر من السابق. وشيئاً فشيئاً بدأوا يتجاذبون أطراف الحديث. كلهم.. ما عدا ويلي الذي اكتفى بالاستماع إليهم. إذ لطالما قالت له أمه أنه قد.. قد يحظى بمحبة الناس إذا جعل نفسه غير مرئي منهم. و..

رباه.. رباه كم يتوق لأن يكون محبوباً!

أصغى ويلي إلى أحاديث الأولاد بانتباه. وعرف أن كاري تحب القراءة وتسلق الأشجار والاستكشاف. وأن جيني تحب الخياطة وتسمية الأزهار البرية وتجفيفها. وأنهما معاً تهويان السباحة.

كما عرف أن جورج بارع في الصيد، بل وأن أمه قد طهت في ثلاث مناسبات ما كان يصطاده من سمك. وأنه غالباً ما يعيد السمك الصغير إلى الماء. وأنه يحب السباحة أيضاً، بل وصنع في الصيف طَوْفاً، لكنه تفسخ وسط النهر بينما كان هو والتوأم على متنه. يضاف إلى كل ذلك أنه يهوى لعبة الكريكت، وصيته في تحطيم نوافذ القرية سيئ جداً.

وعرف أيضاً أن ماكس يحب التمثيل، وقراءة كتب المغامرات، والشعر، والسباحة، وركوب الدراجات. وأنه قام بعدة محاولات لكتابة القصة القصيرة، رغم اعترافه بعدم تجاوزه الصفحتين الأوليين من أي قصة.

في تلك الأثناء، لم يكتف ويلي بالتزام الصمت فقط، بل حاول أيضاً قطف ثمار العليق بهدوء وسكون، على أمل أن ينسى الآخرون وجوده. لكنه لم يدخل ماكس في حسابه. ماكس الذي اقتحم صمته على حين غرة، وسأله قائلاً:

"قل لي يا ويل، ما الذي تحبه في هذه الحياة؟"

كان ويلي على وشك أن يهزّ كتفيه، متّبِعاً هذه الحركة بعبارة: لا أعرف. لكنه سرعان ما لاحظ أن جورج والتّوأم كانوا يتطلّعون إليه باهتمام. لعق إصبعه الملطخ بعُصارة الثمار، وأحدّ ذهنه لعله يعثر على شيء يمكنه قوله.

لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة.. لم يكن يحسن السباحة أو ركوب الدراجة.. لم يصنع في حياته أي شيء. وما عرف يوماً ما الفرق بين زهرة وأخرى. ما لعب في حياته الكريكت أو أي لعبة أخرى، ولم.. لم يصطد يوماً سمكة واحدة.

رباه.. إنه لا يتقن شيئاً! انتابه الذعر والتخاذل .. الآن.. الآن سيمِل الآخرون منه، وسيتابعون بدونه. ازدرد ريقه بصعوبة.. وتطلّع إلى وجوههم. لا.. لم يكن السّأم بانياً على تلك الوجوه.. عندها استرخى قليلاً.. واستطاع أن يتذكّر شيئاً ما، فهمس:

"أنا أحب الرسم."

"أوه أنا حالة ميثوس منها في هذا المجال"، قال جورج. "وجميع الأشخاص الذين أرسمهم لديهم رؤوس صغيرة، وأذرع وسيقان هائلة الضخامة."

"أي مثلك تماماً"، ناكدته كاري، فضحكت جيني على الفور. "هذا غير صحيح يا آنسة"، ردّ جورج. "ولا تنسي أن الكلام صفة المتكلم."

"أنستطيع رسمي يا ويل؟" قال ماكس.

"لا أعرف، يمكنني أن أحاول."

"إنني أتصور جوعاً يا رفاق"، قال جورج مقاطعاً حوار الصبيين. "بالله عليكم دعونا نأكل."

وهكذا، تجمّع الأولاد تحت ظلّ شجرة، وفردوا ما معهم من طعام. كان هناك عجين مخبوز ومدهون بالزبد والمعقود، وشطائر جبن، وشطائر مربى، وشطائر بيض. فأتوا بسرعة على هذه الوليمة الصغيرة، والتفتوا إلى التهام فطيرة التفاح والعنب، وكعكة الشوكولاتة. كان ويلي يتذوق كعكة الشوكولاتة، والعجين المخبوز، وفطيرة الفاكهة، لأول مرة في حياته. غير أنه لم يستطع أن يتناول سوى

نصف حصته من كل شيء. فتهاقت الآخرون على اقتسام ما زاد عنه، خصوصاً جورج الذي كان إقباله على الأكل بلا حدود. وعندما شعر الجميع بالاكتهاء والشبع، استلقوا تحت الشمس لبعض الوقت، ثم نظفوا المكان حولهم، وانتقلوا إلى بقعة جديدة لقطف المزيد من العُليق. وظلّوا كذلك إلى أن عمرت سلالهم، وأصابهم الإعياء، فقرروا أن يعودوا أدراجهم.

مشى ويلي رازحاً تحت وطأة حملة الثقيل، حتى أحس بأن ذراعيه توشكان على الانخلاع من كتفيه. فقد كان دلوّه وكيسه طافحين. وكان يحدّ خطاه وراء الآخرين وهو يشقّ، ويلهث، ويزفر، ويصرّ على أسنانه، لعله يبقى مواكباً لهم. لكن جورج سارع إلى تقديم يد العون له بصدر رحب، حالما أودع سلته في منزل ذويه. ورغم أن مبادرته كانت خالية تماماً من أي سخريّة، لم يستطع ويلي مغالبة الحزن الذي تأجج في صدره، لإحساسه بمدى ضعفه وعجزه.

وبعد أن غادرت التوأم إلى بيتهما، تابع الصبية الثلاثة طريقهم، وعبروا الدرب المقنطر حتى وصلوا إلى منزل آل لينل، ووقفوا يثرثرون قليلاً خارج بوابته. ثم ودّع جورج وويلي ماكس ومضيا في حال سبيلهما. وكانا قد أشرفا على منزل القس عندما وقف جورج متمسراً في مكانه.

"انظر!" قال وهو يحدق برؤوس الأشجار. "انظر! إنه خطاف." زوى ويلي ما بين عينيه وأمعن النظر في السماء. كان كل ما استطاع رؤيته هو طائر ما من تلك الطيور!! فالخطاف كما يعلم هو قطعة حديد معقوفة تعلّق بها الأشياء.. أو هي صفة يمكن أن تطلق على اللص!! أما أن يكون هناك خطاف في السماء، فهذا شيء لم يستطع استيعابه.

أخيراً، وصلا إلى بوابة مرعى دويس. فتجاوزاها، ووضع جورج الدلو أرضاً، واقترب من الفرس ليربت على ظهرها. فوقف ويلي وراءه بحذر، ثم تقدّم إلى الأمام بضع خطوات، ورفع يده ليلمس عنق الفرس، لكنه عاد وتقهقر إلى الوراء مجفلاً، لما رآها تهزهز رأسها بروية.

لا.. ليس الآن، سينتظر إلى أن يكون بصحبة السيد توم.

تابع الصبيان طريقهما إلى البيت، وقفز جورج من فوق البوابة الداخلية التي فتحها ويلي، وأغلقها خلفه بهدوء. ثم عبرا الحديقة معاً، وهما بالتوجه إلى الباب الخلفي. لكن صوتاً مألوفاً ناداهما من طرف الحديقة، تبعه رأس توم وهو يطل من فتحة الملجأ.

"مساء الخير يا سيد أوكلي"، قال جورج.
"أهلاً يا جورج."

دنا الولدان من توم، وأمعنا النظر في قلب الملجأ. كانت أرضه الترابية مغطاة بالواح من الخشب. وكان هناك مقعدان خشبيان طويلان يشغلان جانبيه، وشمعة تشعشع داخل علبة صفيح مكشوفة الغطاء تتدلى من نهايته. وتحتها تماماً يستقر حوض أزهار صغير محطوط على صندوق برتقالي اللون. إضافة إلى كل ذلك كانت هناك ستارة من قماش أسود سميك، ملفوفة بعناية، ومعلقة على قمة فتحة المدخل، ونبتة في أصيص من الفخار عند زاوية ذلك المدخل.

"هـاه.. يا الله!" شفق ويلي. "أليس رائعاً؟"

"لقد رأيت أنه يجدر بنا توفير شيء من الراحة لأنفسنا،" غمغم توم، ثم تتحنن، وافتعل السعال، ليداري ما اعتمل في قلبه من سرور.
"إنه عمل مميز بالفعل"، وافق جورج.

وما هي إلا هنيهة، حتى راح الثلاثة يتبادلون الأدوار في المشي داخل الملجأ، وتجربة مقاعده الخشبية. ثم غادر جورج عائداً إلى بيته.

قضى ويلي بقية الأمسية وهو يساعد توم في عملية تنظيف وحفظ توت السياج في القوارير. وتناول قليلاً منه مع وجبة العشاء. وعندما أوى إلى فراشه، غط في نوم أكثر عمقاً من ليلته السابقة، بدون أن يغيب عن ذهنه أبداً أنه هو .. ويلي بيتش، بدمه ولحمه.. نجح في مواجهة الحياة رغم قضائه لنهار كامل مع أربعة أولاد، تماثل أعمارهم عمره، .. وأنه صنع مربى العليق أيضاً.

المدرسة

جلس ويلي إلى الطاولة بقميص وسترة رماديين نظيفين، وسروال رمادي مكوي، وجزمة لامعة. وشرع يتناول وجبته الصباحية، وعينه تحدقان في فناء المقبرة الذي خيم عليه جوّ ذلك النهار الغائم.

"هيا، أسرع في مضغ طعامك يا بني، فقد حان وقت ذهابك إلى المدرسة"، قال توم وهو يضع على الطاولة كيساً ورقياً فيه تفاحتان وشطيرة بيض دسمة. "ويمكنك إذا شئت أن تعود إلى البيت في فرصة الغداء. أو البقاء هناك لتتناول طعامك مع الآخرين. ويُسْتَحْسَن أن تأخذ معك ممطرك وطاقيتك، فالطقس ينذر بهطول المطر."

وهكذا، سارع ويلي إلى إنهاء إفطاره. وتناول توم بطاقة تعريف الفتى من على رف المكتبة، وأعطاه إياها، ثم ماشاه حتى بوابة مرعى دوبس. وتابع ويلي طريقه وحده على طول الدرب باتجاه منزل آل لينل، ووجد ماكس جالساً بانتظاره عند البوابة الخربة. عندئذ، التفت ناظراً صوب توم، وانبرى الاثنان يلوّحان لبعضهما مودّعين، فاندفع سام ليلحق به.

"سام"، صاح توم بصوت حازم. "عُد إلى هنا فوراً." تسمّر الكلب في أرضه، نظر إلى سيده، ثم جرى عائداً إليه. فحمله، ووقف يراقب الصبيين وهما يختفيان عن عينيه عند المنعطف. اجتمع الصبيان بجورج والتوام الذين كانوا يقفون خارج قاعة اجتماعات القرية، وسط حشد كبير من الأولاد. وبينما هم كذلك، جاءت سيارتان قديمتان، فيهما ثمانية أطفال، تصحبهم اثنتان من الأمهات تفيض على وجهيهما سمات القلق. فعلق ماكس قائلاً: "يا لهذا المكان! إنه بالغ الازدحام."

"لكن الحال ليس دائماً كما هو اليوم"، أوضحت كاري. "نعم، لقد اضطرت المدرسة إلى التعاقد مع معلمة إضافية"، أردفت جيني. "كما أننا الآن مجبرون على تقاسم المدرسة مع بعض الكاثوليكيين"، قال جورج. "ولذلك سنداوم فيها بالتناوب. انظروا.. انظروا هناك!"

أردف مشيراً إلى راهبتين يحيط بهما جمع من الأطفال. "إذا استمرّ الوضع على هذا المنوال، فلن نأخذ الكثير من الدروس هذه السنة." وللحال افتر ثغره عن ابتسامة عريضة.

دخل الرفاق الخمسة القاعة معاً، فطالعهم ذلك التعاكس الواضح بين ستائر التعتيم السوداء المطوية بعناية إلى الأعلى، وبين خضرة الجدران الفاتحة وجوانبها الخشبية. وشاهدوا السيد بوش يطلب من الأطفال الأصغر سناً أن يترّبّعوا على الأرض الخشبية، ويوجّه التلاميذ الآخرين نحو الكراسي المصفوفة في النصف الخلفي من القاعة. ولما أجال ماكس الطرف حوله، وقعت عيناه على منصة صغيرة متوسطة الارتفاع في مقدمة القاعة، تحيطها الستائر من جانبيها. فهتف بحماس بالغ:

"انظروا، إنها منصة مسرح!"

"أسرعوا.." قاطعه جورج وهو يجذبه من كمّ كنزته المرتوق بعناية، "أسرعوا، لنأخذ تلك الكراسي قبل أن يشغلها الكبار."

جرى الرفاق الخمسة نحو الكراسي الشاغرة، وراحوا يقفزون من فوق الأطفال الصغار المتربّعين على الأرض، يتبعهم ويلي بأسرع ما يمكنه.

كان معظم الأولاد، ما عداهم، يحتلون كراسي الصفوف الأخيرة في القاعة. وكان الألوان قد فات عندما اكتشف جورج السبب في بقاء تلك الكراسي التي رآها، شاغرة. إذ لم يوجد أي شيء قدّامها سوى الصغار الذين يجلسون على الأرض، مما جعله ورفاقه مكشوفين للعيان تماماً. فلعن حظه العاثر، وزمجر:

"تبّاً لي على هذه الفكرة، لقد كنت أنوي تحلية لساني ببعض ملابس السكر."

أما جيني التي رأت السيد بوش والسيدة هارتردج يتحدثان مع امرأة متقدمة في السن، فقالت بصوت هامس:

"انظروا! تلك هي السيدة بلاك. لاشك أنها المعلمة الإضافية."

كان المكان صاخباً جداً. إذ ضجّ بصياح التلاميذ النازحين الذين كانوا يشعرون بالملل والضيق من إقامتهم في الريف مدة بدت لهم طويلة،

طويلة جداً. فبادر السيد بوش؛ معلم الصفوف العالية، إلى الاهتمام بشؤون التلاميذ الأكبر سناً. وبعد أن ضمَّ إليهم بعض الأولاد النازحين، وحدد لهم مواعيد حضورهم إلى المدرسة صرفهم حالاً. ثم التفتت السيدة هارتردج إلى تلاميذها. ونظراً إلى أنها كانت المشرفة على تعليم الأولاد الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة والحادية عشرة، فقد توجَّب على جورج الذي يبلغ الحادية عشرة من العمر، وكاري وجيني اللتين احتفلتا بعيد ميلادهما العاشر في العطلة، أن ينضموا إلى صفها من جديد. بينما تقررَّ للسيدة بلاك أن تتولى تعليم جميع الأطفال المحليين، وجميع الأطفال النازحين غير الكاثوليكين، من سن الخامسة إلى الثامنة.

رأى ويلي السيدة هارتردج تُقبل عليه وماكس لتتولى أمرهما. فأخبرها ماكس أنه يبلغ من العمر تسع سنين، ثم تهجَّى لها اسمه، بلهجة مشوبة بالاعتذار من طول ذلك الاسم، مما أرغمها على الابتسام. واكتفى ويلي بمناولتها بطاقة التعريف به من غير أن ينبس ببنت شفة، وهو يتأمل بإعجاب بالغ خديها المتوردين الناعمين، وشعرها الطويل الأشقر الذي كان مضفراً ومضموماً عند قمة رأسها. ثم.. ثم غاص قلبه في صدره عندما سمعها توجَّه الحديث لماكس قائلة:

"والآن يا ماكسيميليان.."

"يمكنك مناداتي ماكس يا سيدتي، إذا كان هذا الاسم صعباً عليك."
"لا بأس، أظن أنني أستطيع تدبُّر أمرِي. أخبرني الآن ماذا تعلمت في مدرستك؟ أتحسن القراءة والكتابة؟"

عند نقطة التحوُّل في مجريات الأمور هذه، اشتعلت أذنا ويلي، وبدأ له أن حوار السيدة هارتردج مع ماكس بات أشبه برجع صدى خافتٍ ناءٍ. ثم.. ثم شعر بيدها على كتفه.

"وماذا عنك يا ويليام؟" قالت السيدة هارتردج. "هل تُحسن القراءة والكتابة؟"

أطبق ويلي فمه، ولزم الصمت. لم يجرؤ حتى على النظر إلى وجوه الآخرين.

رياه.. ماذا سيقولون عنه الآن!

"أنا لم أسمع جوابك يا ويليام!"
"كلا..". همهم الصبي وهو يخلل أحد أظافره، ثم طأطأ رأسه وحملق في ألواح الأرض الخشبية.
آه.. ليت هذه الألواح تتشقق وتبلعه.

"أوه، يؤسفني هذا يا ويليام. كنت أتمنى بالفعل لو أنك من تلاميذي. ولكن، في هذه الحالة سيكون عليك الانضمام إلى تلاميذ السيدة بلاك"، قالت السيدة هارتردج وهي تشير إلى الأطفال الأصغر سناً الذين كانوا متربّعين على الأرض.

رفع ويلي رأسه وتطلّع إليها بعينين مكروبتين، ثم غَضَّ بصره بسرعة.

أحسن.. أحسن أن النار التي اشتعلت في أذنيه قد بدأت تعسّ نازلةً إلى فكّيه. فنهض من مكانه شبه غائب عن الوعي. بحث لنفسه عن فسحة بين الأطفال الآخرين. جلس أرضاً. شبك يديه بقوة، وأحنى رأسه.. كان يشعر أن المهانة التي تعرّض لها قد زلزلت كيانه.

ولم يمض وقت طويل إلا وكانت السيدة هارتردج قد صرفت تلامذتها، بعد إعلامهم أنهم لن يباشروا الدراسة قبل يوم الجمعة، وأن الدوام المدرسي سيبدأ في الظهر. وبقي ويلي مع تلاميذ السيدة بلاك التي قادتهم في طابور إلى المدرسة. ولم يشعر بأي عزاء عندما اكتشف أن في الصف بنتين لا تحسان القراءة مثله. ولاحظ أنهما كانتا أكبر منه سناً، وأن إحداهما راحت تقطع الوقت بتقليم أظافرها، أو التحديق من خلال النافذة، متجاهلة الجميع بمن فيهم السيدة بلاك.

بعد انقضاء الدوام المدرسي عاد ويلي إلى البيت كاسف البال. كان توم في ذلك الحين منكباً على اقتلاع الأعشاب الضارة من حديقة المقبرة. لكنه لاحظ على الفور هيئة الفتى المنكمشة المكتئبة وهو يتجاوزهُ إلى البيت. فأملهه بضع دقائق ثم لحق به، ووجده جالساً إلى الطاولة في غرفة المعيشة، يحملق بحزن في كيس طعامه الذي لم يمسّ منه شيئاً.
"إنني في حاجة ماسة إلى كوب من الشاي"، قال توم بصوت مرج.
"فماذا عنك يا ويليام؟"
أوماً ويلي برأسه.

مرّر له كوباً من الشاي عبر الطاولة، ثم سأله:

"هه.. قل لي الآن، كيف كانت المدرسة؟"

خبط ويلي مقدمتي جزمته ببعضهما، وبقي ساكناً.

"أكانت سيئة يا فتى؟"

أوماً ويلي.

"يُستحسن إذن أن تخبرني الحكاية."

رفع ويلي رأسه، لكنه وجد صعوبة بالغة في النظر إلى توم من غير أن ترتعش شفتاه.

"أنا في صفّ الأطفال الصغار."

"هه.. وماذا عن ماكسيميليان؟"

"إنه في صفّ السيدة هارترديج."

"ولماذا لم يضمّوك إلى صفّه؟ أستمأ في العمر نفسه تقريباً؟"

"نعم، ولكنه يُحسن القراءة و.. تلعث ويلي قليلاً، والكتابة أيضاً."

"أي أن السيدة بلاك هي المسؤولة عن تعليم الأولاد الذين لا يقرؤون ولا يكتبون. أهذا هو الأمر؟"

"آها.."

"فهمت."

وقف توم، ورنأ إلى المقبرة التي شذب أعشابها بعناية.

"لا بأس، سرعان ما ستعلمك السيدة بلاك القراءة. هل درست اليوم شيئاً؟"

"تدريب الأقنعة!" غمغم ويلي.

"ماذا؟"

"تدريب الأقنعة"، كرّر ويلي ولكن بصوت أعلى. "درّبنا السيدة بلاك على طريقة استعمال الأقنعة الواقية."

نفخ على كوب الشاي، شرب منه جرعة، ثم رنأ إلى توم.

"حتى الأقلام لا يوجد منها ما يكفي الجميع!" تتمم بنبرة منفعة.

أجل، لقد رآى توم أولئك العفاريث الصغار الذين ستتعامل معهم السيدة بلاك الدمثة. وكان واثقاً من أنها ستستهلك معظم وقتها في محاولة إحقاق الانضباط والنظام بينهم.

"سنبداً اعتباراً من هذا المساء"، قال توم بصوت واضح. "أيرضيك هذا يا فتى؟"

"ماذا تعني يا سيد توم؟"

"سأعلمك القراءة والكتابة. وكبداية، سأعلمك كيف تكتب اسمك." شعر ويلي بوخز في عينيه، ورأى الأرض تحته تتغشى بغمامة شفافة. ثم أشرق وجهه، و..

"رباه.. يا..". كان كل ما استطاع التفوه به.

أما توم الذي دُهِش من تلك الغصة التي استشعرها في حلقه، فدمدم بصوت مبجوح:

"حسناً يا ولد، اذهب، واركض مع سام قليلاً ريثما أعدّ العشاء." حتى تلك اللحظة، كان سام الذي حدس تعاسة ويلي جاثماً في مكانه بلا حراك. لكنه حينما أحسّ بالتطور الجديد في مجريات الأمور، أخذ يوقوق ويلحق نهاية ذيله.

"نعم، نعم، سيرافقك الفتى يا صغيري"، قال توم وهو يداعبه بلطف. غادر ويلي الغرفة إلى الردهة، ثم اندفع خارج البيت مجتازاً البوابة، فالدرب، ومنه إلى المسلك الترابي وهو يجري، ويقفز، وينطّ مسرعاً.. ومسرعاً.. ومسرعاً. تأججت فيه الرغبة لأن يطلق صيحات ابتهاج مدوية، ولكنه عندما حاول ذلك لم ينجح في إصدار أي صوت. تملكه الانزعاج في البداية، ثم أدرك فجأة أنه كان يجري بطريقة أفضل من السابق، وأنه رغم ذلك لم يكن يكلف نفسه فوق طاقتها..

نعم.. يحتاج الأمر إلى وقت وتمارين.. هذا ما قاله له السيد توم.

في المساء، وحالما رُفعت أطباق العشاء من على الطاولة، وضع توم أمام الفتى ورقة وقلماً. كانت الورقة تشتمل على عدة خطوط مستقيمة، بين كل خطين منها مجموعة من النقاط.

"والآن يا ويليام"، قال توم، "كل ما عليك القيام به هو وصل هذه النقاط ببعضها من الأعلى إلى الأسفل. وعندما تنتهي ستكون قد كتبت اسمك. تريت، وخذ وقتك يا بني."

حمل ويلي قلم الرصاص بعصبية، وضغطه على الورقة بشدة، فانكسر رأسه. لكن توم براه فوراً، وناولته إياه وهو يقول:

"اكتب بتمهل يا بني، لديك متسع كافٍ من الوقت."
حملق ويلي في الورقة مسعوراً، ودمدم:
"لا أعرف.. لا أعرف.. لا.."

تفرّس توم في وجه الصبي الممتنع. وأدرك أنه كان خائفاً، عندما رأى حبيبات العرق المتساقطة على جبينه. فقال له مهدئاً من روعه:
"اعلم أنني لن أضربك إذا كان هذا ما يخيفك. هيا يا بني دعنا نحاول.
سأجلس إلى جانبك، وسأخبرك عن سير الأمور معك."
ركز ويلي رأس القلم على الورقة، وأخذ يتتبع النقاط صعوداً ونزولاً
بيطء وحذر، حتى خطّ حرف الواو. ثم رجع بظهره إلى الوراء وعالين
ما خطّه.

"إنه رديء، أليس كذلك؟ أليس كذلك يا سيد توم؟"
لكن، وعندما تمعّن توم في الحرف، بانّت الدهشة على ملامحه.
"كلا"، قال بنبرة صادقة، "كلا إنه ليس سيئاً يا فتى."
ورغم تأكد ويلي من أن توم كان يخبره الحقيقة، عاد يلحّ بالسؤال:
"ليس رديئاً؟"

"كلا"، كرّر توم. "إنه بكل تأكيد ليس سيئاً. هيا تابع الآن، فأنت تبلي
بلاءً حسناً."

انكبّ ويلي على وصل النقاط من جديد. وبمعزل عن الارتعاش الذي
كان يصيبه بين فينة وأخرى، نجح في كتابة اسم ويليام بخط أنيق
جميل.

"أحسنّت يا فتى!"

"أصحيح هذا يا سيد توم؟"

"نعم، كرّر الآن العملية نفسها التي قمت بها."

تابع ويلي الكتابة متتبّعاً النقاط بين السطور المتوازية، ثم توقّف قائلاً:
"يا سيد توم، أنا أستطيع النظر إلى اسمي ونسخه. فهل تشبه الكتابة
الرسم؟"

"ها؟ لست واثقاً من هذا. لكن دعني أرى ما الذي تعنيه."

بحث ويلي عن بقعة غير مسطّرة في الورقة، وتأمل ما كتبه سابقاً،
خطّ سطرين مستقيمين، ثم رسم كلمة ويليام بينهما.

شهق توم.

"إن هذين الخطين متوازيان تقريباً. أين تعلّمت القيام بما قمت به يا فتى؟"

"لم أتعلّمه في أي مكان. كل ما فعلته هو أنني تأملت الكلمة ثم نسختها." عقدت الدهشة لسان توم لبرهة. وعندما استعاد سيطرته على نفسه أمسك القلم والمسطرة، رسم خطين متوازيين، وكتب بينهما: بيتش، ثم ناول القلم للفتى.

رسم ويلي خطين جديدين، ودقّق النظر جيداً في الكلمة الجديدة، ثم نسخها بخط يده.

"هذا جيد جداً يا ويليام،" أنشئ توم على الفتى.

"أصحيح ما تقوله يا سيد توم؟"

"ألا تستطيع الحكم بنفسك يا فتى؟"

هزّ ويلي رأسه نافياً.

"لقد كتبت الآن اسمك الكامل يا بني."

"يا الله.. أحقاً فعلت هذا؟!"

حملق الفتى في الحروف متفحّصاً إياها.. ولم يستطع أن يفهم أبداً، لماذا وكيف شكلت تلك الرسوم اسمه. أما توم فبادر إلى إمساك يده، وجعله يتتبع الحروف حرفاً، حرفاً، ناطقاً أمامه صوت كل حرف يشير إليه. وما لبث ويلي أن انضم إليه عندما كرّر المحاولة للمرة الثانية.

"جيد يا فتى،" قال توم مُعرباً عن استحسانه. وكان على وشك اقتراح فترة استراحة، عندما بدأ ويلي يشير إلى الحروف وينطقها وحده. ثم تلثم قليلاً عند حرف الياء.

"ما هذا الحرف يا سيد توم؟"

"هذا حرف ياء."

"وما ذاك؟"

"إنه حرف الشين."

أعاد ويلي الكرة من جديد، ونجح في هجاء جميع حروف اسمه.

"إنك تتعلم بسرعة كبيرة يا فتى،" قال توم. "بسرعة كبيرة فعلاً."

"ألا تشبه الكتابة النسخ يا سيد توم؟"

"نعم، يبدو أن هذا صحيح."

"يا سيد توم،" قال ويلي بعد برهة من التفكير، "أليس هذا العمل منافياً للأخلاق؟"

"ماذا؟ أتعني النسخ؟"

"أجل."

"ليس عندما تكون غايتك التعلّم،" أجاب توم. "النسخ منافٍ للأخلاق عندما تكون في الامتحان أو ما يشبه ذلك."

"أوه!" هتف ويلي، "لقد كنت أظنه فعلاً مُشيناً يا سيد توم."

فجأة، تعالى صوت قرع على باب البيت الرئيسي، فشرع سام ينبج بصوت عالٍ.

"من القادم يا ترى؟" غمغم توم وهو ينهض من مكانه.

"يا سيد توم.. يا سيد توم.." استوقفه ويلي فوراً، "أيعني هذا أنني إذا نسخت ما أراه لن أحترق في نار جهنم؟"

"جهنم!!!" صاح توم بدهشة بينما تابع مضيقه خارج الغرفة بخطوات واسعة. "لا تكن سخيّاً يا فتى. بالله عليك من الذي حشا رأسك بهذه الأفكار؟"

عندها فقط، شعر ويلي بارتياح عظيم. وعاد إلى متابعة الكتابة بقلب مطمئن. ولكنه سرعان ما سمع أصواتاً مألوفة تتبعث من الردهة. فالتفت، ورأى جورج والتوأم يدخلون الغرفة.

"قبل أن تنفّسه بأي كلمة،" بادرت كاري ويلي الذي هبّ من مكانه وقد اصطبغ وجهه بحمرة قرمزية. "تريدك أن تعرف أننا جئنا لنعبّر لك عن حزننا لعدم وجودك في صفنا، وأنها كلنا مازلنا نريد رفقتك."

"نعم، هذا صحيح،" أكدت جيني.

"و.. لا داعي لانزعاجك من جهلك للقراءة والكتابة وغيره،" أردف جورج. "صدقني، ليس الحال مشجعاً كثيراً عندما يكون باستطاعتك ذلك. لأن كل ما ستحصل عليه هو المزيد من الدروس والفروض."

عندئذ، عاجلته كاري بنظرة ساخرة. ثم التفتت إلى ويلي وقالت:

"جئنا لنخبرك أننا ننوي الذهاب إلى الغابة يوم السبت القادم. وإننا لنتساءل عما إذا كنت ترغب في مرافقتنا."

فتح ويلي فمه ليتكلم، ولكنه قوطع بقرع عال على الباب، فمضى توم ليفتحه. وما إن فعل هذا، حتى مرق منه مأكس كالسهم، واندفع إلى غرفة المعيشة.

"ويلل أ..". هتف ماكس بأنفاس متقطعة، ثم وقف مندهشاً. "ما هذا؟ ما الذي يجري هنا يا رفاق؟ أ تقيمون حفلة؟"

في تلك اللحظة، كان توم قد عاد إلى غرفة المعيشة، وهو يهّم بقول شيء ما. لكنه أسكت فوراً بصوت خبط قوي متتابع على الباب الرئيسي. وعندما هبّ إلى فتحه، رأى أمامه الحارس المدني تشارلي ردلز الذي اندفع داخلاً بوجه يستشيط غضباً.

"لقد كان باب بيتك مفتوحاً يا سيد أوكلي، وأنا على يقين من رؤيتي لبصيص ضوء ينبعث منه أثناء وقوفي في موقعي."

"آ.. وأين هو يا ترى هذا الموقع التي تتحدث عنه، يا سيد ردلز؟" سأله توم الذي تشوش ذهنه قليلاً بسبب تتالي الأحداث المثيرة في أمسية واحدة. "أ يكون وأنت منبطح على أرض الردهة حاشراً أنفك تحت الباب؟"

أشاحت التوأم بوجهيهما إلى الناحية الأخرى، وقد عضت كل منهما على شفتها لتكتم ضحكها. أما تشارلي فتراجع إلى الوراء مصعوقاً. "لست من الذين يتجسسون على خصوصيات الناس يا سيد أوكلي. أنا متأكد من أنني رأيت بصيص ضوء يشع من بيتك. ألا تعلم يا رجل أن الحرب قد قامت!"

وبهذا الاحتجاج غادر تشارلي ردلز البيت صافقاً الباب خلفه بعنف. وعلى الفور انفجر الجميع في عاصفة من الضحك المجلجل. كلهم، ماعدا ويلي الذي وقف متسماً في مكانه، وقد اعترته الحيرة وأصابه الذهول.

الفتى والعيد

استيقظ ويلي في صباح اليوم السادس من أيام إقامته في قرية ويروولد الصغيرة أبكر من المعتاد. إذ كان قد اتفق وتوم في الأمسية السابقة، بعد انتهائهما من حكاية: *قاييل وهابيل*، وقصة: *كيف حصل الجمل على سنامه*، أن يبدأ في التبكير بالنهوض، ليتمرّن على القراءة والكتابة قبل ذهابه إلى المدرسة.

وهكذا، سارع إلى مغادرة سريره. وكالعادة، أزاح أغطية فراشه جانباً، ونزع الملاءات القطنية وغطاء المشمع، ثم حملها بين ذراعيه، ومضى يشق طريقه إلى السلم شقاً. وفي الأسفل، استقبله سام الذي كان ينتظر نزوله على أحرّ من الجمر، بالوعوعة والثوب. ثم طالعه توم عند عتبة الباب الخلفي.

"صباح الخير يا ويليام، وعيد ميلاد سعيد!" قال توم بنبرة ودودة، متوقفاً من الفتى أن يبادره إلى الاستفسار عن البريد. لكنه لم يسمع منه أي تعليق بخصوص هذا الشأن.

انصرف ويلي إلى ارتداء ملابسه، ثم ساعد توم على غسل ملاءات سريره، وسروال منامته. وبعد أن أنهى جميع واجباته الصباحية، جلس إلى الطاولة وانهمك في نسخ جملة: *أنا ويليام بيتش*، مرة تلو مرة. ولم يستطع توم إقناعه بالتوقف، والخروج للجري قليلاً مع سام، إلا بعد طول جدال. وكان الفتى قد تجاوز على التو ممرّ المقبرة، وغاب عن مرمى النظر، عندما وصل ساعي البريد إلى البوابة الخلفية.

"يبدو أن اليوم هو عيد ميلاد الصبي، أليس كذلك يا سيد أوكلي؟" قال ماثيو بارفيت الشاب.

"نعم، وهل تحمل له بريداً من لندن؟" سأله توم. هزّ ماثيو رأسه نافياً.

"أخشى أنه لا يوجد معي شيء من هذا يا سيد أوكلي. ولكنني أحمل للصبي رزماً وهدايا وبطاقات تهنئة وهذا.." أشار الشاب إلى سلة فيها بيض، ورغيف خبز طازج، وقالب زبد، وشرائح لحم مجفف، "إنه إفطار العيد من آل بادفيلد."

استلم توم البطاقات ورزم الهدايا والسلة وحملها إلى البيت، ثم يمّم صوب غرفة المعيشة مشوّش الذهن، آسفاً لأنه لا يوجد في البريد أي شيء من أم الصبي. ولكن.. قال توم لنفسه.. ليس اليوم إلا يوم الخميس فقط. و.. لعل إعلان الحرب أدّى إلى إحداث بلبلة في البريد.

عاد ويلي، بعد فترة من الوقت، متورّداً ولاهثاً، يتبعه سام. وللحال دفع باب غرفة المعيشة، ودخلها وهو يهمّ بقول شيء ما. لكن الدهشة عقدت لسانه عندما وقع بصره على الطاولة التي جُلّت بمفرش منقط باللونين الأبيض والأحمر، وفوقه وُضعت أحسن ما رآته عينا الصبي من أطباق وفناجين وأوعية، وانتصبت في وسطه جرة مربّية محاطة بالزهور. أما مكان جلوسه المعتاد، فكان مكّساً برزم الهدايا وبطاقات التهنة.

"عيد ميلاد سعيد يا فتى"، قال توم.

"أ.. أهذه الأشياء لي أنا يا سيد توم؟" تساعل ويلي بذهول.

"أليست مخطوطة عند مكان جلوسك المعتاد يا فتى؟ هيا، هيا أقبل.. وافتح هذه الهدايا، وسأقرأ لك أسماء الذين أرسلوها."

مدّ ويلي يده، وأمسك بأصابع مرتعشة رزمة من الورق البنيّ، ثم حلّ الخيط المربوط حولها، فوجد فيها بطاقة صوفية خضراء، وصداراً صوفياً، وسروالاً قصيراً كحلي اللون من القماش القطني المضلع. وسمع توم يقول له:

"ما رأيك في تجربة هذه الملابس يا فتى؟"

وعلى الفور، خلع ويلي سرواله الرمادي الرثّ، وارتنى السروال الجديد. ثم قام توم بتثبيت الحمالات له، ملاحظاً أثناء ذلك أن السروال الذي بلغ طوله حدود ركبتَي الفتى، كان واسع الخصر قليلاً.

"لا يهم، سيصبح مناسباً عمّا قريب"، همهم توم وهو يلبس ويلي الصدار فوق قميصه. "والآن، ارجع إلى الورااء بضع خطوات ودعني أتأمل مظهرك يا فتى."

كان الصدار طويلاً قليلاً، إلا أنه لم يكن منفراً للعين. وسرعان ما أشرق وجه ويلي ابتهاجاً بمظهره الجديد.

"إنك تشعر بالراحة، أليس كذلك يا فتى؟"

"أها، ويوجد في السروال جيوب أيضاً"، غمغم ويلي بحبور وهو يحشر يديه في جيبي السروال، ثم رنا إلى الطاقةية. "ما هذه يا سيد توم؟"

"هذه طاقيّة، وهي تنفّعك في المحافظة على دفء رأسك وأذنك، عندما تكون الريح قويّة وقارصة."

"أيمكنني اعتمارها الآن يا سيد توم؟"

"إذا كنت ترغب في هذا."

"ومن أهداني إياها؟" استفسر ويلي وهو يحكم وضعها على رأسه.

"أنا.. ولكن السيدة فليتشر هي التي حاكتها لك."

"يا للروعة يا سيد توم،" قال ويلي معبراً عن امتنانه وهو يتحسس ملمس الصدار الناعم.

"والآن.. ألن تفتح بقية الهدايا يا فتى؟"

كانت الرزمة الثانية هدية من ماي ثورن؛ تلك المرأة التي لم يقابلها ويلي أبداً. وكانت تحتوي على ملابس تحتانية واقية من البرد. أما هدية أختها الأنسة إميليّا ثورن فكانت نسخة مصوّرة من كتاب: الريح

بين أشجار الصفصاف، حيث كتبت على غلافه الداخلي:

"إلى ويليام في عيد ميلاده التاسع، ليقراه لك السيد أوكلي بانتظار أن تتعلم قراءته وحدك."

حمل ويلي الكتاب، وضمّه إلى صدره بقوة.

"أهو كتابي أنا يا سيد توم؟"

أوما توم بالإيجاب.

يا الله.. كتابه.. كتابه هو.. كتابه الخاص به وحده.

كان الكتاب الوحيد الذي يملكه هو الكتاب المقدس. وكان كتاباً قديماً وبالياً ومتسخاً، بل وكان في السابق ملكاً لشخص آخر غيره. أما هذا

الكتاب.. فهو كتاب جديد.. ذو صفحات نظيفة بيضاء.. ملساء.. وفيه أروع ما رآه من صور لحيوانات ترتدي الملابس!

حط الفتى الكتاب قربة بعناية، وتابع فتح بقية الهدايا. كانت هدية آل بيردز؛ كوني وولتر، كأس بيضة، مذهب الحافة من الخزف الصيني

الأبيض. أما هدية الطبيب لينل وزوجه نانسي فمجلة أطفال موسمية تحتوي على كثير من الرسوم والأحاجي. وكانت هدية القسّ وزوجه

لعبة لولبية داخل علبة سحرية. يُضاف إلى كل ذلك سبع بطاقات تهنئة.

أصابته المفاجأة ويلي بالوجوم.. الوجوم الأخرس. فجلس يحدق في الهدايا صامتاً.. مشدوهاً. لدرجة أنه لم ير توم الذي كان في تلك الأثناء يتناول رزمة كبيرة من خزانة غرفة المعيشة، ويضعها أمامه. "هذه هديتي لك يا فتى."

"ولكنك أهديتني هذا، وهذا،" تتمم ويلي وهو يشير إلى الصادر والسر والوال.

"حسناً، هذه الهدية ذات طابع مختلف نوعاً ما."

فضّ ويلي الرزمة، وشهق. رأى هناك.. أمام عينيه، دفتر رسم كبير وآخر صغير. صفحات وصفحات من الورق الأبيض النظيف الذي لم يلمسه أحد. إضافة إلى فرشائين للرسم، إحداهما متوسطة الحجم، والأخرى رقيقة وناعمة، مع ثلاث قوارير من الدهان الأحمر والأصفر والأزرق.

"إذا مزجت هذه الألوان يا فتى،" قال توم، "يمكنك الحصول أيضاً على اللون البرتقالي والأخضر والبني."

تابع ويلي استكشاف بقية محتويات الهدية، ووجد داخل رزمة صغيرة من الورق الطري قلمًا وممحاة ومبراة. كان طرف القلم منقوشاً بكتابة ما، بدت مألوفة لعينه. فنتبعتها بإصبعه على مهل، وقرأ: *ويليام بيتش*. ثم عاد ونظر إلى قوارير الدهان وفرشائتي الرسم، وأبحر في تأملها وهو يزدرد ذلك الوجع الفظيع.. الفظيع الذي استقرّ في حلقة.

"أستطيع القول إذن، أن هذه الهدية أعجبتك يا فتى،" همهم توم. "لقد.. لقد اخترتها لك بنفسى." تابع وهو يرنو إلى شجرة البلوط حيث ترقد زوجه ريتشل وابنه معاً. كانت ريتشل معتادة على إغراقه بالعناق والقبل كلما قدّم لها هدية. وكانت تهوى الرسم، والأزهار البرية، والحرير الأملس، والمربى الحلو، والجعة المنعشة. ومنذ موتها عافت نفسه لمس كل الأشياء التي يمكن أن تذكره بها. ولم يخطر له يوماً أن صبيّاً غريباً قد يلين في أعماقه تلك المشاعر التي تحجّرت ذات يوم. بل أغرب ما في الأمر، أنه بعد دخوله حانوت الرسم ذاك، شعر وكأن موجة رهيبية من الحزن المستديم انزاحت فجأة عن صدره. ولم تبد له ذكرياته عن ريتشل على تلك الدرجة من الإيلام التي كان يتصورها. و.. أعاده صوت ويلي المبحوح إلى دنيا الواقع.

"شكراً يا سيد توم،" همس الفتى. "وثق من أنني سوف أتعهد هذه الأشياء بالعناية البالغة."

بعد وجبة الإفطار الاستثنائية، والمؤلفة من البيض واللحم المجفف، أسرع ويلي إلى المدرسة. وفي فرصة الغداء، قابله توم خارجها لأنه لم تكن لديه دروس مسائية. ثم زارا جميع الأشخاص الذين أرسلوا له تلك الهدايا، ليتمكن ويلي من شكرهم بنفسه. فهذا، سيوفر عليهما مشقة كتابة رسائل شكر لهم. كما أن توم ارتأى أن مقابلة ويلي لهؤلاء الأشخاص فكرة جيدة. توم.. الذي دُهِش الجميع من رؤيته يطرق أبوابهم، لأنه كان من النادر جداً بالنسبة إليه أن يزور أي مخلوق.

أخيراً، عادا أدراجهما إلى البيت عبر الدرب ذي الأغصان المتشابكة. وعرجا أثناء مسيرة العودة على منزل آل ليتل، ومنزل القس. وكانت عينا ويلي لا تكفان عن التجوال بحثاً عن الشقيقتين التوأم وعن جورج، إلا أنه لم يلمحهم في أي مكان. حتى ماكس، لم يجد له أثراً في منزل آل ليتل. ربما.. ربما ذهبوا لقطف توت السياج.. غمغم الفتى لنفسه. وللحظة خاطفة، تمنى لو أنه كان معهم. وعندما أوشك وتوم على الاقتراب من حدود البيت فاجأه الأخير بقوله:

"ما رأيك في قضاء هذه الأمسية في العراء يا فتى؟ فالطقس يبدو لطيفاً."

إلا أن تعليق توم سرعان ما نقضه ذلك الظل الداكن الذي استقرّ في قلب السماء.

"أف، تباً لهذه الغيوم اللعينة،" أرفف توم متذمراً بينما تابعاً السير بخطى وثيدة. أما سام فتقدمهما جرياً، ثم وقف ينتظرهما عند مرعى دوبس.

كان ويلي الذي ما عاد يطيق صبراً لمباشرة الرسم، قد قرر البدء برسم شجرة البلوط العتيقة التي في المقبرة. إذ تراءى له أن ذلك سيكون بداية رائعة. غير أنه وقبل أن يصل وتوم إلى البوابة الخلفية، تلقيا أول تحذير من السماء التي أرسلت على رأسيهما بضع قطرات من المطر. فقال محدثاً نفسه بصوت مسموع:

"سأضطر إلى الرسم في الداخل."

نخر توم موافقاً، ثم طرأت على ذهنه فكرة مفاجئة.

"ما رأيك بالكنيسة يا فتى؟" قال مقترحاً، "يمكنك أن ترسم هناك بالطبع."

"أجل،" وافق ويلي. "أجل، يمكنني هذا بالفعل."

وهكذا، أسرع ويلي إلى لف ممطره بعناية حول دفتر الرسم الصغير، وطار متجاوزاً الممر إلى الكنيسة التي وصل إليها في الوقت المناسب. إذ فور إغلاقه بابها الضخم الثقيل المقوّس، بدأ وابل المطر المdrار بالهطول على القرية وما يجاورها من حقول.

وقف ويلي داخل الكنيسة بلا حراك، وقد غمره شعور غريب لانفراده فيها. ولولا وشوشة حبات المطر بين الأشجار، التي أشاعت في نفسه الإحساس بالراحة والأمان، لاعتراه التوتر. حدقت عيناه في نوافذ الكنيسة، ثم ارتدتا، وحطتا على المذبح. وفي لحظة كان قد علق ممطره على ظهر أحد المقاعد، ثم جلس ومدّ ساقيه فوق حافة المقعد الذي أمامه، وفتح دفتر الرسم على صفحته الأولى، ثم وضعه على ركبتيه وبدأ بالرسم.

بعد برهة تلاشت الأشياء من حول ويلي، ولم يعد يميّز سوى المذبح ودفتره. أما بقية معالم الكنيسة فلم يبق لها من وجود بالنسبة إليه. بل إنه لم ينتبه إلى توقّف المطر المفاجئ. ولم يسمع صوت ماكس وهو يناديه من الخارج مرة تلو أخرى. ولم يبلغه وقع خطواته وهي تهزول على طول الممر الصغير باتجاه باب الكنيسة الخلفي. ولم يشعر به وهو يفتح الباب ببطء، ويطل برأسه مستطلعاً.

لم يكن قد سبق لماكس أن ولج أي كنيسة قط. ولذلك، تسلل إلى الداخل بهدوء. وانبرى يتأمل في طريقه النوافذ والجدران. ثم أبصر رأس ويلي الأشقر الشعر الذي كان بارزاً من أحد المقاعد الخلفية، فهمّ بمخاطبته. بيد أنه غالب هذه الفكرة عندما لاحظ أن ويلي كان مستغرقاً استغراقاً كاملاً في عمله. فخطا بضع خطوات قدماً، واقترب منه على مهل، ثم انحنى عليه من فوق كتفيه الهزيلتين، فحطّ ظله على دفتر الرسم. عندئذ، قفز ويلي مجفلاً، والتفت حاجباً رسمه بذراعه. لكن الألوان كان قد فات، لأن ماكس استطاع رؤية ذلك الرسم.

"ياـه!!" شهق ماكس بصوت مفعم بالإعجاب، "إنه رسم بديع يا صاح." سارع ويلي إلى إغلاق الدفتر بارتباك.

"يجب أن تُريَ هذا الرسم لـ ..". هتف ماكس، ثم تمالك نفسه فوراً، وأحجم عن تكملة ما كان ينوي قوله. "ألم تسمعني أناديك يا ويل. لقد كدت أمزق حنجرتي من كثرة الصياح". هزّ ويلي رأسه.

"أ... تـ... أ...". تأتأ ماكس الذي أعجزته الحيلة فجأة. فراح يجهد فكره ليعثر على شيء مناسب يمكنه قوله. "أ.. السيد أوكلي.. أجل.. أجل، السيد أوكلي يقول إنه يريد من.. يريد محادثتك.. وهو بانتظارك الآن."

"أحقاً؟" قال ويلي بدهشة وهو يتناول ممطره. "أما زالت السماء تمطر؟"

"أوه.. لقد توقّف المطر منذ دهر طويل يا صاح،" هتف ماكس معاتباً. "هيا أسرع الآن وإلا.. وإلا.." ثم سكت لبرهة، محاولاً تدارك تلثمته. "و.. و.. وإلا قد يعاود المطر هطوله."

غادر الصبيان الكنيسة إلى ممر الحديقة. فتباطأ ويلي، ووقف يتأمل الغيوم الوردية ذات الذيل البيضاء وهي تسبح في بحر السماء. لكن ماكس استحثه على المضي، صائحاً عليه بصبر نافذ:

"هيا! هيا! هيا!"

وعندما اقترب ويلي من الباب الخلفي للبيت اعترته دهشة كبيرة. إذ لاحظ أن أغطية التعقيم كانت مسدلة على النوافذ في وقت مبكر. ثم ازدادت دهشته لما تهيأ له أن أحداً قد سارع إلى إسكات سام، لحظة أطلق صوته بالنباح من غرفة المعيشة.

ليس هذا بالأمر الغريب؟! قال لنفسه وهو يهزّ كتفيه عجباً، ويمضي إلى المشجب ليعلق عليه ممطره، في حين هتف ماكس الذي وقف ينتظره عند باب غرفة المعيشة:

"هيا.. هيا أسرع!"

نظر إليه ويلي نظرة حائرة، وقال باستغراب:

"ولكن ماذا تنتظر عندك يا ماكس؟"

"أوه، أريدك أن تدخل قبلي يا صاح."

وبهذه الجملة دفع ماكس الباب، وفتحته على آخره، فضجّت الغرفة كلها بالهتاف:

"عيد ميلاد سعيد"
عيد ميلاد سعيد يا ويليام
عيد ميلاد سعيد."

كانت الغرفة تضم التوأم وأمهما، وجورج وأمه، ولوسي وأمه، وتوم، وقد وقفوا كلهم لاستقبال ويلي بالتهاني. كان سام يقبع في وسطهم مزجراً، وعلى الجدار عُلقت راية فوق الموقد تماماً، تحمل عبارة: عيد ميلاد سعيد يا ويليام. أما الطاولة فكان عليها وعاءان مملوءان بالهلام الأحمر والأخضر، وطبق من البسكويت المحشو بالشكولاتة، وقصعة فيها شطائر لحم، وفطائر سمك. وصحن يحتوي على قطع من الكعك الصغير. وفي وسط الطاولة انتصب قالب كعك عيد الميلاد تزيينه تسع شمعات.

إنّ، هذا هو سبب إسدال أغطية التعتيم باكراً.. حدث ويلي نفسه وقد تسمر في أرضه مذهولاً، إلى أن قطع ماكس حبل الصمت الذي لف الغرفة. "أكانت مفاجأة لك يا ويل؟" هتف بانفعال. "أكانت مفاجأة حقيقية؟ هل استطعت التكهن بما كان يجري؟"

لكن، سمات ويلي المندمسة أوضحت إلى حد كبير أنه لم يكن لديه أدنى فكرة على الإطلاق.

إنّ، هكذا هي حفلات أعياد الميلاد! أجل، لقد سبق له أن سمع الآخرين في المدرسة يتحدثون عنها، إلا أنه.. إلا أنه.. وبسرعة التفت إلى توم مستجداً.

"عليك أن تطفئ الشموع يا بني"، قال توم.

"وإذا استطعت أن تطفئها كلها بنفخة واحدة يمكنك أن تتمنى أمنية"، أضافت كاري.

انحنى ويلي، أخذ نفساً عميقاً ونفخ، فانطفأت ست شمعات في المرة الأولى. وعندما انطفأت بقية الشموع مع النفخة الثانية، صفق الجميع.

"ما زال بإمكانك تمنى أمنية وأنت تقطع القالب"، قال ماكس، "شرط ألا تتكلم أبداً قبل الأمنية وقطع القالب. كما يجب أن تبقى أمنيته في طي الكتمان، وإلا فإنها لن تتحقق، و.."

"سنبقى هنا إلى يوم القيامة يا ولد إذا واصلت ثرثرتك"، قاطعه توم مزجراً، بينما حمل ويلي السكين، وقطّب جبينه مستجمعاً ذهنه ليفكر بأمنيته، ثم غرز السكين في قالب الكعك.

بعدئذ، جرّ توم الطاولة إلى وسط الغرفة ليتمكن الجميع من التحلّق حولها. فجلست السيدة فليتشر، ورو بادفيلد، والسيدة تاتشر على الصوان الخشبي الواطئ المحاذي للباب. وتدبّر الآخرون أمر جلوسهم مستعينين بالكراسي الثلاثة، والمقعد الصغير، والمسند. وعندما استقرّ كل في مكانه، باغتهم ماكس بصيحة عالية.

"يا—اه.. لقد كدت أنسى إخباركم عن لوحة ويل."

وعلى الفور، احمرّ وجه ويلي الذي كان ما يزال، حتى تلك اللحظة، قابضاً على دفتر الرسم تحت ذراعه.

"أحقاً رسمت لوحة يا فتى؟" سأله توم.

"أوه.. دعني أخبرك عنها يا سيد أوكلي"، بدأ ماكس.

"لو أفسحت لك المجال يا ولد فلن تتوقف عن الكلام أبداً!" ردّ توم بفضاظة.

"أيمكننا رؤيتها يا ويل؟" قالت كاري بلهفة.

"من فضلك"، أضافت جيني مؤازرة توأمتها.

إزاء هذا الإلحاح، امتثل ويلي الأمر، وفتح غلاف دفتر الرسم بحياء. فما كان من جورج الذي أسرع إلى الوقوف قربهِ، إلا أن أطلق صفير إعجاب خافت، بينما هتف ماكس بلهجة منتصرة:

"لقد قلت لكم، ها.. ألم أفعل؟"

انحنى توم لينظر إلى الدفتر من فوق رؤوس الصبية، وسرعان ما حملق مأخوذاً بالرسم. إذ رأى أمامه نسخة مطابقة للنسر المنقوش على المذبح، بأجنحته العظيمة المشرعة بجسارة، وقد جعلته خيوط المطر التي أضافها ويلي، يبدو وكأنه يحلّق وسط عاصفة من الرياح العاتية. ثم التفت ورنّا إلى الفتى، وقال بصوت عميق ينمّ عن الإعجاب:

"لديك يد فنان يا ويليام.. يد فنان."

فاصطبغ وجه ويلي بالحمرة القرمزية. لكنه عاد واستيقظ من غمرة خفّره على صوت ماكس الذي ارتفع بالسؤال:

"أيمكن أن تصمم لي رسوم كتبتي يا ويل عندما أصبح كاتباً مشهوراً؟"

غير أن جورج سارع إلى التصدي له مناكداً:
"ولكن، ألم تعلن صباح هذا اليوم أنك تتوي أن تصبح طياراً مشهوراً؟"
"وما المانع؟" أجاب ماكس بشيء من الارتباك، "ألا يمكنني أن أكتب
عن رحلات الطيران الجريئة التي سأقوم بها؟"

بعد هذا الأخذ والرد، استقرّ الجميع في أماكنهم وبأشروا الأكل. ووجد
ويلي أنه كان في خضم ذلك الهرج والمرج، محط ثناء المحيطين به..
كلهم. واكتشف بعد الانتهاء من تناول الشاي أن هناك المزيد من
الهدايا له؛ لعبة صور تركيبية من التوأم، أقلام تلوين من ماكس،
حلوى من جورج، وقطع كعك صغيرة من لوسي.

"لقد خبزت لك هذا الكعك بنفسها"، قالت له أم لوسي مومنة إلى ابنتها
التي كانت تتطلع إليه بهيام لا يعدله هيام. فوقف ويلي يُغالب عجزه في
العثور على طريقة يستطيع معاملتها بها. لكن ذلك الكعك بدا له شهياً
بالفعل، فقال لها بارتباك:
"ياله من كعك رائع."

وعلى الفور وهبته الصغيرة واحدة من ابتساماتها المشرقة الغنية.
أمضى الجمع المحتفل فترة من الوقت في التسلي بممارسة بعض
الألعاب الترفيهية. ثم قاموا للمغادرة إلى بيوتهم. ووقف توم وويلي
خارجاً، وراقبا ضيوفهما وهم يمضون كل في حال سبيله. ثم عادا إلى
غرفة المعيشة، وأغلقا عليهما بابها.

"يا سيد توم،" هتف ويلي وهو يلامس كُم توم. "إنه أرو.. إنه
أروع..". ولكنه لم يستطع إنهاء جملة مطلقاً. إذ كان الطعام والإثارة
أثقل من أن تحتملها معدته الهشة. وللحال، نذت عنه شهقة قصيرة،
ثم أفرغ كل ما احتواه جوفه من طعام فوق جميع أرجاء سجادة غرفة
المعيشة.

الحقبة

استمرت أوراق الأشجار المصفرة في التطاير والتناثر طوال الأسابيع السبعة التالية. وواصل الجليد الأبيض الرقيق افتراشه لوجوه الحقول عند مطلع كل صباح جديد. وتزامن هذا التغير في دورة الطبيعة مع استدعاء ماثيو بارفيت للالتحاق بالجيش، إذ كان اسمه مدرجاً في لائحة جنود الاحتياط. فادهشت ماي ثورن الجميع بتطوعها لتولي مهمة توزيع البريد في غيابه. إذ سارعت إلى نفذ الغبار المتراكم عن دراجتها القديمة المهملة في إحدى زوايا سقيفة بيتها المهجورة. واستخدمتها للتنقل بها من بيت إلى آخر، حاشرة كيس الخيش العامر بالرسائل في السلة المثبتة عند مقدمتها.

وعندما رآها ماكس لأول مرة وهي تقود تلك الدراجة علق بقوله: "لقد كنت أظنها من المنقرضات، فهي تبدو أشبه بأحد الآثار القديمة المرتكزة على عجلتين. طبعاً، أنا أعني هيكل الدراجة وليس الأنسة ثورن."

في الوقت نفسه، وبعد طول انتظار، استدعي مايكل فليتش أيضاً للالتحاق بالجيش. إذ كان قد سجل اسمه ضمن لائحة المتطوعين. فغادر هو وجون بارنز إلى بلدة ويرولد، ليستقلا القطار.

وتوُجبت تلك الأحداث بدخول السيدة ميلر إلى المستشفى، في حالة إسعاف طارئة. وذلك نتيجة إصابتها بارتجاج في الدماغ، على إثر اصطدامها بشجرة في الظلام. وعندما تداعت أخبار هذه الواقعة إلى ذلك البيت الواقع ضمن محيط المقبرة، سمع ويلي توم يهتمهم لنفسه بأنه من العجيب ألا تكون الشجرة أيضاً في حاجة إلى الإسعاف!

وبما أن الحكومة كانت في ذلك الحين، قد طلبت من أهالي الأطفال النازحين المساهمة في إعالة أطفالهم بإرسال مبلغ من المال إلى العائلات التي تؤويهم، قرّر العديد منهم استرجاع أطفالهم، لمكابدتهم الشوق إليهم، إضافة إلى عجزهم عن دفع المال. وهكذا، غادر نصف

الأطفال النازحين ويروولد الصغيرة والمناطق المجاورة لها. فحفّ
الازدحام في صفوف مدرسة القرية، إلا أنها ظلت تقتقر إلى الأقسام
والأوراق.

أما ويلي الذي رغب من صميم قلبه في الانضمام إلى صف السيدة
هارترديج، رغم أنه غدا مولعاً كثيراً بالسيدة بلاك، فدأب يتمرّن على
القراءة والكتابة بإقبال منقطع النظير. وفي بعض الأحيان، كانت
الآنسة إميلي ثورن تزوره بعد فراغها من دوامها في المكتبة العامة،
لتشرف على توجيهه، أثناء مناوبة توم في مراقبة الحرائق. وسرعان
ما اكتشفت أن الصبي يتمتع بكفاءة مميزة في استيعاب وتعلّم الكلمات،
لاسيما إذا أحبها. فبدأت تلقّنه القوافي والأشعار، ثم تكتبها له على
قصاصات من الورق ليتمكن من تتبع الحروف وحده عندما ينفرد
بنفسه. وكان توم، حتى ذلك الحين، قد قصّ عليه جميع روايات: سفر
التكوين، وقرأ له لمرتين متتاليتين كتاب: حكايات تحكى. حتى وصل
بهما المطاف إلى منتصف: سفر الخروج، وأوائل كتاب: أقاصيص
غريم الخيالية. أما بالنسبة إلى ماكس، فقد تدبّر هو وويلي أمر
الاجتماع مع بعضهما يومياً، وفي نهاية كل أسبوع، وخلال أمسيات
متفرقة. وكانا كثيراً ما يخرجان بصحبة الشقيقتين التوأم وجورج إلى
الحقول، للعب أو التنزه.

وفي أمسية آخر يوم من شهر تشرين الأول الغائم، كان ماكس وويلي
في منزل آل ليتل. وكانا يقفان أمام نافذة غرفة المعيشة وقد استندا
على حافتيها، وراحا يراقبان من خلالها رذاذ المطر الصقيعي وهو
يواصل انهماره على الأرض، منساباً في قنوات صغيرة تحت النافذة.
وبعد فترة من الوقت، بدأ ماكس بالتلمل، ثم زاد من حملقة عينيه،
ومسح بيده الغشاوة التي خلّفتها أنفاسه على صفحة الزجاج، وعاد
يمعن النظر خارجاً.

"أف.. أين هو؟ لقد مضى على غيابه دهر بحاله،" هتف
بصوت ملتانع. "سيحلّ الظلام عما قريب، وساعتها لن نتمكن أبداً من
رؤيته عندما يصل،" تابع متحوّلاً عن النافذة بياس. إلا أنه ما لبث أن
سمع قرعاً عالياً على الباب الرئيسي، فوثب مغادراً غرفة المعيشة إلى

الردهة، ثم أطفأ نورها، وهرع إلى فتح الباب على مصراعيه وهو يصيح بجذل:

"واو..ياي.. هيهو! كالو، كالو، كالي!"

ثم.. ثم خبا البريق من وجهه، إذ لم يكن الطارق سوى جورج والتوأم. "عادة، يقول الناس أهلاً وهم يفتحون الباب"، بادرت كاري معاتبة. "يبدو أنها لم تصل بعد، أليس كذلك؟" سأله جورج. "لا يمكننا المكوث هنا إلا ساعة واحدة يا ماكس." قالت جيني بعد أن دخل الجميع الردهة المظلمة.

سارع ماكس إلى صفق الباب، وإضاءة النور بسخط. عندئذ، ظهرت السيدة ليتل عند عتبة باب المطبخ وهي تحمل بيدها لفافة تبغ كانت قد أشعلتها على التو، وتصدت له قائلة:

"عليك يا ماكس أن تصعد برفاقتك إلى الطابق العلوي، فتدريبات الإسعاف الأولى ستبدأ بعد ربع ساعة." تأوه ماكس.

"إلا إذا كنت ترغب في التطوع بلعب دور الجسم الذي سنتدرب عليه." "كلا، شكراً يا خالتي نانس"، ردّ الفتى بسرعة. "هيا، هيا، دعونا نصعد."

وهكذا، هرع الرفاق الخمسة إلى ارتقاء الدرج الضيق المفروش بالسجاد، يلاحقهم صوت السيدة ليتل وهي تصيح من الأسفل:

"ولا تنس يا ماكس أغطية التعقيم، فأنا في غنى عن تهديدات تشارلي ردلز لي مرة أخرى."

"لا تخافي لن أنسى يا خالتي نانس."

كانت حجرة ماكس تبدو أقرب إلى المكتب منها إلى غرفة النوم؛ بمكتبتها الطافحة بالمجلدات الطبية، وبمنضدتها وكرسيها الرابضين أمام النافذة الخلفية المطلّة على حديقة آل ليتل الفسيحة، والمنظمة على عكس ما هو متوقع. إضافة إلى ذلك، كان ثمة طاولة صغيرة تحت النافذة الأمامية المشرفة على الدرب المشجر، وقد ارتكزت عليها صورة امرأة فتية سوداء الشعر، تعانق رجلاً يكبرها في السن قليلاً، ذا عينيّن واسعتين ثاقبتين وابتسامة عريضة. وبحذاء الجدار المقابل

للمكتبة، كان هناك سرير صغير تكومت على الأرض بالقرب منه مجموعة من الكتب.

جلست كاري وجيني على السرير، واقتعد ماكس كرسي المنضدة، وتربّع ويلي وجورج على الأرض وأسندا ظهريهما على المكتبة. وما لبثت كاري أن تناولت بعضاً من الكتب المكدسة أرضاً، وأخذت تتفحصها.

"تجدة الصديق"، قرأت بصوت عالٍ. "ستاكي وشركاه، كنوز الشعر، ممثلون عظماء عرفتهم. يا لهذا الخليط العجيب يا ماكس!"
"كلا، إنه ليس كذلك"، اعترض ماكس.
"حسناً، أنا أظنه عجيباً."

فجأة، تعالى صوت قرع على الباب في الطابق الأرضي.
"إنه السيد توم"، هتف ويلي بحماس، ثم تضرّج وجهه بحمرة الخجل، لإحساسه بأنه فضح ما كان يعتمل في نفسه من لهفة بدون تحفظ.
أما ماكس الذي هبّ على قدميه مهلاً، فاندفع على الفور ليفتح باب غرفته، وليهبط الدرج إلى الطابق الأرضي كالعاصفة، يتبعه الآخرون على عجل. وفي لحظة كانوا جميعاً يتحلّقون حول توم الذي وقف في الردهة، وطبقة رقيقة من رذاذ المطر تلمع على معطفه وقبعته.
"حاولت قدر المستطاع أن أبقّيها جافة"، قال توم مشيراً إلى حقيبة كبيرة عتيقة استقرّت على مقربة من قدميه. "مع ذلك، يُستحسن أن تتشّفها قبل فتحها."

ثم نظر إلى ويلي.

"أظن أنك ترغب في البقاء لبعض الوقت يا ويليام، ها؟"

"أيه". أجاب ويلي.

"حسناً، سأتي لاصطحابك بعد نصف ساعة، شرط أن تكون جاهزاً."
سارع ماكس وجورج إلى التعاون على جرّ الحقيبة، وسحبها على طول الدرج إلى غرفة ماكس. وهناك سطّحها أرضاً على أحد وجهيها. كانت الحقيبة مصنوعة من الجلد البنيّ الذي جعله مرور الزمن باهتاً وطرياً، ومطوّقة بحزامين يلتقي كل منهما بإبزيم مثبت على جانبي مسكّتها. ويحيط بها أفقيّاً وعمودياً حبل ثخين مربوط

بإحكام. أما وجهها فكانا شبه محجوبين بملصقات متعددة الأشكال والألوان تحمل أسماء مدن وبلدان مختلفة.

"هل قمت بزيارة جميع هذه البلاد يا ماكس؟" سأله جورج.

"أمي وأبي فعلاً هذا، وكنا في الماضي يستعملان هذه الحقيبة أثناء اضطرارهما إلى أداء عرض ليلة واحدة، ثم أعطاني إياها."
"عرض ليلة واحدة؟" كرّر ويلي من بعده.

"نعم، هناك شركات تطلب من الممثلين القيام بعرض ليلي واحد، في مواقع مختلفة."

"مواقع مختلفة؟ ما معنى هذا؟" استوضحه ويلي.

"أماكن، أماكن يتمّ عرض المسرحية فيها. والمسرحية تكون عادة محجوزة مسبقاً. المهم، كان والداي يضعان ملابسهما العادية في حقيبة، وملابس التمثيل وأدوات التجميل في حقيبة أخرى."
"وهل يتبرّج والدك أثناء التمثيل؟" سأله جورج.

"أحياناً"، أجاب ماكس، وهو لا يزال منهمكاً في التعارك مع الحبال المستعصية. "رباه، لقد أحكما ربط هذه الحبال إحكاماً جيداً."

"أتعني أنه يتبرّج مثل النساء؟" استوضحه ويلي. فانفجرت كاري بالضحك. لكن جيني حاولت استدراك الموقف، إذ التفتت إلى ماكس وقالت:

"انتظر يا ماكس، دعني أساعدك،"

وعلى الفور جثمت إلى جانب الصبي الذي لم يستطع مغالبة غيظه من تعليق ويلي، فجلس مرخياً ثقله على عقيقه، ثم نظر إليه قائلاً.
"ألم تذهب في حياتك إلى المسرح أبداً؟"
هزّ ويلي رأسه نافياً.

"تقول أمي إن المسارح ودور السينما ليست إلا أوكاراً للخطيئة."

"كلام فارغ"، اعترض ماكس. "أ تعلم أنني ولدت عملياً في المسرح، ورضعت الحليب في غرفه الخاصة بالزينة والتبرّج."

اصطبغ وجه ويلي بالحمرة وتمتم:

"هذا تجديف."

"بل اعلم أنني تعلمت المشي والنطق في المسرح. ولكنني لست آثماً على ما أظن، أليس كذلك؟"

"أنت لست سوى ملاك يا عزيزي،" قالت كاري وهي تشابك بين يديها.
"وأنت بنت مخبولة،" ردّ ماكس. "هيا، هيا دعونا نفتح هذه الحقيبة
للعينة."

أخيراً، تكلفت عملية حلّ عقد الحبال القاسية الندية بالنجاح، وفُكّت
الأحزمة، ثم رفع ماكس الغطاء بتفاخر. فدنا منه جورج والتوأم، لكن
ويلي تردّد في مجاراتهم.

"تعال يا ويل،" قال ماكس الذي لاحظ تقاعسه. "لا تفوت عليّ فرصة
التباهي أمامكم كلكم."

"ومتى ستتوقف عن التباهي يا تري؟" علّقت كاري ساخرة، فاجتلاها
ماكس بنظرة لائمة، بدت مبالغ فيها كثيراً، لدرجة أنها أرغمت كاري
والبقية على الانفجار بالضحك. فاستسلم الفتى وحول اهتمامه إلى
الحقيبة التي عثر في جيب غطائها على مغلف مغلق، سارع إلى
تمزيق طرفه بلهفة وهو يصيح جذلاً:

"إنها رسالة من أمي وأبي."
"يا للمفاجأة! يا للمفاجأة!" قال جورج. "هيا الآن، يمكنك قراءتها
لاحقاً، فأنت تعرف أننا مضطرون إلى المغادرة بعد قليل."

"أوه، حسناً، كما تشاءون،" غمغم ماكس وهو يحشر الرسالة في جيبه،
ويلتفت إلى الحقيبة التي كانت مرتبة بإتقان، ومغطاة بورقة كبيرة من
أوراق الجرائد. فبادر إلى نزع الورقة بلهفة، ثم تناول ثلاث رزم
تحتوي على عدة أنواع من الكعك المنزلي الصنع.

"يا الله! أنا لم أشاهد في حياتي مثل هذه الأنواع من الكعك،" قال
جورج.

"لقد تعلّمت أمي في صباها طريقة صنع هذه الأنواع من جدتي،"
أجاب ماكس وهو يتابع استكشاف بقية محتويات الحقيبة. فعثر في
قعرها على جرتي سمك مدخن، وعلى ثلاثة ألواح من الشكولاتة. ثم
وقعت يده على مجموعة أشياء قديمة كان يعشقها.

"ياي،" صاح صيحة طرب. "كتب!"
"أي نفع لك في هذه الكتب؟ لقد كنت أظن أنه لديك ما يكفيك منها في
المدرسة،" قال جورج ساخراً، في حين هرعت كاري إلى تصفحها.

أما ويلي فدنا من ماكس وربّت على كتفه. فما كان من ماكس الذي قرأ ما يدور بخلده، إلا أن ناوله زوجاً منها.

"إنها كتب حوارية"، قالت كاري وهي تتأمل الجمل والعبارات التي كانت مصفوفة في تلك الكتب بطريقة غريبة. "ولا يوجد فيها أي مقاطع وصفية."

"بلى، يوجد بعض الوصف في الحوار"، أوضح ماكس. "قكلمات الحوار هي التي تخلق جو المسرحية، أترون، إنها النصوص التي تلعبها الشخصيات."

"ها؟ وكيف تلعب تلك الشخصيات؟" سألته ويلي الذي بلغ به الفضول مبلغه. "يالك من أحمق صغير يا ويل. يلعبونها أي يمثلونها؛ إنها أدوار.. أدوار. وهذه الكتب تسمى مخطوطات." أشار إلى السطور، "أترى هذه؟ هذه هي أسطر إحدى الشخصيات، وهذه هي أسطر شخصية أخرى، وهكذا. وعلى الممثل أن يحفظ سطور الشخصية التي يمثلها عن ظهر قلب، ثم يقوم بالتمرن عليها لعدد لا يُحصى من المرات، حتى يبدو الأمر كما لو أنه هو قائل تلك الجمل فعلاً."

في تلك اللحظة، تناول جورج مجلداً سميكاً بالياً، وقرأ بصوت عال: الأعمال الكاملة لويليام شكسبير. —خ! وبحركة متقززة ألقى المجلد على الأرض.

"كيف تجرؤ!" صاح به ماكس مستنكراً وهو يلتقط المجلد بسرعة، ثم نظر إلى ويلي وقد استشعر بأنه لم يسبق له أن سمع بهذا الاسم من قبل.

"أترى يا ويل، إن ويليام شكسبير يعتبر من أعظم الكتاب المسرحيين. والكاتب المسرحي هو الشخص الذي يكتب المسرحيات والتمثيلات، مثل هذه التي بيدك. مع فارق أن شكسبير كتب مسرحياته قبل أربعمئة سنة، ولكن الناس مازالوا إلى اليوم يذهبون إلى المسرح لمشاهدتها وهي تمثل."

"ويليام شيكي"، قال ويلي بصوت هامس. "شكسبير!" صَحّت له كاري بنبرة مستهجنة. "ويليام شكسبير"، كرّر ويلي، "ويليام."

إنّ، هو في النهاية يحمل الاسم الأول لشخص مشهور.
كان الغرض التالي الذي أخرجه ماكس من الحقيقة شيئاً مدوراً، قاسياً،
أسود اللون. لكنه، عندما نفّسه بيده، تحول إلى قبعة لامعة ملساء. ما
إن وضعها على رأسه ذي الشعر المجعد الغزير، وأمالها جانباً، حتى
ظهرت علامات التأثير البالغ على وجه الجميع. ثم سحب من الحقيقة
سترة سوداء صغيرة الحجم، وشيئاً أبيض اللون يشبه القميص. كانت
السترة، ضيقة الخصر، قصيرة من الأمام، وذات ذيلين طويلين
خلفيين، وزرّين مثبتتين عند منتصف ظهرها. أما قميصها الغريب
التصميم، الخالي من الظهر والأكمام، فكان يتألف من ياقة صلبة،
وعقدة عنق، وصدر يتدلى من جانبيه شريطان يمكن ربطهما وراء
الظهر. وعندما لبس ماكس القميص العجيب، ووضع السترة، بدا
وكأنه يرتدي بزّة حقيقية كاملة، زادها إقناعاً الطرفان الأبيضان
الموصولان بنهاية كمّي السترة.

"يا للفكرة الجيدة!" قال جورج مبدئاً إعجابه، بينما عكفت جيني على
تفحص البزّة كلها بدقة، قالباً طرفي كمّيها لترى عن كثب طريقة
خياطتهما. وانشغل ماكس بفضّ غرضين ملفوفين بورق الجرائد، ثم
أمسك حذاء أسود اللون، عجيب الشكل، ذا نعلين ثبتت عند مقدمتهما
ومؤخرتهما قطعتان معدنيتان، وهتف بصوت تملؤه البهجة:
"ياي، حذاء الرقص الإيقاعي!"

لكن جورج الذي لم يستوعب ما قاله ماكس، استوضحه بنبرة حائرة:
"بالله عليك، أي نوع من الأحذية هو؟"
"أوه، ألم أقل إنه حذاء الرقص الإيقاعي. ومن المؤكد أن أحذكم قد
رأى الممثل فريد أستير وهو يرقص؟"

لكنه فوجئ برؤيتهم يهزون رؤوسهم يمنة ويسرة، فتوقف عن متابعة كلامه.
"لقد سبق لي أن سمعت عن فريد بارنز"، بدأ جورج. "وهو يملك
المزرعة الكبيرة التي.."

"ويــــل"، هتف ماكس مقاطعاً جورج وملفتاً إلى ويلي، "أنت
من مدينة لندن. ولا بد أنك قد شاهدت فريد أستير في الأفلام
السينمائية."

"ليس من المسموح لي ارتياد السينما"، قال ويلي بنبرة حازمة. "أنا لا أقوم بهذا النوع من الأمور."

أصيب ماكس بالذهول، هو الذي ظن أن العالم كله.. كله يعرف فريد أستير. "حسناً، هناك طريقة واحدة أستطيع أن أوضح لكم بها معنى الرقص الإيقاعي"، قال وهو يزيج الحقيبة إلى طرف الغرفة، ويطوي السجادة. ثم انتعل الحذاء وأحكم عقد شرائطه، وطلب من الآخرين أن يجلسوا بمحاذاة المكتبة. وإذ وقف أمامهم على أهبة الاستعداد، بدا غريب المظهر فعلاً بذلك الحذاء الأسود الأنيق، والجورب الصوفي المرتوق، والسروال القديم، والقبعة اللامعة، والبزة المذيلة.

"والآن.. انظروا، هذا ما يسمى بالقفزة الإيقاعية."

وعلى الفور قرعت قدمه اليمنى الأرض بخفة، ثم قفز برشاقة، تاركاً ساقه اليسرى ترتفع وراءه. لكنه رأى كاري تحاول كتم قهقهتها، فنظر إليها شزراً، وقال بنبرة غاضبة:

"إذا كنتم لا تريدون أن تعرفوا ما هو الرقص الإيقاعي، فلا داعي لأن أزعج نفسي بإضاعة الوقت."

عندئذ، سارعت جيني إلى وكز توأمتها في خاصرتها، بينما لاطفه جورج قائلاً:

"هيا، تابع الرقص، ولا تعرها أي اهتمام."

مع ذلك، ولولا ما رآه ماكس من تأثير حقيقي على وجه ويلي، لما رضي بمتابعة رقصه أبداً.

"حسناً، انظروا، هاأنا أبداً، واحد.. واثنان.. وثلاثة.. وأربعة.. وخمسة.. وستة.. وسبعة.. وثمانية و.. و.."

وهكذا، أخذ يدور في الغرفة، قارعاً الأرض بإيقاعية منتظمة تارة، أو ملتقاً حول نفسه، وقافزاً تارة أخرى وهو يصيح:

"وثبة عالية، استدارة جانبية، هبوط."

أخيراً اختتم رقصته بدورة مزدوجة، أتبعها بقذف قدميه عالياً في الهواء، حيث ركل إحداهما بالأخرى، ثم وثب وهبط متكوماً فوق السرير. عندئذ، دوت أيدي رفاقه بالتصفيق الحاذق. فانحنى لهم مبتسماً ابتسامة حيية خبت فوراً عندما اقتحمت عليهم السيدة لينل الغرفة،

ووقفت تتفرّس فيهم مستكبرة، ومهددة إياهم بلوح من الآجر كانت تحمله بيدها.

"ماكس"، قالت وهي تنظر إليه مباشرة، "أظن أنك المسؤول عن هذه الضجة".

رنا إليها الصبي القابع على السرير، بوجنتين ورّدهما الجهد الذي بذله في وصلته الاستعراضية، وقد انكشف نعلا حذائه العجيب أمام ناظريها.

"عفواً يا خالتي نانس، و..". بدأ ماكس اعتذاره، إلا أن السيدة ليتل قاطعته قائلة:

"أعرف أن هذا صعب عليك، ولكننا لا نريد أن نبدأ منذ الآن في معالجة إصابات حقيقية. لذا حاول التزام الهدوء قليلاً. هل اتفقنا؟"

أوماً ماكس، فغادرت السيدة ليتل الغرفة مغلقة الباب خلفها. وجلس الأطفال ينصتون بصمت إلى وقع خطواتها وهي تبتعد. ثم انهمك ماكس في خلع حذاء الرقص.

"لا عليك يا ماكس، يمكنك أن ترقص لنا مرة أخرى في وقت لاحق". همست له جيني

"لن يحدث ذلك إذا استمرّ هطول هذا المطر اللعين. فهو يجبرنا على ملازمة البيت طيلة الوقت"، أجاب ماكس متذمّراً.

لكن وجهه عاد ليضيء بابتسامة عريضة، عندما قال له ويلي بصوت منفعّل: "لقد كنت رائعاً يا ماكس، كنت رائعاً حقاً".

بيد أن جورج قاطعهما فوراً، وقال مستحشّراً ماكس على العودة إلى استكشاف الحقيقة:

"هيا.. هيا يا سلحفاة.. هيا!"

فالتفت ماكس إلى الحقيقة من جديد، واستخرج منها رزمة رقيقة مسطّحة. بادر إلى فضّها بلهفة، وتناول منها كنزة متعددة الألوان، يعجّ صدرها وظهرها وأكمامها بمربعات حمراء وخضراء وسوداء وبرتقالية. رفعها أمام الجميع بتباهٍ، ثم وضعها جانباً، وجاهد لينضو عنه كنزته القديمة الضيقة، مستبدلاً إياها بالجديدة التي لم تكن فضفاضة فقط، بل إنه اضطر أيضاً إلى طي أكمامها الطويلة.

"أليست رائعة يا رفاق؟" هتف بزهو. لكن الآخرين اكتفوا بالتحديق فيه، ودهشة عارمة تكتم أفواههم.

"لا أظن أنك تتوي الظهور أمام الناس بهذه الكنزة، أليس كذلك؟!" قال جورج أخيراً.

"ولم لا؟"

"حسناً، ألا توافقني على أنها فاقعة الألوان بعض الشيء؟"

"سلاحقك تشارلي ردلز وهو يحمل أغطية التعتيم!" أردفت كاري، تاركة جيني تغالب قهقهتها.

فالتفت ماكس إلى ويلي مستشفاً رأيه.

كان الصوف الذي حيك به طرفا كمّي الكنزة وحوافها وياقتها العالية من اللون الأحمر الخالص. ورأى ويلي أن ذلك اللون يليق كثيراً ببشرة ماكس السمراء، وشعره الأسود. فقال له بصوت هادئ: "أنا أراها جميلة عليك."

عندئذ، أحس ماكس بالرضا. إذ عرف في قرارة نفسه أن ويلي كان يصدق القول.

إضافة إلى كل تلك الأغراض، وجد ماكس في الحقيبة جوارب قصيرة، وأخرى طويلة وشاحاً وبرنساً، وجزمة قصيرة، سوداء، قديمة، علقت عليها بطاقة صغيرة جاء فيها:

"وجدت هذه الجزمة في خزانة المسرح، وهي لا تصلح لأحد لأنها صغيرة جداً. لذلك أصلحتها، ووضعت لها نعلًا جديدًا. أرجو أن تناسبك. وإذا وجدتتها كبيرة على قدميك، يمكنك أن تحشو مقدمتها. ولك مني خالص حبي. أمك."

وبهذا، أنهى ماكس استكشاف محتويات الحقيبة، فأغلقها، ثم مرّر الكعك على الجميع وسألهم:

"أين سنلتقي مساء غد؟"

"ما العيب في هذا المكان؟" استفسرت كاري.

أشار ماكس بإبهام يده إلى الطابق الأرضي، وقال:

"توجد هنا على الدوام مناسبة ما تجري في المساء. وإذا لم يكن التدريب على الإسعاف الأولي فهو حياكة الجوارب لرابطة البحارة الأيسلنديين."

"في الحقيقة، لا يوجد في بيتنا أي متسع"، أعلن جورج. "فأنا أنشارك وأخي ديفيد غرفة واحدة، ولاشك أنه سيواصل دخولها لسبب أو لآخر ليتجسس علينا. أما إدوارد الذي لم يحظ أبداً بغرفة خاصة به، أصبح الآن، بعد رحيل مايكل، يحرس غرفته وكأنها منجم ذهب لعين". التفت ماكس إلى التوأم.

"وماذا عن منزلكما؟"

تبادلت الشقيقتان النظرات.

"إننا نتقاسم غرفة واحدة فيما بيننا"، قالت جيني. "ولكن هناك صوفي". كانت صوفي شقيقتهم الصغرى التي تبلغ من العمر ثمانية أعوام. "وستظل تحشر أنفها بشؤوننا كلها"، أردفت كاري. بقي ويلي ساكناً.

نعم، إن لديه غرفة خاصة به. ولكنها غرفة عزيزة على قلبه وذات خصوصية فريدة. أيجرؤ على المجازفة بدعوتهم إليها؟ أيجرؤ على طلب الإذن من السيد توم؟ وفي جميع الأحوال، هو مازال يبول في الفراش، وكم.. كم يكره أن يعرف الآخرون هذا. أخيراً، تتحنح وقال بصوت مبجوح:

"ماكس، هناك غرفتي".

"طبعاً"، صاح ماكس. "لقد غابت عن ذهني تماماً. ترى، أيمكننا الاجتماع عندك؟"

"سأسأل السيد توم"، أجاب ويلي وقد تضرّج وجهه بشيء من الحمرة. "لقد سوّي الأمر إذن"، قال ماكس حاسماً القضية، رغم أن ويلي لم يكن متأكداً من هذا. "والآن يا رفاق، ماذا ستكون لعبتنا التالية؟" "أرجو أن لا نلعب طرزان مرة أخرى"، توسّل جورج. "فقد سئمت دور القرد".

"في الحقيقة"، أعلن ماكس، "هناك لعبة جديدة تتخمر في رأسي. ما رأيكم بشارلوك هولمز؟ ويمكنك أن تأخذ دور موريارتي يا جورج. "العدو اللدود؟"

"أوه.. أجل!" هتف ماكس بدهشة. "ولكن كيف عرفت؟"

حملق جورج عينيه متعجباً، فقد كان دائماً يقوم بدور العدو اللدود، وكانت كاري تلعب باستمرار دور معاونه الشرير، الملازم له.

"أيعني هذا أنني سأكون كالعادة مضطرة إلى الموت، أو انتظار وصول النجدة؟" تساءلت جيني متأففة.
 "أ..أ.. ليس تماماً،" أجاب ماكس بشيء من الارتباك. "على كل حال وكما كنت أقول، سيأخذ ويل دور.."
 وللحال قاطعه جورج والتوأم وهم يهتفون بصوت واحد:
 "الدكتور واطسون."

كان الجميع يعرف أن ويلي يلعب دائماً دور المعاون الوفي لماكس. كما كان من المؤكد بالنسبة إليهم، عندما سمعوا اسم شارلوك هولمز يُذكر، أن ماكس سيلعب دور ذلك التحري الذكي، وصائد الغزلان الشهير.
 "ما رأيكم بتسلق الأشجار، والكمون للحيوانات الغريبة؟" اقترح جورج. "أو استكشاف كوخ الأشباح للتأكد من أنه مسكون حقاً؟"
 كان اسم كوخ الأشباح هو الاسم الذي أطلقه الناس على كوخ مهجور، محاط بالأجمات الكثيفة المتشابكة والأشجار العتيقة. وكان الناس على مرّ السنين يزعمون أنهم يسمعون أصواتاً تتبعث منه. ولم يسبق لجورج والتوأم أن تجرّعوا على المجازفة بالاقتراب منه إلا في وضوح النهار. وحتى في تلك الحالة كانوا بالكاد يشرفون عليه، ليفرّوا من أمامه مذعورين.

"ليلاً؟" سألته جيني وهي ترتعد.

"نعم، مع مصباح يدوي."

"وماذا عن نظام التعتيم؟"

"تباً لهذا النظام،" دمدّم جورج.

لكن ماكس قال مغيراً الحديث:

"ما رأيكم بإعداد مسرحية؟"

"علينا التحضير لمسرحية الميلاد المجيد،" أجاب جورج. "كما أن الأنسة ثورن تعدّ الآن عملاً مسرحياً لصالح نقابة النساء."

ران الصمت على الأطفال الذين راحوا يعملون أذهانهم بحثاً عن أفكار جديدة، إلى أن صاح ماكس فجأة:

"وجدتها يا رفاق!! نستطيع إصدار جريدة؛ شيء يشبه الجرائد الرسمية."



telegram @
yasmeenbook

"إيه"، هتف ويلي الذي راقته الفكرة فعلاً.

ولكن الآخرين ظنوا أنه كان يؤازر ماكس باعتباره صديقه المقرب. رمقت كاري توأمتها جيني، ورنّا جورج إلى كاري، ثم نظر إلى ماكس وقال:

"إذا أمعنا التفكير فيها، سنجد أنها ليست فكرة سيئة. وأنا أستطيع الكتابة عن الحيوانات."

"وأنا ساكتب عن الأخبار الخارجية وتطورات الحرب"، أردفت كاري. "ويا لها من حرب!" علّق جورج. "إنها لا تبدو وكأنها قد بدأت." "أما أنا فيمكنني أن أتولى كتابة الفقرات المتعلقة بالطهي والشؤون المنزلية"، أعلنت جيني.

"وماذا عنك يا ماكس؟" سألته كاري. "سأفكر بموضوع ما، بكل تأكيد. حتى لو اضطرني الأمر إلى تأليف مسرحية."

"تستطيع الكتابة عن أخبار القرية"، صاحت كاري. "الأحداث غير العادية التي تجري في ويروولد الصغيرة."

"ويمكن أن يتولى ويلي أمر الرسوم في الجريدة"، قال ماكس. "أما أنت يا كاري فأعتقد أنه من الأفضل أن تكوني رئيسة التحرير." "أنا؟" تساءلت كاري. "لماذا أنا؟"

"لأنك صاحبة الدماغ المفكر بيننا"، أوضح جورج. "دعونا نصوت إذن"، أعلن ماكس. وعلى الفور رفع الجميع أيديهم. "رباه!!" شهقت جيني وهي تنظر إلى الساعة. "يجب أن نذهب فوراً. وإذا لم نلحق بالبيت طيراناً، سنقع في ورطة كبيرة."

وهكذا، سارعت هي وكاري وجورج إلى تناول معاطفهم، واندفعوا خارج الغرفة ثم هبطوا الدرج، تلاحقهم همسات ماكس الملحة: "متى سنلتقي يا رفاق؟"

"لا يمكننا الاجتماع غداً"، قالت كاري. "علينا أن نقوم بدور مربية الأطفال"، أردفت جيني.

ثم هتفتا معاً:

"سنجالس صوفي!"

"ماذا عن يوم الخميس؟"
"عندي تدريب مع الجوقة"، قال جورج.
"ويوم الجمعة؟"

وهكذا، قرّر قرارهم على الاجتماع في ذلك اليوم. وودّعوا بعضهم
همساً. ثم أغلق ماكس الباب وراءهم وعاد إلى غرفته يتبعه ويلي.
"أخيراً، سأتمكن من قراءة رسالتي"، قال ماكس وهو يقفز على
السرير ويخرج المغلف المتغضن من جيب سرواله. "أترك تمناع يا
ويل؟" أردف مخاطباً ويلي الذي جلس إلى جانبه.
"كلا، بالطبع لا"، أجاب ويلي، ورجع بجسمه إلى الوراء حتى تمكن
من الاستناد على الجدار.

كان في قرارة نفسه عاجزاً عن التصديق بأن ماكس صديقه المميز.
ماكس، الذي يقول عنه إنه مستمع جيد ومخلوق حساس. إذ لطالما
اعتقد بأن الإنسان الحساس ليس إلا مخلوقاً مخنثاً. لكن ماكس أكد له
العكس. وهذا وحده.. هذا وحده كفيل بأن يجعله يُكنّ له المودة..
المودة العميقة!

رنا إلي ماكس الذي استلقى على السرير، متكناً بمرفقه على الوسادة،
ومسنداً رأسه بيده، وقد استرسل في قراءة تلك الرسالة التي بدا له أن
هناك صفحات وصفحات منها. ثم عاد واستغرق في أفكاره...
إن أمه لم تكتب إلى قرية ويروولد الصغيرة إلا مرة واحدة، منذ مقدمه
إليها قبل ثمانية أسابيع. وكانت تلك الرسالة موجهة إلى السيد توم.
ومع أنه قرأها له بصوت عالٍ، أدرك الفتى أن السيد توم تحاشى ذكر
عدة جمل منها.

نعم، لقد قام في الحقيقة بكتابة رسالة لها. رسالته الأولى منذ يوم
مولده. بل إنه قام بعنوانه المغلف وشراء الطابع وحده، كما أنه أبردها
بدون مساعدة أحد. ولكنها لم تردّ عليها..
لابدّ.. قال ويلي لنفسه.. لابدّ أنها مشغولة كثيراً بسبب الحرب، وغير
ذلك.

وللحظة.. للحظة قصيرة.. فكّر ببيته في لندن، لكنه، وبلغم البصر،
استبعد ما استرجعه ذهنه من تلك الذكرى.

فجأة، تنهأ إلى سمع الصبيين صوت قرع على باب البيت، تلاه وقع خطوات السيدة ليلث وهي تمضي لتفتح الباب.

"لقد جاء السيد توم"، قال ويلي وهو يغادر مجلسه، بينما انبرت السيدة ليلث تناديه من الطابق الأرضي. "أنا ذاهب يا ماكس."

"حسناً"، أجاب ماكس الذي نهض ليودعه. وما كادا يشرفان على قمة الدرج، حتى ربت له على كتفه، وهمس: "أرجو ألا تتسى موضوع الغرفة يا ويل."

هزّ ويلي رأسه، ونزل الدرج جرياً لملاقاة توم. وحالما فرغ من ارتداء معطفه السميك، واعتماد طاقيته، وتأبط قناعه الواقى، غادرا البيت.

أطلّ توم وويلي على السماء التي بدت سوداء تقريباً. وهاجمتهما الرياح العاصفة التي زمجرت بين الأشجار سائطة فروعها وأغصانها بقسوة. أما حبال المطر فراحت تلتسع وجهيهما لسعاً. فأسرع توم إلى فتح مظلته، وصاح:

"يُستحسن أن تمسك ذراعي يا بني."

وهكذا دبا متلاصقين، ووطئا العشب الغزير المبلل، بجذعين منحنيين إلى الأمام، ليقاوما سطوة الريح. وفي نهاية حديقة منزل آل ليلث وقفا كالعادة يتصارعان مع بوابتها العصىة. ثم مضيا في قلب الليل العاصف، من غير أن يكف صفير الريح الوحشي عن الزعق في أذني ويلي الذي أرخى طاقيته حتى حدود عينيه، وتشبّث بتوم جيداً.

تجاوز الرجلان منزل آل بوش، وتخطيا بشق النفس بيت القس، تلاحقهما أوراق الأشجار، متطايرة فوقهما وحولهما، مصطدمة بهما، وملتصقة في النهاية بوجهيهما الناضحين بالماء. ثم جاهدا ليفتحا بوابة مرعى دويس. وهرع توم للاطمئنان على سلامة موضع مبيت الفرس، مواصلاً في نفس الوقت عراكه مع الريح التي كادت تخلّصه المظلة، لولا إحكام قبضته عليها. أخيراً، نجحا في بلوغ الحديقة الخلفية نصف متخبطين، نصف راكضين، وأوشكا على الاصطدام بالملجأ، أثناء تلمسهما السبيل إلى الممر الذي اندفعا عبره اندفاعاً، بينما واصلت أوراق الأشجار مطاردتهما بعناد.

دخل توم وويلي البيت، وسارعا إلى صفق الباب خلفهما، ووقفاً لاهئين في الردهة المظلمة الساكنة. ثم افترّ ثغر كل منهما عن ابتسامة طفيفة، إذ بدا لهما وكأن مخلوقاً ما قد أخرس عويل تلك العاصفة العاتية التي كانت تعبث في الخارج. لكن، وحالما فتح توم باب غرفة المعيشة، قطع سام حبل الصمت الذي طوّق الردهة بإقباله عليهما وانثاباً وموعوعاً. ثم دنا من ويلي، ووقف على قائمته الخلفيتين، وأسند يديه على بطن الفتى. فأنهى الأخير تعليق معطفه على المشجب، والتفت ليداعبه، ثم قال لتوم:

"هل تناول سام طعامه؟"

"لا يا فتى، لقد تركت هذه المهمة لك."

ابتسم ويلي ابتسامة سرور، لأن إطعام سام كان واحداً من واجباته المسائية. فبادر إلى إعداد وجبة الكلب، ثم قام بتجفيف جزمته بخرقة قديمة، ووضع إبريق الماء على النار، وتناول أخيراً ورقة وقلماً، وجلس إلى الطاولة.

"لقد تأخر الوقت يا فتى،" قال توم.

"عشر دقائق فقط،" توسّل ويلي. "تقول السيدة بلاك أنني إذا أتقنت كتابة حروف الأبجدية كلها، يمكنني مباشرة كتابة الكلمات الموصولة عما قريب."

"لن يطول الأمر إذن."

"كلا،" همهم ويلي وهو ينكبّ على الكتابة.

أعدّ توم الشاي، وصبّه في كوبين كبيرين تناولهما من على مسمارين مثبتين على الجدار قرب النافذة، يحمل أحدهما حرف "ت"، و يحمل الآخر حرف "و". إذ كان توم، منذ أن شعر برغبة ويلي المتحرقة في الانضمام إلى صف السيدة هارتردج، يحاول بشتى الطرق الممكنة مساعدته. ولذلك، قام بالإصاق بطاقات تعريف على مختلف الأشياء والأماكن في البيت، ليتمكن ويلي من الربط بين الكلمة المكتوبة ومدلولها. وبعد مضي فترة من الوقت، تكفل ويلي بهذه المهمة، وبات وضع الملصقات على الأشياء من اختصاصه.

جالت عينا توم في الغرفة، وراحاً تتأملان جميع تلك الملصقات المبعثرة على المفروشات والجدران. ورجا في سرّه أن يتكلم مسعى

ويلي بالنجاح قبل أن تترك السيدة هارتردج المدرسة. فقد بلغه، قبل شهر فقط، أنها كانت تتوقع إنجاب طفلها الأول عما قريب، وأنها على الأرجح، ستترك المدرسة في الربيع، بعد انتهاء الفصل الدراسي. ثم عاد ورنا إلى ويلي، الذي كان قد انتهى من الكتابة، وجلس يعبّ الشاي بصمت لم يكن معهوداً منه.

استغرق ويلي في صمته غير المألوف طيلة تلك الأمسية. وظلّ منكشاً على نفسه، وهو لا يكف عن اختلاس النظر إلى توم بين فينة وأخرى. ولم يجرؤ على طلب الإذن بخصوص غرفته إلا بعد أن أوى إلى فراشه. وكان توم هو الذي استنبط الحكاية منه في ذلك الحين. إذ صعد كالعادة إلى غرفة الفتى ليطفئ المصباح، فوجده قابعاً في السرير، وهو يحدق في الفراغ، وقد ترك أحد كتبه مفتوحاً فوق ركبتيه. مخالفاً بذلك ما درج عليه من الاسترسال في القراءة، وتتبع الحروف بإصبعه. فدنا توم منه، تناول الكتاب.. أغلقه، ووضع على الطاولة.

"والآن"، قال وهو يبحث لنفسه عن موضع مريح عند طرف السرير، "أخبرني ما الحكاية يا فتى؟ ها؟"

نظر إليه ويلي مذهولاً.

"ما الذي ينهش في صدرك؟ لقد كان مزاجك معكراً منذ العشاء." أخذ ويلي نفساً عميقاً.

"أترى يا سيد توم"، بدأ ويلي، "إن إدوارد لن يسمح لجورج بالدخول إلى غرفته بسبب الحرب. وماكس يقول إنهم يحيكون الجوارب في الصالة. والتوأم تزعمان أنهما.."

"على مهلك يا فتى"، قاطعه توم، "وادخل في صلب الموضوع مباشرة."

"يا سيد توم"، هتف ويلي بأنفاس متقطعة، "أيمكنني أن أستقبل جورج وماكس وكاري وجيني في هذه الغرفة؟"

"لا أرى سبباً يمنعك من هذا. هل طردوا من بيوتهم يا فتى؟"
"لا، كل ما في الأمر هو أنه لا يوجد متسع في منزل جورج. ويقول ماكس.."
"لا داعي لأن تبرر لي شيئاً يا فتى. هذه الغرفة غرفتك، ويمكنك فعل ما يحلو لك فيها، فقط.."
"حذره مهدداً إياه بطرف غليونيه، "سيكون عليك ترتيب ما ستسببونه من فوضى. مفهوم؟"

"نعم، طبعاً،" أجاب ويلي.

"ومتى يزعمون المجيء؟"

"يوم الجمعة."

"إلى يوم الجمعة إذن."

وعند هذا الحد، وقف توم، وقبل جبين ويلي، ثم قال بنبرة حنونة:

"حسناً، تصبح على خير يا فتى."

لكنه حالما استدار ليطفئ المصباح، ناداه ويلي بصوت خجول:

"يا سيد توم...".

"هه؟"

"إنهم لا يعرفون شيئاً عن.. عن.. أعني.. تلعثم ويلي، ثم غضّ

بصره، وتحسّس ملاءات السرير بيديه.

"النبّول في الفراش؟ أتشعر بالخجل من هذا يا فتى؟"

أوماً يلي.

"لا داعي لأن نذكر شيئاً عن الموضوع. سأسوي لك سريرك قبل

حلول المساء، وبذلك لن يروا غطاء المشمع. أيناسبك هذا؟"

"أوه، أجل.. أجل.. أجل.. همهم ويلي وسط الظلام الذي عمّ الغرفة، قبل أن

يبادر توم إلى أن نزع غطاء التعتيم من على النافذة.

"والآن، تصبح على خير يا بني،" قال توم مرة أخرى وهو يغادر

المكان مغلقاً الباب خلفه.

وهكذا، بات بإمكان ويلي أن يسترخي في سريره قرير العين. فأسند

رأسه بيديه، وانبرى يتأمل المطر المنساب على زجاج النافذة المائلة،

كأنه الأنهار الصغيرة البراقة. ثم تمعّج وغاص في أحضان أغطيته

الدافئة، مندهشاً من نفسه التي غدت مولعة بالمطر.. هو الذي ما كان

ليصدق بأنه سيشهد يوماً يستسيغ فيه قطرة منه.

وقبل أن يغطّ في النوم، كان آخر ما علق بذهنه، هو تلك الـ تك..

تك.. تك.. الرتيبة الودودة التي استمر المطر يداعب بها سطح القمر

فوق سقف غرفته.

يوم الجمعة

كانت السيدة فليتشر منكبة على آخر مجموعة من الأعشاب الضارة في حديقتها، يحدوها الأمل بأن تنهي اقتلاعها قبل عودة زوجها من جني البطاطس. لكن حبل أفكارها انقطع فجأة عندما بلغ مسامعها صوت نباح عال ووقع أقدام ثقيلة. فشخصت بعينها مستطلعة، ورأت نوم أوكلي أمامها. عندئذ، تحاملت على قدميها، وانتصبت واقفة أمامه، غير عابئة بالطقطقة الطفيفة التي انبعثت من عمودها الفقري.

"لقد بكرت في العودة، أليس كذلك؟" سألته مستوضحة. "أم تراكم قد أنهيتَ العمل؟ أنا لم أعد الشاي بعد لزوجي بن."

"سيبقى بن في الحقل لبعض الوقت"، أجاب نوم. "أما أنا فقرررت العودة باكراً هذا المساء، لأن الفتى يتوقع استقبال رفاقه في البيت. وابنك جورج واحد منهم."

"نعم، هذا ما قاله لي."

نخر نوم.

"لقد ارتأيت أنه من المستحسن أن أكون في البيت، إذ ربما احتاج الفتى شيئاً. فهو من النوع الذي يفعل أكثر مما ينبغي."

تطايرت خصلة شعر حمراء فوق عيني السيدة فليتشر، فازاحتها بيدها، ثم قالت:

"لا يبدو أنه قد مرَّ وقت طويل منذ أن احتفلنا بعيد ميلاده، أليس كذلك؟"

"مضى على عيد ميلاده شهران"، أجاب نوم بذهن شارد وهو يحدق في الطريق، مسترجعاً ذكرى ذلك اليوم الأول، عندما وقف يراقب جسم ويلي المنكمش الضامر وهو يمضي متعثراً وراء سام.

"هل استلمت أي شيء من أمه؟"

"نعم، وصلنتني رسالة منها في الأسبوع الماضي، ومعظمها يتحدث عن ضرورة مراقبتي لتصرفاته السيئة. رباه! صدقيني يا سيدة فليتشر إنني

لأتمنى فعلاً لو أنه كان فتى مشاكساً. إنه لا يردّ بأكثر من نعم أو لا أعرف، على أي شيء أقوله له".
ضحكت السيدة فليتشر.

"كم أتمنى لو أن جورج مثله"، قالت وهي تتناول الدلو المملوء بالأعشاب الضارة. "وماذا إذن عن مساهمة أهالي الأطفال النازحين بستة شلنات؟"

"هذا ما كاتبنتي بشأنه. قالت إنها لا تستطيع دفع المال الآن، ولكنها ستفعل ذلك قريباً. ونقول إنها لن تستطيع الحضور في الميلاد المجيد لرؤية الفتى".

"يا للتصرف المشين!" تمنت السيدة فليتشر مستنكرة.
"أوه، لا أعرف حقاً"، قال توم. "لقد تغيّر الفتى تغيّراً ملحوظاً في هذه الأسابيع الأخيرة." وكذلك أنت.. غمغت السيدة فليتشر في سرّها، بينما تابع توم، "نعم يا سيدة فليتشر، بل إنني لأظن أنه نضج قليلاً. وبصراحة، أنا لا أعتقد أن ابتعاده عن سطوة أمه لمزيد من الوقت سيؤذيه. كما أنها في جميع الأحوال تخيفه كثيراً".
بعدئذ، صمت توم لبرهة، ثم تتحنن، وانكأ على البوابة كمن يرغب في الإقضاء بمكنون صدره.

"أتعرفين يا سيدة فليتشر"، قال فجأة، "لقد سمعته يضحك في الأسبوع الماضي! ومع أنها كانت ضحكة عصبية قليلاً، إلا أنه ضحك. هي المرة الأولى التي أسمع فيها ضحكته، وكنت قد بدأت أعتقد أنه لا يملك أي ذرّة من المرح على الإطلاق".

نظرت السيدة فليتشر في قلب عينيه مباشرة. كانت جبهته خالية من تقطيبها القديم المعهود، كما أن تلك التجاعيد العميقة المحفورة حول عينيه بدت أكثر رقة.

نعم.. قالت لنفسها.. لاشك أن هذا القناع العابس المتجهم يخفي وراءه رجلاً لطيفاً. ولولا ظهور ذاك الصبي الصغير ما كانت لتعرف هذه الحقيقة أبداً. بل وما كان لأي مخلوق آخر أن يعرفها. رنت إلى كومة من أوراق الأشجار التي بعثرها النسيم في أرجاء الحديقة، بعد أن هزهز شجرة نصف عارية، ثم قالت:

"على كل حال، بما أنك هنا يا توم، يمكنك أن تأخذ معك الكنزة والجوارب، فقد انتهيت ليلة أمس من حياكتها."

أخذ توم الأغراض، وسلك طريقه إلى البيت هائئ البال. وكان بين حين وآخر يتوقّف ليلتقط بعض ثمار الكستناء من الدرب. أما سام فواصل مضيه أمامه وهو يتبخر بتثاقل.

كان ويلي في تلك الأثناء قد فرغ من تقشير البطاطس، وبشر الجزر، وتقطيع الملفوف. وأنهى دهن الزبدة على عدة شرائح من الخبز، بطريقة عشوائية عجيبة. وانتهى أيضاً من ملء أوعية سام بالماء النظيف وبقايا الطعام. ثم التفت أخيراً إلى جزمته التي انتصبت لامعة ونظيفة فوق إحدى أوراق الجرائد، وتربّع على الأرض أمامها. وكان على وشك إضافة لمسة أخيرة إليها عندما دخل توم. فرفع رأسه، ونظر إليه وهو يفرك جبينه بانفعال، مخلفاً بذلك بقعة أخرى من طلاء الأحذية البنيّ على أرنبة أنفه. ثم نهض قائلاً بحماس:

"لقد أنهيت كتاب القراءة اليوم يا سيد توم، وسأبدأ بالكتاب الأخير يوم الاثنين. وتقول السيدة بلاك أنني أستطيع مباشرة كتابة الكلمات الموصولة. ولن يحل منتصف الفصل الدراسي إلا وأكون قد أنهيت كتاب القراءة الأخير. عندئذ يمكنني الانضمام إلى صف السيدة هارتردج."

"جيد يا فتى، لقد عملت بجدّ لتصل إلى هنا، وهذا يدلّ على أنك ولد حاذق."

"حاذق؟"

"أي أنك استوعبت كل شيء هنا يا فتى،" قال توم وهو ينقر رأسه بيده.

بعدئذ، التفت توم وويلي إلى تناول العشاء. فجلس ويلي إلى الطاولة متأنقاً بكنزته الجديدة التي أعطتها السيدة فليتشر لتوم، وقد طوى أكمامها بعناية. كانت تلك الكنزة التي بلغ طولها حدود منتصف سرواله القصير، ذات لون كحلي، وياقة مقلوبة. ولم يقرع الزائر الأول الباب الأمامي للبيت، إلا بعد أن كانا قد أنهيا وجبتهما، وجلسا باسترخاء على مقربة من الموقد يحسبان الشاي. ورغم أن مرور

الزمن تكفل بمساعدة معدة الفتى على اكتساب شيء من المناعة ضد الانفعال، أو شك، لحظة سماعه للقرع على الباب، أن يدلق الشاي على سرواله.

"هه، ألن تفتح الباب يا فتى؟" قال له توم. فحطّ ويلى كوب الشاي على الطاولة بحذر، وشق طريقه إلى الباب بعصبية، ومنه إلى الردهة الصغيرة المظلمة. لكنه سرعان ما شعر بالغبطة عندما اكتشف أن ماكس هو أول القادمين. فاستحثه على الدخول إلى غرفة المعيشة، حيث استقبله سام ملوحاً بذيله.

"يالها من كنزة عجيبة يا ولد!" قال توم معلقاً على كنزة ماكس الجديدة التي كان يراها لأول مرة.

"يسعني القول إنها فريدة من نوعها يا سيد توم"، أجاب ماكس بنبرة مرحة.

"حسناً يا ويليام"، قال توم وهو ينهض من مكانه، "سأصعد إلى غرفتك لأضع غطاء التعتيم، وأضيء المصباح."

وبينما غاب توم في السقيفة، وقف ويلى وماكس عند طرف السلم ينتظران نزوله. فحشر سام نفسه بينهما، وراح يخربش حافة درجة السلم الأولى. ولم تمض برهة إلا وانسابت من فتحة السقيفة فوق رأسي الصبيين هالة من نور عنبري اللون.

"ياه.. إنه لمشهد رائع!" شهق ماكس. "إنه أشبه بتدفق إشعاعات نورانية سماوية."

"حسناً، أصبحت الغرفة جاهزة"، غمغم توم وهو يغادر السلم. فسارع سام إلى ارتقاؤه قبل الصبيين. وكان قد أشرف على بلوغ درجته الثالثة وهو يتخبط ويلهث، عندما قال توم:

"أترغبان في وجود سام معكما؟"

"ألن تشعر بالوحدة بدونه يا سيد أوكلي؟" سأله ماكس.

بُغت توم قليلاً من هذا السؤال الصريح، لكنه تمالك نفسه وقال:

"كلا، لأن غيابه سيتيح لي إنجاز بعض الأعمال التي يعيقني عنها عادة"، ثم تابع مخاطباً ويلى، "وإن بدأ بإزعاجكما ما عليك يا ويليام سوى أن تقرر على أرضية الغرفة، وسأتي لأخذه."

"حاضر يا سيد توم،" أجاب ويلي بصوت يملؤه الامتتان، ثم تعاون وماكس على حمل الكلب إلى السقيفة.

وهناك، دُهِش ويلي مما أبداه ماكس من إعجاب بالغ بها. إذ كانت التغييرات الطارئة عليها قد أصبحت مألوفة بالنسبة إليه. سواء فيما يتعلق بجداريها المزينين برسومه ولوحاته، أو برفوفها التي تثبتها توم على أحد الجدارين ليضع عليها الفتى ملابسه ومقتنياته الغالية على قلبه.

تأمل ماكس السرير الصغير القائم تحت إفريز الجدار، والمصباح المتوهج فوق رأسيهما، وانعكاس نوره على الجدران بما عليها من رسوم ملونة. فغمره إحساس عميق بأن الغرفة كانت تفيض بجو لطيف، حيّ وحميم. ثم ألقي نظرة سريعة على صندوقي التفاح المحشورين في إحدى الزوايا، وجلس على طرف السرير إلى جانب ويلي، واسترسل في التحدث عن القصيدة التي كان يحاول نظمها. تلك القصيدة التي وصفها بأنها ذات نبض ملحمي، قاصداً بذلك أنها قصيدة طويلة مقفاة، موضوعها الفرسان ودروعهم.

فجأة، تَخَلَّى سام عن هدوئه، ووثب من مكانه نابحاً. وسرعان ما آنس الصبيان صوت نقر عند فتحة باب السقيفة، ثم أبصرا رأسي كاري وجيني يُطلان منها.

"يا الله، أليست جميلة!" هتفت جيني.

"إنها أشبه بمشغل خصوصي،" وافقتها كاري وهي تتنهد بلوعة. وللحال قاطعهما صوت لجوج من الأسفل.

"كفّا عن هذا الإطراء الآن،" صاح جورج. "أريد أن أرى أنا أيضاً. هيا ادخلا."

ولجت الشقيقتان السقيفة بمشقة، وتبعهما جورج الذي أوشك بتشوقه الجامح إلى رؤية الغرفة أن يقع فوقهما.

وللحظة، حلق الثلاثة فاغري الأفواه في الجدران المزدانة بالرسومات. ثم هتف جورج:

"لا تقل لي أنك رسمت كل هذه اللوحات!"

كانت هناك لوحة لشجرة البلوط، ومحاولتان ماهرتان لرسم سام، وصورة تجمع خمسة أطفال يقطفون العليق، وأخرى لمكتبة عامة فيها

أناس جالسون وواقفون. وعدة رسوم لأحذية وأزهار وأنصاف شطائر مأكولة.

"فيها عبقرية واضحة أليس كذلك؟" قال ماكس وهو يشمخ بأنفه. "ألا توافقونني الرأي على أننا نخبة سحرية من الرفاق؟"
"ولكن، ما سبب وجود كل تلك الكلمات المكتوبة تحت الرسوم؟"
تساءل جورج باستغراب. فاحمرّ وجهه ويلي على الفور.
"أهي لتساعدك على تعلم القراءة يا ويل؟" استفسرت كاري.
أوما ويلي برأسه.

"سأبدأ بكتاب القراءة الأخير يوم الاثنين القادم. وسأبشر أيضاً كتابة الكلمات الموصولة."

"هذا إنجاز جيد فعلاً يا ويل"، هتف ماكس.
غير أن جورج قال مقطباً:

"لا أدري لماذا تجهد نفسك. إن صفك الحالي يتيح لك فرصة كبيرة للهو والتسلية. وفي جميع الأحوال، لو كانت لدي مقدرتك على الرسم لما اكرثت للقراءة والكتابة كثيراً."

"بل قل: لما اكرثت لأي شيء آخر على الإطلاق"، صوّبت له كاري كلامه. "وعلى العموم، أنت فعلاً لا تكثرث لأي شيء!"

"بلى، ولكنهم في المدرسة لا يعلموننا أشياء مثيرة للاهتمام. فمن ذاك الذي يرغب في قراءة الكتب؟ الكتب ليست كافية أبداً، فهي لا تطعم الحيوانات، ولا تحرث الأرض. أليس كذلك؟"

ابتسمت كاري وقالت:

"أنت جاهل كالحمار يا جورج."

"لا بأس"، أجاب جورج. "فأنا أحب الحمير وأعتبرها مفيدة."
عندئذ، قاطعهما ماكس صائحاً:

"هل تتويان قضاء الأمسية وأنتما تتشاجران من جديد؟"

"نعم، معك حق"، أزرتة جيني. "هيا الآن دعونا نتحدث عن الجريدة."
كان الأولاد قد لاحظوا جميعهم منذ لحظة لقائهم، أن ماكس يكاد ينفجر شوقاً ليبوح لهم بما يحمله من أخبار. فقالت له كاري مقلدة طريقته المسرحية في الكلام:

"حسنًا يا ماكس.. أفرغ لنا ما في جعبتك."

"أترون،" همس بصوت يشبه الصرير، "إن الأنسة ثورن ستعدّ مسرحية للأطفال خاصة بالميلاد، للمساهمة في المجهود الحربي. وهي في حاجة إلى كل ما يمكنها الحصول عليه من مساعدة." شهقت جيني.

"لا أستطيع الوقوف على منصّة المسرح أبدًا.. أبدًا. سيفتلتني هذا!" ولكنك لست مضطرة إلى التمثيل. يمكنك المساعدة في الأمور التقنية." هذا صحيح. إذ تستطيعين ممارسة هواية الخياطة هناك،" قال جورج مقترحًا.

فأشرق وجه جيني على الفور، وهتفت:

"رباه! أجل، بإمكانني أن أخيط ملابس الممثلين."

"يا لك من فتى حصيف،" علّق ماكس. "إنها يا صاح فكرة سحرية." ابتسم جورج بزهو، ثم تتنح وقال بلهجة متحذقة:

"أنا دائماً صاحب أفكار لا تقهر."

"هه، يسعدني سماع هذا،" أعلن ماكس. "لأنني أنوي سؤالك اقتراحاً آخر يعادله جودة."

اعتدل جورج في جلسته متباهياً.

"اسأل ما تشاء يا صديقي، هيا."

"ماذا ستفعل أنت في المسرحية؟"

عبس وجه جورج على الفور.

"أنا! أنا!" بقبق باستهجان. "أنا لن يكون لي أي علاقة مع تلك العجوز"

الفتة ثورني! إنها.. إنها مخلخلة العقل، مثل كعكة الفاكهة!"

"يا لك من جبان يا جورج،" قالت كاري.

"لن أشارك في المسرحية أبدًا،" أصرّ جورج. "واعلموا أن هذا القرار نهائي."

"أنا أقترح أن نعيد النظام إلى هذا الاجتماع،" أعلنت جيني بنبرة محدّدة..

نظر ماكس إلى جورج.

"والآن يا جورج،" قال ماكس، "هل تتوي التحلي بالشجاعة أم لا؟"

"جبان،" كرّرت كاري مناكدة.

"أف منكم، حسناً، حسناً،" صاح جورج بغضب. "سأشارك في المسرحية."
"مرحى،" هتف ماكس. "ها قد أصبح عدد المشتركين اثنين."
"وماذا عنك يا ماكس؟" سألته كاري.

"أوه، أظن أنني أنوي التطوُّع للعب واحد من الأدوار الرئيسية في المسرحية،" أجاب وهو يتراجع بجسمه إلى الوراء، ويلف إحدى ساقيه على الأخرى برباطة جاش. ثم التفت ليوأجه ويلى الذي هتف فوراً:
"أنا لم أقترّب من أي مسرح في حياتي يا ماكس. وتقول أمي.."
"إنه ليس مسرحاً حقيقياً يا ويل،" قال ماكس بدهاء. "إنها قاعة اجتماعات القرية. وكل ما في الأمر هو أننا سنجعلها تبدو كالمسرح!"
"نعم، ولكن.."

"لا داعي لأن تمثل يا ويل. يمكنك أن تساعد في الإعداد."
"أجل، كالرسم مثلاً،" اقترحت كاري.

ابتسم ويلى بعصبية، ثم قال:
"حسناً، سأفعل."

"سأطوِّع أنا أيضاً،" قالت كاري. "ولا يهمني ما الذي سأفعله، شرط ألا أكون مضطرة إلى حفظ الكثير من الأسطر."
"رائع يا رفاق، إن هذا يعني اشتراكنا نحن الخمسة في المسرحية،" صاح ماكس، ثم نظر إلى سام الذي كان منهمكاً في مضغ مقممة جزمته الكبيرة المحشوة. وبدا كمن يفكر بإشراك الكلب في مشروعه، فهتف جورج والتوأم بصوت واحد:
"لا، لا، إياك أن تفكر بهذا!"

عندئذ، تحوّل ماكس بعينه نحو ويلى.

"سيكون عليك استئذان السيد توم،" قال ويلى.

"ولكننا ثلاثة ضد اثنين،" صاحت كاري.

"أوه.. حسناً،" قال ماكس وهو يتهد بإعياء. "إنني أعلن استسلامي."

"لقد جاء دوري لإطلاعكم على الأخبار التي أحملها،" قال جورج.
"إننا سنقوم بأداء ترانيم دينية في الكنيسة عشية الميلاد. وقد باشر السيد بوش تدريبننا منذ ليلة أمس، ويمكنه الاستعانة بأصوات جديدة."

فتحت كاري فيها لتتكلّم، فأرشف جورج على الفور:

"الدعوة للصبيان فقط."

"أليست هذه وقاحة سافرة؟" صاحبت كاري بصوت حانق. "إن الصبيان يحصلون دائماً على جميع الفرص. والمدرسة الثانوية في ويروولد لا تقبل إلا الصبيان. بل أصدق،" التفتت إلى ماكس وتابعت فضفضة شجونها، "إنهم لا يهتمون على الإطلاق بتعليم البنات. وبينما أتحرق شوقاً كي أكمل تحصيلي العلمي، يحظى هو،" أشارت بإصبعها نحو جورج، "بجميع الامتيازات، رغم العداء الذي بينه وبين الكتب."

"ربما الآن بما أن الحرب قد قامت،" قالت جيني وهي تلامس ذراع توأمها بلطف، مدركة مدى شغفها بالعلم، "سيتغيّر الحال بالنسبة إلى البنات."

"أوه، كم أتمنى هذا. ولكن، ألا توافقونني أن الوضع لا يدل على قيام الحرب فعلاً؟ اللهم، ما عدا اضطرارنا إلى الخروج في المساء لحضور تدريبات الإسعاف الأولي، وما يشبهها."

خيّمت على الرفاق، بعد هذا الجدل، فترة من الصمت. قطعها جورج عندما نظر إلى ماكس وويلي قائلاً:

"والآن، هل يهتمكما موضوع الجوقة؟"

"كم كنت أودّ هذا،" أجاب ماكس، "لولا أنني في الحقيقة، لا أقصد الكنيسة أبداً. ولاشك أنه سيكون من المستهجن أن أغني فيها. أليس كذلك؟ أترون، لقد نشأت منذ طفولتي في بيت علماني، وتشربت هذه الروح منذ مولدي."

"أتعني أنك ما قصدت الكنيسة في حياتك أبداً؟" سأله ويلي بصوت يملؤه الارتياح.

هزّ ماكس رأسه نائفاً.

"كلا لم أفعل يا ويل. ولكني ظننت أنك قد لاحظت هذا."

تقرّس فيه ويلي، متوقفاً أن يرى في أي لحظة طرفي قرنين حمراوين ينبثقان ببطاء من جانبي رأسه. لكن شيئاً من هذا لم يحدث! "بوسعك أن تجرب،" اقترح جورج.

"هذا صحيح. ولكن، ماذا لو اضطررت إلى الصلاة معكم؟ في هذه الحالة سأنفق بكلمات لا تعني لي شيئاً. وهذا سيصيبني بالتأزم."
"بماذا؟!" صاح جورج.

"بالتأزم، أي بالقلق النفسي"، أجاب ماكس، ثم تنهّد ولوّح ذراعيه في الهواء. "أعني، أنا أودّ هذا. ولكنني لم أمارس الشعائر الدينية في حياتي، وممارستها الآن هي بمثابة القيام بعمل لست مقتنعاً به."
"في هذه الحالة يمكنك أن تفهم سبب انزعاجي من مسألة المدرسة الثانوية. فعدم دخولي إليها يتعارض مع قناعاتي"، قالت كاري.

"هه.. ماذا تنتظرون إذن، هيا تناولوا المناديل وابدؤوا بالعويل."
زمجر جورج وتظاهر بالعزف على كمان خيالي.

"سأنضم إليكم"، قال ويلي على نحو غير متوقع. "سـ .. سأغـ .. ني..
فأشرق وجه جورج، وانبرى قائلاً:

"نقوم بجلسات التمرين كل يوم خميس، وسأساعدك في القراءة إذا واجهت أي صعوبة."

"أصبح لدينا الآن خبران جيدان للجريدة"، أعلنت جيني.

"إننا يا رفاق نحتاج إلى القيام بعمل فيه مزيد من الإثارة"، غمغم جورج بتململ. "دعونا نخرج ونبحث عن القنافذ، أو حتى عن جحورها. ما رأيكم؟ من منكم يصوّت لصالح هذا الاقتراح؟"

"أنا"، هتف ويلي بسرعة. فحذق الجميع به مذهولين، إذ كان من غير المألوف أن يروه متحمساً لأي شيء، قبل أن يكونوا قد استنفدوا كل الحيل لإقناعه.

"وأنا أيضاً"، قال ماكس. "طبعاً أنا لا أعرف شيئاً عن القنافذ، ولكن قد يكون هذا مفيداً. إذ ربما اضطررت في يوم ما إلى تمثيل دور قنفاذ."

نظرت كاري وجيني إلى بعضهما. ثم قالتا وهم يتنهدان باستسلام:
"نحن أيضاً."

"ولكن، تعلمون طبعاً أنني لست أرغمكم على أي شيء"، قال جورج.
"اسمعوا"، همس ماكس، "ما كان اسم ذلك المكان الغامض الذي ذكرتموه عندما التقينا في بيت الخالة نانس في المرة الماضية؟"

شحب وجه جيني، وهممت:

"كوخ الأشباح."

"ألا يمكننا الذهاب وإلقاء نظرة عليه أيضاً؟"

لم ينبس جورج والتوأم ببنت شفة. وشعر ويلي بوخز بارد يزحف صاعداً من أسفل ظهره إلى أطراف شعر رأسه.

"أوه، هيا الآن يا رفاق"، صاح ماكس. "أيمكن أن يكون ذاك المكان مخيفاً إلى هذا الحد فعلاً؟"

أوماً ثلاثتهم بدون أن ينطقوا بكلمة.

"أتري، نحن لم نقصده منذ سنتين تقريباً"، قال جورج.

"حسناً، وماذا حدث قبل سنتين؟"

"لا شيء يمكنك أن تؤكد تأكيداً جازماً"، أوضحت كاري. "ولكن الجو المحيط بذلك الكوخ جو غامض ومخيف. وقد.. وقد.. بدت الأشجار لنا، تابعت وهي تزدرد ريقها، وكأنها تزمجر في وجوهنا، وتلوح لنا بأغصانها متوعدة."

"إن دعونا نقصد ذلك المكان معاً. فنحن إذا تكاتفنا يمكننا حماية بعضنا."

"متى؟" سأله جورج بهلع.

"ما رأيكم بالليلة!" همس ماكس بنبرة جعلت الرعدة تسري في أوصال جيني. "بل ما رأيكم بعشية عيد جميع القديسين!" أردف وهو يطلق ولولة شبيهة بولولة الساحرات الشريرات، فزعق جورج والتوأم، واحتمى ويلي بسام الذي علا صوته بالنباح، وبدأ يثب مهتاجاً، رغم محاولات ويلي لتهدئته. عندئذ، استمرأ ماكس مواصلة مزاحه، فتابع تصديه لهم وهو يئن أنيناً مفزعاً، وقد رفع ذراعيه في الهواء، وحول عينيه إلى الداخل، وجرجر قدميه.

"هذا يكفي يا ماكس"، صاحت جيني زاجرة إياه بغضب.

"أوه، حسناً، أيها المفسدون للمسرات"، قال باستياء، وبادر إلى الجلوس. لكنه أخفق في وضع مؤخرته على الوسادة التي كان يقتعدها، فحط بكل ثقله على الأرض، مرتطماً بها ارتطاماً عنيفاً. فانهمك في تدليك قفاه الذي بدا أن تلك السقطة قد آلمته كثيراً. واغتتم الآخرون الفرصة، واقتصوا لأنفسهم بالضحك عليه.

لكنهم قوطعوا فجأة بنقر على باب السقيفة. فهمست كاري:

"يا للمصيبة!"

وأردفت جيني وهي تحدج ماكس:

"ها قد جاءنا التوبيخ، لقد قلت لكم بأننا نحدث الكثير من الضجيج."

فاتحج ماكس قائلاً:

"لا تصبّوا كل اللوم على رأسي وحدي."

دفع ويلي الباب ليفتحه، ورأى توم واقفاً على السلم وهو يحمل صينية كبيرة عليها إبريق من عصير الليمون، وخمسة أكواب، وطبق فيه بسكويت الزنجبيل، وقصعة عامرة بالكستاء، إضافة إلى صحن صغير من الملح. فصاح بصوت يملؤه الفرح:

"يا الله، كستاء ساخنة! كثيراً ما رأيت الناس يبيعونها في شوارع لندن أثناء عيد الميلاد، ولكني لم أذق طعمها أبداً."

"خطر لي أنكم قد تحبونها،" قال توم.

"تحبها فقط؟" هتف ماكس. "يا سيد توم.. أنت شخص رائع، لا مثيل له."

"ممم.. أ أنا كذلك حقاً؟ أحم.. أحم!" همهم توم الذي ارتبك كثيراً حينما رنا إلى وجوه الأطفال، ورآها مشرقة بالبهجة. "حسناً، من الأفضل أن تباشروا أكلها قبل أن تبرد،" أردف مدارياً انفعاله بمداعبة سام الذي كان في تلك الأثناء قد دنا منه، حاشراً نفسه بين ذراعيه، ومخفياً رأسه تحت ذقنه. "يبدو أنك اكتفيت يا صغيري،" غمغم وهو يحمل الكلب، ويلوح للأطفال. ثم توارى عن أنظارهم، مغلقاً الباب أثناء نزوله. فالتفت ماكس إلى ويلي قائلاً:

"إنه إنسان رائع فعلاً يا ويل. لاشك أنك محظوظ جداً لأنك تقيم مع شخص مثله."

ابتسم ويلي..

نعم، لقد عرف هذا منذ يومه الأول المربك في هذا البيت.

"وأنا أيضاً محظوظ،" تابع ماكس، "لأنني أقيم مع الدكتور لينتل، والخالة نانس."

"هذا لأنهما معتوهين مثلك،" ناكده جورج متشدقاً بغم ملآن بالبسكويت.

"أتعلمون، أنا لا أظن أن كريستين كينغ، وأخاها روبرت سعيدان كثيراً"، قالت جيني. "إنهما يقيمان في واحد من تلك البيوت المتجاورة في مزرعة هيلبروك. ويجب عليهما أن يكسبا لقمة عيشهما بعرق جبينهما، خصوصاً الآن بعد رحيل جون."

"نعم، لقد نام روبرت أثناء درس التاريخ يوم الاثنين الفائت"، أردفت كاري. فقاطعها جورج قائلاً:

"أنا لا ألومه."

لكن جيني تجاهلت تعليقه، وتابعت:

"وأخبرتني كريستين أن السيد بارنز هدهما بقتل كليهما إذا لم يعملوا بمزید من الجد."

"خذي، كلي هذه"، هتفت كاري وهي تلقي حبة كستناء بين يدي توأمتها.

"نعم، نعم، دعونا نأكل"، قال جورج على الفور.

التهم الأولاد الكستناء، وشربوا عصير الليمون، ثم تناقشوا حول تصميم الجريدة، ومن سيكتب ماذا. وقرروا بدون أي نقاش أن ويلي هو المسؤول عن جميع رسومها ولوحاتها. وأن ماكس سينهي قصيدته الملحمية، وسيعدّ تقريراً عن مسرحية الميلاد. بينما ستكتب كاري عن الحرب، وتأثيرها على توافر الحلوى. في حين ستشيد جيني بعجائب فريق الإسعاف الأولي. أما جورج فسوف يكتب عن القناذل التي يحب. انتهى الاجتماع أخيراً، بقلوب عامرة بالرضا. فغادر الأطفال السقيفة، ونزلوا السلم، ثم ودّعوا بعضهم وانطلقوا في طريقهم. ووقف ويلي يراقبهم وهم يتجاوزن المقبرة جرياً، ويتسلقون جدار السور إلى الدرب. وعندما ابتعدوا أغلق الباب، ويمّم شطر غرفة المعيشة، وغاص بين أحضان الأريكة منتشياً، غير شاعر بنظرات توم الذي كان يرمقه متفحّصاً.

لم يكن توم قد نسي النتائج الوخيمة التي أسفرت عنها آخر مرة استقبل فيها الفتى مجموعة من الأطفال، وما أصابه بعدها من سقم ومرض. لكنه لاحظ، أن الفتى كان يبدو في هذه الليلة مفعماً بالنشاط والصحة، رغم الإجهاد الظاهر عليه، فدنا منه وهو يقول:

"دعني ألقى نظرة على ذراعك يا فتى."

رفع ويلي كم كنزته وقميصه القطني، واقترب من حافة الأريكة ناعساً. فجثم توم على مقربة منه، وبدأ ينظف له الجرح برفق، ثم دهنه بمرهم طبي.

كان ذلك الجرح هو الأثر الوحيد الباقي من تلك الجراح التي كانت تملأ جسم الفتى.

"في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم، سيكون أثر هذا الجرح قد زال نهائياً،" غمغم توم، لكن ويلي الذي أثقل النعاس أجفانه، لم يسمعه. فبادر توم إلى مساعدته على ارتداء منامته، ثم حمله على ظهره، وصعد به السلم إلى السقيفة، ووضعه في السرير.

استيقظ ويلي في صباح اليوم التالي على إحساس غريب جداً. وبدأ له أن هناك شيئاً غير عادي في ذلك الصباح. فلازم سريره لبعض الوقت، محاولاً فكّ طلاسم اللغز الذي حيرته. لكنه، وعندما لم يخرج بأي نتيجة، استسلم على مضض، وغادر فراشه.

فقط.. عندما امتدت يده بحركة تلقائية، وهمّاً بنزع ملاءات السرير، عرف ما هو الشيء المختلف في ذلك الصباح. نعم.. لم تكن الملاءات في حاجة إلى الغسيل، فقد كانت جافة!

لابد أن تستمر الحياة

أخيراً، حلّ شهر تشرين الثاني ببرودته القارصة، وأمطاره الغزيرة، وأيامه القصيرة التي كثيراً ما سببت الانزعاج لأولئك الأشخاص الذين استصعبوا السفر في ظروف التعتيم الإجباري.

في هذه الفترة، كان توم قد فرغ من إعداد الأرض لزراعة اللفت، وانهمك في تشذيب الأشجار، وحفر القنوات، ومدّ يد المساعدة لأصحاب المزارع الأخرى، كلما احتاجوا إلى عون إضافي. واعتاد ويلي أن يرجع إلى البيت من المدرسة ليجد غرفة المعيشة عبقة بأريج الأغصان اليناعة، وهي تحترق في الموقد.

في الوقت نفسه، كانت القرية والمناطق الريفية المجاورة، قد خلت تقريباً من جميع الأطفال النازحين، ما عدا ويلي وماكس، وروبرت كينغ وشقيقته كريستين المقيمين في مزرعة هيلبروك، وأبناء آل براون الذين يستضيفهم القس.

ونظراً إلى أن ديفيد هارترديج غدا قائداً متمرساً في الطيران الحربي، أصبح بالنسبة إلى الناس في عداد الأبطال المرموقين، وصارت زيارته القصيرة للقرية مدعاة إثارة عظيمة.

لكن، وبينما بدأت قرية ويروولد الصغيرة تعاود سيرة حياتها المعهودة، ظلت وتيرة الأحداث في العالم الكبير تواصل تفاقمها. إذ نجا هتلر من حادث انفجار عبوة ناسفة في قبو لتخزين الجعة في ميونخ، وأصابته قذائف الطيران الألماني مصباً نهر التايمز، وأغرقت الطرادات الألمانية الحربية سفينة بريطانية تجارية، وتعرضت فنلندا للغزو، وقصفت هلسنكي.

إلا أن أحداث الحرب العالمية هذه، لم تؤثر كثيراً على مجرى حياة أهالي ويروولد الصغيرة. باستثناء الأنسة إميليا ثورن التي كانت مضطرة إلى إعادة صياغة مسرحية الميلاد، كلما غادر أحد الأطفال النازحين إلى بيته.

وهكذا، مضت الأيام تترى، حتى حلّ الأسبوع الأول من شهر كانون الأول. فهاجرت خلاله آخر فلول السنونو، مخلفة السماء للغربان

السوداء التي تابعت التحليق فوق الحقول المحروثة بحثاً عن الديدان. أما الرياح الشتوية اللاذعة التي جلبها الشهر معه، فواصلت خبط أبواب بيوت القرية بعنف، مقتحمة شقوقها ومنافذها، ومدللة بالبرهان القاطع على قسوة ذلك الشتاء.

في تلك الأثناء، أنهى ويلي آخر كتاب من سلسلة تعليم القراءة، وأصبح على مستوى يؤهله للانضمام إلى تلاميذ السيدة هارتردرج. وحتم عليه تقدّم مستواه في الكتابة الذي واكب إتقانه للقراءة، أن يبدأ بحفظ جداول الضرب إلى الجدول السادس. وتعلم أصول الجمع والطرح والقسمة. وفك رموز العشرات والكسور، وتطبيقها على الشلنات والبنسات. إضافة إلى تكوين معلومات أولية عن الأوزان والمقاييس البسيطة. حتى بدا للفتى أن كل تلك الأعباء الجديدة كانت بلا نهاية.

أما توم الذي ظنّ بأن ويلي لن يرغب في متابعة جلسات القصص المسائية، بعد إنهائه كتاب القراءة الأخير، فتبيّن له العكس تماماً. لأن ويلي كان مولعاً بالركون إليه مساءً، والإنصات له. فاستمرت رواية الحكايات، حتى صاراً على وشك إنهاء سفر الخروج، وبلغاً منتصف كتاب: *الريح بين أشجار الصفصاف*.

بالطبع، كانت جريدة الرفاق الخمسة قد اكتملت في ذلك الوقت، بفضل صمود كاري وويلي. مما عنى أن ثلثي الجريدة كان من كلمات كاري ورسوم ويلي. أما الثلث الباقي فاشتمل على بعض النكات من ماكس، بضع تعليقات من جورج عن الحيوانات، ومقال وطني من جيني عن أهمية جباية التعويضات ودورها في ربح الحرب. ونظراً إلى أنه لم يكن هناك سوى نسخة واحدة من الجريدة، تناوبت القرية قراءتها لقاء ربع بنس. وتبرّع الأولاد بمعظم المال الذي حصلوه لصالح المجهود الحربي، واشتروا بما تبقى كيساً من البالونات، وحلوى مطعمة بنكهة الينسون. ثم قرّروا الانتقال إلى مشروع جديد.

وبما أنه لم يتبق على حلول الميلاد المجيد سوى ثلاثة أسابيع، غدت أيام الرفاق الخمسة حافلة بالأشغال؛ من تحضير الهدايا، وتعليق للزينة، وتدرّب على المسرحية. تلك المسرحية التي اقتبستها الآنسة إميليّا ثورن من رواية: *ترنيمة الميلاد*، للكاتب المشهور: تشارلز

ديكنز. والتي اضطلع فيها ماكس بدور بوب كراتشي، ودور السيد فيتزويغ، وشبح عيد الميلاد الحاضر، وشبح ما يمكن أن يحدث. بينما أخذت كاري دور السيدة فيتزويغ، والصبيّة التي وقعت في غرام سكروج إيان شبابه. أما توأمتها جيني التي احتجبت في ردّهات المدرسة، فتولت بسعادة يعجز عنها الوصف، مساعدة شقيقة الأنسة ثورن الكبرى في تصميم الملابس وخياطتها. ورغم أن جورج حاول جاهداً تجربة عدة أدوار مختلفة، إلا أنه كان كلما اعتلى المنصة، فقد السيطرة على جسمه، وأخذ يلوح ذراعيه، ويجرر ساقيه بطريقة خرقاء. وفي النهاية، توصلت الأنسة ثورن إلى حل فعّال، إذ جعلته يلعب دور شبح مارلي؛ شريك سكروج السابق، فهو دور لا يتطلب أي براعة في التمثيل.

وهكذا، استمرّ العمل في المسرحية، إلى أن وقع ذات أمسية من تلك الأمسيات الشتوية، حدث صعق جميع المساهمين فيها، أثناء اجتماعهم للتمرين.

كان ويلي الذي سبق له أن ساعد في طلاء لوحات المشاهد، قد اضطلع بمهمة الملّقن بعد انتقال ماثيو براون الفجائي إلى مدرسة داخلية. ولذلك، كان عادة ما يجلس إلى جانب الأنسة ثورن، وهو يحطّ مخطوط التلقين على ركبتيه، وعيناه تنتقلان بين الأسطر وبين وجوه الممثلين، ليستشف من خلال إيماءاتهم مقدار ما يتذكرونه من سطورهم. حتى أصبح بعد فترة من الوقت، على دراية بمعظم فقرات المسرحية، بل وبات يحفظها عن ظهر قلب. لدرجة أنه صار بإمكانه تلقين الممثلين بدون النظر إلى المخطوط.

بالطبع، كانت هذه المهمة صعبة عليه في البداية، إذ كان يهمس بكلمات التصويب همساً. وكان يتلعثم ويرتجّ عليه الأمر كلما اضطر إلى تكرار تصويباته بعد سلسلة من: "عفواً!" و "ماذا قلت؟" ثم اكتشف أنه إذا رفع صوته قليلاً، ونطق الجمل بمزيد من الوضوح، فإن الآخرين لن يلاحظوه كثيراً.

في تلك الأمسية بالذات، جلس ويلي مع كتاب التلقين على ركبتيه، مقطب الجبين، حاضر الذهن، مستمتعاً بذلك الجو الغامض الذي

أشاعته ستائر التعقيم المسدلة على نوافذ القاعة. إذ تملكه الشعور بأنها
تضفي على المكان هالة سحرية مثيرة. وكانت كاري في ذلك الوقت
تقف على منصة المسرح وحدها، وقد شبكت يديها، وأخذت تحق
بستارة المسرح، ساخطة، منقبضة الوجه، وكأنها تعاني من وجع ما.
"كاري يا صغيرتي"، قالت الأنسة ثورن بعد طول صبر. "إنك تبدين
كما لو أنك تعانين من المغص."
"ليس هذا بعدل أبداً."

"بعدل"، صحت لها الأنسة ثورن.
"ليس هذا بعدل"، قالت كاري، "فأنا أشعر أنني كالبلهاء إذ أخاطب
شخصاً غير موجود أمامي."

مطت الأنسة ثورن ساقيها الطويلتين المشوكتين إلى الأمام كراقصة
الباليه، وتنهّدت تنهّد العاجز. فقد تبين لها مؤخراً، رغم ولعها
بالأطفال، أن العمل معهم أشبه بخبط الرأس بجدار من الطوب. ورغم
اكتشافها أن ماكس كان الطفل الوحيد الموهوب بينهم، إلا أن موهبته
بدت لها أقرب إلى الاحتراف منها إلى الأداء التمثيلي البسيط. إذ كان في
معظم الأحيان يطلق نفسه على سجيته، مستغلاً جميع ما يتمتع به من صفات،
ليستعرض معلوماته المسرحية الكثيرة. وكان ما يزال، حتى تلك اللحظة،
يحاول إقناعها بإضافة رقصة إيقاعية إلى المسرحية.

حدقت الأنسة ثورن بكاري، وفركت جبينها براحة يدها، ثم التفتت
صوب بقية الأطفال الذين كانوا يجلسون في مؤخرة القاعة.
"هل رأى أحدكم روبرت كينغ أو أخته كريستين؟" سألتهم مستوضحة.
إذ كان روبرت يلعب دور سكروج.
"كلا يا آنسة"، غرّدت لوسي.

"سنقوم بأداء مشهد العجوز الشمطاء إذن"، قالت الأنسة ثورن.
فهتف ثلاثة أطفال من مؤخرة القاعة بصوت واحد:
"كريستين في ذلك المشهد يا آنسة."

"نعم، هذا صحيح"، أجابت الأنسة ثورن. "إنه لوضع سيئ فعلاً، فنحن
لم يتبق لنا من الزمن سوى أسبوعين فقط، ومع ذلك مازلنا أبعد ما
نكون عن الاستعداد."

ما كادت الأنسة ثورن تنهي جملتها حتى التفتت ونظرت إلى ويلي.
 "ويليام، ما رأيك في أن تحل محل كريستين؟"
 "ولكنه دور بنت يا آنسة!" اعترض جورج.
 "حسناً، سيكون علينا اليوم أن نستبدل تلك العجوز برجل مسن،"
 أجابت الأنسة ثورن بصوت مخيف في هدوئه.
 أما ويلي فغادر مكانه صامتاً، ودبّ إلى منصة المسرح بعصبية، حيث
 انضم إلى الآخرين وهو يحمل مخطوط التلقين بيده.
 "هيا.. ابدأوا!"
 وعلى الفور بدأ ويلي يقرأ دور كريستين، محاكياً جميع نبرات صوتها،
 من غير أن يتخلّى عن مهمته في تلقين أقرانه. فما كان من الأنسة
 ثورن إلا أن صاحت معترضة:
 "لا، لا، لا! فليقم بالتلقين شخص آخر."
 "لكنه في هذه الحالة لن يتمكن من متابعة دوره،" احتجّت كاري. "أ..
 أ.. أليس كذلك يا آنسة؟" أردفت بعصبية عندما حدجتها الأنسة ثورن
 بعينين يتطاير منهما الشرر.
 عندئذ، هتف ماكس بسرعة:
 "سأتولّى مهمة التلقين."
 ورغم أن الأنسة ثورن لم تظنها فكرة صائبة، وجدت نفسها مضطرة
 إلى القبول بها، نظراً لضيق الوقت المتبقي.
 "والآن يا ويليام،" قالت، "انتظن أنك تستطيع تذكّر التحركات على
 المنصة؟"
 هزّ ويلي كتفيه متردداً.
 "حسناً، ما رأيكم في أن نقوم بالتجربة؟ وأنت يا ويليام..
 "نعم يا آنسة؟"
 "تخيّل أن الجوّ بارد ومظلم وكئيب. وأنت رجل مسن وجائع، يحب
 السرقة وإثارة المتاعب للناس."
 نظر إليها ويلي بعينين حالمتين.
 "أسمعت ما قلته لك يا ويليام؟"
 أوما الفتى برأسه.

"جيد. الكلمة الأولى لك، وعليك أن تبدأ عندما تشعر بأنك جاهز."

"جاهز؟! سألها بصوت ينم عن الدهشة.

"عندما تشعر في داخلك بأنك ذلك الرجل المسن حقاً."

وقف ويلي في مكانه صامتاً، وانكفاً على نفسه غائصاً إلى أعماقها، سابراً أغوارها. فعادت به الذاكرة إلى متشرد عجوز، محدودب الظهر، متفكك المشية، اعتاد على رؤيته عند محطة القطار، على مقربة من مسكنه في لندن. تذكر أيضاً، تلك الأيام التي سبق له أن قاساها هو نفسه، حينما كان الجوع ينهش أحشاءه، حتى لتمنعه تشنجات معدته من الاعتدال في وقفته.

جلست الآنسة ثورن ساكنة، وراقبت بدهشة تحول ويلي التدريجي إلى الهرم. رأت كتفيه ترتفعان وتنحنيان، رأت معدته تنقوس وتضمر، رأت مظاهر التعب والجوع والشقاء وحدة الطباع ترتسم على ملامحه. أما ماكس الذي وجد نفسه منجذباً كل الانجذاب إلى ويلي، كمن نؤم تنويماً مغناطيسياً، فاضطر إلى تثبيت إصبعه على سطور كتاب التلقين كي يستطيع تتبعها.

أخيراً، بدأ ويلي الكلام بصوت أحش متشرب بالخسة والخشونة. فحدق به الأطفال الذين كانوا معه على المنصة مشدوهين. وعندما نذت عن أحدهم قهقهة مكتومة، تدخلت الآنسة ثورن على الفور، وصاحت بصوت حازم:

"استمروا."

وهكذا، استمرّ التدريب على المسرحية. وكان على الأطفال الثلاثة الذين تزامنت أدوارهم مع دور ويلي، أن يحاولوا الانسجام معه قدر المستطاع. لكنهم ظلوا قياساً إلى أدائه أشبه بمن يقرأ نصاً من كتاب مدرسي. أما ويلي الذي ما انفك يتخيل أن قدميه القذرتين كانتا مستورتين بالخرق وأوراق الجرائد، فظل محافظاً على أدائه المميز حتى أنهى المشهد. ثم غادر المنصة على مهل، وعاد إلى مكانه. ولم يتمالك ماكس نفسه فهمس:

"أرى أن.."

"لن ترى شيئاً الآن، ولن تتفوه بكلمة!" قالت الآنسة ثورن. "هيا، دعونا نعيد المشهد مرة أخرى، مادمت قد بدأت تستوعب الفكرة يا ويليام."

تدرّب الأطفال على المشهد مرة تلو مرة. وكانوا كلما كرّروا التمرين ازداد تقمّص ويلي لشخصية ذلك الرجل المسن، حتى وجد نفسه يمدّ يده في الفراغ بتلقائية، ليلامس شخصاً ما. أو يلوّح ذراعه بطريقة غريبة لا إرادية.

ولم.. لم يفهم ما الذي عنته الأنسة ثورن بقولها إن عليه الالتزام بحركة ما.

تري، كيف يمكنه الالتزام بشيء كان يحدث من تلقاء نفسه؟ ما كادت الأنسة ثورن تنتهي العمل على ذلك المشهد، حتى تنفّس أتراب ويلي الصعداء، وهتف أحدهم: "رباه! لقد استنفدت جميع قواي."

يا للغرابة، حدّث ويلي نفسه وهو ينزل درجات المنصة الصغيرة الجانبية، ويجلس إلى جانب ماكس، أنا لا أشعر بالتعب أبداً، بل ويمكنني المتابعة بسهولة.

"لقد كنت عظيماً يا صاح!" همس ماكس. "ماذا تقصد بكلمة عظيم؟" استوضحه ويلي وهو يتناول كتاب التلقين منه ليعود إلى مزاولة مهمته السابقة. "أنت ممثل جيد يا ويل."

لكن ويلي لم يفهم ما عناه ماكس. كان، في الحقيقة، يظن أن لقب الممثل يُطلق على الشخص الذي يتقن الرقص الإيقاعي، أو الشخص الذي يلعب دور البهلول. ورأى أن ما فعله لا يتعدى كونه قد ابتكر صورة مخلوق ما في ذهنه، ثم ترك نفسه على سجيّتها لتتجسد في تلك الصورة المبتكرة.

بالطبع، لم يكن من المستغرب بعدئذ أن تتحسن نوعية أداء الأطفال بشكل ملحوظ، إذ صار كل واحد منهم يتجرأ على ابتكار بعض الحركات والإيماءات من غير أن يشعر بالحماسة. وبات غياب روبرت هو الأمر الوحيد الذي أفسد مجري التمرين، نظراً إلى ضرورة وجوده في جميع المشاهد تقريباً. أخيراً، قررت الأنسة ثورن العدول عن الانتظار أكثر مما انتظرت، فأعطت الأطفال استراحة قصيرة، وغادرت القاعة لتتصل هاتفياً بمزرعة هيلبروك. عندئذ، وجد ويلي

نفسه محاطاً ببقية أترابه. وما كان من لوسي إلا أن استغلت الفرصة، ودست يدها في يده، فتضرج وجهه بالحمرة القانية، وسارع إلى التخلص من يدها.

"لا أعرف ما الذي تعونونه حقاً،" قال بهدوء، وقد تملكته الدهشة من مدحهم. "كل ما فعلته هو التظاهر بأنني شخص آخر. هذا كل شيء." "لقد جعلتني أصدق فعلاً بأنك ذلك العجوز الرهيب،" قالت كاري بإعجاب بالغ.

ولكن هذا ما صدقته أنا أيضاً.. قال ويلي لنفسه، وقد غمرته دهشة كبيرة من كل ذلك الهرج والمرج الذي أثاره الأطفال حوله، إذ لم يفهم له سبباً. "أنت يا ويل ممثّل بالفطرة،" قال ماكس. "وعندما كنت تؤدي دورك، بدا الأمر كما لو أن ذلك الكلام كان من تأليفك أنت. فكيف استطعت القيام بهذا؟"

"كنت أنصت إلى ما يقوله غيري، ثم أجب، أو.. أو ما يشبه هذا" فجأة، بدأ إعجاب الأطفال الطارئ يثير أعصاب ويلي. إذ جعله شعوره بالاختلاف عن الآخرين يحس بالوحدة. وليداري مخاوفه طلب من ماكس أن يروي لهم دعاية أو دعايتين، وأن يقوم ببعض حركاته الإيقاعية الراقصة.

تردد ماكس في البداية، ولكن لحسن حظ ويلي، ألح أحد الأطفال على ماكس بذلك، لأنه لم يسبق له أن شاهد رقصه. وشيناً فشيناً بدأ الآخرون ينسون أمر ويلي الذي تنفس الصعداء عندما عاد واختلط بالفريق مرة أخرى.

تابع ماكس الرقص إلى أن آنس حسّ الأنسة ثورن وهي تفتح باب القاعة الخارجي. ثم رآها الجميع تدفع الباب الداخلي بعصبية وتهمّ بصفقه خلفها. لكنهم لاحظوا أنها عدلت عن ذلك في اللحظة الأخيرة. إذ بادرت إلى إغلاقه باتزان مصطنع، ومضت قدماً بوجه ممتنع، عاصرة يديها بتوتر شديد.

"أرجو أن يجلس الجميع،" قالت للأطفال بصوت عميق. فتوجّسوا شراً، واستجابوا إلى رغبتها على الفور. لكنهم واصلوا متابعتها بأعين قلقة وهي تمضي بخطوات وثيدة نحو كرسيها.

جلست الأنسة ثورن أخيراً، ولَفَت ساقاً على ساق، ثم أحاطت ركبتَيها
بيديها المتشابكتين، والتفتت إليهم.

"أخشى أنني أحمل لكم خبراً سيئاً"، قالت، "أثرون، لقد جاءت والدَةُ
روبرت وكريستين صباح اليوم وأعادتهما معها إلى لندن. إذ يبدو أنها
عرفت بحكاية استغلالهما في العمل غير المأجور. وهذا يعني أنه ما
عاد يوجد لدينا من يلعب دور سكروج."

"أوه.. لا!" صاح ماكس وسط همهمات خيبة الأمل التي تصاعدت
في القاعة.

"أعني هذا أننا سنتوقف عن متابعة العمل في المسرحية؟" سألتها
كاري بامتعاض.

كانت المسرحية التي لم يتبق على زمن عرضها سوى أسبوعين، تعني
الكثير بالنسبة إلى أولئك الأطفال الذين ساهموا جميعهم في زخرفة
المسرح، وإعداد الأزياء، وغير ذلك. فهل سيؤدي غياب روبرت إلى
ذهاب جهودهم أدراج الرياح؟

التفتت الأنسة ثورن إلى ويلي وقالت بصوت هادئ:

"ويليام، أريد منك أن تلعب دور سكروج."

نظر إليها ويلي مذهولاً. شعر بخدر عميق يسري في جسمه من
أخصص قدميه حتى شعر رأسه. وأربكته الأنظار التي تسمرت عليه،
وراحت تحديق به مستجدة، كما لو أنه كان فرصتها الأخيرة للنجاة من
هذه الورطة.

"أيمكن أن تقوم بهذا يا ويليام؟"

أوما ويلي برأسه.

"أوه، مرحى!" صاح ماكس. "واو.. واو.. يحيا ويل."

"يكفي هذا"، قاطعته الأنسة ثورن بحزم. "تعلمون أن أماننا الكثير من
العمل الشاق. لذلك ينبغي علينا جميعاً أن نتماسك، ونشدّ أزر بعضنا.
أما الآن فسنبدأ بالمشهد الأول من الفصل الأول. والذين لا دور لهم
في هذا المشهد سيتبادلون مهمة التلقين."

استدارت لتواجه ويلي مرة أخرى.

كان الفتى يقف ساكناً كمن أصابه شلل أعجزه عن الحركة. إلا أنه كان في الوقت نفسه يكاد ينفجر نوءاً بتلك الطاقة الحيوية الفياضة التي تدفقت داخله.

"تمهل وخذ وقتك يا ويليام،" قالت الآنسة ثورن مؤازرة. "لكل شيء وقته المناسب،" همس ويلي بوجه متضرّج بالحمرة. "هذا ما يقوله السيد توم دائماً."

"هذا كلام صحيح يا ويليام،" أجابت الآنسة ثورن وهي تبتسم له بمودة. "والآن، سنبدأ بدراسة التحركات على المنصة، ويمكنك الاستعانة بنسختي لتؤشّر عليها بالقلم."

كانت التحركات التي ذكرتها الآنسة ثورن، تتضمن جميع الخطوات المختلفة التي تحدّد نمط المشهد. مما يعني بالتالي مراعاة الخفة في الحركة، والحيوية في التنقل، حتى يظل انتباه المتفرجين منصّباً على الحدث الرئيسي.

بدأ ويلي يضع حروفاً صغيرة فوق العبارات المكتوبة في المخطوط وهو يغمغم تارة، ويقرأ تارة أخرى. مسترجعاً ما كانت الآنسة ثورن قد علّمتهم إياه من أسماء مواقع منصة المسرح: الموقع السفلي اليميني واليساري، الموقع العلوي اليميني واليساري، المركز العلوي والمركز السفلي، والمركز الرئيسي طبعاً. إضافة إلى مواقع أخرى كثيرة، مثل إلى يسار كذا وكذا.. وغيره.

وبينما جرى التدريب الأولي، بدأ أداء ويلي بالنسبة إلى الذين كانوا يراقبون، سيئاً كثيراً. إذ كان يتعثّر في مشيته، ويغصّ، ويخربش على الكتاب وكأنه نصف نائم. ولكن الآنسة ثورن عرفت أنه حالما يتخلّص من الكتاب، ويبدأ في تمثيل شخصية سكروج، سيصبح مختلفاً اختلافاً جذرياً. بل إنها استغربت عدم تفكيرها فيه من قبل، إذ تذكّرت كفايته المذهلة في استيعاب الشعر أثناء مساعدتها له في تعلّم القراءة.

ولكن، في ذلك الحين، كان من الصعب على أي مخلوق أن يلاحظ وجوده. كان الجميع لا يلاحظون أهمية حضوره إلا عندما يكون غائباً.

أخيراً، انتهى المشهد الأول، وأعلنت الآنسة ثورن إيقاف التدريب.

"أحسنْتَ يا ويليام،" قالت للفتى مشجعة. "بل أحسنتم جميعاً. لقد بذلتم اليوم مجهوداً جباراً."

رنا إليها ويلي بشيء من الارتباك، ثم عاد يتأمل المخطوط الذي بين يديه. كانت الكلمات التي فيه لم تعد مجرد أشكال ورسوم.. كان.. كان هناك شيء آخر فيها؛ حياة جديدة. وكان الفتى يشعر بانفعال يحبس الأنفاس.

"ويليام،" خاطبته الأنسة ثورن، قاطعة عليه انسياب أفكاره. "احتفظ بنسختي، وراجع المشهد الذي تدربنا عليه الآن. جلستنا التالية ستكون مساء يوم الاثنين القادم بعد دوام المدرسة، وسنتدرب فيها على المشهد الثاني."

مشى ويلي مترنحاً، وتجاوز باب القاعة الداخلي إلى الرواق. وكان ماكس في تلك الأثناء قد أنهى ارتداء معطفه وقبعته، ووقف بانتظاره ليخبره بأمر ما. لكنهما سرعان ما فوجئاً بجيني وشقيقة الأنسة ثورن الكبرى تندفعان إلى القاعة.

"ما القضية يا ماي؟" هتفت الأنسة إميلي ثورن حالما رأت أختها. "ألم تصلك الأخبار بعد؟"

"عن أولاد كينغ؟"

"كلا، بل عن السيد بوش."

"وماذا عنه؟ هل تعرّض لحادث ما؟"

"أسوأ من هذا.. لقد استدعي للخدمة العسكرية!"

"ولكنه أستاذ.. ولا أظن أنهم في صدد البدء باستدعاء المعلمين، كما أعلم."

"إن الذنب ذنبه. فاسمه مسجل في لائحة جنود الاحتياط. وقالوا إنه يوجد لدينا من المعلمين أكثر مما يوجد في بقية المناطق."

"ومن الذي سيتكفل بتعليم الراشدين؟"

"لا أعرف. القسّ على ما أظن."

"وماذا عن حفل الترانيم الدينية؟" تدخل جورج. "إنه سيقام بعد ثلاثة أسابيع."

لكن ماي ثورن عادت والتفت إلى أختها.

"وما هي قضية أولاد كينغ إذن يا إميلي؟"

"لقد سوّي الأمر، سأوضح لك فيما بعد."

"أوه، بالله عليكم ما الذي يجري هنا؟" انفجرت جيني معربة عن دهشتها، لكن ويلي وماكس فضّلا الانسلاخ بهدوء إلى الخارج حيث استقبلهما الليل بظلامه.

"أتعلم ياويل،" قال ماكس وهو يتأبط ذراع ويلي، "إنها ليلة مثيرة بالفعل."

"آها،" أجاب ويلي الذي لم يكن قد تخلّص من ذهوله بعد.

"أعتقد يا ويل أنك.. أنك.. كيف تقول هذا؟ لا غبار عليك.. نعم أعتقد أنك لا غبار عليك."

ابتسم ويلي.

"إننا معاً يا صاح لا غبار علينا،" صاح ماكس وهو يجذب ويلي خلفه. فتعثرا، وعلا رنين ضحكهما بينما تابعا سيرهما باتجاه منزل آل ليتل، فافترقا هناك.

ثم حثّ ويلي خطاه باتجاه منزل السيد توم، وذراعه تطبق على المخطوط بقوة. ذلك المخطوط الذي كان وجوده على مقربة من ضلوعه يبعث في روحه إحساساً لطيفاً محبباً. وبدا له بصلابته ودقته كما لو أنه كان جزءاً من جسمه. وما كاد يبلغ البيت حتى اندفع إلى الداخل اندفاعاً، وسارع إلى قذف قبعته ومعطفه على المشجب بمرح.

وجد ويلي توم جالسا إلى الطاولة، ومنهمكاً في لصق حلقات ورق الزينة الملون، بعد أن أنهى تعليق الأوراق العنقودية التي دهنها ويلي باللون الفضيّ على الجدران. وعندما وقعت عينا ويلي عليها لم يتمالك نفسه فهتف بلهجة تكاد تماثل لهجة توم الريفية:

"إنها جميلة حقاً، أليس كذلك؟"

"أرى أنك أصبحت تشبهني في طريقة كلامك يا فتى،" همهم توم. عندئذ، اقترب ويلي من الطاولة، وهو يحمل المخطوط بيده، ثم دفع أحد الكراسي جانباً، ووضع المخطوط على الطاولة وجلس. لكن توم الذي بدا عليه الهدوء أكثر من المعتاد، كان في تلك اللحظة قد ترك أوراق الزينة، ونهض من مكانه شارد الذهن. ولما اعترضه سام

المتربّص به، وأخذ يجرّه من ساق بنطاله، حمّله، ثم اقتعد الأريكة، وغاب في تأمل نيران الموقد المتوهجة.

"ما رأيك بكوب من الشاي؟" اقترح ويلي.

"ها..". غمغم توم وكأنه أخذ على حين غرة. "ماذا؟"

"سأعدّ الشاي"، قال ويلي وهو يتناول الإبريق ويملؤه بالماء، وقد اضطرعت نفسه بالوساوس عندما لاحظ شحوب توم. فانتابه الخوف للحظة.

أ.. أترأه يعاني من وعكة ما؟

فجأة، ندّت عن سام الذي ربض في حضن توم وهو يلهث ويلهث، وعوة خافتة. فرفع توم رأسه، وضبط عينيّ ويلي القلقتين تتفرسان فيه.

"أ أنت بخير يا سيد توم؟" بادر ويلي إلى سؤاله، وهو يجلس على الكرسي الصغير.

"أوه.. نعم، كل ما في الأمر هو أنني أمرّ بلحظة من لحظات الوعي، كما يُقال."

"الوعي؟!"

"أ سمعت عن السيد بوش؟"

أوما ويلي.

"لقد طلب مني أن أحلّ محلّه في العزف على الأورغ، لأقود الجوقة من أجل الحفل الموسيقي."

"رباه! وهل تستطيع العزف على الأورغ حقاً؟"

"درجت على القيام بذلك عندما كانت ريتشيل على قيد الحياة."

"ومن هي ريتشيل؟"

"امرأة فتية، طيبة القلب، نابضة بالحياة، أحببتها يوماً."

"وأيّن هي الآن؟"

أشار توم بإبهام يده إلى النافذة خلفه.

"إنها ترقد تحت شجرة البلوط، توفيت بعد أن أنجبت، أصيبت بالحمى القرمزية.. و.."

"ماذا حلّ بالوليد الذي أنجبته؟"

"تُوفي بعدها حالاً. وهما مدفونان معاً،" أجاب توم ثم رنا إلى ويلي،
"كان اسمه مثل اسمك يا فتى."

"ويليام؟"

أوماً توم، وزفر زفرة عميقة.
"لقد مضى وقت طويل منذ أن لمست الأورغ آخر مرة. وسأحتاج إلى
تمرين جيد."

"أيعني هذا أنك ستقبل بالمهمة يا سيد توم؟"
ترجع توم إلى الورااء واران عليه الصمت.
"نعم سأفعل،" قال أخيراً وهو يحدق في المخطوط الذي كان مطروحاً
على الطاولة. "وما ذاك؟ أهو كتاب جديد؟"
"إنه مخطوط مسرحية عيد الميلاد."

"ها؟ وما شأنك به؟"

"لقد طلب مني أن آخذ دوراً في المسرحية."
أحقاً؟"

"آها.."

"أ أفهم من هذا أنك موافق؟"
ابتسم ويلي، وتأججت وجنتاه حماساً.
"آها.."

"يبدو أنني وإياك أحوج ما نكون الليلة إلى تحلية الشاي بمزيد من
السكر.. أليس كذلك يا ولدا؟"

إنشاد الترانيم

"أف! تبساً!" صاح ويلي من جديد وهو يزرع الأرض جيئة وذهاباً، بعد أن كان، في غضون الساعة المنصرمة، قد كرّر المحاولة للمرة الخمسين على أقل تقدير. توقّف قليلاً، قرأ دور ابن الأخت، وضع المخطوط جانباً، وعاد يزرع الأرض ثانية.

"لو قدر لي العمل وفق مشيئتي، لحكمت على كل أبله يجوب الأرجاء وقد ارتسمت كلمات التهاني بعيد الميلاد على شفثيه، بأن يُغلى في القدر نفسها التي يطهو فيها عصيدة العيد، وأن يُدفن مع حربة مغروزة في قلبه. نعم.. هذا ما يجب أن يناله!"

أنهى ويلي السطر، ثم جلس على طرف السرير وتنهّد.

"لقد بدأت أتمثّل الحالة تقريباً،" دمدم لنفسه. "ولكن ينبغي أن أكون أكثر فظاظاً."

عاد ونهض من مكانه وقال بصوت حائق:

"يا ابن أختي! احتفل بعيد الميلاد على طريقتك، ودعني أحتفل به على طريقيتي.."

إلا أنه ما لبث أن توقّف، ولكم راحة يده المفتوحة بقبضة يده الأخرى. "لا! إن هذا لا يبدو لي سليماً. فمن المفترض أنني رجل حاذّ المزاج ولا أحب أن يقاطعني أحد."

بدأ من جديد.

"يا ابن أختي، احتفل بعيد الميلاد على طريقتك، ودعني أحتفل به على طريقيتي."

فجأة، قفز من مكانه مجفلاً عندما تنهّى إلى سمعه صوت قرع عالٍ على باب البيت.

"يا الله.. لقد ضاع كل شيء!" قال متذمّراً. "تماماً، عندما أوشكت على استيعاب الفكرة."

توجّه إلى باب السقيفة متجهّماً الوجه عابساً. ثم.. ثم تسمّر في أرضه، إذ بدا له أنه قد أدرك أخيراً كنه الشعور الذي اعترى سكروج حينما قاطعه ابن أخته.

"يا ابن أختي،" صاح بصوت حائق، "احتفل بعيد الميلاد على طريقتك، ودعني أحتفل به على طريقتي." نخر نخرة عالية، ونظر إلى دفتر الحساب الخيالي. "أخيراً!" هتف، "لقد وجدتها! لقد وجدتها!" تتالت أصوات القرع الملحّة من الأسفل، فاندفع ويلي بسرعة على طول السلم، وأسرع ليفتح الباب. فطالعه جورج الذي ولج وهو يسترق النظر إلى الداخل من فوق كتفه، ثم سأله:

"من يوجد معك هنا؟"

"لا أحد،" أجاب ويلي.

"على من كنت تصيح إذن؟"

رنا إليه ويلي بدهشة، ثم أدرك ما الذي كان يتحدث عنه.

"أوه، كنت أدرّب على دوري."

"لقد سمعتك من هنا."

احمرّ وجه ويلي.

"لا تخف، فصوتك لا يمكن سماعه إلا من الباب الرئيسي. ولا أظن أن

أحدًا غيري سمعك. على كل حال هل أنت جاهز؟"

"ماذا تعني؟"

"هل نسيت؟ إن اليوم هو يوم الخميس يا كيس العجين. ولدينا جلسة

تدريب على الترانيم. لقد اعتقدت بأنك ستبكر في الذهاب لتشاهد أول

أداء للسيد أوكلي."

"رباه.. أجل!" هتف ويلي وهو يقذف وشاحه على رقبتّه بسرعة.

"أتراني تأخرت؟"

"كلا، في الحقيقة إننا جميعاً مبكرون قليلاً."

صفق ويلي باب البيت وراءه. ولحق جورج على طول الممر نحو

الباب الخلفي للكنيسة. وعندما دخلها، رأى فيها بعض الأشخاص الذين

كانوا قد اتخذوا مواقعهم على مقاعد أعضاء الجوقة عند جانبي المذبح.

وبينما هو ماضٍ قدماً، التفت عيناها يعني توم الجالس أمام الأورغ.

ولاحظ أنه كان مقطَّب الجبين، مكفهرَ الوجه. فابتسم له بمودة لأنه أدرك أن تجهمه ليس إلا دلالة على اعتمال الحرج في نفسه. ولم تمض برهة إلا ودخل إدوارد فليتشر وأليك بارنز الكنيسة من بابها الرئيسي. فانضمَّ إدوارد إلى جوقة الرجال الجالسين على يمين المذبح، لأن صوته الأَجَش أصبح عالي الذنبَة. وكذلك فعل أليك الذي كان يبلغ السادسة عشرة من العمر تقريباً، والذي مضى إلى مقعده متعثراً، بعد أن أربكه تهافت الناس عليه منذ لحظة وصوله ليسألوه عن حكاية استغلال والده لروبرت وكريستين كينغ، واستخدامهما عاملين غير ماجورين في المزرعة.

كان السيد ميلر يجلس على المقعد الواقع وراء أليك، وإلى جانبه زوج ابنة تشارلي ردلز؛ هوبرت بوليت، ذاك الرجل الخمسيني صاحب السحنة الشاحبة الخالية من التعبير. وكان والد التوأم الوسيم، ذو الوجه المنمش، والشعر الأحمر الكثيف المتموج، يجلس بمحاذاة أليك. يليه تيد بلاكفيلد، المتخصَّص المحلي في تشييد سقوف القصب، وإلى جانبه والتر بيرد؛ أقدم عضو في الجوقة، والوحيد الذي جاء متأبطاً قناعه الواقِي، ومعتماً خوذة الصفيح.

أما جورج وويلي فانضمَّا إلى جوقة الصبية على شمال المذبح. حيث جلس جورج في الصف الثاني من المقاعد مع صبيين يكبرانهُ في السن. وجلس ويلي مع الصبية الأصغر سناً في الصف الأول من تلك المقاعد، ثم أخذ يرنو إلى توم الذي وقف، ونقر سطح الأورغ نقرتين خفيفتين بيده.

"سنبداً بإنشاد ترنيمة: /نصت إلى المبشر،" قال توم وهو يفرد صفحات النوتة الموسيقية. ثم تريت قليلاً، مفسحاً المجال للجميع حتى يستقروا في أماكنهم. لكنه، ما كاد يبدأ العزف حتى توقف. إذ لاحظ أن أحداً لم يكن يغني. فالتفت نحو أعضاء الجوقة، واتكأ على الأورغ قائلاً:

"ما القضية؟"

"كنا نستمع إلى عزفك،" نعب والتر، "رباه! يبدو أنك ما زلت محافظاً على براعتك السابقة يا سيد أوكلي."

نخر توم.
"تعلمون أنني لست حاضراً هنا لأستمع إلى نفسي. هيا الآن، دعونا نبدأ من جديد."

نعم، إنه ما زال هو نفسه.. السيد أوكلي صاحب المزاج الحاد.. قال الرجال لأنفسهم وهم يدارون ابتساماتهم، وينضمّون إلى توم حالما يباشر عزف المقطع الافتتاحي مرة أخرى. غير أنه سرعان ما استوقفهم وهو يقول بفظاظة:

"أتسمون هذا غناء؟ إن أصواتكم أقرب إلى النواح."

"نواح يا سيد أوكلي؟" تدخل السيد ميلر الذي كانت حبات العرق تلمع على رأسه الأقرع.

"نعم.. نواح"، كرّر توم. "يفترض بهذا الغناء أن يكون ترنيماً احتفالياً وليس جنازة. هيا الآن، دعوا أصواتكم تتشرّب بالبهجة. لا تحجبوا عنها رنين الفرع."

حينئذ، ندّت عن جورج ضحكة قصيرة، سارع إلى كتفها بيده. فحذجه توم بنظرة ساخطة وزمجر قائلاً:

"يُستحسن أن تضيف شيئاً من هذا الضحك إلى غناك يا فتى!"

أجل.. حدث توم نفسه وهو يهمّ بإعادة عزف المقطع الافتتاحي.. هذا ما كانت ريتشل ستقترحه لو كانت هنا..

"والآن، سنعيد مرة أخرى، هيا"، عاد وقال بصوت عالٍ.

وبدا على الفور أن كلمات توم الموبخة كانت كفيلة بتأجيج حماس المغنين، فرفعوا كتبهم عالياً وكرّروا الإنشاد بأصوات أكثر انتقاداً.

"هه، أرى أنكم بدأتُم تتحسنون قليلاً، إذ صار غناؤكم الآن علاجاً فعالاً للأرق! فهاهو قد أرسل الصفوف الأربعة الأولى إلى النوم بمنتهى السهولة. والآن..". قال وهو يقلّب عدة صفحات من دفتر النوتة الموسيقية، "دعونا نوقظ النائمين بترنيمة: *المجد للملك المولود*. ولا تنسوا أن هذه الترنيمة تعتبر من الأحداث السارة."

أخذ ويلي نفساً عميقاً، وتخيل في ذهنه صورة قوس قزح تتدفق إشعاعاته النورانية من بين كتل الغيوم الجسيمة.. واسترسل في الغناء...

"فلتهل السماوات لميلاد ملك المجد."

"لا بأس!" قال توم عندما انتهوا. "أرى يا ويليام أنك بدأت تتمثل الفكرة. ولكنك مع ذلك، ما زلت تغني للسقف. عليك يا بني أن تغني للناس الذين أمامك."

ثم التفت ونظر إلى الجميع.

"عليكم جميعاً أن تغنوا حتى تتجاوز أصداً غنائكم هذه الأبواب، وتندفع خارجها لتملأ القرية كلها."

"لا أظن أنني أستطيع إجادة الغناء أكثر مما فعلت يا سيد أوكلي،" نعق السيد ميلر وهو يجفف وجهه بمنديل.

"لا تدع هتلر يسمعك تقول هذا يا سيد ميلر،" أجابه توم. "والآن، سنعيد مرة أخرى."

رتل الجمع الأغنية لمرتين متتاليتين. وأتبعوها بترنيمه: *الليلة الساكنة*، كلحن معاكس هادئ. وانتهى التمرين أخيراً بمقطوعة حماسية من ترنيمه: *هلموا إلي أيها المؤمنون*. ثم أغلق توم كتاب الترانيم وهو يقول:

"أعتقد أن هذا يكفي الليلة."

"تري، كم تبلغ الساعة الآن؟" تساءل إدوارد.

"رباه! إنها الساعة التاسعة. ويجب علي أن أحلب الأبقار غداً صباحاً،" صاح إليك بصوت مذعور، ثم نهض من مكانه بسرعة، "تصبح على خير يا سيد أوكلي، وشكراً لك،" قال لتقوم قبل أن يهرول خارج الكنيسة.

إذ ذاك سارع ويلي إلى مغادرة مقعده، ووقف عند الأورغ. ثم انضم إليه جورج وهو يقول:

"كان هذا أداءً جيداً يا سيد أوكلي. أليس كذلك يا ويل؟" أوماً ويلي برأسه.

بادر جورج بعد ذلك إلى إلقاء تحية المساء، ثم غادر الكنيسة مع الآخرين. وبقي ويلي مع توم، حيث وقف متكئاً بيده على سطح الأورغ، ومصغياً إلى أصوات الناس التي كانت تخبو بالتدريج وهي ما تزال تترنم بأنشودة: *أنصت إلى المبشر*، وتضحك بين فينة وأخرى على أمر ما.

"سأعزف لك لحناً، لم أعزفه منذ سنين يا فتى"، قال توم. "لكني لا أعرف إذا كان بإمكانني تذكره كله. أترى، لقد كان واحداً من ألحان ريتشل المفضلة."

أراح ويلي ذقنه على راحة يده، وأنصت بانتباه.

كان اللحن، على عكس ألحان ترانيم الميلاد الطروبّة، طويلاً وبطيئاً. وكانت أنغامه النابضة تكاد في تارة تهزّ الأورغ هزّاً، وتكاد في تارة أخرى تخفت وتخفت لتتحول إلى نغمة من أكثر الأنغام رقةً وحزنًا. لكنها، ما كانت تخبو إلا لتعود إلى الارتفاع والتهليل من جديد، ثم الخفوت مرة أخرى، مشبعة في نفس ويلي إحساساً غريباً. حتى بلغ به التأثير درجة شعر معها بأنه لم يسبق له قط أن سمع لحناً أكثر عذوبة من ذلك اللحن. وعندما رفع توم أصابعه عن الأورغ منهياً العزف، خيل للفتى أن كل تلك الموسيقى التي ملأت أرجاء الكنيسة، أخذت تغوص وتغوص حتى تغلغت أخيراً في خبايا الجدران. واستفاق من تأملاته على صوت توم وقد اعتدل في جلسته، وراح يقطع مفاصل أصابعه وهو يهمهم:

"أرى أنه ينقصها شيء من المرونة..."

لكن ويلي الذي وقف يرنو إليه بعينين يتفجّر منهما الإعجاب، قاطعه قائلاً:

"يا سيد توم، لقد كان عزفك بديعاً."

"هممم،" نخر توم. "شكراً يا فتى. ولا بدّ لي من الاعتراف أنني أنا أيضاً استمتعت بذلك."

بدايات جديدة

وقفت لوسي أمام مبرة الأقلام، وأخذت تتلصص بتوق من خلال إحدى نوافذ الجدار الخشبي الطويل الفاصل بين حجرتي الدراسة. دنت من النافذة حتى التصقت بها، ثم ضغطت خذها على الزجاج، وأمعنت النظر في صف السيدة هارتردج، يحدوها الأمل بأن تلمح ويلي. فهي مذ علمت بأمر انتقاله إلى الصف الآخر، لم تستطع أبدا مغالبة تلك التعاسة التي ألمت بها. وهامي.. هامي في صباح يوم الاثنين من الأسبوع الثالث من شهر كانون الثاني، تقاسي محنة يومها الأول في الصف بدونه.

"لوسي.." قالت السيدة بلاك أخيراً، "إنها المرة الثالثة التي تبرين فيها قلمك خلال الدقائق الخمس الماضية. وإذا واصلت بريه لن يتبقى منه أي شيء. كما أن استراق النظر من النافذة لن يساعدك كثيراً."

وللحال عادت لوسي إلى مقعدها، وقد تضرّج وجهها بالحمرة القانية. كان صف السيدة هارتردج يضم في الأحوال العادية خمسة عشر تلميذاً تتراوح أعمارهم ما بين التاسعة إلى الرابعة عشرة. لكن في ذلك الاثنين بالتحديد، لم يتجاوز عدد الحاضرين عشرة منهم. إذ تخلف كل من هاري بادفيلد وبولي بارنز عن الحضور ليساعدا ذويهما في الحقول. أما الثلاثة الآخرين الذين كان عليهم قطع ميلين ليتمكنوا من بلوغ المدرسة، فقد أعاقهم الثلج عن المجيء.

في ذلك اليوم، وجد ويلي نفسه يجلس في أحد المقاعد الأمامية إلى جانب باتسي فينش ابنة السنوات التسع، والشعر الأسود، والعينين البنيتين، والطباع الهنيئة. كان كل مقعد من تلك المقاعد الدراسية المزدوجة متصلاً بمنضدة ذات سطحين منفصلين، يمكن فتحهما وإغلاقهما، وفي كل واحد منهما فجوة مخصصة للمحبرة، وتجويف آخر مسطح وطويل لوضع الأقلام. وكان بعض التلاميذ المسموح لهم استعمال أقلام الحبر يضعون في فجوات المحابر دوارق خزفية مليئة

بذلك السائل الأزرق. وبدا لويلي أن مقعده الجديد هو أول مقعد لائق يحصل عليه في حياته المدرسية. فجعله هذا الحدث الفريد يغرق في موجة عارمة من السرور والانتعاش، إلى درجة أنه ما برح يستشعر وخزاً لذيذاً في جسمه، كلما طلبت منه السيدة هارتردج إخراج كتاب من مقعده أو إعادة كتاب إليه.

أما مقعد ماكس الواقع في الصف الأمامي أيضاً، فكان على شمال مقعد ويلي، بمحاذاة إحدى نوافذ حجرة الدراسة. وكان ماكس يجلس إلى جانب فريد بادفيلد. ورغم أن الأخير يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة، إلا أن السيدة هارتردج اضطرت إلى نقله من مقاعد الصف الثالث إلى المقاعد الأمامية لكسله. ووراء ماكس وفريد جلست كاري مع روث براون، وهي من الأطفال النازحين المقيمين في منزل القس. بينما جلس خلف ويلي وباتسي، كل من جيني، وهربرت وودز؛ أحد الأطفال الغائبين في ذلك اليوم. ووراء جيني، في صف المقاعد الثالث، جلس جورج الذي أصبح في الثانية عشرة من العمر. وكان الصف الرابع من المقاعد مخصصاً للأطفال الأكبر سناً.

كانت حجرة الدراسة مزودة بمدفأة عالية قمعية الشكل، تحتل موضعاً جانبياً قريباً من الباب المؤدي إلى الرواق، تفصلها عن صفوف المقاعد الأربعة الموازية لها فسحة مرور صغيرة، ويحيطها حاجز النار الحديدي الذي استعمله الأطفال في ذلك الصباح لتعليق جواربهم الندية؛ تلك الجوارب التي راح البخار يتصاعد منها حالماً وصلتها الحرارة. كما استخدمت المدفأة نفسها لتسخين قدر كبير من الحليب الطازج.

كانت منافذ الحجرة تتألف من باب وثلاث نوافذ؛ اثنتان منها في المؤخرة، والثالثة في الناحية الشمالية. وقد أضفى عليها الثلج المتراكم حول زوايا ألواحها الزجاجية ذات القضبان الخشبية المتشابكة، منظراً جميلاً جداً.

أما أثاث الحجرة فيشتمل على طاولة العلوم القائمة عند الجدار الخشبي من جهة اليمين. وكروسي المعلمة المصنوع من خشب البلوط العتيق، الواقع في مقدمة الصف، والمثبت إلى المنضدة الكبيرة بخزانتها ذات

الرفوف العامرة بالكتب، والمواجهة للتلاميذ. ووراء المنضدة، إزاء الجدار، كانت هناك مكتبة واطئة مليئة بالكتب أيضاً. يُضاف إلى ذلك السبورة السوداء المستندة على حامل خشبي، والمواجهة لكل من ماكس وفريد. والخزانة العالية القائمة وراء السبورة، والمحتوية على أوراق ومقصّات وأقلام تلوين وألوان زيتية وفرش رسم ووسائل إيضاح وطباشير. وكان الجدار الشمالي وجدار مؤخرة القاعة مزدانين بلوحتين لمنظرين طبيعيين، وخريطة، ولائحة بأسماء التلاميذ المسؤولين عن مهمات ذلك الأسبوع، ورسم يمثل المسيح وقد انتشج بالبياض وأحاط به الأطفال من كل حذب وصوب.

في ذلك اليوم، دخل ويلي قاعة الدرس مع ماكس في الساعة التاسعة إلا ربعاً. ثم لحقت بهما التوأم بعد برهة قصيرة. أما جورج الذي وصل في الساعة التاسعة إلا خمس دقائق، فدخل شاحب الوجه، منتفخ العينين، وهو يضع على ذراعه رباطاً أسود حداداً على شقيقه مايكل. إذ كانت السلطات قد أبلغت آل فليتش أن ابنهم مايكل يُعتبر في عداد المفقودين، وعلى الأرجح من الأموات. وكانت القرية قد أقامت له قدّاس تأبين في اليوم السابق، وتبرّعت بالمال للقس، لإقامة لوحة تذكارية له في الكنيسة.

ومع تتابع دخول التلاميذ، ظلّ ويلي واقفاً في مكانه، وأخذ يراقب الآخرين وهم يمضون إلى مقاعدهم. لكن السيدة هارتردج بادرت به بابتسامة لطيفة، وطلبت منه الجلوس إلى جانب باتسي. وعندما اكتمل الحضور وقف الجميع لتلاوة الصلاة، ثم جلسوا من جديد.

"أنا واثقة أن الجميع يرغب في الترحيب بويليام بيتش"، قالت السيدة هارتردج، ثم التفتت إلى ويلي وأردفت بوجه باسم: "فالكل يعرف مقدار ما بذلته من جهد، وأهمية ما أحرزته من تقدم خلال هذه الفترة." شعر ويلي بارتباك شديد من هذا الإطراء. وحاول تدارك ارتبাকে بالتقطيب. لكن باتسي التي ابتسمت له بعذوبة بالغة، منعتة من الاسترسال في تجهمه. ثم انشغل باستلام كتبه وأدواته الجديدة. إذ أعطته السيدة هارتردج كتاب التاريخ والجغرافيا، وكتب الهجاء والحساب، والعلوم واللغة إنجليزية، وكراسة ملاحظات، وقلم رصاص،

ثم قلم الحبر الذي أثاره أكثر من أي شيء آخر، بمقبضه الطويل الرفيع وريشته المثبتة عند طرفه. وعندما ناولته إياه انبرت قائلة:

"اعتن به جيداً يا ويليام. وسوف أتفقد خطك خلال هذا الأسبوع. وإذا كان حسناً يمكنك مباشرة الكتابة بالحبر في الأسبوع القادم."

خبأ ويلي القلم بحرص في درج منضدته، وجلس على أهبة الاستعداد لتلقي درسه الأول. كان عليهم في البداية أن يراجعوا بصوت عالٍ جداول الضرب إلى الجدول الثاني عشر. واستطاع ويلي بلوغ جدول الضرب السادس الذي تمرّن عليه جيداً. وعندما بلغ التلاميذ جدول الضرب الثاني عشر، لم يكن قد صمد منهم سوى كاري وروث.

"أرى مرة أخرى أنهما التلميذتان ذاتهما،" قالت السيدة هارتردرج. "حسناً، فليرفع يده كل من بلغ منكم الجدول الحادي عشر.."
ارتفعت ثلاث أيدي.

"العاشر؟"

ارتفعت يدا تلميذين.

"التاسع؟ الثامن؟ السابع؟ السادس؟"

رفع ويلي يده.

"أحسن يا ويليام،" قالت السيدة هارتردرج مثنية على ويلي. "أعرف أنك لم تحفظ بعد أكثر من جدول الضرب السادس.. والآن ماذا عن الخامس؟"

ومع أن يد جورج لم ترتفع إلا حينما ذكرت السيدة هارتردرج جدول الضرب الثالث، لم توجه له أي توبيخ.

"حسناً.."
قالت السيدة هارتردرج أخيراً، "سنقوم اليوم بإجراء عملية ضرب مضاعفة وطويلة. أما أنتما يا جورج وفريدريك فأريد منكما مراجعة جداول الضرب. وأنت يا ويليام عليك البدء بحفظ جدول الضرب السابع، وسأعطيك بعض عمليات الجمع لتحلها. وعلى الباقي أن يكتبوا التالي..." ثم توجهت إلى السبورة وكتبت عليها أربع عمليات حسابية.

انتهى درس الحساب، وتلاه درس اللغة الإنجليزية الذي كان موضوعه الأسماء. فبدأ رأس ويلي يدور ويلف. التفت نحو ماكس ليستمد منه

بعض الشجاعة، فرأى كاري تمرّر لماكس ورقة، سارع إلى وضعها على ركبته، وقرأها بحذر مسارقاً النظر إلى السيدة هارتردج خشية أن تضبطه. وما إن انتهى من قراءتها حتي رنا إلى كاري التي بدت مشوشة وقلقة، وأوماً لها برأسه، راسماً بشفتيه عبارة: *أرجو لك التوفيق*. ثم اعتدل في جلسته، وعضّ طرف قلمه قبل أن يدوّن به شيئاً في كراسة ملاحظاته.

استحوذت هذه الحادثة على اهتمام ويلي، ولم يستعد انتباهه إلا على صوت السيدة هارتردج وهي تقول له بعد أن فرغت من شرح الأسماء: "لا داعي للقلق يا ويليام. إنه ليس إلا يومك الأول. وإذا استعصى عليك فهم أي شيء يجب أن تسألني عنه، فأنا موجودة هنا من أجل ذلك."

أوماً ويلي برأسه، وهو يرنو إليها، مضمراً إعجابه بعينيها الزرقاوين الغامقتين، وضيفرتها الطويلة الشقراء. كانت ترتدي قميصاً بلون القشدة، وسترة خمرية من الصوف المحبوك، ونصفية خضراء منقطة بدوائر بنية اللون. وبدت له أكثر اكتنازا واسترخاءً من المعتاد. أخيراً، أنهت السيدة هارتردج الدرس، وتوجّهت إليهم قائلة: "يمكنكم وضع الأقلام والكتب جانباً، فقد حان وقت الاستراحة. وأنت يا باتسي تعالي إلى هنا!"

كانت باتسي عريفة الصف لذلك الأسبوع. فهبّت لمساعدة السيدة هارتردج التي تناولت قدر الحليب المسخن جيداً نظراً لبرودة الطقس الشديدة، وصبته في فناجين، قامت باتسي بوضع كل اثنين منها على الصينية، وراحت توزعها على رفاقها تبعاً.

"كل الذين لا ينتعلون جزمة مطاطية عليهم البقاء هنا"، أعلنت السيدة هارتردج وهي تناول الأطفال جواربهم الجافة.

لكنها لم تكن في حاجة إلى إبداء هذه الملاحظة، لأن الجميع كانوا ينتعلون جزماتهم المطاطية. وبينما بدأوا يتأهبون للخروج التفت ويلي صوب ماكس وفي نيّته الانضمام إليه، فرآه يغمز كاري بطرف عينه، ثم شاهدها تغادر مكانها على مهل، وتتوجّه إلى منضدة السيدة هارتردج المنكبة على فرز بعض الكتب.

"من بعد إذنك يا سيدة هاتردج."

"نعم يا كاري!" قالت السيدة هاتردج مستغربة. "أهناك مشكلة ما يا كاري؟"
"... ليس تماماً،" أجابت كاري وهي تمسك إحدى صغيرتيها
الحمراوين كالنار، وتقذفها بعصبية وراء كتفها. "الأمر هو..."
"نعم؟"

"أيمكنني التحدث معك على انفراد يا سيدة هاتردج؟ إنها مسألة مهمة
جداً."
"الآن؟"

أومأت كاري بالإيجاب.

"حسناً، دعينا نذهب إلى مكان أكثر خصوصية."
"شكراً يا سيدة هاتردج."

"إذا انتهيت من شرب الحليب، يمكنكم المغادرة إلى الباحة،" قالت
السيدة هاتردج لبقية التلاميذ، قبل أن تمضي مع كاري.

في تلك الأثناء انصرفت باتسي إلى جمع الفناجين الفارغة، ثم حملتها
على الصينية، واجتازت بها الرواق إلى المطبخ، حيث قامت السيدة
بيرد بغسلها. وسارع ماكس وجيني وجورج وويلي إلى مغادرة
الصف، والطيران صوب الفناء.

"إنها أعجوبة يا ويل،" هتف ماكس. "أعجوبة حقيقية أن تكون معنا في
الصف نفسه."

"نعم، ولا داعي لأن تقلقك الصعوبات الجديدة التي قد تواجهك،"
أضافت جيني. "سنساعدك."

"آه،" غمغم ويلي الذي بلغ به البرم والضيق مبلغه، لإحساسه بأنه
أكسل تلميذ في الصف. لولا.. لولا أنه عاد وتذكر أن جورج كان أسوأ
منه في تسميع جداول الضرب، وأنه قد فقد شقيقه مؤخراً. فعضّ على
شفتيه ولزم الصمت.

فجأة، التفتت جيني متفقدة توأمتها.

"ولكن أين كاري؟ لقد رأيتها قبل هنيهة تقصد السيدة هاتردج."
"أوه.. لعل السيدة هاتردج استمهلتها قليلاً لاستجلاء بعض الأمور
منها،" أجاب ماكس.

"لو كان هناك أي مشكلة، لأخبرتني بها كاري على الفور"، قالت جيني.
"مــــم.. لا مشاكل هناك حتى الآن"، أضاف ماكس بأسلوب مبهم.
نظرت إليه جيني مصعوقة.
"أتعني أنك تعرف ما الحكاية؟"
أوماً ماكس وهمس:
"يمكنني القول بأنني أعرف."
"ولكن.. ولكن أنا شقيقتها!"
"لقد فكرت كاري بأنك قد تحاولين منعها"، أعلن ماكس.
"منعها؟ منعها من ماذا؟"
"أ... أ... حسناً"، قال ماكس متردداً. "أظن أنك ستعرفين السبب عما قريب."
"أعرف ماذا؟" هتفت جيني بسخط.
"هيا"، قال جورج. "لا تحتفظ بالحكاية لنفسك."
"نعم، أخبرنا"، انضم إليهم ويلي.
أخذ ماكس نفساً طويلاً.
"أوه.. حسناً، إنها تريد سؤال السيدة هارتردج عن إمكانية دخولها امتحان القبول في المدرسة الثانوية."
"مستحيل!" شهقت جيني. "إنها لن تجرؤ على القيام بهذا."
"بلى، ستجرؤ.. وستجرؤ."
"ولكنهم، لم يسمحوا حتى للصبيان بدخول هذا الامتحان منذ سنتين."
"وما المقصود من هذا؟"
"إنها بنت!" صاح جورج.
"أحقاً هي كذلك؟" أجاب ماكس ساخراً.
"أظن أن هذه خطوة جيدة"، قال ويلي.
"طبعاً ستظن هذا"، ردّ عليه جورج. "قأنت ترى أن كل ما يقوله ماكس لا غبار عليه."
"كلا، هذا غير صحيح"، قاطعه ويلي. "وهي في جميع الأحوال ليست فكرة ماكس، بل فكرة كاري."

"دعونا لا نفتعل الشجار الآن"، قالت جيني التي شعرت في سريرتها بشيء من الانزعاج، لأن كاري وثقت بماكس وليس بها. انتهت الاستراحة من غير أن يظهر لكاري أي أثر. وحالما قرعت روز بتشر الجرس، اصطف جميع التلاميذ في الباحة ودخلوا صفوفهم بنظام. ووجد الرفاق كاري جالسة في مكانها وقد تشربت وجنتاها بالحمرة القانية. لكنهم وقبل أن يتمكنوا من سؤالها أي شيء، ثبتت السيدة هارتردج خريطة على السبورة، وطلبت منهم إخراج كتب الجغرافيا، ثم قالت:

"أزبحوا مقاعدكم لتتمكنوا من مواجهة بعضكم. وأنت يا جيني، خذي من الخزانة مجموعة من الأوراق وضعي على كل مقعد ورقتين. وحينما تحصلون على الأوراق، مزقوا كل ورقة إلى نصفين." حاولت جيني من غير طائل أن تجعل عينيها تلتقيان بعيني توأمتها، فقد كانت عينا الأخيرة متمسرتين على سطح منضدتها. فدنّت منها، ولامست يدها ضاغطة عليها بلطف.

"والآن، ما هي الموائ التي نحصل منها على السمك؟" قالت السيدة هارتردج.

تتهّد ويلي بأسى وهو يشاهد الأيدي المرتفعة. ولكن.. لا بد لكل شيء من أن يأخذ وقته.. حدّث ويلي نفسه.. نعم.. هذا ما يقوله السيد توم دائماً. وربما.. ربما إذا حاول الاسترخاء قليلاً في مقعده، وأصغى جيداً، سيتمكن من استيعاب كل هذه المعلومات المستجدة عليه.

أمضى التلامذة ما تبقى من حصّة الجغرافيا في رسم خريطة إنجلترا، وتلوين البحر، ووضع علامات حمراء عليه لتحديد موائ السمك، ورسم أسماك صغيرة حولها.

ثم جاء دور حصّة العلوم التي أبدع فيها جورج وجيني. إذ كانا من عشاق الحيوانات والنباتات. ونظراً لغياب التلميذ الذي يشارك جيني مقعدها، سمحت السيدة هارتردج لجورج بالانضمام إلى كل من جيني وباتسي وويلي. ومع أن كاري استطاعت التعرف على اسم زهرة غريبة، إلا أن جيني وجورج تفوقا عليها بمراحل. وكانا سعيدين جداً

بإظهار براعتهم. أما ويلي الذي كان في ذلك الوقت قد عرف من جورج بعض المعلومات عن عادات السناجب، والأرانب، والخلد، والقناظ طبعاً، فاعتزته دهشة عظيمة من انطلاق جورج في مجال الأزهار، إذ لطالما اعتقد بأن الأولاد الذين يحبون الأزهار إنما هم أولاد مخنثون. ولكن..

ليس جورج هو الأقوى في مجموعتهم؟
أخيراً، قرعت روز جرس فرصة الغداء، فهبّ الرفاق الخمسة إلى ارتداء معاطفهم وقبعاتهم وانتعال جزماتهم، واندفعوا خارج الصف إلى الثلج. عندئذ، استوقف ماكس كاري وسألها بلهفة:
"ها.. ماذا قالت؟"

"قالت إنها ستفكر في الموضوع، وستقوم ببعض الاستفسارات. وهذا يعني أن السيد بيترس سوف يعطيني المزيد من الدروس والفروض المنزلية. أترى يا ماكس، إن الجواب ليس نعم وليس لا، فالقضية هي أنه لم يسبق لأي بنت هنا أن أقدمت على مثل هذه الخطوة." أجابت كاري بحماس، ثم التفتت إلى توأمها جيني، "أنا آسفة لأنني لم أخبرك يا جيني، ولكنني اعتقدت بأنك ستحاولين منعي. أعرف أننا اعتدنا على القيام بكل شيء معاً، ولكنني أردت اتخاذ هذه الخطوة بمفردي. وفي جميع الأحوال كنت سأخبرك لاحقاً."

"ولكن، كيف كان بإمكانني منعك؟"
"أوه يا جيني، أنت عقلانية جداً. وجميعكم في البيت تعتقدون أنني صاحبة آراء جنونية وما إلى ذلك. وبكل صراحة، أنا لم أكن راغبة في أن تحبطني من عزيمتي. ورأيت أنني إذا كنت أريد دخول المدرسة الثانوية فعلاً، فلا بد أن أقدم على اتخاذ خطوة ما، بدلاً من مواصلة الشكوى والتذمر. وفي حال لم أنل مرادي، سأضطر طبعاً إلى التفكير بمشروع آخر، ولكنني سأعرف على الأقل أنني حاولت."

"إذا دخلت المدرسة الثانوية، سيظن الناس أنك أكثر جنوناً مما كانوا يعتقدون،" قال جورج.

"لا بأس، فأنا أفضل أن أكون سعيدة وغريبة الأطوار، على أن أكون تعيسة وطبيعية،" أجابت كاري وهي تشمخ بأنفها وتمدّ ذقنها إلى الأمام.

"أنصتوا إليها! لقد تملكها الغرور منذ الآن،" دمدم جورج.

"لا، هذا غير صحيح"، اعترضت كاري.

"ما رأيكم في أن نذهب لنتناول طعامنا في ملجئي"، قال ماكس مقترحاً. "فالجو شديد البرودة هنا"، أضاف وهو ينفخ على قفازيه ليبعث فيهما بعض الدفء.

وهكذا، جرى الأطفال إلى الملجأ الصغير في منزل آل ليتل، حيث قدّمت لهم الخالة نانس شراب العنب الأسود الساخن. وعندما سلكوا طريق العودة إلى المدرسة، انتحى ماكس بويلي جانباً.

"كيف تجري الأمور معك يا ويل؟" سألته بصوت هامس.

"أشعر أنني غبي جداً"، أجاب بويلي.

"لا، إنك لست كذلك أبداً. وإياك أن تبدأ الآن بإيهام نفسك بالعكس."

عندما حان الدرس الأول من فترة ما بعد الظهر، قرأت عليهم السيدة هارتردج مقطعاً من رواية: جزيرة الكنز. ثم كتبت على السبورة عشرة أسئلة وطلبت منهم الإجابة عليها.

"تذكروا"، قالت قبل أن يبدأوا، "أن جوابكم يجب أن يكون كاملاً وليس مختصراً. وهذا يعني أنني إذا سألت أحدكم عن اسمه، ينبغي عليه أن يكتب: اسمي جون سميث أو أي شيء من هذا القبيل. لا أن يكتب جون سميث فقط. هل هذا واضح؟"

دنت من ويلي لتعطيه كتاب تمارين اللغة الإنجليزية، وتريه كيفية كتابة التاريخ وعنوان الدرس. ووجد الفتى في البداية صعوبة بالغة في كتابة الأجوبة. ولكنه ما لبث أن تدبّر أمره بطريقة ما. وعندما انتهى الجميع، تبادل كل واحد منهم كتابه مع التلميذ المجاور له، ليقوم بوضع علامة صح أو خطأ على أجوبة زميله. وكانت السيدة هارتردج تقوم بإملاء الأجوبة الصحيحة عليهم. وعندما أعادت باتسي الكتاب لويلي، حملت فيه بعينين مندهشتين، وقالت:

"لقد حصلت على ثمانية أجوبة صحيحة من أصل عشرة، رغم أنه يومك الأول فقط."

"والآن، من حصل منكم على علامة كاملة؟" سألتهم السيدة هارتردج.

رفعت كاري يدها فوراً، وعبق وجهها بالحمرة. فابتسمت لها السيدة هارتردج.

"تسعة من عشرة؟"

رفعت روث يدها.

"ثمانية من عشرة؟"

رفع ماكس وويلي يديهما. فشقق التلاميذ كلهم ماعدا ماكس الذي علا صوته بالتهليل ابتهاجاً بإبلاء ويلي الحسن. فتصدت له السيدة هارتردج على الفور.

"هذا يكفي يا ماكس"، قالت للفتى وهي تغالب ابتسامة عريضة، لم تتجح كثيراً في إخفائها. "وأحسنت يا ويليام"، أردفت موجهة الحديث إلى ويلي الذي غاص وغاص في بحر من السعادة الغامرة. "والآن، ضعوا كتبكم جانبا. ولينهض التلاميذ المسؤولون عن الرسم لهذا الأسبوع".

وللحال، غادر ماكس وبنيت تدعى أليسون مقعديهما، ومضى فريد ليمسح السبورة.

"موضوع الدرس اليوم هو يوم ماطر أو ليلة ماطرة. ولا أريد تجمعات عند مبرة الأقلام، تلميذ واحد فقط في المرة الواحدة، لذا اقصدوها كل بدوره". أعلنت السيدة هارتردج، ثم التفتت إلى ويلي، "مما بلغني عنك يا ويليام أستطيع القول بأنك ستندبر أمرك جيداً". أردفت وهي تمنحه ابتسامة أخرى من ابتساماتها السماوية.

في يوم ما.. سأرسم لك لوحة لا مثيل لها.. قال ويلي في سره، ثم التفت إلى الورقة البيضاء الكبيرة التي أمامه، وتناول قلمه من تجويف الأقلام، وانكب على الرسم.

بعد أربعين دقيقة من العمل المتواصل، رفع ويلي فرشاة الرسم عن الورقة لبرهة، ورنا إلى النوافذ وهي تحجب خلف ستائر التعتيم استعداداً لإنارة المصابيح. إذ كان الغسق الهابط قد أرغم الجميع على زوي ما بين أعينهم، ليتكفوا مع البصيص الشحيح المتخلف من نور النهار الأقل. وحالما عم الضوء الحجرة عاد ويلي إلى رسمه، غافلاً عن كل ما حوله، بما في ذلك باتسي التي كانت بين حين وآخر تلقي نظرة على ورقته من فوق كتفه، وقد هالها رسمه قليلاً.

وبينما واصل الأطفال الرسم، أخذت السيدة هارتردج تنتقل من مقعد إلى آخر، متفقدة عمل كل واحد منهم، ومعلقة على ما أنجزوه.

"هذا جيد جداً يا روث"، قالت بنبرة لطيفة. "يبدو أنك بدأت تتحسن يا فريدريك.. " أردفت مشجعة الفتى، "ها أنا أرى لك عملاً جديداً من أعمال البطولة يا ماكس، إلا أنه هذه المرة يأخذ مجراه تحت المطر، إنها محاولة جيدة." تابعت بدمائة، لكنها، ما إن عاينت رسم ويلي حتى شهقت. نعم.. لقد سمعت أنه بارع في الرسم، إلا أنها لم تتوقع أبداً أن تبلغ براعته مستوى ما رأيته أمامها في تلك اللحظة.

كان المشهد الذي رسمه ويلي يجري في ليلة شتوية ماطرة. ويمثل زقاقاً فرعياً كثيباً من أزقة المدينة، ينتصب في زوايته عمود إنارة قديم، ينسكب نوره الخافت على متسول أعمى، رث المعطف، كان رابضاً إزاء جدار ما، وهو يحرق في الفراغ بعينين معتمتين ميتين. عصاه المتأكلة ملفاة قربيه، وطاقيته أمامه على الأرض، والمطر الغزير يلسع وجهه الكثيب، ويتغلغل في شعره الأبيض ملصقاً إياه برأسه. وعند منعطف الزقاق كان هناك صبيان كامنان له، وهما يضحكان بخبث وأعينهما مسلطة على قطع النقود الموجودة في طاقيته.

"هذا عمل ممتاز يا ويليام"، قالت السيدة هارتردج بإعجاب بالغ. "وأنا أرغب في تعليقه على جدار الصف، فهل تظن أنك تستطيع إنجاءه في غضون ربع ساعة حتى نتمكن من تجفيفه؟"

ارتبك ويلي في البداية ارتباكاً شديداً، خصوصاً عندما انحنى عليه جورج وجيني، وراحا يتأملان رسمه من فوق كتفه. لكنه عاد وانغمس في عمله، غافلاً عن جميع الأصوات التي تصاعدت حوله من قعقة المقاعد، وغسل أواني الدهان، ووضع الرسوم اللندنية فوق أوراق الجرائد قرب الموقد، وتنظيف فرش الرسم.

أخيراً، وعندما تناولت السيدة هارتردج كتاب: *حكايات خرافية*، للقصاص: *هانز آندرسن*، وأوشكت على البدء بقراءة حكاية: *راعية الغنم ومكنسة المدخنة*، رفع ويلي يده.

"من فضلك يا سيدة هارتردج، لقد انتهيت."

"جيد يا ويليام"، قالت. "والآن، ضعه إلى جانب الرسوم الأخرى ليحفّ، ويمكنك تنظيف أغراضك فيما بعد."

نفذ ويلي ما طلبته السيدة هارتردج. وعاد إلى مقعده ليغوص فيه منصتاً إلى الحكاية. ولما انتهت السيدة هارتردج، قرعت روز الجرس معلنة انتهاء الدوام المدرسي. فاحتشد الأطفال حول رسومهم. ثم قصد جورج وماكس وويلي والنوام حقل المدرسة الخلفي. ولعبوا معاً لبعض الوقت قبل المغادرة إلى بيوتهم. وأثناء طريق العودة، تسكع ماكس وويلي على طول الدرب، ثم وقفا يثرثران بدون كلل عند بوابة منزل آل ليتل الخربة.

وبذلك، انتهى يوم ويلي الأول في صف السيدة هارتردج.

وقف ويلي أمام نافذة غرفته في صباح يوم الجمعة، من الأسبوع الأول من شهر آذار، ليلقي نظرة على المدى المنبسط أمامه. وذُهِش كثيراً عندما رأى أن الثلج كان قد ذاب نهائياً، وأن الحقول الجرداء المحيطة بالقرية أسفرت أخيراً عن أديمها البني، وما تتأثر في ثناياه من خصلات الحشيش الغض.

حقق بجذل في النهر الذي بدا له أنه على وشك النوء بحمله، حتى ليكاد يتفجر ويفيض متخطياً ضفتيه.. أمعن النظر في مدخنة كوخ الأشباح التي لاحت له من بين فرج الأشجار العارية الساكنة.. ولاحقت عيناه عصفورين أسودين كانا يشقان طريقهما في السماء فوق فناء المقبرة، باتجاه الغابات.

فتح نافذته قليلاً ليستقبل إطلالة ذلك اليوم الجميل الصافي بشمسه الساطعة، وعبّ حفنة من نسيم الصباح العليل، فسرى في صدره فيض من الإحساس بأنه قد امتلأ بكمّ هائل.. هائل من الحيوية.. حتى خيل إليه بأنه كذاك النهر الفائز، يكاد ينوء من فيض الحياة المتدفق فيه. ولم يتمالك نفسه، فسارع إلى ارتداء ملابسه، وسوى سريره، ثم نزل السلم حاملاً طست التبول الخزفي، وانبرى يصيح منادياً سام:

"سام.. سام.. تعال يا صغيري."

أجابه سام بنباح عالٍ من الحديقة، فبادر إلى فتح الباب الخلفي للبيت، وعلى الفور اندفع الكلب منه طائراً إليه. ثم أطل الفتى خارجاً، ورأى رأس نوم ينبثق من فتحة الملجأ الذي كان عاكفاً على تجفيفه من الماء.

"تبدو مفعماً بالنشاط يا فتى"، قال توم وهو يعاينه بنظرة متفحصة.
"ومن المؤكد أن الجري في الهواء الطلق سيفيدك كثيراً. هيا امض،
وعندما تعود ستجد الإفطار بانتظارك".

هرع ويلي إلى غرفة المعيشة، لقم الموقد ببعض الفحم، انتعل جزمته
المطاطية، ووضع عليه معطفه وطاقيته، مستمهلاً في الوقت نفسه سام
الذي كان يدور حوله بحماس بالغ. ثم طارا معاً، عبر ممر الحديقة
الخلفية وعلى امتداد الدرب المفضي إلى حقل توم.

"أهوووو! أهوووو! أهوووو!" صاح ويلي بابتهاج أثناء عدوه،
ومضى يسابق سام الذي تقدّمه وهو يثب بتفاخر، مستعرضاً نفسه
تارة، ومسبقاً ذيله تارة أخرى. كما لو أن عدوى الحيوية التي غمرت
ويلي انتقلت إليه. لا سيّما وأن الفتى واصل انطلاقه المرح حتى
عمرت نفسه بسعادة عارمة جعلته يغرق في الضحك. وبعد أن شعر
بشيء من الاكتفاء، نادى الكلب، واستدار عائداً إلى البيت بخطى
خفيفة، وقد انزاحت طاقيته عن رأسه مسفرة عن وجنتين متوردتين
وأذنين محمرّتين.

كان من المفترض أن يكون ذلك اليوم مميزاً بالنسبة إلى الرفاق
الخمسة. إذ دبرَ ماكس أخيراً أمر اجتماع جورج والتّوأم عنده،
ليناقشوا مخطط استكشافهم لكوخ الأشباح. واتفقوا على إحضار الشاي
معهم، ليفسحوا لماكس في المجال كي لا يتأخر عن الاجتماع المنعقد
في قاعة اجتماعات القرية. فقد كان متشوقاً لمعرفة المسرحية التالية
التي تتوي الأنسة ثورن اختيارها وإخراجها.

ولذلك، تناول ويلي إفطاره بسرعة، وساعد توم في إعداد الشطائر
للمدرسة، وراجع مقاييس الياردات والأقدام والإنشات في غضون
عشر دقائق. ثم يمّم شطر المدرسة بصحبة ماكس الذي التقى به عند
الدرب المقنطر بالأشجار. وتابعا طريقهما وهما يتحدثان عن مغامرة
كوخ الأشباح، والمسرحية الجديدة المحتملة.

"أظنها ستكون واحدة أخرى من مؤلفات: تشارلز ديكنز"، قال ماكس
بينما كانا يدخلان رواق المدرسة. "فهى مولعة كثيراً بأعماله".

قرعت أليسون بليك الجرس، معلنة بدء الدوام المدرسي، فاصطف
التلاميذ في طوابير منتظمة، ومشوا إلى صفوفهم على مهل. كان
جورج قد نقل إلى مقاعد الصف الثاني حيث تجلس جيني. أما كاري

فتمّ نقلها إلى مقاعد الصف الخلفي حيث يجلس التلاميذ الأكبر سناً. فهي رغم كونها في العاشرة من العمر، استطاعت أن تضاهي باجتهادها مستوى التلاميذ الذين يبلغون الثالثة عشرة. وبما أن معظم التلاميذ كانوا يغادرون المدرسة في سن الرابعة عشرة، أمّلت السيدة هارتردج بأن تتمكن كاري من الحصول على منحة دراسية، وإلا فإنها ستضطر إلى تمضية السنوات الثلاث أو الأربع التالية وهي تعمل بمفردها. وكانت السيدة هارتردج قد عملت على تدبير موعد للاجتماع مع أهل كاري في عطلة الأسبوع التي تلت محادثتهما معاً، حيث أخبرت الوالدين أن ذكاء كاري يؤهلها فعلاً لدخول امتحان القبول في المدرسة الثانوية. إلا أن أم كاري عارضت هذا الموضوع في البداية.

"وماذا عن زيّ المدرسة الرسمي؟"
أكدت لها السيدة هارتردج أن هناك أشخاصاً عديدين يرغبون في بيع ملابس أولادهم المدرسية التي ما عادت تناسب مقاساتهم.
"كما أنها لم تقمّ بعد الامتحان المقرر هنا يا مادج. ولذلك ينبغي علينا أن نعالج الأمور حسب أولويتها،" أضاف السيد تاتشر الذي كان في الحقيقة يشعر بالاعتزاز، لأن إحدى بناته تريد دخول الامتحان الرسمي. خصوصاً وأن الحرب كانت قد بدأت في تلك الفترة تشجع البنات كي يحصلن على شيء من الاستقلالية. وفي النهاية، وبعد طول أخذ وردّ، حصلت السيدة هارتردج على موافقتها معاً.

وهكذا، أصبحت كاري تقضي معظم أمسياتها في الانكباب على الدرس، وإنجاز الفروض المدرسية المختلفة. وتساهلت أمها معها قليلاً بإعفائها من بعض الواجبات المنزلية، شرط أن تعوّضها بعد الامتحان. أما ويلي الذي استقر نفسياً ومعنوياً في الصف الجديد، فلم يسعده شيء بقدر ما أسعده وجوده على مقربة من السيدة هارتردج. كان يستلطف مراقبة بطنها وهو يزداد تكوراً مع مطلع كل أسبوع جديد. وكان يهوى تأمل حركاتها وإبتساماتها، وسماع إيقاعات صوتها الرخيم. لكنه، ومثل البقية، كان في ذلك اليوم يعدّ الساعات عدّاً بانتظار مغادرة المدرسة.

أخيراً، انتهى الدوام المدرسي، وطار الرفاق الخمسة إلى منزل آل لينل، ومنه إلى غرفة ماكس. هناك، ناقشوا الخطط التي وضعوها لاستكشاف كوخ الأشباح. واتفقوا على تنفيذها في يوم السبت التالي. ثم

غادروا معاً إلى قاعة اجتماعات القرية ليستعلموا عن المسرحية الجديدة. وعرفوا أن اختيار الأنسة ثورن وقع على مسرحية: الضفدع تود في قصر الضفادع. بعدئذ، سلك كل منهم الطريق إلى بيته. ووقف ويلي يتحدث مع ماكس لبعض الوقت عند بوابة آل لينل، ثم اتفقا على اللقاء في مساء اليوم التالي.

تابع ويلي طريقه إلى البيت وهو يغني. إذ كان ما يزال يفيض طاقة وحيوية. فتح بوابة مرعى دويس، وولج الحقل الخالي من الفرس، لأنها لم تكن قد نقلت بعد من مبيتها الشتوي في حظيرة آل بادفيلد. وبينما مضى قدماً فوق التربة الموحلة، استقبلته الريح بموجة من أنفاسها الصقيعية، فأحكم لف وشاحه حول رقبته وحشره داخل معطفه، وهمهم وهو يبتسم:

"لا يهمني أي شيء الليلة، بما في ذلك الغارات الجوية."

دار راقصاً حول نفسه بمرح، ثم جرى إلى البيت وفتح الباب الخلفي على مداه، وقد تضرجت وجنتاه بخليط من حمرة السعادة، وبصمات سياط الريح الباردة. وما كاد يدخل الردهة حتى سارع إلى التخلص من معطفه وطاقيته وشاحه، ثم اندفع كالسهم إلى غرفة المعيشة.

كان توم واقفاً بلا حراك عند الموقد. وحينما رأى ويلي يدخل، رمقه بصمت، ثم راح ينصت إليه بهدوء وهو يحدثه عن مغامرة يوم السبت الموعدة، وعن المسرحية، وكيف أن ماكس سيلعب دور تود فيها، وأنه سيقوم بدور مول، وأنه سيلتقي وماكس في مساء اليوم التالي.. و.. و..

كان يتحدث بحماس منقطع النظير. ولم يضطره خلع جزمته، وحطها على الجريدة، واقتربه من الموقد لتدفئة راحتيه إلى التوقف عن البوح بشجونه، فواصل الحديث عنها بلا توقف.

لكن توم لم يعلق بكلمة واحدة على ثرثرته، وظلّ متسماً في مكانه يحدق بسام المنبطح باكتئاب عند قدميه. وعندما شعر ويلي بوجود خطب ما، رفع رأسه، ورنا إلى توم مستطلعاً، فوقعت عيناه على رسالة كان يمسكها بيده.

"ما الحكاية يا سيد توم؟"

"إنها رسالة من أمك"، قال توم وهو يشير إلى الورقة. "تقول إنها مريضة جداً وتريد منك العودة إلى لندن لفترة من الوقت."

البيت

دبت دويس على طول الطريق باتجاه بلدة ويروولد، تجرّ خلفها العربة التي جلس عليها توم وويلي صامتين. فقد كان الوجود الذي اعتراهما أعظم من أن يسمح لهما بتبادل الكثير من الكلام أثناء الرحلة. كان ويلي يجلس مطأطئ الرأس، معانقاً سام بقوة، ومحملقاً عينيه الدامعتين بقوائم دويس المتحركة، وعدتها الجلدية والنحاسية، والدرب الوعر تحتهم. وكان لا يكاد يرفع رأسه ليرمق الحقول من حوله، حتى يسارع إلى تنكيسه من جديد.

أما توم، فظلّ طيلة الوقت شاخصاً بصره صوب موقع دكان الحداد، عند نهاية طريق القرية، رغم عدم تمكنه من تمييز معالمه بعد. كان، في الواقع، قد حاول جاهداً إقناع والدته ويلي كي تأتي إلى ويروولد الصغيرة للاستجمام. لكن محاولته ذهبت هباءً. إذ كتبت تقول إنها لا تريد من ويلي إلا أن يبقى معها لفترة قصيرة، ريثما تتحسن صحتها. فتصد الموظفة المسؤولة عن إيواء الأطفال النازحين، غير أنها لم تستطع مساعدته بأي شيء. فلألمهات كامل الحق في استرجاع أطفالهن متى شئن. وكان هذا ما يفعلنه دائماً.

أخيراً، وصل بهم المطاف إلى دكان الحداد، فأودع توم الفرس والعربة هناك. ثم ساعد ويلي على حمل أغراضه. إذ كان قد أعطاه خرجه المعهود، ليضع فيه الكتب والملابس والهدايا، وكل ما حصل عليه خلال إقامته في الريف. إضافة إلى حقيبة السفر التي جاء بها يوم وصوله، وفيها جميع حاجياته القديمة.

كان الاضطراب المعتمل في صدر ويلي بالغاً. ولما استشعر سياط الريح تلسع وجهه، أقشعر جلده، وسرت الرعدة في جسمه. فضغط توم على كتفه مؤازراً، ثم طوق عنق سام بحبل مؤقت، وقاد الطريق إلى محطة السكة الحديدية. وهناك، جلسا على أحد مقاعد رصيف المحطة، وأخذا يحدقان في أجسام الأشجار عند الطرف الآخر من خط سكة الحديد.

"لا تنس أن تكاتبنني يا ويليام،" قال توم بصوت مبحوح، وهو يخرج غليونته من جيبه بيدين مرتعشتين، ويبادر إلى حشوه بالتبغ.
"كلا، لن أنسى يا سيد توم."
"إذا غيرت رأيك بالنسبة إلى تلك الرسوم، ما عليك إلا أن تعلمني،
وسأرسلها لك بالبريد."

هزّ ويلي رأسه.

"مكانها هناك في البيت.. أعني.. أعني بيتك يا سيد توم. وفي هذه الحالة ستكون هناك عندما أعود. لأنني سأعود،" ازدرد ريقه، ثم أضاف بلهجة جدية وهو يلامس يد توم، "تعرف أنني سأعود.. أليس كذلك؟"

"قد تتغير مشاعرك عندما تصبح في البيت يا بني، ولاشك أن أمك تفقدك كثيراً. ولعل هذا الافتقاد هو ما منعها من الكتابة لك.. و..
ويليام.."

"نعم؟"

"لا تتوقع الكثير في البداية. فأنتم لم تريا بعضكما منذ ستة أشهر تقريباً. وهذا قد يصعب الأمور بينكما لفترة من الوقت."
أوماً ويلي برأسه. وراقبا معاً غمامة كبيرة من الدخان، انبتقت من بين خمائل الأشجار البعيدة، وأخذت تسبح في السماء دانية من المحطة، يصاحبها صوت القطار القادم. فهبّا واقفين، وسارع السيد توم إلى حمل سام بين ذراعيه.

"حسناً يا فتى.. اعتن بنفسك جيداً، ولا تتوقف عن الرسم، فأنت صاحب موهبة جيدة. وإذا نفدت منك الأقلام أعلمني بذلك فوراً."
أوماً ويلي وهو يحاول مغالبة الدموع التي ترقرت في مقلتيه. لكنها عاندته ونفرت على وجنتيه عندما طرف بصره. فمسحها بيده، وعبّ نفساً طويلاً ليكبح نشيجه. أما توم فجاهد ليزدرد غصة هائلة أمسكت بخناقه.

"سأشتاق إليك،" همهم ويلي.

أوماً توم.

"وأنا أيضاً يا فتى."

تفرّساً في القطار وهو يدنو من المحطة، وقد اكتظّ بجموع الجنود والبحارة الذين أطلّوا من نوافذه. وعندما توقّف، هرعَ توم نحو باب إحدى المقطورات، وفتحَه. فوقعَ بصرَ جندي شاب في الثامنة عشرة من العمر عليه، واستقرَّ على الفور تلك النظرة القلقة المرتسمة في عينيه، فهبَّ إلى مساعدة ويلي على الصعود.

"لا تخش شيئاً يا سيد"، قال الشاب لتوم. "سأجد له مقعداً مناسباً." لهجَ لسان توم بكلمات الشكر، وعانقَ ويلي الذي وقف عند نافذة الباب بائساً. لكن صفير القطار سرعان ما أنذرهما بالتحرك، فتبادلا تحيات الوداع الممتزجة بالحشرجة، وظلا يلوحان لبعضهما حتى أصبح القطار بمنأى عن رصيف المحطة.

"تعال يا صغيري"، قال الجندي الشاب لويلي، بعد أن أقنع جندياً آخر بحشر الفتى في مكان لصيق بالنافذة. "أيناسبك هذا المكان يا فتى؟"

أوماً ويلي، وتتفّس الصعداء ارتياحاً. لأن جلوسه قرب النافذة سيبيح له فرصة التحديق من خلالها، وهذا سيوفّر عليه مشقة رؤية أحد. إذ لم يكن راغباً في أن يرى أي مخلوق وجهه. جلس، وسلّطَ عينين متجهمتين على الخرج الذي حشره بين ساقيه. ومع أن الجندي الشاب تركه وشأنه في البداية، إلا أنه قرر لاحقاً أن يحاول التسرية عنه. "وما اسمك إذن يا فتى؟"

"ويليام بيتش."

"وما هي وجهتك؟"

"لندن."

"هها.. لقد ظننت أنك راحل من بيتك الآن، وليس العكس"، قال الجندي. "إذن أنت تعاني من الشوق إلى أهلِكَ." هزَّ ويلي كتفيه.

"وذاك العجوز، أهو جدك؟"

"كلا"، أجاب ويلي وهو ينظر إلى الشاب. "إنه السيد توم."

"ممم.. أهو كذلك حقاً؟"

ارتعدت شفتا ويلي فوراً، فكفَّ الجندي عن متابعة هذا الحديث، إذ شعر بأنه ليس أفضل ما يمكن تداوله مع الصبي.

"ومع من تقيم في لندن إذن؟"

"مع أمي."

"هها.. في هذه الحالة ستكون سعيداً جداً برؤيتها، أليس كذلك؟ وماذا عن أبيك؟ هل استدعي للخدمة العسكرية؟"

"ليس لدي أب."

"يوسفني سماع هذا،" قال الجندي الذي أعينته الحيلة في العثور على حديث يطيب به خاطر الفتى. "حسناً، أخبرني إذن عن أمك. صفها لي."

جمد ويلي واعتراه وجوم أخرس.

رباه.. ما هو شكل أمه حقاً؟! أمه التي لم تكن في تلك اللحظة سوى بقايا من ذكرى باهتة. كانت.. كانت سوداء الشعر.. وكان هذا كل ما يستطيع تذكره.

"لديها شعر أسود و..". قال وهو يحدّ ذهنه من جديد، ليتذكر سمة أخرى من سماتها. "و.. وهي متوسطة الحجم."

"ماذا عن عينيها؟"

"عفوا؟"

"ما هو لون عينيها؟"

لم يتذكر ويلي أنه نظر إلى عينيها جيداً في أي يوم من الأيام. ولكنه لم يكن يستطيع إخبار الجندي بهذه الحقيقة.

لابد.. لابد أن يفكر بأي شيء يمكنه قوله.

"يبدو أن لونهما من تلك الألوان المختلطة.. آ؟"

أوما ويلي.

"وهل هي من عشاق الغناء؟"

هزّ ويلي رأسه نافياً. كانت فكرة غناء أمه في أي مكان سوى الكنيسة أقطع من أن يجروا على مجرد تخيلها.

نظرا إلى بعضهما لبرهة من غير أن يتفوّها بكلمة.

"وماذا تحمل في هذه الحقائق؟"

"ملابس وهدايا وكتب."

"أيعني هذا أنك تحب القراءة؟"

أوما ويلي بالإيجاب.

"أوه.. أما أنا فليست من النوع الصبور!" قال الجندي الشاب.

"والرسم أيضاً."

"ماذا؟" استوضحه الشاب.

"أنا أرسم."

"أوه!" هتف الجندي الذي أدرك من ذلك البريق المفاجئ في عيني ويلي، وتلك الابتسامة الخجولة، بأنه قد عثر أخيراً على موضوع جيد.

"وهل تحمل معك شيئاً من رسوماتك في هذه الحقيبة؟"

"نعم."

"إنني أودّ التفرّج عليها. طبعاً، إذا لم يكن لديك مانع."

أوما ويلي بحياء، وفتح الخرج. ثم سحب منه واحداً من دفاتر الرسم الثلاثة، وناول له الجندي الذي حالما تصفحه صاح بدهشة:

"ياه! هذا صحيح، أنت رسام بارع حقاً. وهذه الرسوم جميلة فعلاً يا فتى." ثم أضاف وهو يناول الدفتر، "لاشك أن أمك فخورة بك كثيراً."

"هي لم تر رسومي بعد."

"حسناً، عندما تراها ستفخر بك كثيراً."

"أتظن هذا حقاً؟"

"بل أنا واثق من هذا."

أعاد ويلي دفتر الرسم إلى الخرج. ووقعت عيناه على مخطوط المسرحيات الذي أعطاه إياه ماكس، وعلى الحلوى التي دسّها جورج في يده وهو يودعه. غير أنه لم يشعر بالرغبة في تأمل تلك الأشياء في ذلك الوقت، فسارع إلى إغلاق الخرج مُحكماً عقد أربطته.

حقاً قد تفخر به أمه؟ قال لنفسه، وخلق مع خياله محاولاً استجلاء ملامحها. كان وجهها مبهماً وغامضاً كثيراً. وتراءى له أنه قد تحول إلى مزيج مختلط من وجهي السيدة فليتشر والسيدة هارتردج معاً. ازداد خياله جنوحاً حتى صورها له وهي واقفة تنتظره عند رصيف المحطة.

نعم.. حالما يراها سيلوح لها بيده.. وستسارع هي الأخرى إلى التلويح له وقد علت وجهها ابتسامة مشرقة.. ثم.. ثم عندما يترجل من القطار.. سيجريان نحو بعضهما و.. سيتعانقان.. و..

توقف فجأة عن التحليق مع خياله. إذ تذكر أنها مريضة. وخطر له أن مرضها قد يكون أشد من أن يسمح لها بالقدوم إلى المحطة لاستقباله. أو.. أو لعلها الآن راقدة في الفراش، تعاني سكرات الموت.. قال لنفسه.. وبدلاً منها سيجد حارس أمن أو قسا في انتظاره ليصحبه إلى سرير مرضها. وعندما يمثل أمامها، ستمدّ يدها لتلمسه برفق وتخبره كم.. كم تحبه.. وكم تفخر به.

رجع بظهره إلى الوراء وأغمض عينيه. كان يشعر بالإعياء، وبإرهاق ضغوط الوداع يضيق عليه الخناق. فكر بماكس، وتساءل عما كان يفعل في تلك اللحظة. قال له أنه كتب أول بيتين من قصيدته الملحمية الجديدة خصيصاً من أجله. وهاهو يحتفظ بالورقة في جيبه. وقال له أيضاً أنه سينهي القصيدة، وسيرسلها له بالبريد، أو مع الحمام الزاجل. وبينما تابع القطار زحفه الصاخب نحو لندن، غطّ ويلي شيئاً فشيئاً في نوم زحمته ملايين الأحلام الغريبة. وظل مستسلماً لسلطان النوم إلى أن هزته على حين غرة يد ما، مُرجعة إياه إلى عالم الصحو من جديد. "أنت.. يا صاحب الرأس الناعس.. استيقظ! هيا انهض يا صغير! هاهي لندن أمامك. نحن في لندن. هيا.. قُم!"

فتح ويلي عينيه، متوقفاً أن يرى نور الصباح المشرق عليه من نافذة غرفته، ورأس السيد توم يطالعه من فرجة بابها. لكنه لم يبصر سوى الجندي الشاب ببزته الكاكية اللون وهو منحني عليه، موقظاً إياه بصياحه. نهض من مكانه، قذف الخرج على كتفه، ثم حمل حقيبتيه. كانت ساقاه تقصfan به، وملابسه عبقة برائحة التبغ والدخان. ومما إن غادر القطار وخطا إلى الخارج حتى صفعه هواء الليل البارد بقسوة. فسارع إلى زرع معطفه، ثم جذب طاقيته محكماً تغطية رأسه بها، ولبس قفازيه. نظر حوله متفحصاً الناس الواقفين على رصيف المحطة. كان المكان يعجّ بالجنود، ولكن لم يكن هناك أي أثر لأمه. فجأة وقع بصر أحد رجال الأمن عليه فدنا منه على الفور.

"أ أنت من الأطفال الهاربين؟" هدر رجل الأمن بصوت يفتت العظم.
"حسناً، ينبغي عليك الذهاب إلى موظف التذاكر يا ولد."
"لست هارباً يا سيد،" غمغم ويلي.
"قل هذا لموظف التذاكر."

كان موظف التذاكر رجلاً متوسط السن، ذا شاربين متدليين. وعندما رأى ويلي اكتفى باللقاء نظرة واحدة عليه، أتبعها بإطلاق زفرة ضجرة.

"هه.. هارب آخر.. آ؟ متى ستعرفون أيها الأطفال أن الريف أكثر أماناً لكم؟" نعق الموظف وهو يقرص أذن ويلي من فوق طاقيته.
"طبعاً لا أظن أنك تحمل تذكرة سفر، أليس كذلك؟ هيا دعني أسجل عنوانك."

لكن ويلي بادر إلى إخراج التذكرة من جيبه، وأراه إياها.
"أوه.. أوه.. وهوه الرجل."

"لقد جئت لأزور أمي، فهي مريضة."
"ها.. هكذا إذن. حسناً في هذه الحالة أين هي؟ هل ستأتي لاصطحابك، أم سيقوم بذلك أحد الحراس، أم ماذا؟"
"لا أعرف."

تأفف موظف البريد بصوت عال، ثم نظر إلى رجل الأمن.
"أظن أنه باستطاعتي تولي الأمر يا سيدي. أشكرك على مساعدتك."
لمس رجل الأمن قلنسوته محبباً، واختفى بين الجنود.
"يجدر بنا العثور على حارس يا بني،" قال موظف التذاكر لويلي الذي كان يتفقد المحطة بعينين قلقتين.

"انتظر يا سيد، هاهي هناك،" هتف ويلي مشيراً إلى امرأة هزيلة كئيبة، كانت تقف قرب كومة من أكياس الرمل. ثم سارع إلى مناداتها والتلويح لها. لكنها لم تعره أي انتباه، وظلت واقفة في مكانها، محدقة في ما حولها بذهول.. لا ترى، ولا تسمع شيئاً.

"لا يبدو عليها أنها تعرفك يا صبي، أليس كذلك؟ أظن أنه يجدر بك الانتظار هنا لبعض الوقت."
"دعني أتكلم معها يا سيد."

"لا.. لا.. لن تفعل هذا"، قال موظف التذاكر محكماً تشديد قبضته على ذراع ويلي. ثم عاد وغير رأيه فجأة. "أوه.. حسناً، هيا تقدّم، وسأتي معك." جرى ويلي إليها وهو يصيح: "ماما! ماما!"

لكن المرأة لم تلتفت إليه، واكتفت بأن زجرته بلهجة صارمة: "اذهب عني، فأنت لن تحصل على أي قرش مني." "ماما،" كرّر ويلي، "هذا أنا!"

إذ ذاك، نظرت إليه المرأة بغضب مستهجنة وقاحتة. وكانت على وشك نهره مرة أخرى، لولا.. لولا أنها تمكّنت في اللحظة الأخيرة من التعرف عليه. نعم.. إنه ويلي حقاً.. لكنه ليس ويلي الذي تعرفه. لقد كانت تبحث عن ولد هزيل ضامر يرتدي ثياباً رمادية اللون. أما هذا الصبي الذي يقف أمامها فهو فتى منتصب القامة، ممتلئ الجسم، ذا وجنتين مستديرتين متوردتين، ينتعل جزمة جلدية، وجوارب صوفية سمكية، وكنزة خضراء ذات ياقة عالية، ومعطفاً كحلي اللون، وطاقيّة تبرز منها على جبينه خصلات شعر لامع.

كان ما رآته صدمة كبيرة لها. "أنا سعيد جداً بلقائك يا أمي. وفي جعبتي أخبار كثيرة أرغب في قصّها عليك. وهناك لوحاتي التي رسمتها." صعقتها لهجته المختلطة.. صعقتها ثقته بنفسه. كانت تتوقع منه أن يكون أكثر ذلاً وانكساراً.. ولكن.. ولكن.. حتى نبرة صوته بدت لها أعلى من قبل.

"اعذرني يا ويلي لأنني لم أعرفك"، قالت السيدة بيتش أخيراً. "فأنا متوعدة قليلاً، ولست على ما يرام كما ترى، إضافة إلى أنني لم أكن أتوقع رؤية كل هذا التغيير فيك." دهش ويلي كثيراً مما سمعه.

لقد ظن للوهلة الأولى بأن أمه هي التي تغيرت.

نعم.. هو لا ينكر أنه قد تعلم في هذه الفترة أموراً جديدة.. ولكنه ما زال ويلي نفسه.

نظر إلى وجهها متأملاً إياه. كانت بالغة الشحوب، صفراء اللون تقريباً. وكانت شفتاها ممتعتين، ممتعتين جداً، حتى خُيلَ إليه بأنهما قد أفرغتا من آخر قطرة دم فيهما. كانت تلبس معطفاً طويلاً أسود اللون، وجوارب نسائية رقيقة، وحذاءً عالي الكعب له إيزيم أنيق. وإلى جانبها على الأرض كانت هناك حقيبة تبضع ترتكز على إحدى ساقيها.

دنا منها ولمس ذراعها بمودة.

"سأحمل هذه عنك يا أمي"، قال وهو يهمّ بتناول حقيبة المشتريات. فاستدارت بسرعة، وصفعت يده بقسوة.

"سأخبرك بما أريده منك عندما أرغب في هذا. وأنت تعرف أنني لا أوافق أبداً على لمسك لي".

"عفواً يا أمي"، غمغم ويلي بصوت هامس. ومضت عليهما برهة من الوقت، تسمرًا خلالها في وقفتهما صامتتين ومتنافرين، بينما استمر صخب المحطة الكبيرة يضجّ من حولهما. أحسّ ويلي أن قلبه كان يغرق ويغرق بين ضلوعه، وأن ومضة الأمل التي برقت في صدره كانت تذوي بسرعة. لكنه عاد وتذكّر السيد توم.

ألم يقل له أنه سيشعر في البداية بشيء من الغربة عن أمه؟ وأنها معاً ستلزمهما فترة من الوقت قبل أن يعتادا على بعضهما؟! في تلك الأثناء، كانت السيدة بيتش قد اجتلت ابنها الصغير جيداً، وبدأت تعمل فكرها بسرعة.

أجل.. أجل.. قالت لنفسها.. إنها في الوقت الحالي تحاول أن تكون متساهلة معه. فرغم كل شيء ليست هذه إلا أمسيته الأولى معها. ولكن هناك الكثير.. الكثير مما ينبغي عليه تعلمه، قبل أن يصبح مؤهلاً لاستلام مسؤولياته الرجولية.

"دعنا نذهب لتناول فنان شاي"، قالت أخيراً. "ويمكنك أن تحمل هذه الحقيبة عني".

"شكراً يا أمي"، تتمم ويلي وهو يبتسم.

غير أن السيدة بيتش ما كادت تلاحظ ابتسامته حتى ترجعت إلى الوراء مصعوقة. فهي لا تذكر أنها رأتَه يبتسم من قبل.. أبداً. بل إنها تمنّت

من صميم قلبها لو أنه ظلّ ذلك الطفل الجدي الذي تعرفه.. فتلك الابتسامة أفرعتها.. أفرعتها كثيراً. ورأت فيها تهديداً سافراً لسلطانها عليه. مع ذلك، كتّمت انفعالاتها المتقدّدة غضباً، وتقدّمت إلى الأمام بعد أن ناولته حقيبة المشتريات.

لا بأس.. سيكون كل شيء على ما يرام.. قال ويلي لنفسه وهو يمضي وراءها على طول الزقاق الخلفي الصغير، إلى مقهى متواضع، حيث جلسا على مقربة من بابه، وبدءا يتحدثان.

"تبدو أكثر امتلاءً من قبل"، قالت السيدة بيتش وهي تتفحصه. "لاشك أنه كان يغذيك جيداً، ذاك المدعو أوكلي، ها؟"

"نعم"، أجاب ويلي بعد أن رشف جرعة من الشاي الذي لم يجده بمثل جودة شاي السيد توم. ولكنه كان ساخناً، وهذا هو المهم. أشارت إلى الخرج المحطوط على الأرض.

"ومن أين حصلت على هذا؟"

"من السيد توم."

"هه.. ومن يكون هذا السيد؟"

"إنه السيد أوكلي. أعطاني إياه لأحمل فيه الهدايا التي حصلت عليها"، أجاب وهو ينظر إلى يدها الممدودة على الطاولة. وللحظة خطر له أن يلمسها. ولكنه عدل عن الفكرة بسرعة. "ومعي هدايا لك أيضاً يا أمي."

"لست في حاجة إلى الإحسان، شكراً!" أجابت، ثم لوت شفتيها بتقرّز. "وأنت تعرف هذا."

"ليس هذا إحساناً يا أمي، إنما هو ليساعدك على الشفاء. فالسيدة تاتشر حاكت لك جوارب خاصة يمكنك ارتداؤها في السرير، وهي وردية اللون وناعمة وجميلة جداً. أما والد ووالدة لوسي فقد أرسلوا لك البيض والزبد..."

"زبد؟"

"نعم، والسيدة فليتشر صنعت لك كعكة الفاكهة. وتقول إنها تعرف بأن مرضك قد لا يجعلك راغبة في تناول شيء منها الآن. ولكنها ستبقى طازجة إلى أن تستعيد نشاطك." نظرت إليه السيدة بيتش ملياً.

إنه.. إنه يتكلم كثيراً جداً.. قالت لنفسها. وهي لم تعهده هكذا أبداً. بل إنها لتراه وقفاً إلى أقصى حدود الوقاحة. لكن لا بأس، إذ لن تألو جهداً في تأديبه وضبطه ليعود كما كان.

"والخالة نانسي، أي السيدة لينل، أرسلت لك زجاجة نبيذ حلو." عند هذه اللحظة أصبح لون وجه السيدة بيتش أرجوانياً.

"نبيذ!" نعتت بغضب. غير أنها عادت وضبطت نفسها مخفضة صوتها. "نبيذ!" كررت. "ألم يسبق لي أن نبهتكَ عن مضارّ الخمر؟ أكنت تعاقب الخمرة هناك؟ ومن هي هذه المرأة الفاسقة التي ذكرتها؟" "إنه ليس مثل الخمر التي يشترونها من الحانات يا أمي. لقد سألت السيدة لينل عن هذا، فأخبرتني أنه مشروب صحي يحتوي على الحديد، وأن هذا سيساعدك على استعادة صحتك. أترين يا أمي إن السيد لينل طبيب حقيقي، والسيدة لينل زوجة."

"أي نوع من الأطباء هو؟" سألتها بارتياح.

هز كتفيه.

"من أولئك الذين يساعدون الناس على الشفاء. لقد كنت أخاف منه في البداية، أما الآن فلا."

"في هذه الحالة لا يمكن أن يكون هذا الرجل طبيباً حقيقياً."

"بلى، هو كذلك يا أمي."

ذهلت السيدة بيتش من جوابه.

"لقد.. لقد ردّ عليها ابنها. ولم يكتف فقط بذلك، بل ردّ عليها برأي مخالف لرايها أيضاً."

"أتجادلني يا ولد؟"

"كلا يا أمي لقد كنت فقط..."

"كف عن التكلم بهذه الطريقة."

"بأي طريقة يا أمي؟"

"وتخلص من هذه النظرة البريئة التي تقنع بها وجهك."

"إنني لم أفهم ما.. هم ويلي بالكلام."

"أنت لم تتغير أبداً يا ويلي، أليس كذلك؟" قاطعته السيدة بيتش. "لقد ظننت أن ذلك الرجل سيجعلك ترتدع قليلاً عن طباعك السيئة. ولكن يبدو أنه لم يفلح في هذا."

فجأة، سرت في جسمها رعدة رعب باردة، واجتاحها القلق، فسألته بذعر:

"ولكن، ألم يكن مسؤولاً عن الكنيسة..؟"

"بلى يا أمي. إنه يتولى الاهتمام بها. ولقد أخبرتك هذا في رسائلي."

"آ.. أجل رسائلك. لقد حسبتك يا ويلي قد تخلصت من آفة الكذب."

"ولكني لست بكاذب!"

"كف عن التكلم بهذه الطريقة يا ولد."

تملكته الحيرة.

رباه.. أي طريقة تعني؟!

"تلك الكتابة لم تكن كتابتك. أعرف هذا. ولذلك لم أكلف نفسي عناء

الردّ عليها."

"ولكني تعلمت القراءة والكتابة في المدرسة. وساعدني على ذلك السيد

توم، والآنسة ثورن."

"يا إلهي، يبدو أنك قد أخذت الكثير من وقت أولئك الناس. ولاشك أنهم

سعداء بمغادرتك قريتهم."

"كلا يا أمي، ليسوا كذلك. إنهم.. إنهم... تلثم الفتى وبدا عليه التردد.

"إنهم ماذا؟"

"إنهم يحبونني"، قال أخيراً، وشعر أن لتلك العبارة وقعاً مريحاً في

نفسه.

"هذا تبجح يا ويلي. أنت مجرد ولد نازح. وكل ما فعلوه هو معاملتك

بلطف."

"كلا يا أمي!"

"اعلم يا ويلي أنك الآن تقترب خطيئة الغرور. وأنت تعرف ماذا

يصيب الناس الذين يقتربون مثل هذه الخطيئة."

كان ارتباك ويلي يزداد ويزداد تفاقماً. وتراءى له كما لو أن يداً خفية

تجذبه بشراسة لتوقعه في شرك كابوس بشع.

فجأة، نقرت السيدة بيتش الطاولة بطرف إصبعها وقالت:

"يكفي هذا الآن يا ويلي. إننا لا نريد أن نتشاجر في ليلتك الأولى هنا.

أليس كذلك؟"

هزّ رأسه نافياً، وغاب مع أفكاره..

آه.. ليتها تكفّ عن مناداته باسم ويلي!

إن هذا الاسم ليس إلا شيئاً آخر يُضاف إلى جملة الأشياء التي استهجنها حتى تلك الساعة. فلا أحد منذ ستة أشهر دعاه باسم ويلي، لا أحد أبداً. لقد أحب اسم ويل كثيراً، إذ كان يغمره بارتياح ما بعده ارتياح.. بل حتى اسمه الكامل ويليام، كان ذا وقع جيد. رغم.. رغم أنه لم يكف أبداً عن الإحساس بأن داخله مازال مسكوناً بذلك الفتى الضعيف الذي تتجسّد فيه ركافة اسم ويلي. لكنه، وبمجرد سماعه أمه وهي تدعوه بهذا الاسم، خيل إليه كما لو أنها تخاطب شخصاً آخر لا يعرفه، شخصاً لا يمت إليه بصلة. بل بدا له أنه أصبح أقرب إلى شخصين منفصلين عن بعضهما يحتويهما جسم واحد. كان متأكداً من أنها لن تقبل هذا التغيّر الطارئ عليه الذي يوحى به اسم ويل، أو ويليام. فهي لا تريد سوى ويلي، ولم يكن بإمكانه التجاوب معها وهي تتاديه به، لأن صاحب هذا الاسم لم يعد موجوداً بالنسبة إليه.

فجأة، مالت عليه بطريقة غريبة.

"هناك أمر أريد إخبارك به يا ويلي"، همست وهي تغتصب ابتسامة مخيفة، جعلته لسبب ما يستشعر خطراً، استشف فداحته من وراء تلك الشفاه الممتعة الميتة.

"إنها ليست إلا مفاجأة صغيرة"، أضافت. "أترى، علينا أن نتسلل إلى البيت خفية، ولا يجب أن يراك أحد على الإطلاق، إنها"، تردّدت قليلاً. "إنها.. إنها.. أشبه باللعبة"، قالت أخيراً وهي تتنفس الصعداء إزاء استساغتها لتلك الفكرة التي اختلقتها.

"لا يجب أن يراني أحد؟!"

"كلا."

"لماذا؟!"

نظرت إليه متجهمة، لكنها عادت وتصدّت له بتلك الابتسامة مرة أخرى.

"ستعرف لاحقاً. أترى إنها مفاجأة، وإذا أخبرتك الآن فلن تبقى كذلك." أوما برأسه من غير أن يجيب.

إنه.. إنه متأكد من عدم شعوره بأي غثيان في جوفه.. نعم.. هو يتخيّل هذا فقط.. ألم يكن كذلك؟ نعم، إنه يتخيّل هذا، فالمريض هي وليس هو.

"وعندها يمكنك أن تعطيني الكعك والهدايا."
"إيـهـ،" قال وقد عاوده شيء من الحبور. "ويمكنني أن أريك
رسومي أيضاً."

أسكتته بإشارة من بيدها. لم تكن تريد سماعه وهو يتكلم.
"نعم، طبعاً. ولكني الآن أشعر بالصداع. إن الأمر يستطيع الانتظار
لبعض الوقت أليس كذلك؟"

أخيراً، انتهيا من تناول الشاي، وغادرا المقهى، ثم استقلا الحافلة التي
كانت نوافذها محجوبة بما بدا له أشبه بشباك أفصاص الدجاج.

"لماذا توجد هذه الشباك على النوافذ؟" سأل ويلي أمه باستغراب.

"ألا تعرف أنه من الوقاحة أن تطرح الأسئلة، وأن تشير بيدك؟ تصرف
بأدب يا ولدا!" نهرتة السيدة بيتش بقسوة، ثم رفعت رأسها لتواجه
موظفة التذاكر. فانبرى ويلي يحدق بتلك المرأة مشدوهاً، إذ كانت أول
أنثى يراها تعمل في حافلة.

"يبدو أنك افتقدت صخب لندن يا صغيري.. آ؟" لاطفته المرأة وهي
تأخذ من السيدة بيتش أجرة الركوب. "لقد سمعت أن الحياة مملة في
الريف مع كل تلك الأبقار. ولكن لاشك أن الإقامة هناك أكثر أماناً،"
نظرت إلى السيدة بيتش، وغمزتها بعينها، ثم تابعت، "مع ذلك فنحن
نشأت إلى هؤلاء الصغار، أليس كذلك يا عزيزتي؟"

أومأت السيدة بيتش، ووضعت ذراعها الممتنح حول كتفي ويلي،
مواجهة إياها بتلك الابتسامة الميتة ذاتها.

"أجل، إنه كل ما أملكه في هذه الحياة."

"أوه.. لا تحدثيني عن هذا! فأنا أم لخمسة أطفال، ولكني عدلت أخيراً
عن فكرة ترحيلهم إلى الريف. إذ لا أظن أن الأمر يستحق، أليس كذلك؟ فلا
شيء يحدث بالفعل، بل إننا لا نشعر حقاً بأي حرب جارية هنا."

"معك حق،" أجابتها السيدة بيتش بنبرة دمثة، وازدادت دنواً من ويلي
الذي سرت القشعريرة في أوصاله من ملمس جسمها البارد، وغثيت
نفسه من ذراعها المحيط بكتفيه.

يا الله.. قال لنفسه.. أمه.. أمه هو تجله يشعر بكل هذا النفور
والسقم.. أمه.. لعله لم يكن في النهاية إلا ولداً شريراً بالفعل.

واصلت الحافلة بنوافذها المحتجبة خلف أغطية التعقيم زحفها البطيء، حتى حطّت أخيراً في منطقة ديبتفورد. هناك، ترجل منها ويلي وأمه، يلاحقهما صباح موظفة التذاكر وهي تلقي عليهما تحية المساء. قادت السيدة بيتش الطريق نحو الناصية الخلفية للشارع الذي تقيم فيه. ثم طلبت من ويلي أن يخبئ عند منعطف الزقاق، وأن يسلط عينيه على باب البيت. وعليه حالما يراها تفتحه أن ينتظر سماع سعالها ليعدو نحوه عدواً.

أليست باللعبة الغريبة؟ قال الفتى لنفسه وهو يدسّ يديه في جيبي معطفه، حيث تستقر في أحدهما الورقة التي تحمل مطالع قصيدة ماكس. تلك الورقة التي ساعدته قليلاً على الإحساس بأنه لم يكن يتوهم ما يجري.

لكنّ اختبائه لم يطل كثيراً. إذ ما لبث أن سمع سعال أمه. فحمل الخرج، وجرّ الحقيبتين وراءه على طول الرصيف، وشقّ طريقه باتجاه الباب، حيث وقفت السيدة بيتش تنتظره، من غير أن تكفّ عن حثّه على الاستعجال بهمس غاضب، حاذّ النبرة.

كانت.. كانت خائفة جداً.. وبدا من الواضح أنها لم تكن راغبة في أن يعرف أي شخص من أهل الحي أن ابنها قد عاد.

أخيراً، دخل ويلي البيت، وتلمّس طريقه إلى الغرفة الرئيسية التي كانت ما تزال غارقة في الظلام. وعلى الفور زكمت أنفه رائحة عفونة نفاذة تملأ المكان. وخيّل إليه أنها أشبه برائحة بول أو براز حيوان ما.

"أهو كلب؟"

"عن أي شيء تتحدث؟"

"عن المفاجأة."

"أي مفاجأة؟ آ.. تلك المفاجأة.. كلا إنه ليس كلباً،" أجابت وهي تضئ النور.

بدا لويلي أن الغرفة كانت أكثر إعتاماً مما يذكر. حددت عيناه في الحيطان الرمادية، ثم وقعتا على كتاب للصلاة استقرّ فوق رف المدفأة، وعلى آخر فوق الخوان الصغير. ورأى أنهما كانا ما يزالان في

الوضعية ذاتها التي يذكرها منذ آخر يوم له في ذلك البيت. حول بصره إلى النوافذ، ولاحظ أنها لم تكن مغطاة بأوراق الجرائد فقط، بل كانت تلك الأوراق مثبتة عليها جيداً بشريط لاصق بُني اللون. فالتفت إلى أمه وسألها:

"ما سبب وجود هذا الشريط اللاصق؟"

حينئذ، خبطت السيدة بيتش الطاولة بيدها خبطة عنيفة، وصاحت بحق شديد:

"ماذا قلت لك عن طرح الأسئلة!"

"لا يجب أن..". انبرى ويلي للإجابة بذعر، لكنها قاطعته مهتاجة:

"ماذا تقول؟ أتملي علي ما يجب وما لا يجب يا ولد؟"

"كلا، كلا يا أمي"، صاح ويلي. "أردت القول أنك نهيتني عن طرح

الأسئلة. أردت إجابتك بأنك قلت لي لا يجب أن أطرح أسئلة."

"ولا تقاطعني عندما أتكلم!"

تسمرًا في أرضهما. ومرة أخرى ران عليهما ذلك الصمت الموحش.

فأشاح ويلي وجهه عنها. وإذ فعل ذلك، وقعت عيناه على ما ظنّه

المفاجأة المرتقبة. أبصر في زاوية الغرفة صندوقاً خشبياً محطوطاً

على أحد الكراسي. وهمّ بسؤالها عنه، لكنه غيّر رأيه، وفضل أن

يتوجّه إليه ليكتشف بنفسه ما يوجد فيه. فجاءه صوتها وهو يقول:

"هذه هي المفاجأة التي حدثتك عنها."

دسّ يده في الصندوق وهمس:

"إنه طفل رضيع"، ثم تراجع واستدار بارتباك. "ولكن.. ولكن هناك

شريط لاصق يكمّم فم هذا المولود."

"آ.. أعرف هذا. فأنا لم أرغب في أن تُصدر أي ضجيج أثناء غيابي.

أترى، إن وجودها هنا سر لا يجب أن يعرفه أحد."

"أ.. هو كذلك؟" قال بنبرة متشككة. "أعني.. أهى كذلك حقاً؟!"

"نعم، إنها سرنا."

"أهى هدية؟"

"نعم."

"ممّن؟"

"من الله."

عاد ورنّا إلى الرضّيعَة التي كانت رائحتّها كريهة للغاية. فرآها تفتح عينيها وتبدأ بالبكاء.

"سأحملها"، قال، وهو ينحني نحوها.

"إياك أن أراك وأنت تفعل هذا."

"ولكنها تبكي يا أمي."

"إنها تحاول جذب الانتباه إليها فقط. ويجب أن تتعلم منذ الآن شيئاً من الانضباط."

"ولكن.. ولكن"، تلعثم ويلي. "إنها ليست سوى رضّيعَة."

"اجلس!" صرخت السيدة بيتش. "اجلس حالاً."

سارع ويلي إلى الجلوس أمام الطاولة، وتمتم:

"أ لديها اسم؟"

وللحال هوت قبضة السيدة بيتش على الطاولة بضراوة.

"كلا! وكفّك أسئلة، وإلا سيتذوّق جسمك طعم الحزام منذ الآن."

عبق وجه ويلي.

الحزام! آه.. لقد بقي ذاك الحزام في منزل السيد توم. ولذلك يجدر

به أن يبقى فمه مغلقاً، لعلها تنسى أمره.

"والآن دعني أرى ما لديك في هذه الحقائق. وانزع عنك هذا

المعطف."

خلع ويلي معطفه، وعلّقه على ظهر الكرسي، ثم دسّ طاقيته وقفازيه

في جيبه. وشرع في إفراغ حقيبتّه القديمة أولاً، بادئاً بحذائه الرياضي

القديم الذي كان مقصوداً من مقدمته.

"لقد أصبح صغيراً جداً على قلمي"، أوضح لها وهو يتابع إخراج بقية

أغراضه، واضعاً على الطاولة إلى جانب الحذاء، كنزته الرمادية

وسرواله العتيق وقبعته ومطره، والكتاب المقدس.

"أرى أنك ما زلت تحفظ بالكتاب المقدس"، علقت السيدة بيتش.

"وأرجو أن تكون قد داومت على قراءته وحفظه."

"نعم، لقد فعلت هذا يا أمي."

فاسترخت في جلستها، وقالت:

"حسناً.. سمع لي المقاطع الستة الأولى من الفصل الأول من سفر الخروج."

حدق بها ويلي فاغر الفم.

"أنا لا أحفظ الكلام المكتوب فيه عن ظهر قلب يا أمي، ولكني أعرف جميع القصص. ويمكنني أن أروي لك العديد منها. سواء من العهد القديم أو من العهد الجديد."

"لا تهمني القصص يا ولد. لقد كنت قبل رحيلك تحفظه حرفاً، حرفاً." "هذا لأنني كنت أستمع إلى الآخرين وهم يرددونه في مدرسة الأحد،" أوضح ويلي. "ولكن.."

"افتح تلك الحقيبة الثانية،" قاطعته بفضاضة.

حل ويلي أربطة الخرج، وبدأ يستخرج منه جميع ما فيه ببطء شديد. شعر.. شعر أنه كان يتعري أمامها غصباً عن إرادته، وأن جميع تلك الأشياء القيّمة الغالية على قلبه، أصبحت في تلك اللحظة بالذات، تحت سلطان انتقادها وتدقيقها.

في تلك الأثناء، ظلت السيدة بيتش قابعة في مكانها، تراقبه بوجهها الممتنع الداكن وهو يفرغ محتويات الخرج. ولم تفه بكلمة إلا بعد أن انتهى من استخراج كل شيء. حينئذ، قالت له بصوت هادئ موزون: "والآن سأبدأ بطرح الأسئلة عليك، وستعطيني الأجوبة الشافية بدون تعليقات إضافية. من أين حصلت على الملابس والجزمة؟" "من السيد أوكلي والسيدة فليتشر."

"سرقتهما؟"

"كلا، كانت هدايا."

"أي أنك تسولتها."

"كلا، أبداً يا أمي."

"لا تجادلني. قلت إنك تسولتها."

جمع البيض وكعكة الفاكهة وقنينة النبيذ وجوارب النوم معاً، ودفعها نحوها عبر الطاولة.

"هذه الهدايا لك يا أمي."

"لقد تسولت هذه الأشياء أيضاً، كما أعتقد."

"كلا لم أفعل. وأنا.. أحمل لك هدية مني أيضاً،" أضاف، وقد بدا له أن مفاجأته لها غدت بلا معنى. لكنها في جميع الأحوال كانت فكرة السيد توم. تناول رقعَتان من الورق المقوى مربوطتان إلى بعضهما بطريقة أنيقة، وسارع إلى حل الرباط عنهما، مستخرجاً منهما لوحة من رسمه، تمثل المقبرة والكنيسة ومن وراءهما الحقول والأشجار. ودفعها إليها.

"إنه المكان الذي أقمت فيه يا أمي."
ألقت السيدة بيتش نظرة على اللوحة، وقالت:
"هل سرقت هذه اللوحة من مكان ما؟"
"كـلا."

عابته بنظرة باردة.
"لا تكذب علي يا ولد."
"أنا لا أكذب يا أمي. لقد رسمتها بنفسي. انظري.. انظري.." أمسك واحداً من الدفاتر المليئة بالرسوم، "هذه أيضاً من رسمي"، قال وهو يفتح صفحة الدفتر الأولى.

"لست أملك متسعاً من الوقت يا ويلي لأتفرج على الصور."
"ولكني رسمتها بنفسي!" هتف. "أرجوك يا أمي ألقي نظرة عليها."
"اسمع يا ويلي، ينقصك الكثير من الأمور التي ينبغي عليك تعلمها. وما سأفعله هو إحراق هذه اللوحات، أو التصديق بها. وعسى أن لا يعرف أحد فداحة الجرم الذي اقترفته يداك."

حملق فيها ويلي بعينين قانطتين.
"أنا لم أسرق شيئاً يا أمي. صدّقيني. لقد رسمتها بنفسي، ويمكنني أن أبرهن لك هذا."

"هذا يكفي!" صاحت وهي تهوي بقبضتها على الطاولة من جديد.
إن حال هذا الولد أسوأ بكثير.. بكثير جداً مما تصورت.. فكّرت السيدة بيتش.. ومن المؤكد أن إعادته إلى الطاعة ستطلب منها جهداً عظيماً.

"وماذا عن هذه؟" قالت مشيرة إلى الكتب والحلوى وأقلام التلوين والثياب.

"إنها هدايا يا أمي،" همس بصوت بائس.

"مزيد من الهدايا يا ويلي؟ أنتوقع مني أن أصدق هذا الادعاء؟ أنتوقع مني أن أصدق أن الغرباء قد قدموا لك الهدايا؟"

"إنهم ليسوا غرباء يا أمي. إنهم أصدقاء."

"أصدقاء! أحب أن أعرف من هم هؤلاء الذين تدعوهم بالأصدقاء."

"جورج وماكس والتوأم و.."

"وهل يذهبون إلى الكنيسة؟"

"إيه.. طبعاً. جورج عضو في الجوقة وكذلك أنا،" وسرعان ما خبا

وجهه وهو يردف، "أعني كنت عضواً فيها. ولكن جيني وكاري.."

"بنات؟"

"نعم، التوأم بنات. كاري تريد أ..."

"كنت تلعب مع بنات؟ وبعد كل ما لقنك إياه عن مغبة مخالطة البنات،

تخالفني وترافق البنات؟"

"ولكنهما مذهبتان جداً، وتذهبان إلى الكنيسة دوماً. بل جميعهم يذهبون

إلى الكنيسة، جميعهم ما عدا ماكس."

"مارك؟ ومن هو هذا المارك؟"

"ماكس يا أمي،" أجاب. "وهو اختصار لاس... صمت وعض على

شفته. شعور ما مبهم حذره من أنه كان يطأ أرضاً خطيرة. بدأ الطنين

يصم أنفيه.. وخيل إليه أن صوت أمه أخذ ينأى وينأى عنه.

"لماذا لا يقصد الكنيسة؟" سمعها تقول.

حاول أن يتهرّب من السؤال.

"إنه إنسان مخلص وصادق يا أمي.. وهو مهذب و.."

"سألتك لماذا لا يقصد الكنيسة؟"

"إنه.. إنه.. أترين يا أمي.. إن والديه لا يقصدان الكنيسة لأنهما

علمانيان. وقد ربّياه على فكرة أن وجود الله ليس مقتصرأ على

الكنيسة. وهو يؤمن بأن الله في أنفسنا وفي السماء وفي الغيوم وفي

الأرض والأشجار والأحجار والموسيقى وكل شيء يشيع البهجة في

النفس، أكثر مما هو موجود في الكنيسة.. و.."

"ها.. ماذا قلت؟ لماذا؟"

"لأن الله في أنفسنا و.."

"كلا، لقد قلت شيئاً عن عدم ذهاب أهله إلى الكنيسة؟ ماذا قلت؟"
"أهله علمانيون"، أجاب ويلى.

عندها أطلقت أمه صرخة فزع.

"لقد تلبّسك الشيطان يا ولد! ألا تعرف هذا؟"

نهضت من مكانها كالمجنونة، ولطمته على وجهه بوحشية. وعندما رفع يديه ليحتمي نفسه منها، زادت تلك الحركة ضراوة، فأعملت فيه الضرب، حتى زلّ به الكرسي، فوقع وارتطم بالأرض.

"و..ل..لكن..". هذر ويلى. "يقول ماكس إن المسيح كان إنساناً عظيماً."

"أيها الزنديق الكافر!" زعقت السيدة بيتش. "أيها الزنديق!"

فجأة، هوى شيء ثقيل على رأسه، فغرق وغرق في ظلمة باردة. كان ما يزال باستطاعته سماع صوت نقيب أمه، والإحساس بوحشية ضربها المبرح له. إلا أن الخدر الذي سرى في جسمه جعله يفصل عن نفسه، ويتحول إلى شخصين مستقلين. أحدهما، كان مسجى على الأرض، والآخر كان يرفرف فوقه، وقد تسمرت عيناه على قرينه، مراقباً التتكيل الذي كان يحلّ به.

أفاق ويلى من غيبوبته وهو ينتفض ويفرفر برداً ووجعاً. حاول أن يمدّ ساقيه المتشنجتين، ولكنه شعر بالألم فظيع فيهما. حلق عينيه، وتفرّس في غلالة الظلام المنسدلة حوله، فميّز فوراً مكان وجوده، وعرف أن أمه قد حبسته في الحجرة الصغيرة تحت الدرج. حدّق من خلال صدع جانبي في الباب الصغير، ورأى أن الظلمة التي عمّت في الخارج كانت بسواد القطران.

لا بد.. لا بد أن أمه أوت إلى فراشها.. فكّر وهو يرتجف.

تفقد هيئته، واكتشف أن جزمته وكنزته وسرواله قد نزعّت عنه جميعها. انحنى بجسمه، وتلوّى ألماً لما ضغط على إحدى الكدمات في وسطه. نظر ملياً إلى نفسه، ورأى أن قميصه الداخلي كان مخيطاً إلى سرواله التحتاني. مدّ يداً متورمة، وسحب الخرقاة الرثة التي تحته،

ولفها حوله. كان بإمكانه شم رائحة الدم المنبعثة منه. تحسّس رأسه، ووجده مليئاً بالتنوّعات الموحجة. لمس ساقيه المتقرحتين، وأحس بلمس شيء رطب ومتخثر تحت أصابعه.

في الليلة السابقة فقط.. كان يستلقي مطمئناً في سريره الأول والوحيد، في غرفته الأولى والوحيدة. وإنه ليستشعر في صدره شيئاً من العزاء لأنه ترك لوحاته وأدوات الرسم هناك. فالسيد توم سيعتني بها جيداً! السيد توم الذي أعطاه قبل رحيله بعض المغلفات المعنونة والدموغة بالختم البريدي ليتمكن من مراسلته. كما أنه خاط له في حاشية معطفه قطعتان نقديتان بقيمة عشرة شلنات.

تري.. أما زالتا هناك؟ أم أن أمه ستبيع المعطف مع بقية ملابسه؟

تذكر الرضيعة والشريط اللاصق الذي يكتم فيها.

ربما.. ربما سيساعد بيع ملابسه على شراء الطعام لها.

ثم تذكر الكتب وقصيدة ماكس.

نعم.. من المؤكد أن أمه ستحرقها، بما أن اسم ماكس مكتوب عليها.

فجأة، طغى عليه الإحساس بأن ذلك الشخص القابع وسط تلك الظلمة كان شخصاً مختلفاً. بدا له أنه ما عاد ويلي. كما لو أنه في لحظة ما، ودّع ذلك الجزء القديم من روحه وداعاً أبدياً. ولكنه في الوقت نفسه لم يشعر بأنه ويلي القديم أشبه بشخصين منفصلين في جسم واحد.

لا.. لا.. إنه ويلي فقط.. ويلي واحد.. بالروح وبالجسم.

للحظة، تمنى لو أنه لم يذهب أبداً إلى ويروولد الصغيرة. ففي تلك الحالة، ما كان سيدرك الحقيقة أبداً، وكان سيظل على اعتقاده القديم بطيبة أمه ومحبتها. بل إنه ما كان سيشعر بوجود أي فرق.

اجتاحته موجة قنوط أسود.. أسود.. فلعن هذا الوعي الجديد الذي أشرق فيه.

يا الله! لقد نسي مرارة هذه الأوجاع كلها منذ مدة طويلة.. وهذا.. هذا ما حوّلته الآن إلى فتى هش، قليل الاحتمال.

"آه.. يا سيد توم.."

أنّ بصوت عال في جوف الظلام.

"يا سيد توم سأعدي.. سأعدي يا سيد توم..."

شهق.. واستسلم إلى نسيج صامت. شعر بوجع مبرح في كعبه. لاشك أنه لو اه عندما وقع. حظّ يده عليه، ووجده متورماً ومحتقناً، فأبعدها عنه فوراً، وتوقع على نفسه متضرعاً لله كي يجعله يخلد إلى النوم بسرعة.



telegram @
yasmeenbook

البحث

بدا البيت غارقاً في بحر من السكون بعد سفر ويليام. فقد افتقدت وقع قعقة جزمة الفتى على أرضية الردهة المبلطة، وأحاديثه المسائية الطريفة. وفي الأيام التي تلت رحيله، كان كلما قرأ شيئاً مثيراً، وأحس بالرغبة في مشاركة الفتى به، بادر إلى النظر نحو الطرف الآخر من الطاولة. لكن عينيه كانتا تعودان خائبتين على الدوام. فالكرسي الذي اعتاد ويليام أن يشغله، بات فارغاً. وشيئاً فشيئاً بدأ يشعر بذلك الجفاف القديم المألوف يجتاحه. ذلك الجفاف الذي أنضب روحه من قبل، عندما فجع بموت زوجه ريتشل. إلا أنه في هذه المرة وجد العزاء في تيقنه من أن ويليام كان حياً يُرزق. ولذلك، صار يستمع إلى الأخبار بمزيد من الاهتمام. خصوصاً عندما كانت التقارير تعلن عن وقوع غارات جوية قريبة من لندن.

في ذلك الوقت، كان هتلر قد غزا النرويج والدانمرك، وهبّت الحكومة البريطانية إلى إرسال وحدات من أسطولها الحربي لمؤازرة تلك البلاد. لكن قرية ويروولد الصغيرة ظلت على حالها الهادئ، بمنأى عن أوار الحرب وبلبلتها. إلا بالنسبة إلى أولئك الأشخاص القلائل الذين افتقدوا ويليام، وشعروا بالأسى لأنه ليس معهم ليشهد إياهم مطلع فصل الربيع، وطلائع الحشائش الذهبية التي بدأت تبزغ في الحقول، وأزهار بخور مريم العطرة والبنفسج العبق، تلك التي اشرأبت بأعناقها، وتدافعت من بين مسام تربة الغابة الداكنة المرتوية.

بالطبع، حاولت في تلك الفترة التصبر على فراق ويليام، ممنياً نفسه باستلام رسالة منه في القريب العاجل. وعندما مضى الأسبوع الأول من غير أن يصله أي خبر، ظن أن الفتى غارق حتى أذنيه في الاهتمام بأمه، وتلبية طلباتها. ولازمته هذه الفكرة خلال الأسبوع الثاني أيضاً. لكنه، ومع مقدم الأسبوع الثالث بدأ يشعر بالقلق. إذ كان في الحقيقة قد كتب للفتى ثلاث رسائل حتى ذلك الحين. كما علم أن ماكس قام هو الآخر بإرسال عدة رسائل له. إلا أن أحدهما لم يحصل على أي ردّ مطمئن.

وذاث ليلة استيقظت توم على كابوس مقيت. إذ رأى فيما يراه النائم أنه كان محبوساً في مكان ضيق خال من الهواء، كما لو أنه دُفن حياً. ولكن ما أيقظه بالفعل، كان ذلك الصوت الذي سمعه، وخيل إليه أنه أشبه بصوت ويليام يناديه مستغيثاً. فهبّ من سريره مذعوراً، ووجد سام واقفاً أمامه وهو يلهث ويرمقه بفضول. فغادر السرير مترجلاً، وتلمس الطريق إلى نافذة غرفته، وأزاح عنها غطاء التعتيم بحذر، ليسترق النظر إلى الخارج. فوجد أن الدنيا كانت ما تزال غارقة في الظلام. عندئذ، غادر حجرته، وتجاوز الردهة إلى غرفة المعيشة ليتفقد الساعة. كان الوقت يقارب الثالثة بعد منتصف الليل. وهذا يعني أن دوره في استلام المناوبة لمراقبة الحرائق سيحل بعد وقت قصير. فرأى أن لا بأس من الذهاب على الفور، وصرف هوبرت بوليت باكراً. وهكذا، لبس سرواله القطني المضلع، وكنتزة صوفية سمكية فوق منامته، وانتعل جزمته. ومضى يشق طريقه في قلب الليل البارد محتمياً بممطره، معتمراً قبعته، ومتأبطاً قناعه الواقى. وبينما حدث الخطى قدماً، تبعه سام وهو يعلك خرقة قماش بالية من ملأة قديمة. كان كشك المراقبة، الذي اعتبره توم في البداية شيئاً سخيفاً مسرفاً في المبالغة، عبارة عن منصة مؤقتة شيدها أهل القرية على قمة التل. وعندما بلغ توم تلك القمة، تسلق السلم المؤدي إلى الكشك، فطالعه السيد بوليت الذي كان مسترخياً على الكرسي، وقد اشتمل بغطاء سميك. وكان في تلك اللحظة على وشك الاستغراق في النوم. إلا أنه استعاد شيئاً من نشاطه لما رأى توم، بل وسراً كثيراً من مقدمه المبكر. فجلسا معاً، وتسامرا لبعض الوقت. ثم قرّر السيد بوليت المغادرة إلى بيته وسريره الدافئ. حينئذ، عمل توم على توفير أقصى ما يمكنه من راحة ودفء لنفسه، ثم استرخى في قعدته، وترك سام يتقوّع عند قدميه. وما لبث أن رفع رأسه نحو السماء، واستسلم لتأملاته. فعادته مشاهد ذلك الكابوس الذي أزعجه. ولكن..

ألم يتفق مع ويليام على الكتابة له إذا كان في حاجة إلى أي شيء؟ حملقت عيناه في كوكبة النجوم المشعة، وغاب في تخیلاته اليقظة إلى أن بدأ الفجر يحقن في السماء ألوانه الرائقة، مؤذناً بقدم السيدة بتشر لتأخذ دورها في المناوبة بعده.

وكان توم في طريقه إلى البيت عندما لمح الأنسة ماي ثورن علي دراجتها القديمة، وهي في طريقها إلى توزيع البريد. فلقق بها فوراً. وعندما رآته عاجلته بقولها:

"أخشى أنني لا أحمل لك شيئاً يا سيد أوكلي. أنا آسفة."

ثم همت بمتابعة طريقها. لكنها عادت وتوقفت، وبدأ عليها التردد. وفي النهاية تجرأت، وأضافت بصوت قلق:

"يا سيد أوكلي، أترى، أنا أحمل معي برقية، وهي مرسلة إلى أنني هارتردج."

رنا إليها توم بصمت، وسرت الرعدة في أوصاله. فأهل القرية لم ينسوا بعد أن آخر برقية وصلتهم كانت تحمل لهم خبر موت مايكل فليتشر.

"أترى يا سيد أوكلي، أنا أشعر بالقلق قليلاً، تابعت الأنسة ماي ثورن. فهي علي وشك الإنجاب الآن. وأنا أفضل الانتظار حتى تراها القابلة قبل أن أسلمها هذه البرقية. ولكن هذا يعتبر مخالفاً للقانون."

قطب توم مُعملاً ذهنه، ثم سألها:

"هل حاولت رؤية السيدة فليتشر؟"

هزّت ماي ثورن رأسها.

"كلا، لم أرغب في إزعاجها يا سيد أوكلي."

"إذن، سأذهب إلى رؤيتها حالاً، وسأطلب منها أن تقوم بزيارة قصيرة لمنزل آل هارتردج."

"أوه، شكراً لك يا سيد أوكلي."

وقف توم يراقب الأنسة ثورن وهي تتهاذى بدراجتها، ميمّة صوب المنطقة الزراعية في طرف القرية الجنوبي. ثم استدار بسرعة، وقصد بيت آل فليتشر.

كانت السيدة فليتشر تقف عند عتبة باب مطبخها المفتوح، وقد فرغت على التوّ من وداع زوجها وابنها إدوارد قبل ذهابهما إلى العمل. كان هناك نور باهت يشع من المطبخ، وينساب خارجة، عاكساً ظلاله بوداعة على قسم من الحديقة الساكنة المتلائنة بالندى. وعندما فوجئت السيدة فليتشر بتوم، رنت إلى النور بارتباك، وسألته:

"أنت لست في نوبة الحراسة على ما آمل؟"

"كلا، لست كذلك،" أجاب توم "أريد فقط محادثتك في موضوع خاص."

"ما يزال جورج وديفيد نائمين، لذلك فهما لن يزعجانا. ما رأيك في تناول كوب من الشاي، فأنت تبدو مرهقاً قليلاً."

ولج توم المطبخ الدافئ الحميم، وتبعه سام الذي سارع إلى التكوّم على الأرض قرب الموقد. ولم تتوان السيدة فليتشر في الجلوس، ثم صبّت فجانين من الشاي، وقالت وهي تناوله أحدهما:

"تفضل بالجلوس يا توم. وأخبرني كيف يمكنني خدمتك."

ظهرت الدهشة على محيا توم.

"هناك أمر تريد مني القيام به يا توم، أليس كذلك؟ هل يتعلق بويليام؟"
هزّ توم رأسه، وقال:

"لقد وصلت برقية إلى آني هارتردج."

حطّت السيدة فليتشر فجانها على الطاولة بهدوء، وسألته بذهول:

"هل تحمل خبراً عن زوجها ديفيد؟"

"لا أعرف، ولكني رأيت أنك قد تستطيعين التخفيف عنها، بما أنك عانيت مرارة هذه التجربة بفقدك مايكل. أنت تعلمين أنها على وشك الإنجاب الآن، ومن المؤكد أنها في حاجة إلى شخص يمكنه مساعدتها فعلاً."

"أوه، طبعاً،" قالت السيدة فليتشر، ثم هبت من مكانها، وسارعت إلى حلّ رباط منظرها.

لكن توم أضاف مستدركاً:

"هي لم تستلمها بعد."

فأجابت وهي ترخي أكمامها المشمرة:

"أحب أن أكون هناك بأسرع وقت ممكن. ففي حالتها قد يُغنى عليها، أو أي شيء من هذا. بالطبع سأختلق عذراً مناسباً، مثل طلب كمية بيض إضافية من آل بادفيلد، أو حياكة خفّ للمولود.. أو أي عذر من تلك الأعذار التي لن تلفت انتباهها."

أوما توم موافقاً، وبدا له أن هذا أفضل ما يمكن السحجج به فعلاً، وراقبها وهي تضع عليها معطفها استعداداً للمغادرة، ثم غمغم:

"تلك القطارات التي تقصد لندن..."
"آ.. نعم!" أجابت بنبرة تنم عن الدهشة. "ماذا عنها؟"
"إنها تغادر يوم الجمعة، أليس كذلك؟"
"نعم هذا صحيح يا توم."
"واليوم هو يوم الجمعة أليس كذلك؟"
"أجل."

عندئذ، نهض من مكانه على نحو مفاجئ، وقال بصوت مرتجف:
"سأستقل هذا القطار يا سيدة فليتشر، س... س... سأستقله اليوم."

كانت رحلة توم إلى لندن تماثل مشقة وعسر رحلة ويليام إليها، بكل تلك الظلال الكئيبة التي عكسها الضوء الأزرق الباهت، والهواء الخانق، والمقطورات المكتظة بالمسافرين. وكانت رحلة محبطة أيضاً، إذ ظل طيلة الوقت غير قادر على إنعام النظر إلى الخارج، أو حتى رؤية المحطات التي كان القطار يمر بها. ومع حلول المساء، ازداد الوضع رداءة، نظراً إلى أنه كان من الخطير بمكان استراق النظر من النوافذ، رغم خفوت الضوء الأزرق. لكن تلك الضغوط التي عاناها توم لم تكن مقتصرة عليه وحده، بل كان سام يشاركه بها. فهو لم يعاند توم فقط بحشر نفسه في العربة معه، بل سارع إلى القفز خارجها، واللاحق به إلى المحطة بعناد. وكان في ذلك الحين، يقبع محشوراً في حضن توم الذي وضع له مقدماً مؤقتاً مصنوعاً من خيوط الحبال. ورغم أنه في البداية لم يتحمس لفكرة اصطحاب سام معه، شعر بعد ذلك بالسرور من هذه الرفقة. إذ خطر له فجأة أن مهمة البحث عن ويليام ستكون مهمة قاسية وصعبة.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً عندما توقف القطار في محطة لندن. وما إن غادره توم حتى وقف على الرصيف مذهولاً ذهولاً كاملاً. فقد أصم الضجيج الهائل أذنيه، وشعر كما لو أنه وسط دوامة ما وهو يراقب جموع الجنود الغفيرة التي كانت تروح وتجيء من أمامه متصايحة. وبينما هو كذلك، شاهد قطاراً آخر يتوقف في المحطة، ثم سمع صوتاً صادراً من مكبر للصوت يعلن عن أرقام

الأرصفة، ووجهات القطارات. فبقي متمسراً في مكانه لفترة من الوقت، على أمل أن يتأقلم قليلاً مع ذلك الجو الصاخب، قبل أن يبحث عن موظف التذاكر ليسلمه تذكّره.

كان يبدو وسط ذلك الحشد الطنان، مستهجن المظهر فعلاً، بشعره الأبيض الكث، ووجهه المتغضن المسن، وقبعته الصوفية القديمة، ومعطفه السميك، وجزمته القروية، وكلبه الذي وقف ملتصقاً به، من غير أن يكف عن النباح بعصبية بالغة.

نظر حوله متفحّصاً الناس، وحشود الجنود الشبان، حتى وقعت عيناه أخيراً على موظف التذاكر. فقذف الخرج الذي استعاره على ظهره، بكل ما كان يحتويه من ثياب وأطعمة أرسلها أهل القرية لويليام، وتوجّه نحو الموظف الذي عاين سام بفضول، ثم هتف:

"يجب أن تضع لهذا الكلب كمّامة متينة." أوماً توم موافقاً، رغم أنه لم تكن لديه أدنى نية في تطبيق ما قاله الرجل الذي تابع حديثه:

"من أين أتيت يا سيد؟ ممم.. من المؤكد أنك لست من أهل لندن، فهذا أمر أستطيع استجلاءه بوضوح. أنت هنا في عطلة؟ آ.. آ؟" ثم سارع إلى إطلاق ضحكة عالية على دعابته السخيفة.

لكن توم لم يبد عليه أنه قد استلطف تلك الدعابة، فوقف يحدق به فاغر الفم. "أوه، إنني أمارحك يا رجل،" غمغم موظف التذاكر. "ألا يوجد لديك أي حسّ بالفكاهة؟"

"أيمكن أن تخبرني أين تقع ديبينيفورارد يا سيد؟" قال توم. "ماذا ديبينيفورارد؟" قلده الرجل. "أنا لم أسمع بها أبداً. كرّر لي الاسم مرة ثانية."

كرّر توم اسم المنطقة، لكن الرجل هزّ كتفيه مستكراً، ثم التفت وصاح منادياً على مراقب أمني في الدفاع المدني كان يمرّ بالقرب منهما:

"إيرن، أتعرف أين تقع ديبينيفورارد؟" "لم أسمع بها قط،" أجاب المدعو إيرن. "وأنا أعرف معظم المناطق المحيطة بلندن، فقد كنت سائق سيارة أجرة. هل يوجد لديك هذا الاسم مكتوباً؟"

ناولته توم رقعة من الورق تحمل عنوان ويليام، فرنا إليها الرجلان، وهتفا معا:

"أوه!! أنت تعني دييتفورد!"

كرّر توم الاسم من بعدهما، وهمس لنفسه:
"دييتفورد."

أشار الرجلان إلى الناحية الشمالية من المكان باتجاه مجاز مقنطر، ودلاه على محطة الحافلات. فشكرهما توم، ومضى إلى حيث أرشدها، بينما وقفا يراقبانه وهو يبتعد مع سام.

"من النادر أن تلتقي بأشخاص على شاكلته هنا، وأرجو ألا يكون جاسوساً ألمانياً"، قال موظف التذاكر لزميله، ثم أغرقا معاً في ضحك عال مجلجل.

شدّد توم قبضته على مقود سام أثناء اجتيازه للطريق، لأنه ظلّ يصطدم بالناس في الشارع غير المضاء. ثم بلغ المحطة، واستقلّ منها حافلة علم أنها ستوصله إلى منتصف طريق وجهته. ولما لاحظ تناقل الحافلة أثناء مضيتها اعتراه ضيق بالغ. كما أن مرأى موظفة التذاكر وزيتها الرسمي الرجالي أصابه بالذهول، فواصل التحديق بها طيلة الطريق. ومع أنها في البداية شعرت بالانزعاج منه، إلا أنها عادت واسترخت عندما علمت أنه كان غريباً عن المدينة.

"أ أنت واحد من أولئك اللاجئين؟" سألته بلطف.

"كلا"، أجاب توم. "لا أظن أنني كذلك."

"من أين أتيت إذن؟"

"من قرية ويروولد الصغيرة."

لكنها لم تفهم ما قاله لأن لكنته كانت غريبة الوقع على أذنيها. ثم خطر لها بأنهما يستطيعان التفاهم أكثر إذا رفعت صوتها، فصاحت قائلة:

"إنها في الريف أليس كذلك؟"

أوماً توم برأسه.

"وما الذي أتى بك إلى لندن؟"

"جنّت لأرى صبيّاً من معارفي."

"أوه، حفيدك.. ها؟"

أوما توم مرة أخرى، وحاول مداراة ارتبাকে بمداعبة فراء سام الذي جلس في حضنه مستكيناً.

نعم، هو يعرف بأنه قد كذب على المرأة، ولكنه في جميع الأحوال، لم يشعر بالرغبة في إقحام نفسه بالتفسيرات المعقدة.

أخيراً، وبعد أن استهلكه تبديل الحافلات، وتتبّع الكثير من الإرشادات المغلوطة والصحيحة وقتاً طويلاً، وصل توم، عند منتصف الليل تقريباً، إلى المنطقة التي يعيش فيها ويلى. وكان في ذلك الحين قد أصبح أكثر تألفاً مع الظلام السائد، بحيث أنه استطاع على الأقل تمييز أشكال الأبنية المأهولة من حوله. تلك الشقق السكنية الصغيرة الخربة التي كانت جميعها في حاجة ماسة إلى الترميم، والتي بدت له متراصّة إلى بعضها بشكل خانق.

إنّ، هذه هي البيئة التي جاء منها ويليام.. قال توم لنفسه قبل أن تباغته صفارة الإنذار التي خرقت السماء. فتجمّد في مكانه. رياه! ما الذي ينبغي عليه القيام به؟ لقد سبق له أن قرأ عن الملاجئ الشعبية في الصحف، ويعرف أن الناس غالباً ما يتجمعون في الأنفاق، ولكنه لا يملك أدنى فكرة عن موقع أقرب نفق من حوله.

فجأة، سمع صوتاً عالياً فظاً يصيح وسط الظلام:
"هيا، هيا، تحرّكوا.. عليكم الذهاب إلى الملجأ فوراً."

ثم لمح جمعاً من الناس أخذوا يندفعون من أمامه وهم يشتمون ويزمجون، بينما انبرت إحدى النساء تزرق في العتمة قائلة:

"من يحمل بطاقات الإسعاف؟ آلف، آلف، أتحمل معك بطاقتي؟"
تلقت حواليه في الظلام حائراً بأمره، فاصطدم بصبية سارعت إلى تعنيفه بقسوة:

"أنت، انتبه إلى طريقك يا سيد!"
"عفواً،" غمغم معتذراً، "أوه.. انتظري،" عاد وصاح، "أيمكن أن تخبريني إلى أين أنت ذاهبة؟"

لكن سؤاله ذهب عبثاً، إذ كانت الصبية قد فرّت من أمامه، واختفت عن ناظره. ثم.. ثم شعر بيد تلامس ذراعه، فأحدّ نظره، ورأى رجلاً سمح الوجه، لا يصغره إلا بعشر سنوات تقريباً. ثم اكتشف أنه واحد من حراس الأمن في المنطقة.

"تبدو تائهاً يا سيد. لا تخف، تعال معي،" قال الرجل.

فحمل توم سام بين ذراعيه وهول وراء الحارس صوب بناء طويل من القرميد، خطت كلمة: "ملجأ" على بابهِ بدهان رمادي اللون.

دخل توم والحارس الملجأ، ووجدوا لنفسيهما موضعاً مناسباً للجلوس. وعرف توم من الرجل أنه كان ناظر المدرسة الحكومية في المنطقة، وأنه هو والعديد من الرجال أمثاله انتخبهم أهل المنطقة ليتولوا الإشراف على المهام الأمنية فيها.

"أ تعرف أنه ليس مسموحاً للكلاب دخول الملجأ يا سيد؟" قال الرجل لتوم.

فوقف توم على الفور، وهمّ بالمغادرة، لكن الحارس استوقفه ملامساً ذراعه بلطف.

"أظن أننا نستطيع التفاوضي عن هذا الأمر الآن،" قال وهو يعاين توم بنظرة متفحصة. "ولكن من أين أتيت يا سيد؟ تبدو لي وكأنك من أهل الريف."

"أنا كذلك فعلاً،" أجاب توم. "ولقد جئت باحثاً عن صبي من النازحين، أقام عندي فترة من الوقت."

بدا الحارس مصعوقاً.

"أنصحك بالرجوع إلى دارك يا سيد. فلدينا المئات من الأغبياء الهاربين هنا. ورغم أننا نستمر في إرسالهم مجدداً، إلا أن هذا لا يُجدي نفعاً. إذ أنهم سرعان ما يعودون إلى الهروب مرة أخرى. وأنت أول شخص أعرف أنه جاء باحثاً عن أحدهم."

فجأة، تلتصت عليهما بنت صغيرة من فوق حافة إحدى المراجيح الشبكية المتدلية من السقف، ولكن الحارس ضبطها، فتراجعت بسرعة. "أ رأيت؟! تلك واحدة من الهاربين،" قال مشيراً إلى البقعة التي ظهرت منها البنت. "لقد هربت خمس عشرة مرة، وتقول إنها تفضل البقاء بين ذويها، حتى لو تساقطت القنابل عليهم، على أن تذهب إلى الريف حيث ستكون سالمة، ولكن تعيسة."

"الصبي الذي أبحث عنه لم يهرب من عندي،" قال توم.

"ها؟!"

"نعم لم يهرب. ولكنني استلمت رسالة من والدته تقول فيها إنها متوعدة قليلاً، وأنها ترغب في عودته لفترة من الوقت كي يساعدها. ومنذ ذلك الحين لم أعرف عنه شيئاً."

"وكم مضى على غيابه؟"

"حوالي شهر."

"وكم قضى من الوقت معك؟"

"حوالي ستة أشهر."

"ستة أشهر! "

أوما توم.

"ولم يهرب منك؟"

"كلا، أترى.. لقد.. لقد كان سعيداً معي."

فرك الحارس ذقنه بأصابعه وتنهّد.

"اسمع يا رجل،" قال بعد لحظة صمت. "أنا لا أعتقد أنه باستطاعتك القيام بأي شيء. فالصبي يمكن أن يكون قد نسيك نهائياً بعدما عاد إلى بيته."

"ربما. كل ما في الأمر هو أنني أحب التأكد من سلامته. حينئذ يمكنني أن أشعر بالاطمئنان."

"رباه! أصدق يا رجل أنني لم أقابل قبلك مخلوقاً يكثرث لأمر هؤلاء الأطفال كما تفعل أنت؟! بل إنني كثيراً ما سمعت عنكم قصصاً غريبة يا أبناء الريف، وهي في الغالب غير لطيفة مطلقاً. طبعاً أنا لا أقصد جرح مشاعرك، إذ يبدو لي الآن أن بعضكم يتحلّى بخصال حميدة جداً. ولكن،" أردف وهو يرفع صوته، "هناك بعض الناس الذين لا يشعرون بالامتنان لكم أبداً، مثل هيلين فورد وأختها."

عند هذه الملاحظة، اهتزت الأرجوحة المجاورة لهما اهتزازاً عنيفاً.

"في جميع الأحوال قد يكون بإمكانني مساعدتك في العثور على هذا الصبي يا سيد.. يا سيد.. عفواً.. ولكن ماذا قلت لي اسمك؟"
"أوكلي، توم أوكلي."

"حسناً يا سيد أوكلي، إذن فأنت تقول أنه من هذه المنطقة؟"

أوما توم، وأخرج من جيبه رقعة الورقة التي تحمل العنوان. فألقي الحارس نظرة عاجلة عليها، وحقق بتوم مذهولاً.

"يا للعجب يا رجل! إنه يقطن في هذا الشارع بالذات. وأنا أعرف الشقة رقم ١٢ معرفة جيدة جداً. أتبحث عن الصبي ويليام بيتش؟"
قفز قلب توم من بين ضلوعه، وهتف:
"هل رأيته؟"

"لم أره منذ شهر أيلول الماضي، عندما غادر مع مجموعة أطفال من المدرسة إلى المحطة. تلك آخر مرة رأيته فيها. هو ولد هادئ، محب للعزلة، ولا رفاق لديه. وغالباً ما كان يتعرض إلى كثير من الإزعاج من أقرانه، فهم يعتبرونه هدفاً سهلاً للغاية. نعم، إنه فتى معتل الصحة. وأمه من أولئك الأشخاص الذين يظنون أنهم أكثر رقياً من الآخرين، رغم أن هذا لا ينطبق عليها أبداً. وهي من النوع المتزمت، المفرط في التدين، والتمسك بحرفية النصوص الدينية، إذا كنت تفهم ما أعنيه."
أوماً توم، بينما تابع الرجل:.

"مع ذلك، فإن التدقيق بمن يوجد ومن لا يوجد هنا، جزء من عملي. لأنني مطالب بالتعرف على الأشخاص والتعريف عنهم في حال حدوث قصف جوي وغير ذلك. وفي الحقيقة، أنا لم أبلغ بحكاية عودته هذه. حتى أمه لم أرها منذ فترة." نظر حواليه متفقداً وجوه الأشخاص المحتشدين في الملجأ، ثم حطت عيناه على امرأة بدينة، كانت جالسة تلعب الورق مع بعض الناس في الطرف الآخر من الملجأ. "لعل غلاد تعرف شيئاً عن هذا،" قال وهو يلوح بيده، وينادي على تلك المرأة.

"غلاد! غلاد!"

التفتت غلاد، وابتمت له مسفرة عن مساحة واسعة من لثة خلت إلا من ثلاثة أسنان أمامية.

"ماثا تريد يا عثيثي؟" لثغت غلاد. "ما الحكاية؟"

"إن السيدة بيتش ليست هنا، فهل هي في نوبة الليل لهذا الأسبوع؟"

"ومتى نبق لك ورأيته هنا يا عثيثي؟" ردّت غلاد. "لكن لماثا تتأل؟"

"هذا السيد يبحث عن ويلي."

"عجباً! هل هرب منه؟ أنا لم أعتقد يوماً أنه قد يجرو على القيام بعمل مماثل!"

"كلا.. كلا.. لم يهرب منه. يقول الرجل أن السيدة بيتش كتبت له رسالة تطلب فيها استرجاع ويلي لبعض الوقت."

عند هذا الحد، قفزت غلاد من فوق عدة أجسام كانت تفتش الأرض، وهرعت إليهما.

"ما هنا الشئ تقوله. لقد أخبرتني تلك المرأة أن ابنها ثيبقى في الريف. قالت إنه فائد الأخلاق، وأنه قد أرسل إلى إحدى الإثلاحيات."

"أرسل إلى إحدى الإصلاحيات؟!" قال توم بنبرة مستهجنة. "إن الصبي لم يبدر منه أي خلق معيب قط طيلة فترة وجوده معي. وهذا، أستطيع أن أقسم عليه وأنا مغمض العينين."

"ومن تكون أنت يا تيد؟" سأله غلاد.

"توم أوكلي."

"لقد أقام معه ويلي لمدة ستة أشهر تقريباً، أوضح الحارس. هزت غلاد كتفيها متعجبة، وقالت:

"لم أر الفتى منث أيلول الماضي."

"وماذا عن السيدة بيتش؟" استوضحها توم.

"إنها لا تختلط بغيرها. تعتبر نفثها أرقى منا جميعاً. بل وتعتقد أنها من فئة الملائكة والقديشين. وأنا، رغم جيرتي لها، لا أراها أبداً، لأنها تقوم عادة بالمناوبة في الليل." أجابت بسرعة، ثم تلفتت حواليتها بحذر، ثم عادت ودنت من الرجلين. "أثريان.. همست بطريقة مريبة، "أثمع في بعض الأحيان ضجة غريبة في بيتها. ضجة غريبة جداً.. جداً."

"ماذا تعنين؟" استفهم الحارس.

"أثمع ثوت ارتطام وأنين."

"صوت ارتطام؟"

"هها، وكأنها تحرك المفروشات في البيت."

"وما الغريب في هذا؟"

"في الثالثة بعد منتصف الليل يا رجل؟ هه.. هنا هو الغريب! أعتقد أنها تنفض الغبار عن الإنجيل؟"

عندئذ، أشاح الحارس بوجهه عنها ضجراً من تعليقاتها.

"يبدو أنه طريق مسدود يا سيد أوكلي، أليس كذلك؟"

"ما زلت أرغب في رؤية البيت الذي يعيش فيه ويليام،" أصرّ توم.
"أوه! في هذه الحالة دعني أقودك إلى بيته يا عثيثي. يبدو أنك مولع
بتلك الولد ويلي، ها؟"
أوما توم برأسه مؤكداً.

"يا للغرابة! أنت أول مخلوق أعرف أنه يحب هذا الولد. وأنا لا أعتقد
أن أمه بنفثها قد أحبته في يوم من الأيام."

"مع ذلك، أنا أرجو أن توافق السيدة بيتش على مقابليتي،" قال توم.
"ياه.. اللعنة!" صاحت غلاد فجأة. "لقد نثيت أنها غادرت إلى منطقة
الناحل لحضور اجتماع ديني، أو ما يشبه تلك. أخبرتني الأثبوع
الماضي. ولا أعرف حقاً لماذا أخبرتني. فهي عادة تأنف حتى من
مجرد التطلع إلى وجهي."

"ولماذا لم يعلمني أحد بهذا؟" هتف الحارس.

"ولكن الأمر يعنيها هي، آ؟"

زفر الحارس زفرة يأس وقال لتوم:

"والآن يا سيد أوكلي، أما زلت ترغب في رؤية ذلك البيت؟"
أوما توم برأسه معلناً إصراره على ذلك. لكنه اضطر والبقية إلى
الانتظار لساعتين كاملتين، قبل أن يتمكنوا من مغادرة الملجأ الذي غدا
معتمداً من كثرة ما عبق بدخان التبغ. وبينما هم جلوس، جالت عليهم
امرأة ترتدي بزّة حكومية خضراء، وضيقتهم الشاي والكعك. ثم قام
رجل يدعى جاك بفتح آلة أكورديون شبه مهشمة، وبدأ يعزف عليها.
فانبرى الجمع الصغير الذي كانت غلاد برفقته يصدح بالغناء. وكان
في منتصف أغنية: سوف نعلق غسيلنا على حبال الـ.....، عندما
أعلنت إشارة زوال الخطر. فنسوا أمر الأغنية، وهرعوا إلى الشارع.

استقبل توم مرة أخرى هواء الليل، وتنفس الصعداء. كانت رائحة التبغ
والعرق معشمة في ثيابه. وبدا له أن ذلك الهواء القارس الذي لفحه
أشبه برحيق إلهي. وسرعان ما رافقته غلاد هي والحارس إلى بيت
ويلي.

"إن الثيدة بيتش تعتقد أنها مخلوق مهم جداً يا عثيثي،" لثغت غلاد وهم
ماضون في طريقهم. "لديها في شقتها حجرة تحت الدرج، وغرفة

أخرى فوق الدرج، وفي بعض الأحيان تقوم بتأجير غرفتها، وتنام في الحجرة التحتانية. إليه، هنا ما تقوله هي يا عثيثي،" وعند هذا الحد، ابتسمت ابتسامة مأكرة، وسارعت إلى غمز توم، ثم وكزته في خاصرته.

أخيراً، وجد توم نفسه يقف مع غلاد والحارس أمام الشقة رقم ١٢. وما لبثوا أن حاولوا استراق النظر من النافذة. كانت النافذة ما تزال مدعمة بشريط بُني لاصق، لمنع شطايا الزجاج من التناثر في الغرفة، في حال تعرض للكسر. إلا أن إحدى أوراق الجرائد التي تحجبها، كانت منزلقة على جانبها، وكاشفة عن وسط البيت الذي بدا مظلماً ومهجوراً.

"إن البيت يبدو غير مأهول،" قال الحارس على الفور. لكن توم لم يسمعه لأن جميع انتباهه كان مركزاً على سام الذي أخذ يحوم حول النافذة بعصبية بالغة.

"ما الحكاية يا صغيري؟" قال توم متجاوباً مع سام. "أتشم رائحة شيء ما؟" جثم أرضاً وربّت على ظهر الكلب بحنان. "ها.. ما الحكاية يا سامو؟"

فجأة، بدأ سام يئن وي زمجر، ثم هجم على الباب الأمامي، وشرع يُعمل فيه مخالفه بهياج شديد. ثم عاد وجرى نحو توم، وجذبته من ساق بنطاله ساحباً إياه نحو الباب.

"لا أحد في الداخل يا رجل،" قال الحارس بتملل. "ربما،" أجاب توم. "ولكن ليس من عادة الكلب أن يحدث ضجة من أجل لا شيء!" أردف وهو يدنو من الباب، ويهزّ مقبضه بيده. "لا يمكنك القيام بهذا يا سيد. إنه عمل مخالف للقانون."

"ولكنني اعتقد أن هناك أحداً في البيت،" قال توم بصوت يملؤه الإلحاح.

وبينما هم في حيرة من أمرهم، رأوا رجل شرطة يدنو منهم مستطلعاً الأمر، وقد رابته تلك الجلبة التي كانوا يحدثونها. فبادره الحارس موضحاً:

"يظن هذا السيد أن هناك شخصاً ما في البيت. ولكنني حاولت استراق النظر إلى الداخل قدر الإمكان، وأعتقد أنه خالٍ من أي مخلوق."

خلع الشرطي خوذته المعدنية، ثم التفت إلى توم وقال:
"وما هو دليلك على وجود شخص في الداخل يا سيد؟"
أشار توم إلى سام الذي كان في تلك اللحظة قد بلغ به الهياج مبلغه،
وانبرى يعوي بوحشية وهو يחדش الباب الموصد كالمسحور.
وعلى الفور تبادل الجميع نظرات الاستغراب.
"يا سيدي، إنني لأرغب فعلاً في الدخول الآن"، قال الحارس. "فقد بدأ
القلق ينتابني على صاحبة هذا البيت، وعلى ابنها."
قرع الشرطي باب البيت قرعاً عنيفاً بدون جدوى. ثم قال أخيراً وهو
ينظر إلى سام الذي كان في تلك الأثناء قد اندفع نحو الباب بجنون،
قاذفاً نفسه عليه قذفاً.

"من المؤكد أن هذا الكلب يشم رائحة شيء ما."
وهكذا، وقف الرجال، وتشاوروا مطوّلاً، ثم قرروا خلع الباب. فتعاون
توم والشرطي والحارس على كسر الخشب المحيط بالمقفل. ونجحوا في
ذلك بعد محاولتين قويتين. وعندما انفتح الباب المقفل في وجوههم،
هاجمتهم رائحة أنثان قميئة جداً، لدرجة أنها كادت تصيبهم بالدوار.
كانت أشبه برائحة جيفة حيوان ميت متعفن الجثة.

وبينما شرع الرجال في تفقد المكان، تجاوزهم سام، ووثب فوراً نحو
باب صغير تحت الدرج، وأخذ ينبح بشراسة ويضربه بقوائمه. كانت
الرائحة أقوى ما تكون في ذلك المكان بالذات. فدنا الحارس، وكسر
قفل الباب. وعلى الفور ملأت خياشيمه وصدره رائحة عفونة مخيفة،
جعلته يحيد برأسه كمن أصابه مس. ثم راح يغالب رغبته الجامحة في
التقيؤ. أما الشرطي فهرع إلى إخراج مصباحه اليدوي من جيبه،
وسلّطه نحو تلك الفجوة الضيقة.

الإنقاذ

كانت رائحة البول اللاذعة والقيء النتن تفوح حادة وشديدة من الفجوة الضيقة. وفي قلب العتمة قبع صبي سقيم هزيل، بشعره الملبّد الوسخ، وبشرته المتشققة الخشنة كأنها الورق اليابس. كان مقيداً إلى ماسورة نحاسية، ورابطاً على برازه المتكوّم تحته وهو يضمّ إليه صرة صغيرة، وقد انتشرت القروح والكدمات والجروح في كافة أعضاء جسمه الأعرج. وما كاد يرى نور المصباح اليدوي المسلّط عليه، حتى ازداد انكماشاً على انكماش. وبدأ يئنّ أنيناً غليظاً مكتوماً. مطّ الحارس نفسه إلى الأمام ولمسه، فأطلق الصبي نسيجاً مذعوراً. كانت هناك على مقربة من قدميه رضاعة حليب فارغة.

"ناولني هذا المولود يا بني"، قال الحارس للصبي. لكن الصبي الذي وشت عيناه برعبه الهائل ازداد تراجعاً ونفوراً.

وفي تلك اللحظة، تسلّل سام إلى الداخل من بين ساقَي الحارس، وربض منتظراً أوامر سيده. فالتفت توم إلى الشرطي وقال:

"إنني أرغب في التحدّث مع الصبي فهو يعرفني."

أوما الشرطي موافقاً، وغادر المكان ليستدعي سيارة إسعاف، وليصرف الجيران الذين احتشدوا وتجمهروا عند باب البيت.

دنا توم من الصبي، وجثم أرضاً بالقرب منه.

"أنا السيد توم يا بني"، قال بصوت رقيق. "لقد قلقت عليك كثيراً، ولذا جئت وسام للبحث عنك."

نظر ويل باتجاهه، لكنه سرعان ما تراجع، وأطلق صرخة فزع عندما سمع الحارس يقول:

"ينبغي أن يذهب إلى المستشفى."

"لا.. لا تخف يا بني"، بادر توم إلى طمأنته فوراً. "فأنا سأبقى معك. كل ما عليك القيام به الآن هو التمسك جيداً بهذه الصرة، ريثما أفكّ لك قيودك. هذا الرجل هو ناظر مدرستك القديمة، لكنه لم يكن على علم بوجودك هنا. وهو يريد مساعدتك. ولا أريدك أن تخاف من نور المصباح، فنحن في حاجة إليه لنتمكن من رؤية الحبال بوضوح."

وهكذا، عكف توم على حلّ وثاق ويل، باذلاً جهداً جباراً كي ينجز العملية برفق. وحين لاحظ الحارس أن الصبي بدا أكثر هدوءاً مع وجود العجوز إلى جانبه، تركه يهتمّ بالأمر وحده، واكتفى بالمراقبة. كانت تلك العملية صعبة للغاية، لأن ويل ظلّ متشبّثاً بالصرة تشبّث المستميت. وكان توم يشرح له بالتفصيل كل حركة يقوم بها، ليتيقنه من أن أوصال الفتى ستكون متيسرة، وأن أي حركة ستسبب له وجعاً أليماً. وعندما انتهى أخيراً من فكّ جميع القيود، أمسك الصبي بقوة لئلا يقع، ثم احتواه بين ذراعيه بحنان، وانبرى يهدئ من روعه. ولم تمض هنيهة إلا وتصاعد من الخارج صوت سيارة إسعاف، وصوت أبواب تقفح وتغلق، ثم ظهر الشرطي من جديد، وناول توم ملاءة سارع إلى لفها حول ويل والصرة معاً، وحمله إلى سيارة الإسعاف. وعندما رأى أن أحد رجال الإسعاف كان ينهر سام محاولاً إقصاءه بعيداً، قال له بصرامة:

"الكلب لي. وأنا ذاهب مع الصبي."

ثم صعد إلى السيارة، وتبعه الحارس الذي جلس على نقالة شاغرة في المؤخرة. وخلال ثوان معدودات أغلقت الأبواب عليهم، وشقت سيارة الإسعاف طريقها إلى المستشفى على مهل.

"بوذي أن أضع يدي على تلك المرأة"، زمجر الحارس بنبرة شرسة. "ظاهرها كبرياء، ووجه ملائكي، وباطنها هذا"، أردف مشيراً إلى ويل الذي كان ممدداً على النقالة وقد غطاه توم بمعطفه. "لا بد أنها مجنونة إلى أقصى درجات الجنون!"

عندئذ، رنا إليه توم مطوّلاً، ثم قال:

"أظن أنك ستحاول البحث عنها، أليس كذلك؟"

"أوه.. فليحاول أحد منعي!"

كان الحارس يشعر بأنه مطعون في صميم كبريائه. وبدا له من المخرج بمكان أن يعتبره ذلك الشرطي مقصراً في أداء واجبه. "إنني ممتن لك"، قال توم بعد فترة صمت.

"على ماذا يا صديقي؟"

"لأنك صدقتني، وتركتني اقتحم البيت."

"على الرحب والسعة يا رجل"، أجاب الحارس وهو يحدق في وجهه ويل. فلاحظ أن هناك ومضة باهتة من اللون بدأت تزحف إلى خديّه الممتنعين، وأنه يحاول تحريك أصابعه. ثم تمعّن في الصرّة، والتفت إلى توم، ونظر إليه نظرة ذات مغزى. فأوماً الأخير برأسه، وقال للحارس:

"أترانا نستطيع العثور على ملاء إضافية من أجل الرضيع؟"
وللحال فهم الحارس مقصده.

"أنا على يقين من أننا نستطيع هذا يا سيد أوكلي"، أجاب بنبرة جازمة، وسارع إلى فرد واحدة من الملاءات المكوّمة في السيارة. "ويليام، همس توم،" ويل يا بني.

فتح الفتى عينيه ونظر إليه، ثم همس بصوت واهٍ: "نعم؟"

"أيمكنني أن ألقي نظرة على الصرّة؟"
أوماً ويل بعينه وأرخی أصابعه قليلاً. فأزاح توم أطراف الصرّة الباردة على الجانبين. واكتشف أن المولود الصغير المكوّم فيها كان ميتاً منذ فترة من الوقت، وقد بقّع الموت جسمه الهشّ الهزيل بلطخ رمادية اللون. رنا توم إلى الحارس من غير أن يقول شيئاً. لم يكن في حاجة إلى قول أي كلمة. فقد أفصحت نظرتّه عما كان خافياً. "حسناً، ها قد أصبحت الملاءة دافئة من أجل هذا الصبي الصغير،" قال الحارس بصوت عالٍ.

"إنها بنت،" نعب ويل.

"أوه! بنت إذن. وما اسمها يا ترى؟"

"أنا أدعوها ترودي."

"ترودي؟ يا له من اسم جميل،" علّق الحارس بمودة، ثم مال على الفتى. "تحسّس الملمس الناعم لهذه الملاءة الدافئة يا ويلي."

"أ.. نا لسـ .. لسـ .. ت.. زعق ويل، "أنا لست..."

"لست ماذا؟" سأله الحارس.

"أنا لست ويلي."

ظهرت علامات القلق على وجه الحارس، وغغم بصوت منخفض:

"إنها الصدمة، لا بد أنه قد فقد عقله."
"كلا،" قال توم. "إننا لا نناديه ويلي أبداً."
"أوه.. " وهوة الحارس من غير أن يبدو عليه الاستيعاب.
"نحن نناديه ويل،" همس توم.

"أجل،" نشج ويل.
"حسناً يا ويل،" بدأ الحارس ثانية، "ما قولك في أن نعطي الأنسة
ترودي ملاءة خاصة بها مثلك تماماً؟"
أوما ويل، وحرر الصرة من ذراعه وهو يئن ألماً.
"آآآ...خ.. هذا موجه."

"خذ وقتك يا بني،" قال توم بنبرة مشددة، فابتسم ويل حين طرق
مسامعه ذلك القول المألوف. "واستمر في التنفس بعمق. وسيدفئ لك
سام هاتين الذراعين. ألن تفعل هذا يا صغيري؟"
انتصب سام على قوائمه مليباً، بعد أن ظل طيلة الوقت متقوقعاً عند
قدمي الفتى. وانتظر إشارة توم الذي انهمك في مساعدة ويل على
تحريك ذراعه المتشنجة بروية ورفق. ثم حمل الرضیعة وغطاها
بالملاءة وناولها للحارس. وما إن حل سام محل الصرة، حتى أن الفتى
وتلوى ألماً. كان موجعاً.. موجعاً جداً. وكان عارياً إلا من القميص
والسروال الداخليين اللذين أهدتهما له الأنسة ماي ثورن في عيد
ميلاده، وقد استحال لونهما إلى مزيج مقزز من الرمادي والأصفر.
ولاحظ توم على الفور أن قدميه العاريتين كانتا زرقاوين من شدة
البرد، وأظافرهما القذرة معقوفة إلى الداخل كأنها المخالب. فمد يده
إليهما، وشرع يضغط بلطف عليهما ليعث فيهما شيئاً من الحياة.
ولكن، وعندما استكان الفتى محتوياً بذراعيه المتبستين جسم سام الحي، تدفق
إلى صدره إحساس بدفء لذيذ أيقظ حواسه، وجعله يدرك فجأة أن هناك علّة
ما في الصغيرة، لأن الصرة التي تخلّى عنها لتوه كانت باردة جداً. فحملق
عينيّه، ونظر بذعر إلى الحارس الذي كان يحملها.

"لا تخف يا بني،" قال الحارس. "إنها بأمان معي."
"إنهما تؤلمانني كثيراً،" قال بصوت هامس. "ذراعيّ، إنهما
توجعانني."

"لا بأس يا بني، فهما سستلان تؤلمانك لفترة من الوقت،" قال توم. "لقد بقيتا على نفس الوضعية لمدة طويلة، لذلك فهما لم تعتادا على الحركة بعد."

أخيراً، وصلت سيارة الإسعاف إلى المستشفى. توقفت وفُتحت أبوابها. وبسرعة حمل توم ويل، وتبعه سام والحارس. وشقوا طريقهم عبر بابين ضخمين إلى رواق المستشفى الواسع. وهناك طالعتهم امرأة بنظارتها من وراء نافذة زجاجية صغيرة. وجلس الرجلان على كرسيين من الكراسي الموجودة في الرواق، لكن المرأة حدت بهم بنظرة سريعة، ثم قالت:

"عفواً يا سادة، إن دخول الكلاب إلى المستشفى ممنوع."

"ألا يوجد مكان هنا يمكنني تركه فيه؟" استوضحها توم.

"أخشى أنه لا يوجد. ويجب أن يخرج الكلب فوراً."

إذ ذاك، وقف الحارس ودنا منها، ثم تبادل معها بعض الكلمات.

"آها، فهمت،" قالت المرأة للحارس وهي تنظر إلى توم وويل. "اسمع يا سيد، يوجد عند طرف المستشفى بعض القضبان الحديدية التي يمكن ربط الكلب إليها. وأنا متأكدة من أن أحداً لن يزعه هناك."

"ماذا؟! أتريدني مني أن أربطه؟" زمجر توم.

"أخشى أن هذا هو أفضل ما يستطيعون عرضه عليك يا سيد أوكلي،" قال الحارس بينما كانت إحدى العاملات المسؤولات عن التنظيف تمرّ أمامهم. فوقفت فجأة، ورنّت إلى ويل.

"ابتهج يا صغيري،" قالت للفتى وهي تبتسم له ابتسامة عريضة. "إنها ليست نهاية العالم. وتأكد أنك ستكون بخير هنا، فهم سيعتنون بك جيداً."

نظر إليها ويل وتوم بذهول في حين تابعت المشي بخطى مرحة، واختفت عند نهاية الرواق وهي تغني: "تمنّ لي التوفيق وأنت تودعني!"

ولم تمض برهة حتى اندفع نحوهم من أحد الأبواب التي على جانبي الرواق شاب يرتدي معطفاً أبيض، تتبعه ممرضة فتية لا تتجاوز التاسعة عشرة من العمر، جميلة الوجه، سوداء الشعر. وما كاد الطبيب الشاب يلقي نظرة على الصرّة حتى قال بإيجاز:

"ميتة."

"ميتة؟" نشج ويل.

"إنه.. يعني ميتة برداً، أليس هذا ما قصدته يا سيد؟" قال الحارس وهو يغمز الطبيب بعينه ويومئ نحو الصبي.

"أوه.. أجل"، أجاب الشاب الذي كان قد بلغ به الإرهاق حدّاً لم يجعله يميز العلاقة التي بين الصبي والرضيعة. ثم قرفص أمام ويل، ونحّس عنه المعطف والملاءات. فمالت إليه الممرضة وجثت قربه. وما لبث أن تفحص ويل بسرعة، وتمتم ببعض الكلمات، قائلاً شيئاً عن التمزق والقمل، ثم نظر إلى توم.

"أ أنت من أقربائه؟"

هزّ توم رأسه نافياً. فأسرع الحارس للتحدث باسمه، إذ كان يعرف صرامة الأنظمة المتعلقة بعدم السماح للزوار من غير الأقارب بالبقاء مع المرضى.

"أترى يا حضرة الطبيب، لقد أقام الصبي معه في الريف لمدة ستة أشهر. ثم غادره لزيارة أمه التي ادّعت المرض. والصبي بلا أب كما ترى. وعندما لم يسمع عنه هذا السيد شيئاً منذ رحيله، قلق عليه، فقطع أميلاً طويلة للبحث عنه. أما أم الصبي فيبدو أنها قد هجرته منذ مدة." "يبدو أنه عثر عليك في اللحظة المناسبة"، قالت الممرضة للفتى وهي تبتسم له بدمائة. أما الطبيب الذي بادر إلى الوقوف فقال:

"ينبغي أخذه إلى جناح الأطفال لتنظيفه. أما بالنسبة إلى الجروح فقد تأخر الوقت لخياطتها. وفي حالته يُستحسن أن يحقن بحقنة ضد الكزاز." "أتعني إبرة؟" سأله توم بانزعاج.

"نعم، ولا داعي للقلق. إنها لأخذ الحيطه في حالة وجود التهاب." "ولكن بإمكان الهواء النقي التنظيف أن يعالج هذا"، قال توم. "أيتها الممرضة"، قال الطبيب متجاهلاً تعليق توم، "خذه إلى جناح الأطفال."

حينئذ، وقف توم فوراً وهو ما يزال يحمل ويل بين ذراعيه. "لا يُسمح للكلاب بدخول المستشفى يا سيد"، قالت الممرضة وعيناها على سام الذي وقف متحفزاً إلى جانب توم.

"لا بأس،" نقَّ الحارس. "سوف أهتم به."

"إنني قادم معك،" قال توم للممرضة بنبرة حازمة.

"أخشى أن هذا ممنوع يا سيد،" أجابت المرأة بصرامة.

"ولكنني لن أترك الصبي مع حشد من الغرباء."

فتنهَّدت المرأة بياس، وقالت:

"حسناً، يمكنك المجيء إلى حدود باب الجناح فقط، ولكن ليس أبعد من

ذلك. واعلم أنني سأقف لك بالمرصاد، كن على يقين من هذا."

لم يجب توم بكلمة. ولكنه راح يعاينها بنظرات متفحّصة مستهجنة

بينما مضى خلفها.

يا للسخرية.. قال محدثاً نفسه .. تباً لهذه الظروف اللعينة التي ترغمني

على الوقوف عاجزاً أمام صبية حاذقة طليقة اللسان، تملّي عليّ ما

ينبغي وما لا ينبغي القيام به، من غير أن أتمكن من الردّ عليها.

وعندما بلغا باب الجناح، ناولها ويل مكرهاً، وهو يقرأ بتوجّس

علامات الذعر التي ظهرت على وجه الفتى.

"لا تخف يا سيد، سأعتني به جيداً،" قالت الممرضة بنبرة لطيفة.

"وسأسأل المسؤولين عما إذا كان بإمكانك رؤيته في الصباح."

"أنا باق هنا يا ويل،" هتف توم. "سأكون في ذلك الرواق الواسع الذي

كنا نجلس فيه قبل قليل. وثق أنني لن أبعد عنك أبداً يا بني،" أردف،

ووقف يراقب الممرضة أثناء اختفائها والفتى بين ذراعيها، ثم عاد إلى

الرواق، فبادره الحارس قائلاً:

"لقد أعطيت موظفة الاستقبال كافة التفاصيل، وعلي الآن أن أقدم

تقريراً للشرطة."

"وأين الرضيفة؟" سألته توم.

"أخذتها إحدى الممرضات إلى المشرحة،" أجاب الحارس وهو يمعن

النظر في توم الذي بدا عليه الذهول والإعياء. "أرى يا صديقي أنك

أحوج ما تكون الساعة إلى فنجان من الشاي الساخن،" أردف بمودة.

"وهناك واحد من معارفي لديه كشك حراسة في مكان قريب من هنا،

وراء المستشفى. فما رأيك؟"

هزّ توم رأسه معارضاً.

"لقد وعدت الصبي بالبقاء هنا."

"اسمعي يا عزيزتي"، صاح الحارس مخاطباً موظفة الاستقبال ذات النظارة، والتي طرقت عيناها عدة مرات دهشة من أسلوب الحارس المتبسط معها. "إننا ذاهبان إلى كشك آلف. وإذا حدثت أي تطورات مع الفتى أعلمهم بمكان السيد أولكلي"، ثم التفت وابتسم لتوم. "هيا الآن، تعال يا صديقي، سيكون كل شيء على ما يرام. وما عليك سوى البقاء لفترة قصيرة."

اجتاز الرجلان باحة المستشفى، وعبرا بوابتها الضخمة باتجاه كشك حراسة صغير كان على مقربة من بعض القضبان الحديدية عند المنعطف. كانت جدران كشك الحراسة مشيدة من أكياس الرمل، وسقفه من الصفيح المتعرج، وعليه لوحة كتب فيها: "مركز الحارس". وحين ولج الرجلان الكشك طالعهما رجل متوسط السن، أجلح الرأس، ذو شارب أسود كثٍ يخالطه الشيب.

"أهلاً يا سيد!" هتف الرجل عندما رأى حارس منطقة دييتفورد. "ما الذي أتى بك إلينا؟ أنا واثق أن لا علاقة لقدمك بأي إصابة ناجمة عن القصف"، تابع وهو يرسل بضع ضحكات مكتومة. "إن هتار لا يكف عن التهديد بتدميرنا، أليس هذا ما يفعله يا سيد؟ ولكنه رغم ذلك لا يجروء على الاقتراب منا. طبعاً ليس وأبناؤنا هناك يدافعون عنا"، ثم شمخ برأسه، وأشار بإصبع متفاخرة إلى سقف الكشك الصغير. تذكر توم القرية، وديفيد هارتردرج.

ترى أكان يوم أمس هو اليوم الذي وصلت فيه تلك البرقية؟

بدا له كما لو أنه مضى على تلك الحكاية شهر بحاله..

نعم.. لقد أعلن أصحاب الشأن أن ديفيد يُعتبر في عداد المفقودين، ومن المحتمل أنه ميت.. مسكينة أني.

"تفضلاً بالجلوس، ودفئاً نفسيكما قليلاً"، قال آلف للحارس وتوم. "وساعد الشاي حالاً."

كان في الكشك كانون صغير مصنوع من دلو منقلب مملوء بالفحم المتأجج، إضافة إلى بعض علب الصفيح الأسطوانية الشكل. فبادر توم إلى الجلوس على إحداها، وترك أمامه فسحة لسام الذي سارع إلى حشر نفسه بين ساقيه.

"إنك لست من هذه المنطقة على ما أظن؟" قال آلف لتوم.

"كلا،" أجاب توم. "لست من هنا."

عندئذ، رُويت حكاية اكتشاف ويل للرجل. وفي النهاية التفت الحارس سيذ إلى توم وسأله:

"وما الذي تنوي عمله الآن؟"

"سأعيده معي،" قال توم بتصميم. "سيصحبني إلى ويروولد الصغيرة."

"لا أظن أنك تستطيع القيام بهذا. أعتقد أنهم سيحاولون العثور على أمه أولاً. ولاشك أنهم سيزجون بها في السجن."

"وماذا عن ويل؟" استوضحه توم.

"مأوى. سيعثرون له على مأوى للأطفال على ما أظن،" أجاب الحارس بنبرة جازمة وهو يتبادل وآلف النظرات، فقد كانا على دراية بالمجريات القانونية التي تقتضيها هذه الأمور.

عبّ توم كوب الشاي، وعاد إلى المستشفى. ثم ربط سام إلى أحد القضبان الحديدية الجانبية على مقربة من بعض السلالم الحجرية الصغيرة.

"لا تخف يا صغيري، سأعود عما قريب لأطمئن عليك،" قال لسام قبل أن يفارقه. "إن هذا ليس إلا إجراء مؤقتاً كما تعلم."

عندما عاد توم إلى رواق المستشفى كان الوقت على وشك بلوغ الفجر. ولم يرتح طويلاً في مجلسه، إذ أعلنت في المستشفى حالة طوارئ إثر وصول خمسة عشر مصاباً من الرجال والنساء والأطفال خرّ عليهم سقف أحد الملاجئ الشعبية. فهبّ إلى تقديم يد العون لرجال الإسعاف والمرضات. وانهمك في نقل وتفرغ الأسيرة النقالة. وظلّ حتى مساء ذلك اليوم من غير أن يسمع أي خبر عن ويل. ولم يحصل على أجوبة شافية من أحد رغم أسئلته المتواصلة عن السببي. إلا أن هذا لم يثته عن متابعة جلوسه العنيد المتصبر في الرواق.

أخيراً، رأى ممرضة شقراء تدنو منه، وتقول له:

"أ أنت السيد توم؟"

"نعم،" أجاب توم وهو ينهض من مكانه بسرعة. "كيف حاله؟"

أيمكنني رؤيته؟"

"أنت لست من أقربائه يا سيد، أليس كذلك؟"
"كلا، ولكني مقرب من الصبي كثيراً، لأنه عاش معي لفترة من الوقت. ولا أب لديه. كما أن أمه قد هجرته."
"لقد عاينه طبيب نفسي يعمل في مأوى خاص للأطفال يا سيد توم. وهو يرى أن لا بأس في أن ترى الصبي."

"طبيب نفسي؟ ماذا تعنين بهذا؟"
"أوه، إنه رجل مختصّ بمعالجة العقول المريضة."
"آه.. فهمت. لقد قرأت عن أمثاله في مكان ما، زمجر توم وهو يحدج المرأة باستياء. "ولكن الصبي لا يشكو من أي علة في عقله."
"إنه واقع تحت تأثير صدمة نفسية جسيمة يا سيد،" قالت الممرضة.
"ولقد اضطررنا في الواقع إلى تخديره، لأنه لا يكف عن الصراخ والعيول بدون أي سبب ظاهر."

"ماذا؟! تخديره؟"

"أي تنويمه."

"لماذا؟"

"ليكف عن الصراخ."

"وما أدراك أنه ليس في حاجة إلى هذا الصراخ؟"
"قد يكون ما تقوله صحيحاً يا سيد توم. ولكن علينا أن نأخذ حالة بقية الأطفال الموجودين في الجناح بعين الاعتبار."
أوماً توم برأسه من غير أن يعلق..

لا شيء.. لا شيء أفضل من الإسراع في إخراج ويل من هذا المكان إلى الحقول الواسعة المترامية الأطراف..

"ومتى أستطيع رؤيته؟"

"الآن يا سيد توم، اتبعني."

اجتازا متاهة الدهاليز والأبواب التي كان توم قد بدأ يميز طريقه خلالها، بعد مساهمته في المساعدة بتلك الحالة الطارئة. وعندما مرت بهما ممرضتان من الممرضات المناوبات، سارعتا إلى تحية توم بهزة من رأسيهما ظناً منهما بأنه أحد المتطوعين. ثم دفعت الممرضة الشقراء باباً هزاً يؤدي إلى جناح الأطفال. فتبعها توم إلى الداخل

بخطى واسعة، وانبرى يحدق في ما حوله قبل أن يراها تشير إلى سرير على الشمال. كان أول سرير من ناحية الباب.

حسناً، إنه سرير سهل المنال، ويمكن الوصول إليه بسرعة إذا استدعى الأمر.. حدثت توم نفسه من غير أن يعرف سبب تدفق هذه الخواطر في ذهنه.. لم تكن لديه أدنى فكرة على الإطلاق.

كان ويل يقبع في السرير متكئاً على مجموعة من الوسائد وهو يرتدي قميصاً فضفاضاً من قمصان المستشفى، وتلوح على وجهه معالم الجفول والانكماش. كان رأسه الذي جَزَّ جميع الشعر منه يكشف عن جروح وكدمات وقروح مختلفة الأشكال والأحجام. وبدا من الواضح أنه قد نظف جيداً، كما أن رائحة مضادات الالتهاب النفاذة كانت تنبعث منه بقوة.

"لم أتعرف عليك بقصة الشعر العسكرية هذه"، قال توم ممزحاً الصبي الذي ابتسم بوهن كاشفاً عن أسنان ذات صفرة مائلة إلى اللون البني. "وكيف تشعر الآن يا فتى؟"

"أنا متيبس"، همس ويل بصعوبة بالغة.

كانت شفتاه ممتعتين ومتشقتين، وبدا من الجلي أن الكلام يتطلب منه بذل مجهود هائل.

"تتأبني الكوابيس يا سيد توم"، همس من جديد. "وعندما أفيق يغرزون إبرة في جسمي، وعندها لا أستطيع الحراك أو الكلام"، تراجع إلى الوراء بإعياء، واستند على الوسادة. "إلى متى سأبقى هنا يا سيد توم؟" نعب بصوت واهٍ.

"ليس طويلاً. فأنت تبدو أفضل حالاً يا بني"، أجاب توم وهو يتحسس أصابع الفتى الهزيلة. وعندما وجدها باردة راح ينفخ عليها، ويفركها براحتيه. ثم تناول خرجه من على الأرض ووضعه على السرير. "أحمل معي قفازاً جديداً لهاتين اليدين. ولكن سيكون عليك أن تسمن قليلاً وإلا سينزلق منهما".

"أين سام؟"

"في الخارج. إنها الأنظمة كما تعلم. ليس من المسموح للكلاب بالدخول إلى المستشفى، لئلا تجلب الجراثيم على ما أظن"، أجاب

وعيناه تلقيان نظرة شاملة على الجناح. "ولكني أعتقد أن هذه المستشفى فيها من الجرائم أكثر مما يوجد في أي مكان آخر،" أردف وهو يطلق ضحكة جافة، وينظر بحنان إلى الفتى.

"لقد جاء ذلك الرجل لرؤيتي يا سيد توم،" همس ويل الذي كان قد تحامل على نفسه، حتى استند على مرفقه، ثم مال نحوه بطريقة غريبة.

"آه، أجل، أنت تعني الطبيب النفسي. أليس كذلك؟"
"لا أعرف. قال إنه قادم من مأوى للأطفال، وأنه سيأخذني إليه لأتحسن تحت إشرافه،" قال بصوت أقرب إلى النشيج، ثم مد يده الهزيلة وأمسك ذراع توم. "ألا أستطيع المجيء للعيش معك يا سيد توم؟"

"طبعاً يا فتى تستطيع هذا. أنا لا أعرف الشق القانوني الخاص بهذه المسألة، ولكننا سنعثر على حل مناسب."
"يا سيد توم،" قاطعته الممرضة الشقراء من الخلف، "أخشى أنه عليك المغادرة الآن."

لكن ويل ما كاد يسمعها حتى تشبث بقوة بكُم توم.
"لا، لا تذهب الآن أرجوك!" قال متوسلاً. "ابق معي لمزيد من الوقت."
دنا توم منه، وجلس على السرير.
"أنا آسفة يا سيد توم،" عادت الممرضة تلح بعصبية. "ولكن يجب أن تذهب الآن."

"إن الصبي يرغب في بقائي معه فترة أطول،" أجاب توم بنبرة هادئة.
"أنا آسفة، ولكن هذا ضد الأنظمة."

"أنظمة من؟" زمجر توم وهو يستدير ليوواجهها.
"هيا الآن يا سيد توم. دعنا لا نخلق المتاعب."
"ما الذي يجري هنا أيتها الممرضة؟" زعق صوت جلف من أقصى الجناح.

"لا شيء أيتها الأخت،" أجابت الممرضة وهي ترتجف. لكن صاحبة الصوت سارعت إلى التقدّم نحوهم بخطى ذات وقع عالٍ. ورأى توم أنها كانت راهبة متوسطة العمر.

"حان وقت مغادرتك الجناح"، قالت الراهبة لتوم بنبرة خالية من أي تعبير أو عاطفة. فوقف توم وانحنى على سرير ويل.
"أخشى أنني مضطر إلى تركك الآن يا ويل"، قال للفتى. "ولكني سأبقى في الرواق، وسأراك غداً بكل تأكيد."

حينئذ، تشبث ويل بذراع توم بيديه الاثنتين، وجاهد جهاداً عسيراً في استعطافه، متلفظاً بكلمات الاستجداء بصعوبة بالغة.

"أرجوك.. أرجوك يا سيد توم.. أرجوك لا تذهب.. لا تذهب!"
"من فضلك، غادر فوراً يا سيد"، قالت الراهبة بحدة. "إنك تسبب التوتر للصبي."

"أعتقد أن أنظمتكم هي التي تسبب له التوتر يا سيدتي"، ردّ توم بفظاظة ثم التفت إلى ويل. "سأبكر غداً في زيارتك بقدر ما أستطيع،" أضاف مهدئاً من روع الفتى. لكن الراهبة دنت منهما، وخلصت ذراع توم من يدي ويل بقسوة.

"هيا، اذهب الآن يا سيد، وعلى الفور."
رضخ توم للأمر الواقع وهمّ بالمغادرة مكرهاً، فدفع ويل نفسه محاولاً النهوض من السرير.

"الزم مكانك. ها.. ها.. هاهو الصبي العاقل"، غرّبت الممرضة الشقراء، في حين راح ويل ينتفض، وينشج، ويصدر أصواتاً أشبه بالزجرجة.

"اذهب!" صاحت الراهبة. "يا ممرضة أحضري المخدر حالاً!"
غادر توم الجناح مبتسماً، وتجاوز الباب الهزاز وعويل ويل يخرق أذنيه، من غير أن يستطيع القيام بشيء. ثم وقف وراء الباب، ونظر من نافذته. فشهد ممرضتين تحاولان منع رأس ويل من الحركة ليبقى مستنداً على الوسادة، وأبصر ثلاثة تنضم إليهما، وتحقق الصبي بإبرة في مؤخرته. وبعد ثوان رأى الممرضتين تفلتان ويل الذي كان قد غاب عما حوله. وبينما هو مستغرق في المراقبة، فاجأه صوت هادئ يقول له من وراء ظهره:

"أ أنت السيد توم؟"

استدار توم مجفلاً، ورأى رجلاً ثلاثينياً يرتدي بذلة رمادية اللون.

مه.. لابد أنه خفيف الخطى.. قال لنفسه وقد استنكر عدم سماعه لوقع خطوات الرجل أثناء قدومه. كان الرجل ذا بشرة بيضاء ملساء كبشرة راهبة في دير. وكان ما تبقى من شعر في رأسه الأصلع خفيفاً وهشاً. مَدَّ يده ليصافح توم، وعلى وجهه تطوف ابتسامة متملّقة، ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس:

"أنا السيد ستيلتون. وأظن أن ويليام حدثك عني."

أوماً توم، بينما انبرى الرجل يتفحصه بنظرة حيادية، ثم أشاح بعينه بعيداً، ووقف يحدق في الجدار المواجه له صامتاً. لكن صمته طال، حتى بدا لتوم أنه لم تكن لديه أدنى نية في خرقه. فتملّكه الانزعاج من هذا، إذ كان يتحرّق شوقاً للاستفسار عن حالة ويل.

"نعم، أخبرني أنك تريد إرساله إلى مأوى للأطفال"، قال توم متمكلاً نفسه.

"ها، لقد أخبرك إذن"، ردّ السيد ستيلتون بصوت هادئ، ثم افتر ثغره عن ابتسامة أخرى متملّقة قبل أن يعود إلى التحديق بالجدار نفسه.

"أيبدو لك هذا الجدار مثيراً للاهتمام؟" سأله توم بنبرة ساخطة.

"هه، أترى نفسك مثل الجدار إذن؟" أجاب الرجل من غير أن تحيد عيناه عن البقعة ذاتها التي كان يحدق فيها.

"كفّ عن إضاعة الوقت، وأخبرني عن حال الصبي."

"طبعاً، طبعاً"، قال الرجل وهو يلتفت بسرعة ليوواجه توم.

وهكذا، مشياً قدماً، حتى عثرا على كرسيين في إحدى زوايا الممر فجلسا. ولم يستطع توم منع نفسه من مراقبة الطريقة الهادئة التي مشى بها السيد ستيلتون. إذ كانت أشبه ببختره ونيدة، تميل فيها أصابع قدميه إلى الداخل قليلاً. ثم جلس إلى جانب توم متلاصق الركبتين، وراح يرتّب برفق على فخذه صعوداً وهبوطاً وهو يتكلم.

"أترى يا سيد توم، بدأ الرجل، "أنا من الذين يؤمنون بنوع من العلاج أكثر تطوراً، ولست من الذين يستعملون الأدوية في مثل هذه الحالات."

"أنا أدعى السيد أوكلي"، صحّح له توم على الفور. "فالسيد توم هو اللقب الذي يناديني به الصبي."

"آها"، قال الرجل وهو يومئ برأسه مبدئاً استيعابه. "إذن، أنت لا ترغب في أن أناذك بالاسم الذي يناديك به الصبي."

"بالنسبة إلى تلك الأدوية"، عاجله توم بالكلام ليمنعه من العودة إلى التحديق في الفراغ من جديد. "أنا لا أؤمن بها أيضاً."

"طبعاً، طبعاً"، أجاب الرجل بصوت هامس، مردفاً جوابه بابتسامة أخرى مدهنة. فراح توم يتساعل في سره عن السبب الذي يجعل ذلك السيد المدعو ستيلتون يتكلم بتلك النبرة الخافتة.

اتراه يخشى من إزعاج أحد إن هو رفع صوته قليلاً؟!

"إنني يا سيد أوكلي أتعامل مع الأطفال المختلين عقلياً"، أردف الرجل. "وأنا أعمل في ملجأ لرعاية الأطفال حيث تتوافر لهم العناية الجيدة، ويحظون بكثير من الاهتمام. ونحن نرى.."

"نحن؟" قاطعه توم.

"أي أنا والمدير المسؤول عن المدرسة."

"ظننتك قلت أنه مأوى وليس مدرسة."

"أوه، إنه مدرسة أيضاً. ونحن نرى"، تابع الرجل، "أنه سيستفيد من العلاج هناك."

"عن أي نوع من العلاج تتحدث؟"

"علاج نفسي.. تحليل. حيث يمكننا تشجيعه على الفضفضة، والتحدث عن محيطه وبيئته، لنعرف سبب بلوغه هذه الحالة."

"لقد كنت أظن أن حالته واضحة جداً. الولد بكل بساطة لم يحصل على الكثير من الحب الحقيقي!" قال توم.

"هاه!" همهم السيد ستيلتون بصوت منخفض.

لا.. لن نمر الآن بفترة صمت أخرى.. قال توم لنفسه.

توم الذي لم ترق له على الإطلاق فكرة إنفتاح ويل على رجل كان بالكاد يتكلم، وبالكاد يمشي، ولا يفعل شيئاً سوى التحديق في الفراغ كلما حاول مخلوق آخر النظر في عينيه مباشرة. بالنسبة إليه.. كان هذا سبباً كافياً لأن يصيب أكثر الناس عقلاً واثراً بالجنون.

"أنا أريد أن يعود الصبي معي"، قال توم بنبرة حازمة.

"هاه"، همهم السيد ستيلتون مرة أخرى، ثم تنهّد، وبدا عليه وكأنه يقوم بتدوين بعض الملاحظات الذهنية.

"ويمكنك أن تقول هاه إلى ما شاء الله. هذا ما أريده، وهذا ما يريده الصبي".
ثلث هذا التعليق من توم فترة صمت أخرى، راح السيد ستيلتون خلالها يربت على فخذه صعوداً وهبوطاً. ثم قال بصوت رخيم:
"ولكنك لست من أقاربه يا سيد أوكلي".

"كلا، لست كذلك. ولكن..". بدأ توم، ثم توقف عن الكلام فجأة.
"نعم؟ ولكن ماذا؟" سأله السيد ستيلتون وقد ظهر عليه شيء من الاهتمام للمرة الأولى.

"أنا مولع بالصبي".
"مم.. أنت مولع بالصبي"، قال الرجل، والتفت ليحرق بعيداً متحاشياً عيني توم الخضراوين النفاذتين. "يمكنك في جميع الأحوال أن تأتي إلى الملجأ لزيارتي وزيارة ويليام"، أردف وهو يحط بعينه على الجدار من جديد. "وأنا واثق من أنك..". توقف قليلاً قبل أن يتابع، "أعني إذا كنت تعني ما تقوله عن ولعك بالفتى، فأنت بدون ريب تريد له الأفضل. والفريق العامل في المأوى، أصغر منك سناً ومدرّب تدريباً جيداً. ولقد قررنا نقله بعد يوم غد؛ أي يوم الاثنين. وإذا كنت ترغب في مرافقتنا فأنت على الرحب والسعة. فنحن لسنا مثل المستشفى، لأننا نشجع الزوار طالما أنهم لا يزعجون المرضى". ثم نهض من مكانه، وابتسم لتوم ابتسامة فارغة، وصافحه قبل أن يتبخر بخطاه الوثيدة على طول الممر.

وعندما همّ توم بالعودة إلى الرواق كاسف البال، استوقفته إحدى الممرضات بسرعة، طالبة منه المساعدة في نقل رجل مُسن، ضخم الجثة، مبتور الساق، إلى سرير نقال ذي عجلات.

"أنتم جماعة الصليب الأحمر رائعون بالفعل"، قالت له الممرضة في ما بعد، وقد تذكّرت أنها رآته أثناء تقديمه يد العون في إسعاف إصابات الملجأ. "وهل ستناوب في الليل أيضاً؟"
أوما توم برأسه..

نعم لِمَ لا؟ فهذا على الأقل سيمنعه من التفكير المتواصل بويل.
وهكذا، أسرع إلى الرواق، وشارك في حمل بعض المصابين الجدد. ثم، وعندما عمّ الهدوء النسبي في المستشفى، خرج إلى الفناء ليستششق

الهواء النقي. ويمّم صوب القضبان الحديدية التي ربط سام إليها. ثم فكّ له رباطه، وجلساً معاً على السلام الحجرية الصغيرة.
"ما العمل الآن يا صغيري؟" غمغم وهو يداعب فراء سام. "إن الوقت ينفد منا بسرعة."

حملت عيناه في الشارع وراء القضبان. كان الليل على وشك الهبوط من جديد. حكّ نفه غير الحليقة التي انبتت منها طلائع الشعر الأشيب.

"آآآ.. يا ريتشيل"، قال بصوت عالٍ قليلاً وهو يرفع رأسه نحو السماء بيأس. "كيف كنت ستتصرفين في مثل هذا الوضع؟"
فجأة.. رآها.. رأى ريتشيل.. رآها تتبختر بثوبها الطويل، وتسَلط عليه وميض عينيها السوداوين وتقول ضاحكة.. أخطفه يا توم!
انتهض توم مجفلاً.

لا.. لا يمكن أن تكون ريتشيل قد قالت هذا فعلاً. ولكن.. إذا تبخّر في الفكرة قليلاً.. سيجد أنها ستفعل هذا بكل بساطة.

نهض على مهل وهو يغمغم:

"سأظهر أنني أريد الاطمئنان عليه، وربما إذا.."

انقطع سيل أفكاره بقدم عدة سيارات إسعاف. فسارع إلى ربط سام من جديد. وجرى بخطى خفيفة متجاوزاً الزاوية إلى مدخل المستشفى حيث الأبواب الهزازة، وبدأ يساعد على حمل المصابين إلى الداخل.
بعد مضي ثلاث ساعات، كان توم ينزل على أحد السلالم متأبطاً واحدة من ملاءات المستشفى. ولم يجد نفسه إلا وهو واقف خارج جناح الأطفال. استرقّ النظر من خلال نافذة الباب الصغيرة، ورأى في نهاية الجناح الممرضة الشقراء التي كانت تقوم بنوبتها الليلية. واكتشف أنها كانت غارقة في النوم وهي منكبة على الطاولة، وقد شعّ بالقرب منها ضوء مصباح ليلي صغير.

التفت توم بسرعة، وتقدّم الرواق ليتأكد من خلوه من الناس. ثم، وقبل أن تسنح له فرصة للتفكير، وجد نفسه يتسلل إلى داخل الجناح بهدوء. أمسك الباب الهزاز بيده ليغلقه بنفسه، وتوجّه نحو ويل الذي كان يغطّ في نوم عميق.. عميق، بعد أن شلّ المخدر قواه. أزاح عنه الأغطية

بحذر، لكن طفلة صغيرة في الطرف الآخر من الجناح استفاقت، وبدأت تسعل. ففتحت الممرضة عينها، ورفعت رأسها. وبسرعة كبيرة أعاد توم تغطية ويل، وجثم أرضاً. دنت الممرضة من الطفلة، هدأتها، وناولتها جرعة دواء، ثم لفتها بالأغطية جيداً. ولما رجعت إلى الطاولة، حاولت الانكباب على الدراسة استعداداً لدخول امتحان التشريح. ولكن الإعياء أثقل أجفانها مرة أخرى، فاستسلمت للنوم خلال دقائق معدودات.

عاد توم ونحى أغطية ويل جانباً، ثم حمله ولفه بالملاءة التي كانت معه. ووضع وسادة في السرير، وأحكم تغطيتها. لم تبد له الوسادة مقنعة كثيراً، ولكنها كانت جل ما يستطيع عمله في الوقت القصير المتوافر له. ثم ضمَّ ويل إليه بقوة ونهض من مريضه.

رباه.. إذا استيقظت الممرضة الآن سيُقضى عليه.. قال لنفسه عندما رأى بعض الأطفال يتقلبون في أسرّتهم وهم يئنون. لكن الممرضة بقيت نائمة من غير إزعاج. استرق النظر من نافذة الباب قبل أن يفتحه، ثم خرج بسرعة، ومشى بعزم على طول الرواق. وبينما هو ماضٍ النقي وجهاً لوجه بالممرضة التي طلبت مساعدته في حمل الرجل المسن. فتسمّر في أرضه، ثم تنفس الصعداء عندما رآها تبتسم له بحرارة، وتقول وهي تتجاوزُه:

"يبدو أن لا نهاية هناك لهذا العمل، أليس كذلك؟"

أوماً لها توم برأسه، وهول إلى الردهة حيث كان قد ترك خُرجه. واستغل فرصة حدوث بلبلة في المستشفى، على إثر وصول سيارتي إسعاف تحملان بعض الحالات الطارئة، فتناول خُرجه بسرعة، ومشى بخطوات واسعة نحو الباب. ألقى نظرة عاجلة على موظفة الاستقبال. وتنهّد بارتياح لما اكتشف أن أخرى حلت محلّها. رنا إلى سائقي سيارات الإسعاف، وتأكد من أنهم كانوا في شغل شاغل عنه، ثم هرع إلى باحة المستشفى المظلمة، فالمنعطف، ومنه إلى حيث ترك سام. وما كاد سام يراه حتى بدأ يقفز بحماس، وينبح بانفعال.

"لا.. لا.. همس توم ضاغطاً بإصبعه على أنف سام. "أخفض صوتك يا صغيري.. واهداً قليلاً." ثم وضع ويل على الدرجة السفلية،

وسارع إلى فتح الخُرج. وفي لحظات كان قد ألبس ويل ملابس تحتانية وجوارب. "افتح عينيك جيداً يا سام،" همس للكلب وهو يحزره من الحبل ويدسه في جيبه، ثم التفت مرة أخرى إلى ويل، وألبسه سروالاً قطنياً بُني اللون، وقميصاً رمادياً من قماش الفانيلا، وكنزة زرقاء ذات ياقة عالية، وطاقيّة خضراء ساعدت على تغطية رأس الصبي الحليق. إلا أنه لسوء الحظ لم يكن يحمل معه حذاءً أو معطفاً يناسبان الفتى. وعندما انتهى، خبأ الملاءة في إحدى الزوايا المظلمة، وقذف الخُرج على ظهره، ومشى صوب باحة المستشفى وهو يحمل ويل بين ذراعيه، يتبعه سام.

يا لها من خطوة جبارة.. قال لنفسه بينما مضى قدماً.. ولكنهم قد.. قد يكتشفون غياب ويل في أي لحظة الآن.

أقلقه هذا الهاجس فزاد من سرعة خطواته حتى تجاوز البوابة إلى الشارع. ثم بُغت بصوت ثاقب انبرى يناديه:
"أنت يا سيد!"

التفت توم بذعر، ورأى ألف.

رباه! لقد نسي كل شيء عن مركز الحارس.. تبا.

"لقد أخذت الصبي إذن؟"

أوما توم من غير أن يجيب.

"هذا من حسن حظك. أنتوي إعادته إلى الريف؟"

أوما توم من جديد، ثم لوح للرجل مودعاً، وأغذ السير بحزم على طول الشارع. تحدوه الرغبة في أن يجري.. ويجري.. أو أن ينظر إلى الوراء، من غير أن يجرؤ على تنفيذ أي من هاتين الرغبةيتين.

بعد ارتقاء الكثير من الحافلات، والترجل منها، وصل الثلاثة إلى محطة كبيرة. وأمضوا بقية الليلة في ملجأ مجاور. وفي الصباح التالي، علم توم أنه لم يكن هناك أي قطار متجه إلى بلدة ويروولد، ولكن أحدها سيبلغ ثلثي الطريق إليها، وسيحط في قرية تدعى سكايتون. فقرّر السفر فيه، واشترى التذاكر اللازمة، ووضع لسام مقوده، ثم توجه إلى رصيف المحطة، حيث طالعه قاطع التذاكر نفسه الذي اجتمع به يوم وصوله.

"هه..أ عثرت على حفيدك إذن؟" علّق الموظف بوقاحة. "أرى أنه ثقیل النوم. ولاشك أنك ستفسده بالدلال إذا داومت على حمله كما تفعل الآن. ولو كنت مكانك لأیقظته، وتركته یعتمد على نفسه.. هذا الجرو الکسول."

"إنه مریض،" قال توم.

"أوه!" هتف الموظف بذعر، "عسى ألا يكون مرضه مُعدياً."

"كلا."

أخذ توم التذاكر، وأسرع على طول الرصيف لیلحق بالقطار الذي كان سینطلق خلال دقائق. ثم صعد إليه، وبحث عن مقصورة شاغرة، وجلس قرب النافذة.

حسناً.. لم یعد هناك وقت طویل.. قال لنفسه.. وسرعان ما سنغادر لندن.. و..

فجأة، قطع علیه حبل أفكاره صوت نقر على النافذة. فالتفت بسرعة، وأبصر شرطياً كان واقفاً یتفحصه من خلال الزجاج. ثم رآه یشیر إلى ویل، فسارع إلى تغطية قدمي الفتی الخاليتين من الحذاء، بطرف معطفه.

"هل بقي صاحياً طوال الليل بسبب القصف الجوي؟"

أوما توم برأسه.

"أتمنى لكما رحلة موفقة يا سيد."

"أشكرك،" غمغم توم بأنفاس محبوسة.

أخيراً، تحرك القطار بعيداً عن المحطة. وانضمت إلى المقصورة التي شغلها توم امرأة مسنة، واصلت حياكة الكروشيه طيلة الوقت، وثرثرت بين فينة وأخرى معلقة على الطقس، وتقنين المؤن، وافتقادها للزبدة. ثم غادرت عند منتصف الطريق إلى قرية سكايتون، فبقيت المقصورة خالية إلا من توم وویل وسام لبقية الرحلة.

كانت سكايتون قرية كبيرة، لكنها ليست أكبر بكثير من ویروولد الصغيرة. وما كاد توم یحط رحاله فيها حتى توجه إلى طريقها العام أملاً بالعثور على سيارة يمكن أن تقلهم في طريقها. ونجح في الحصول على ثلاث مساعدات. الأولى في شاحنة للجيش، والثانية في سيارة موریس قديمة لطبيب بیطري، والأخيرة في عربة مقطورة.

وقطع توم الأميال الخمسة المتبقية سيراً على الأقدام وهو يحمل ويل بين ذراعيه.

كان اليوم بارداً وجافاً، ولكن السماء كانت مشرقة وصافية. وعندما وقعت عينا توم على النهر، غمرته سعادة عجيبة.

يا الله.. كم هو طاهر ومختلف عن أجواء لندن، بمائه الرقراق هذا الذي يشع تحت وهج الشمس الرائعة.

وقف على رأس التل، وعب.. عبّ في رثتيه عبق الحقول المستلقية تحت ناظريه. وبدا له في تلك اللحظة أنه قد تمكن من فهم حيرة ويل، لما واجه لأول مرة كل ذلك الفضاء المنفتح، والمختلف عن محيط ديبنفورد الخائق. رنا بعينين حانيتين إلى سام الذي بدأ يعرج في مشيته، ولسانه الصغير يتدلي من فمه مثل قطعة جلد قديمة، ثم قال له مشجعاً:

"تجلد يا صغيري. لقد أوشكنا على الوصول."

ولكنه، لم يبلغ مشارف بلدة ويروولد إلا وكان يحمل ويل وسام معاً. وهكذا، مضى يقطع بخطى ثقيلة طرقات البلدة الحصوية العتيقة التي حطّ عليها الشفق ظلّاله. ثم عبر الميدان الفسيح، مروراً بالدكاكين المغلقة، وقُدماً إلى الأمام، حتى بلغ مقرّ الحداد. فوقف يقرع بابه بقوة. وعلى الفور فتحت نافذة من الطابق العلوي، وأطل منها الحداد بشعره الأسود وعضلاته المفتولة.

"أوه! أهلاً يا سيد أوكلي، أرى أنك عدت من لندن أخيراً،" صاح الرجل الذي سارعت زوجه إلى الوقوف بجانبه.

"أحقاً كنت في لندن؟" سألته بهلع.

أوماً توم برأسه من غير أن يتكلم. وسرعان ما اختفت زوج الحداد من النافذة، وعادت لتظهر ثانية عند الباب.

"رباه، إنك تبدو مرهقاً جداً يا سيد أوكلي،" قالت المرأة بنبرة مستكرة. "لا بد أنك تكاد تهلك جوعاً، سأعدّ لك شيئاً تأكله على الفور." "هذا لطف منك يا سيدة ستوكر، ولكنني أريد الذهاب إلى القرية حالاً،" أجاب توم بإعياء.

"لا بأس، ولكن يُستحسن أن تضع الصبي على مقربة من المدفأة،" قالت السيدة ستوكر.

وهكذا، حطّ توم حملة على الأريكة، وبادر السيد ستوكر إلى جرّها نحو المدفأة، ثم أزاح المعطف عن الصبي ليسمح للحرارة بالنفاذ إلى أوصاله. عندئذ، تسمّر في أرضه مشدوها، ونذّت عنه شهقة جزع، فهرعت زوجه إلى النظر هي الأخرى.

"أوه، يا للصغير المسكين. إن حالته سيئة للغاية. أحسنت بذهابك إليه يا سيد أوكلي"، همهمت المرأة التي كانت على علم بسبب رحلة توم إلى لندن بعد انتشار الخبر في القرية.

"أرجو أن تحتفظا بما رأيتماه لأنفسكما"، قال توم بنبرة حازمة. فسكت آل ستوكر حالاً، وقرّرا ألا يسألاه المزيد من الأسئلة. فما لا تعرفه لا يمكنك إخبار الآخرين به. وواحد يساوي واحداً!

حصل توم على استراحة قصيرة، تناول خلالها الشاي، ثم أعارته السيدة ستوكر بعض الملاءات ليدثر بها ويل، وأعطته كيساً يحتوي على بعض الشطائر.

كان الليل قد أسدل ستره عندما أسرج توم الفرس دوبس استعداداً للانطلاق. وبعد أن أحكم تغطية ويل وسام بالملاءات في مؤخرة العربية، صعد إلى مقدمتها وأمسك الأعنة بكلتا يديه.

"هيا الآن يا جميلتي"، صاح بصوت مرح مستحثاً دوبس على المضي. "خذينا إلى البيت."

كانت العربية تنهّب الطريق نهباً عندما فتح ويل عينيه فجأة. فأبصر فوقه السماء الموشاة بالنجوم، وتناهى إليه صوت توم وهو يصدح بالغناء، وشعر بوجود سام الذي كان منبطحاً بإعياء عند قدميه. فأزاح الملاءات عنه بوهن، ونظر إلى حيث كان توم يجلس. تحامل ليستند على ركبتيه، ولكن قدميه كانتا أضعف من أن تساعداه على أي شيء، فاستلقى مجدداً، وغرق في كومة الملاءات.

"يا سيد توم"، نعب بعد هنيهة، "يا سيد توم". أوقف توم العربية والتفت إليه.

"استيقظت يا فتى، ها؟"

رف ويل بعينه إلى أن وضحت له معالم توم. "أنت لست تحلم. هيا استلق يا فتى، لم يبق لنا الكثير لنصل إلى البيت"، قال وهو يلف الملاءات حول الصبي بعناية.

"و...و... لكن..". تأتأ ويل. "كيف وصلت إلى هنا؟"

هزّ توم الأعنة، فتأبعت دوبس تقدّمها.

"لقد اختطفتك"، أجب من فوق كتفه. وفي تلك اللحظة.. في تلك اللحظة فقط، أدرك فداحة الجرم الذي ارتكبه. فانفجر في نوبة من الضحك المججل. "أجل، أجل يا فتى هذا ما قمت به حقاً. لقد اختطفتك!"

استلقي ويل، وغرق في النوم من جديد. وعندما أفاق ثانية وجد نفسه محمولاً إلى بوابة منزل آل ليتل، ومنها إلى غرفة الجلوس بأرائكها الوثيرة ومكتبها الضخمة. هناك، مدّه توم على كنبه قريبة من نار الموقد. وهرعت السيدة ليتل تستدعي زوجها. وما هي إلا هنيهة حتى جاء الطبيب ليتل، ثم انحنى فوق ويل، وخلع عنه الطاقية، وبدأ يفحصه بدقة.

"مم.. يبدو أنك عولجت بطريقة جيدة يا ويل"، سمع ويل الطبيب ليتل يقول له. ثم رأى السيدة ليتل تتاوله كوب حليب ساخن وكسرة خبز محمص. لكنه غاب في نوم عميق قبل أن يحاول لمس أي شيء من الطعام. حينئذ، جلس آل ليتل ليستمعا إلى حكاية توم.

"أعرف أنني ارتكبت خطأ فادحاً"، قال توم في النهاية. "ولكني لم أستطع تركه لينتهي به المطاف إلى ذلك المأوى."

"هواء الريف"، أعلنت السيدة ليتل، "والمحيط المألوف، والناس الذين يحبونه، هذا هو علاجه الأمثل."

نظر إليها زوجها من فوق نظارته الدائمة الانزلاق، ثم قال:

"ولكنهم سيلاحقونه إن عاجلاً أو آجلاً."

"كلام فارغ!" عارضته السيدة ليتل بنبرة جافة. "إنهم أكثر انشغالاً من أن يتفرغوا لملاحقة النازحين. وهم في الأساس لم يعلموا بأمر عودته إلى لندن."

عندها التفت الطبيب ليتل ليوأجه توم.

"الجراح الجسدية ستلتئم يا توم. لقد التأم من قبل. ولكنها جراح النفس تلك التي ستستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تشفى."

"أعرف هذا"، أجب توم. "وتأكد أنه سيجدني إلى جانبه كلما احتاج إلى الدعم."

"وأنا أيضاً،" صاح صوت باكٍ من نهاية الغرفة. فالتفت الحاضرون وراوا ماكس واقفاً عند الباب بمنامته. لكنه لم يستطع تمالك نفسه طويلاً، فجرى كالمجنون إلى الكنبّة، ورنّا إلى الجسم الممدّد الهامد. "كنت.. كنت أعرف أنك ستعيده يا سيد توم،" نعب ماكس بعينين مغرورقتين بالدموع، ثم وقف يحدّق صامتاً بصديقه.

وفي تلك اللحظة قالت السيدة لينل وهي تعانين توم: "تبدو مرهقاً جداً يا توم، لماذا لا تسترخي قليلاً." فشكرها توم على الفور، وغرق بامتنان عظيم بين أحضان إحدى الأرائك.

"يا سيد توم، إذا كنت في حاجة إلى أي مساعدة فـ.." هتف ماكس بعد برهة وهو يلتفت إلى توم. لكن الكلمات سرعان ما جمدت على شفتيه، لأن توم كان غارقاً في النوم.

التماثل للشفاء

شعر ويل بيد تهزّه بعنف ووحشية لتعيده إلى عالم الصحو. فتح عينيه بسرعة، وحاول استشفاف معالم الأشياء المحيطة به وسط الظلمة المنسدلة على الغرفة، لكنه لم ير أحداً. حتى النافذة لم يستطع العثور عليها. تحامل على نفسه لينهض من السرير مستعيناً بمرفقيه، وزوى ما بين عينيه لعلّه يبصر شيئاً مألوفاً يطمئنه. تفرّس في أحد الجدران مطولاً، فرآه يهوي إلى الأمام ليطبق عليه. التفت باحثاً عن فتحة الباب ليجد سبيلاً إلى الفرار، فوجد نفسه تحت رحمة جدار آخر. استدار إلى الورا بهلع، فأبصر جداراً ثالثاً يتربّص به. وبينما راحت تلك الجدران تدنو وتدنو منه، بدأ السقف يهتز ويهبط عليه. هبّ من السرير وألقى نفسه بيأس على ما تراءى له جداراً رابعاً، وحاول عبثاً العثور على مقبض باب ما. لكنه.. وحالما رمى نفسه على ذلك الجدار، أدرك فجأة أن ليس هناك من باب على الإطلاق. ربا.. إنه عالق في فخ لا منجاة منه.. جاهد ليحشر نفسه بين تلك الجدران التي أخذت تضيق عليه الخناق، ودفعها بكل ما يملك من قوة عسى أن يحدّ من تقدمها نحوه. لكنها واصلت الضغط عليه بقسوة حاشرة إياه كطريدة بين أسطحها الصلبة. وما كاد يطلق صوته بالصراخ المستجد المسعور حتى اكتشف أنه بات مطوقاً بأربعة أشباح عملاقة متشحة بالبياض. ثم سمع أحدها يقول له مهدداً:

"إذا رفعت صوتك بالصياح يا ولد، سنجعلك تنام إلى الأبد."

"لا! لا! لا! " زعق ويل بذعر ما بعده ذعر، وحاول المقاومة بشراسة. وعندما رأى أن ذلك اللحد الصلب كان يواصل الإطباق عليه، عاود الصراخ المجنون مرة أخرى. إلا أن أصوات الأشباح الأربعة دوت في فراغ رأسه قائلة:

"لقد حذرناك من الصياح يا ولد. لقد حذرناك."

حينئذ، شعر ويل أنه بات كالمشلول. وكالمشلول راقبها وهي تُخرج من مكان ما إبرة طويلة ضخمة وتهتف بصوت واحد:

"استدر! استدر! استدر!"

حاول الاحتماء بأحد الجدران، فانبطقت من سطحه القاسي ذراعان طويلتان، وأمسكتا به من الوراء. فتسمّر لبرهة، ناظراً بعجز إلى رأس الإبرة الفولاذي ذي البريق البارد وهو يلمع أثناء اقترابه منه. ثم عاد إلى العراك اليائس مرة أخرى. وجاهد.. جاهد ليتحرّر من قبضة الذراعين الغريبتين، لكنه وجد نفسه مأسوراً بعدد هائل من الأذرع! "لا! لا! أرجوكم دعوني أعيش! دعوني أعيش!" صاح مستعطفاً، لكن الإبرة ظلت تدنو وتدنو منه حتى استقرّ رأسها الحادّ في فخذة الأيمن.. و.. و.. أفاق من نومه مذعوراً.

كان في سريره، في السقيفة الصغيرة حيث غرفة نومه. كانت منامته وملاءات السرير رطبة وملتصقة بجسمه المبلل، والأغطية متكوّمة على الأرض تحته. فتح عينيه جيداً، ورأى ستارة التعتيم تجلجل النافذة، ثم أبصر نوراً خافتاً ينبعث من مصباح ليلي يستند على طاولته الصغيرة المحاذية لسريره. تنهّى إلى سمعه وقع أقدام ترتقي السلم. ثم رأى توم يدخل السقيفة ويجلس على السرير. ولم يتمالك نفسه من الارتماء عليه، والتشبّث به مستغيثاً. فلف توم ذراعيه حوله، وضّمّه إلى صدره بقوة وهو يغمغم:

"تنفّس يا فتى، هيا لا تحبس نفسك، تنفّس يا بني."

"قالوا إنهم سوف يقضون عليّ إذا صرخت"، شهق ويل.

"من قال هذا؟"

"الناس الطوال في أحلامي. لقد كنت خائفاً يا سيد توم، ولم أستطع الامتناع عن الصراخ. كنت أصرخ رغماً عني."

"أصرخ يا فتى كما يحلو لك. فلا أحد سيسمّعك إلا أنا وسام. وقد يبلغ صدى صراخك منزل القسّ، ولكنه في هذه الحالة يجب أن يكون عالياً جداً. لا.. لا تكثرث لأحد يا بني وازعق كما يحلو لك. بل اجعل هذه العظام العتيقة المتآكلة المدفونة في حديقتنا تقعقع في قبورها."

ابتسم ويل ابتسامة واهية.

"والآن، يُستحسن بنا أن نجفف لك جسمك وندفئه يا فتى"، قال توم وهو يسارع إلى حمله. ثم نزل به إلى غرفة المعيشة التي اكتظت

بالملاءات الندية المعلقة على مشجب خشبي قرب الموقد. وبادر إلى نزع الملابس المبللة عنه، ثم مسح له جسمه وألبسه منامة نظيفة، ودثره وتركه متوقفاً على الأريكة برفقة سام.

صعد توم إلى السقيفة ليعيد ترتيب سرير ويل. وفي تلك الأثناء كان الفتى قد غط في النوم مجدداً، وقد مال رأسه الحليق على إحدى ذراعي الأريكة، وتوسدها كيف ما اتفق. كانت هذه هي المرة الخامسة التي يضطر خلالها توم إلى تغيير ملاءات السرير، وتسكين روع ويل من كوابيسه المرعبة في الليلة ذاتها. ولم يعرف الفتى طعماً للطمانينة إلا عندما بدأ نور النهار يتسرب إلى غرفته. إذ كانت الأحوال التي يجلبها له الليل تفزعه فزعاً رهيباً.

في تلك الفترة، واظب ماكس على زيارة منزل توم يومياً ليطمئن على رفيقه. ولم تسنح له الفرصة لرؤيته لأنه كان يجده نائماً كالعادة. ولم يكن توم يرغب في إزعاجه. أما بالنسبة إلى ويل، فكان الإعياء المخيف لا يكف عن نهش جسمه يوماً بعد يوم، ممتصاً من أوصاله روح الحياة. وكانت مجرد محاولته تناول أي طعام تسبب له تعباً فظيماً، وتتطلب منه بذل مجهود جبار. بل وكانت أبسط مهمة يحاول أداءها مثل تنظيف أسنانه، أو حمل كتاب، ترهقه وتودي به من جديد إلى عالم النوم العميق. وذات ليلة بلغت به الحمى أوجها، وأغرقت في دنيا من الهلوسة والهذيان. فترك توم سام في غرفة المعيشة، وأحكم إغلاق بابها عليه، ثم صعد إلى غرفة الفتى، وبقي ملازماً له، ساهراً عليه.

في تلك الليلة، راحت الكوابيس المرعبة تطوق ويل من كل جانب. فظل يواصل النشيج والأنين والصراخ والعويل لفترة طويلة من الوقت. ثم، وعلى حين غرة، دفع الأغطية بعيداً عنه، وقوس ظهره، وصرّ على أسنانه كطفل صغير يعاني من نوبة غضب هستيرية. وبدا كما لو أنه كان يصارع قوى خارقة غامضة بأوصال عاجزة عن الدفاع عن صاحبها. وكان العرق لا يتوقف عن التدفق من جسمه في جداول باردة لزجة. ساعتها، شعر توم بالعجز المطلق، وأدرك أنه لا يستطيع القيام بأي شيء سوى ملازمة ويل، ومشاهدة ما كان يجري

أمامه. أخيراً، وعندما أفاق الفتى، ضمّه إليه بحنان، وأستحّنه على إفراغ مكنون صدره لعله يتحرّر من تلك الكوابيس التي كانت تدمره. ولم يبلغ الوقت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، إلا وكان ويل قد بلل جميع الملاءات المتوافرة في البيت، وانتهى به الأمر إلى ارتداء قميص آخر من قمصان توم التحتانية. كانت حرارته ترتفع بتسارع مخيف، حتى بلغ الهلع بتوم حدّ تفكيره بالجري إلى منزل آل ليتل ليحضر الطبيب، ولكنه عاد واستبعد الفكرة بسرعة. إذ لم يجرؤ على مغادرة المنزل خشية أن يفيق ويل من النوم أثناء غيابه.

ثم.. ثم جرى ذلك الحدث المرعب بينما كان الفتى يتصارع مع أحد كوابيسه. إذ تشنّج فجأة، وفتح ساقيه وذراعيه على مدامها، كما لو أنه كان يدفع عنه جداراً ما، ورجع برأسه إلى الوراء وأطلق تلك الصرخة. صرخة كانت أكثر وحشية وفظاعة وهولاً من أي صوت سبق لتوم أن سمعه في حياته. صرخة زعزعت أعماق أعماقه. لم يتذكر كم دامت، ولكنها بدت له أشبه بزعة طفل يبكي يأساً من وجع قديم.. قديم منسي، ظل مدفوناً في أعماقه لسنين طويلة. ولم يدر توم إلا وقد عادت به الذاكرة إلى اليوم الذي وضعت فيه ريتشل طفلها الأول والوحيد.

كان توم في ذلك الوقت شاباً عشرينياً، ومتوجّحاً في أعالي قمم العشق. تذكر كيف زرع أرض غرفة المعيشة جيئة وذهاباً وهو يسمع أنينها المتواصل يملأ غرفة النوم.. ثم.. ثم خيم سكون غريب على البيت. التفت ورأى القابلة عند الباب وهي تهزّ رأسها بحزن. تذكر كيف تجاوز الردهة جرياً إلى غرفة النوم. كيف أمسك يد ريتشل. كيف ابتسمت له بعذوبة بالغة. كيف تغاضى عن هزالتها وامتناعها، ووقف يرنو إلى الوليد الصغير الذي استلقى قربها بوجهه الأحمر. تذكر كيف همست له بوهن: "أليس جميلاً..". وكيف أوماً لها وهو يتأمل بأسى لون الحمى القرمزية القاني الذي لفح وجهيهما معاً. سمع همسها يتسرّب إلى أذنيه من جديد.. قالت له يومها.. "عليك الآن أن تحضر دورق الدهان الأزرق". إذ كان خلال فترة حملها يجلب لها كل شهر لونا مختلفاً. وكان من المفترض أن يجلب لها في الشهر التاسع اللون الأزرق إذا كان المولود ذكراً، أو اللون الأصفر إذا كان المولود أنثى.

بعد موتها اشترى ورق التلوين الأزرق، ووضعها في صندوق خشبي أسود صنعه لها هدية في عيد الميلاد، عندما كان في الثامنة عشرة من العمر. وحين أغلق غطاء الصندوق كان كمن أقفل بذلك لا على ذكرياته معها فقط، ولكن على كل شخص آخر يذكره بها.

عاد توم ونظر إلى ويل الذي هدا فجأة. ورآه يرتجف، ويفتح عينيه وقد تحول لون شفتيه إلى زرقة داكنة. فأجلسه على الفور، وشرع يربت له على ظهره كما لو أنه كان رضيعاً يعاني من نوبة مغص.

"تنفس يا فتى، تنفس يا بني،" تتمم مشجعاً ويل على تحرير نفسه المكتوم. وما كاد الفتى يرتشف كمية من الهواء النقي حتى بدأ يتقيأ بشدة.

بعد هذه الحادثة، صار ويل ينام بسهولة أكثر من السابق. فقد حملت له تلك الليلة ذروة ما يمكن أن تحمله الكوابيس من أهوال.. وكأنها كانت قد نالت وطرها منه، فكفت عن ملاحقته.

وذات صباح، بعد عدة أيام، أفاق ويل من نومه وهو يشعر بشيء من الحيوية. وسرعان ما زكمت أنفه رائحة اللحم والبيض المتصاعدة إليه عبر ألواح الأرض الخشبية. ورغم غطاء التعتيم المسدل على النافذة، وضوء المصباح الصغير المحاذي له، أدرك أن الصباح قد أطل على الدنيا، إذ تناهت إليه شقشقة العصافير، وأصداء ذلك الهدير المألوف لجرار بعيد. فرفع رأسه وصاح بوهن:

"يا سيد توم.. يا سيد توم.."

وخلال ثوان، ظهر توم عند فتحة الباب حاملاً سام الذي سارع إلى القفز على السرير.

"ها، أراك أفضل حالاً يا فتى، فهناك شيء من اللون على خديك،" قال توم وهو يتجه إلى النافذة لينزع عنها غطاء التعتيم، ويفتحها مفسحاً المجال لأشعة الشمس التي اندفعت إلى الغرفة راقصة. ثم دنا من الطاولة الصغيرة وأطفأ المصباح. عندئذ، حرك ويل ساقيه وأنزلهما إلى الأرض، وحاول الوقوف عليهما، لكنهما قصفتا به، فعاجل بالجلوس.

"إنك يا فتى لم تستعمل هاتين الساقين منذ مدة،" قال توم حالما لاحظ تعبيرات الكرب على وجه ويل. "ولكنهما ستستعيدان قوتها مع الوقت وتذكر أن.."

"لكل شيء أوانه"، أنهى ويل الجملة عنه، وضحك.
رباه.. كان من المفرح حقاً لتوم أن يرى الفتى يضحك من جديد. إذ جعلته تلك الضحكة الباهتة يشعر بالحيرة والشباب.
"أتريد الإفطار في السرير يا سيدي؟" قال للفتى بصوت مرح. "لا بد أنك جائع.. آ؟"

أوماً ويل وابْتَسَم، فسارع توم إلى ترتيب الوسائد له، ثم ناوله كتاباً وتركه مسترخياً مع سام.

ألا.. ألا يبدو الأمر شبيهاً بتلك الأيام التي ولت؟

غمغم توم محدثاً نفسه عندما غادر السقيفة ليسارع إلى إعداد وجبة إفطار ملكية. ثم.. ثم وجد نفسه يطلق صوته بالغناء أثناء انشغاله في كسر بيضة فوق المقلاة الحامية.. إذ شعر أنه هو الآخر قد تحرّر من كوابيس الماضي. وبينما هو غارق في أفكاره، تناهى إليه صوت نقر على النافذة، فالتفت وأبصر ماكس.

"تعال يا ولد، ادخل"، قال توم باسمًا.

"لقد.. لقد تحسّن.. أليس كذلك؟" صاح ماكس بانفعال، وجرى حتى وصل إلى الغرفة لاهثاً.

"تستطيع رؤيته بعد تناوله للإفطار يا ولد"، أعلن توم.

"يا إلهي. إنني لن أستطيع الصبر حتى ذلك الحين. فهو سيستغرق دهرًا مع هذه الكمية من الطعام"، قال ماكس مشيراً بيده إلى الخبز المحمص والفطر والبيض واللحم. "أنت تعرف كيف هو يا سيد توم. إنه يمزغ طعامه."

"ولكن هذا أمر طبيعي، أليس كذلك يا ولد؟" قال توم بدهشة.

"أوه.. لا! أنا عادة أأكلك لقمتي مرة أو مرتين، ثم أبتلعها. ولكن هو يمزغ ويمزغ ويمزغ. بربك يا سيد توم، ألا أستطيع بكل بساطة أن أدخل إليه خلصة، وألقي بنفسي على أحد الكراسي أثناء قيامه بالتهام كل هذا الطعام؟"

"أنت؟ أنت تدخل خلصة؟" قال توم بوجه متجهم. "لا.. لا.. ليس أمامك

سوى الانتظار.. إن بعض الدقائق الإضافية لن تشكّل أي فرق."

"هذا ما يقولونه في الروايات"، نق ماكس محتجاً. "ولكن عدة دقائق إضافية تكاد تعادل في بعض الأحيان عمراً بحاله."

غير أن احتجاج ماكس ذهب أدراج الرياح، لأن توم كان قد بلغ في تلك اللحظة منتصف السلم. فلازم الفتى مكانه، وحشر يديه في جيبي سرواله القطني الأحمر، وانبرى يحدق في فناء المقبرة. كان في ذلك اليوم الربيعي الخلاب قد استغنى عن جزمته وجواربه، واستحضر صندله القديم من بياته الشتوي. وكان يرتدي مع سرواله القصير قميصاً فضفاضاً من القطن الأبيض، وقد شمر أكمامه عالياً، بينما تدافعت طياته الكثيرة من على جوانب حمالة سرواله.

كان ذلك اليوم يوافق أحد أيام الأسبوع الأول من شهر أيار. وكانت عطلة الربيع قد انتهت مؤخراً، وبدأ مع انتهائها الفصل الدراسي الصيفي لتلك السنة. وبما أن السيدة هارتردج أعلنت عن رغبتها في التوقف عن التدريس بعد الإنجاب، تقرر أن تتولى السيدة بلاك تعليم الصغين معاً، مع ما تضطرها إليه هذه المسؤولية الجديدة من بذل جهد جبار لتتمكن من توزيع طاقاتها على الجميع.

"أتريد كوباً من الشاي يا ولد؟" سأله توم عندما نزل من السقيفة. "نعم، من فضلك يا سيد توم. ولكن كيف حاله؟" قال ماكس. "جائع!"

عبّ ماكس جرعة كبيرة من الشاي الساخن، وصاح ألماً لما لسعت الحرارة فمه ولسانه.

"أوه، أعرف.. أعرف، ولا داعي لأن توجه لي أي ملاحظة،" سارع إلى القول عندما رأى نظرة توم الموبخة. "انظر قبل أن تقفز!" تابع وهو ينفخ على الشاي، كي يشربه بأكبر سرعة ممكنة. "وهل يعرف أنني هنا؟"

"كلا، لم أشأ تعكير إقباله على الطعام."

"أوه، يا سيد توم!" صاح ماكس معترضاً، وملقياً قبعته على الطاولة بحركة مسرحية.

"أنا لا أقصد توجيه إساءة لك يا ولد،" قال توم على الفور. "كل ما في الأمر هو أنني أعرف كم من السهل أن يفعل لأدنى سبب." بعد مضي ما بدا لماكس كأنه الساعات، صاح ويل منادياً من غرفته. وبينما ذهب توم ليلبي نداء الفتى، لحقه ماكس إلى الردهة.

"انتظر هنا قليلاً،" همس له توم.

"هها، إذن أنت تريدها مفاجأة.. يالها من فكرة سحرية.." قال ماكس، ولكن توم لم يسمعه لأنه غاب داخل السقيفة. ثم ما لبث أن ظهر مجدداً.

"حسناً، يمكنك الصعود الآن يا ولد،" قال للفتى الذي وقف متصبراً بانتظار خلو السلم. ثم.. ثم قذف نفسه على الدرجات الخشبية نصف واثب نصف متعثراً، واندفع إلى السقيفة. أما توم الذي تريت لبرهة في الردهة، لينصت إلي صياح الصبيين الفرحين باللقاء، فسرعان ما شخص ببصره عالياً وكأنه ينظر إلى سماء من صنع خياله، وغمغم وهو يبتسم:

"أكياس عجين!"

للحظة، عاش الصبيان مفاجأة اللقاء بكل انفعالاتها الحميمة. ثم وثب ماكس بمرح، وهبط على السرير بطريقة عشوائية، فصدم رأسه بإفريز الجدار. وعلى الفور ظهر عند طرف جبهته نتوء صغير مستدير وردي اللون. فانبهر بفكره براحتة، في حين راح سام ينبش ملاءات السرير ويتخبط زاحفاً نحوه، ومتشهما إياه من رأسه حتى أخمص قدميه.

"ما زلت هزياً جداً يا صاح،" هتف ماكس. "ولكنك أحسن من السابق بكثير."

"ساقاي لا تقويان على حملي."

"أتعرف، لا شيء أكثر رومانسية من أن تقبع في السرير محمواً. مثل كيتس أو إليزابيث باريت براوننغ أو الأختين برونتي."

"أدعو هذه رومانسية؟"

"نعم، وإنني لأتساءل حقاً ما إذا كنت ستصبح مثل ابنة عم هايدي. أعني التي تستعمل الكرسي ذي العجلات، وتدع الناس يدفعونه لها أثناء نزولها الجبل، ثم تقوم وتمشي."

"كرسي بعجلات؟" قال ويل باستهجان. "ولكني لست على هذه الدرجة من المرض."

"خسارة يا صاح!"

إذ ذاك، التقت أعينهما. فافتر ثغراهما عن ابتسامتين وديتين حميمتين. كان الجذام المنتشر في رأس ويل قد تجاوز مرحلة الألم والوخز، وبدأ رأسه الحليق يكتسي بطبقة رقيقة من الوبر الخفيف الأشقر.

"أظن أنك تكاد تموت شوقاً لتعرف آخر الأخبار"، قال ماكس وهو يلف ساقاً على ساق ويتأكد من أنه مرتاح في جلسته.

"في جميع الأحوال ستقوم بإخباري إياها شئت أم أبيت"، أجاب ويل ممازحاً.

"أعلم يا صاح، لقد فقدت لهجتك اللندنية نهائياً. وتحولت إلى فلاح حقيقي".

"أحقاً؟"

"وأنا متأكد من أن الأنسة ثورن ستملأ الدنيا صياحاً وولولة عندما ستسمعك. فهي الآن تعطي دروساً في فن الخطابة للفريق المسرحي".

أصاخ ويل السمع بشوق.

"أما زالت تخرج المسرحيات؟"

"راهن على هذا يا صاح"، أجاب ماكس. "واعلم أنها تعدّ الأيام عدّاً بانتظار تمانئك للشفاء، فأنت معجزة من معجزاتها. طبعاً أنا أشعر بغيرة لا يمكن وصفها"، أردف وهو يضرب صدره بيده، ويحدق في السقف.

"كيف كانت مسرحية تود؟"

"أوه.. كانت مسلية كثيراً. وكنت رائعاً طبعاً. ولكني افتقدتك كثيراً يا رفيقي، وكاري كذلك. وهي ما زالت مستميتة على الدراسة من أجل ذلك الامتحان البغيض. بل إنها بدأت تتعلم اللاتينية والقليل من اليونانية تحت إشراف السيد بيترس. رغم تأكدي من أنها ليست في حاجة إلى بذل كل هذا العناء. أوه.. أوه.. على فكرة يا رفيقي، هتف بحماس وقد تذكر خبراً جديداً. "لقد أنجبت السيدة هارتردج بنتاً".

"أنجبت بنتاً..". كرّر ويل من بعده بامتعاض، وشحب وجهه فوراً.

"ما بك يا صاح؟ أنت بخير؟"

"نعم"، أجاب ويل بصوت متحرج.

"ولكن لا يبدو عليك أنك بخير. أتريدني أن أنادي السيد توم؟"

"كلا، أنا بخير."

"حسناً، ما دمت تقول هذا. ولقد أطلقت على البنت اسم بيغي.. آه يا إلهي،" زفر ماكس زفرة يأس. "أنا لم أخفف عنك كثيراً، أليس كذلك؟ إنك تزداد شحوباً وامتقاعاً منذ أن التقينا." ابتسم ويل.

"أوه.. لقد نسيت،" قال ماكس متابعاً قصّ ما لديه من أخبار. "لوسي تفتقدك كثيراً.. كثيراً جداً يا صاح. أخبرتني السيدة بادفيلد أنها ليست على ما يرام منذ أسابيع. وأنها ما عادت تأكل كعادتها. وفي الحقيقة أظن أنها فقدت شكلها الذي يشبه الفطيرة المدوّرة. حسناً.. أنا أعني أنها تخلّصت من بعض أكداش اللحم التي في جسمها، لكن خديها ما زال على الجسامة السابقة التي تعرفها." قطّب ويل ولم يعلّق.

"أنت لا تستلطفها كثيراً، أليس كذلك؟"

"ليس الأمر كما تقول،" أجاب ويل بارتباك. "إنها فقط.. فقط.. أعني هي بنت."

"وكذلك التوأم."

"إنهما مختلفتان، فهما ليستا.. ليستا.."

"عصافير حب؟"

"نعم، نعم، عصافير حب،" أجاب ويل من غير أن يستطيع مغالبة الضحك لإحساسه بالحرج.

"والخالة نانس والعم أوز،" أردف ماكس الذي تذكّر خبراً جديداً، "أعطيني واحدة من دراجات أولادهما القديمة، وأنا مازلت عاكفاً على تنظيفها وحفّ الصدا عنها. وأقوم ببعض الأعمال هنا وهناك حتى أستطيع توفير المال لشراء إطارين جديدين لها. فالإطاران القديمان مليانان بالثّقوب." ثم رجع بظهره إلى الوراء مقطباً جبينه، وباذلاً جهداً كبيراً لعله يتذكّر المزيد من الأحداث المشوّقة. "آآه... نعم،" قال أخيراً، "هناك إشاعة حول العمل على تشكيل حرس وطني، شيء مثل الدفاع المحليّ التطوعي، ولكنه رسمي أكثر منه على ما أظن. و.. آه.. أجل، يوجد الآن فريقان عسكريان من النساء في مزرعة

هيلبروك. وقد سرت إشاعة مفادها أن المزرعة التعاونية تُستعمل حالياً مستشفى للأمومة."

"مستشفى؟" همس ويل بقلق.

"أوه، بيت للعناية بالنساء"، قال ماكس الذي شعر بأنه وطئ أرضاً خطيرة.

"وما ذاك؟"

"مكان.. مكان يمكن للنساء البعيدات عن ديارهن أن ينجبن أطفالهن فيه."

"ينجب الأطفال؟" غمغم ويل وقد سرى فيه شعور فظيع بالغثيان.

"نعم"، أجاب ماكس الذي حيرته ردّة فعل ويل.

"ولكن، ألا يأتي الأطفال من عند الرب؟"

"بالطبع لا. أوه.. إنك لا تعرف إذن."

"أعرف ماذا؟"

"عن الجنس."

اصطبغ وجه ويل بالحمرة القرمزية.

"أعرف أنه شيء قذر، وأنك تذهب إلى جهنم بسببه."

"كلام عفن"، هتف ماكس. "نحن جميعاً ما كنا لنكون في هذه الدنيا لولا

الجنس. إنه ما يحدث بين الرجال والنساء عندما يحبون بعضهم."

"ماذا؟ التقبيل والتلامس؟" صاح ويل بانفعال.

"حسناً، هذه بداية جيدة."

"ولكن ليس التقبيل خطيئة؟"

"بالطبع لا، فهو ما تفعله عادة عندما تحب إحداهن. اسمع يا صاح، إن

المرأة تملك داخلها بذرة، وكذلك يملك الرجل بذرة داخله، وعندما

يتصل الرجل بالمرأة يعطيها بزرته. وإذا التصقت هذه البذرة ببذرة

المرأة، فهما تتحدان معاً، وتصبحان بذرة واحدة تكبر متحوّلة إلى

بيضة، ثم تكبر البيضة متحوّلة إلى جنين داخل المرأة. وبعد أن يكبر

الجنين بما فيه الكفاية ويصبح جاهزاً للخروج تلده المرأة."

"أأنت متأكد مما تقوله؟"

"نعم، أهلي أخبروني، وهم لا يكذبون علي أبداً."

"أهلك أخبروك!"

"نعم. اسمع، اسألني ما تشاء، وسأخبرك بكل ما أعرفه."
"شكراً!"

"إنه ليس عملاً قذراً،" تابع ماكس. "إلا إذا مارسه بنفسية قذرة."
"ألا تستطيع المرأة أن تحصل على طفل بنفسها من غير أن تقابل رجلاً؟"

"بالتأكيد لا. لابد من وجود رجل حتى يعطيها بزرته،" أجاب ماكس وهو ينهض من مكانه بسرعة. "سأنادي السيد توم، إن حالتك مزرية يا صاح."

في تلك اللحظة أطلّ توم برأسه من فتحة السقيفة.
"ماذا كنت تقول عني يا ولد؟" غمغم وهو يرمق ويل بطرف عينه.
"أرى أنه يجدر بك المغادرة الآن يا ماكس، فالفتى يبدو منهكاً."
"نعم.. نعم.. هذا ما كنت أنوي عمله. أيمكنني الحضور غداً؟"
"إيه.. أجل، أرجوك تعال،" قال ويل بنبرة ملحة، بينما جلس توم على طرف السرير، وانتظر حتى يتيقن من رحيل ماكس.
"والآن يا فتى، ما الحكاية؟" قال توم.
بدا ويل مذعوراً.

"يستحسن أن تخبرني يا بني."
"إن الموضوع يخصّ ترودي يا سيد توم."
"أظن أنك تعرف،" أجاب توم بصوت هادئ.
"لقد ماتت أليس كذلك؟"
أوما توم.

"أنا السبب،" قال ويل بصوت متحشرج. "أنا السبب، لقد قتلتها.. لقد تركتها تموت."
"كيف؟"

"كانت.. كانت تبكي وتبكي بحرقة. حاولت تهدئتها، حملتها كما ينبغي، وهددتها. أعطيتها الحليب الذي في زجاجة الرضاعة، ثم.. ثم ما عاد هناك المزيد من الحليب."

"لست أنت السبب. لقد نفد الحليب."

"ولكن كان يجب علي أن أجد مخرجاً. لقد انتظرت. ما كان يجب أن أنتظر. ظننت أن أمي ستعود في أي لحظة.. لكنها.. حشرج، حتى غصّ بالكلمات، فلم يستطع النطق بها. لكنها لم تعد أبداً. أهذا ما تريد قوله يا فتى؟" أوما ويل.

"الطفلة كانت في حاجة إلى الحليب، وما كان بإمكانك تأمينه لها يا بني، لقد كنت مُقيداً."

"يقول ماكس،" همس ويل بوجه مصطبغ بحمرة الخجل، "يقول إن المرأة لا تستطيع إنجاب طفل بدون رجل. هل هذا صحيح؟" نعم.

"إذن هذا يعني أن أمي كانت قد التقت برجل ما." نعم.

"أي أنها كذبت عليّ. فلماذا كذبت يا سيد توم. كانت تقول لي دائماً إن النساء والرجال الذين يجتمعون مع بعضهم يرتكبون خطيئة لا تغتفر." أخرج توم غليونه وبدأ يحشوه بالتبغ. "أظن يا بني أن أمك امرأة مريضة جداً."

"لابد أنها كانت متضايقة بسبب وجود ترودي داخلها. وربما هذا ما قصدته عندما قالت أنها مريضة."

"هناك نوع آخر من الأمراض يا بني يصيب الناس. إنه مرض في العقل. وهو في العادة لا يكون عقلاً سعيداً. وأظن أن هذا هو مرض أمك الحقيقي."

"يا سيد توم، أنا أريد البقاء هنا معك. لا أريد العودة إليها أبداً، حتى لو قالت إنها مريضة."

"لن تعود إليها يا بني. السلطات لن تسمح بهذا." فلماذا اختطفتني إذن؟

"كانوا ينوون وضعك في مأوى للأطفال، وأنا أردتُك هنا معي." لماذا؟

"ممم... لماذا؟" همهم توم، وبارتباك أخذ نفساً طويلاً من غليونه قبل أن يتابع، "لأنني مولع بك يا ولد. هذا هو السبب. لقد

افتقدتك عندما فارقتني. أفهمت لماذا؟ والآن، سوف أخرج لك جميع تلك القصاصات الورقية التي خبأتها لك لترسم عليها. وحالما أفعل هذا، ستنزّل إلى الأسفل وستخربش عليها قليلاً، هه، ما رأيك؟" لم يجب ويل، واكتفى بمراقبته وهو يهمّ بنزول السلم. ثم قال فجأة: "يا سيد توم.."

رفع توم رأسه ونظر من خلال فتحة الباب الصغير. "نعم يا فتى؟"

"أنا أحبك!" همس بحياء.. ودُهِش.. دُهِش كثيراً عندما اكتشف أن ذلك الإحساس البارد الذي تخيل حدوثه إن هو نطق بهذه الكلمة السحرية كان مجرد وهم. وأنه بدلاً من ذلك شعر بموجة من الدفء تتدفق إلى معدته ومنها إلى صدره.. فابتسم بارتياح وهو يرنو إلى وجه السيد توم الذي تضرّج بالحمرة.

"وأنا أيضاً أحبك يا ولد،" غمغم توم. "والآن سأتابع نزولي،" أردف وهو يختفي عن ناظري الفتى بسرعة.

ومع تتابع الأيام، وبينما واصل شهر أيار انصهاره في أحضان حزينان، بدأ ويل يتدرّج شيئاً فشيئاً في استعادة قواه وعافيته. لكنه لم يبرح البيت في تلك الفترة، بل ظلّ قابعاً فيه، وقانعاً بالانشغال بالرسم والقراءة. وكان ماكس وجورج والتوأم بل ولوسي أيضاً يواظبون على زيارته، إلا أنه كان يغطّ في النوم أثناء وجودهم عنده، وكان يستيقظ لاحقاً ليكتشف أنهم غادروا البيت، بعد أن تركوا إلى جانبه مجموعة من الفاكهة والمجلات الهزلية. ولم يفكر بالمغامرة واجتياز حدود الجدران إلى الحديقة الأمامية المطلة على فناء المقبرة إلا بعد عدة أسابيع. وكان كلما رغب في ذلك تعاون هو وتوم على حمل الطاولة الخشبية إلى الحديقة ليتمكن من وضع قوارير الألوان وفرش الرسم عليها. وأدّى وجوده في الخارج، واستنشاقه للهواء العليل، إلى زيادة إقباله على تناول الطعام أكثر من السابق. وجعله هذا يستعيد المزيد من طاقته وقواه.

في تلك الأثناء، في لندن، كان نيفيل تشامبرلين قد أعلن استقالته من منصب رئيس الوزراء. وحل محله رجل بدين أصلع في الستين من

العمر يدعى ونستون تشرشل. ولم يمض وقت طويل إلا وصُنع جميع سكان ويروولد الصغيرة بأحداث دنكيرك. فقد تمكن الألمان من دحر القوى الحربية البريطانية إلى سواحل فرنسا. وترتب على ذلك وجوب ترحيل آلاف من الجنود الذين كانت إصابات بعضهم خطيرة جداً إلى فولكستون عن طريق البحر. فخاطر مئات من الناس العاديين ممن يملكون الزوارق بحياتهم للمساعدة في عملية الإخلاء. ومن المزرعة التعاونية في ويروولد الصغيرة، اضطلع السيد سير وابنه جوليان بهذه المهمة، واستأجرا لذلك مركباً آلياً. أما المزرعة التعاونية نفسها فتحولت من مستشفى للتوليد إلى مأوى استشفاء للجنود الجرحى، أو المصابين بصدمات نفسية.

وذاث عطلة من عطل نهاية الأسبوع، شقت عدة شاحنات عسكرية طريقها عبر قرية ويروولد الصغيرة باتجاه المزرعة التعاونية، وهي نقل حمولة من الشبان الجرحى بلباسهم العسكري. فوقف الأهالي يهتفون لهم ويرشقونهم بأكاليل الزهور، ويهبونهم الكعك والخبز والبيض. ورغم أن بعض أولئك الجنود الشبان استطاع التجاوب مع أهل القرية بابتسامات مية، إلا أن معظمهم كانوا في غيبوبة فكرية منعتهم من استيعاب أي شيء مما أخذ مجراه أمام أعينهم المذهولة المحمقة في الفراغ.

وفي آخر يوم سبت من شهر حزيران، قرّر ويل القيام بعمل لم يكف عن تأجيله ومماطلته منذ فترة طويلة. كان قد أنهى مهامه المنزلية، وجلس خارج البيت يقرأ في كتاب. ثم تذكر لائحة التسوق التي تركها له نوم على الطاولة لانشغاله بالمساعدة في مزرعة هيلبروك، وكذلك جورج وجيني. أما كاري فكانت كالعادة في الأبرشية تتلقى دروس اللاتينية على يد القس. فما كان من ويل إلا أن أغلق كتابه، وتناول اللائحة من على الطاولة، وغادر البيت إلى الحانوت. وفي طريق عودته عرج على منزل آل ليتل أملاً بأن يجد ماكس حراً ليذهباً معه إلى مكان ما. وفي هذه الحالة سيكون لديه عذر جيد ليؤجل من جديد تلك المجازفة التي ينوي القيام بها.

ولسوء الحظ، وجد ويل ماكس ملطخاً بالزيت، ومحاطاً بالخرق القذرة، والأدوات الصغيرة من كل نوع، وقد انكب على تصليح دراجة قديمة كانت مقلوبة رأساً على عقب.

"إنني على وشك إصلاحها كما ترى. هذا هو العمل الميكانيكي الأول الذي أقوم به في حياتي يا صاح. وأنا عازم على إنجاز شيء ما، ولو لمرة واحدة على الأقل"، قال ماكس حالما رآه.

وهكذا، تجاذبا أطراف الحديث لفترة قصيرة، عاد بعدها ويل إلى البيت وترك ملاحظة صغيرة على الطاولة تبين وجهته التي ينبغي قصدها، ثم غادر سالكاً الطريق المؤدي إلى بيت آل هارتردج. ووقف هناك ما يقارب الساعة وهو يحدق ويحدق بعناد في الباب الرئيسي للبيت.

وبعد الكثير من الأخذ والردّ مع نفسه، اجتاز الممرّ الضيق إلى الباب وقرعه ثلاث مرات، ووقف ينتظر بقلق عظيم. كان اليوم القائل قد جعله يتصبّب عرقاً، حتى التصق قميصه القطني بجسمه الهزيل، فانبرى ينفذه بيديه، ليسمح لشيء من النسيم بالنفاذ إلى جسمه قبل قدوم السيدة هارتردج لفتح الباب. لكن أحداً لم يأت. لعلها خارج البيت.. قال ويل لنفسه وهو يتنفس الصعداء.. ولا بأس من العودة في يوم آخر.

مع ذلك، وقبل أن يهّم بالمغادرة، قبض على مطرقة الباب النحاسية وقرعها من جديد في محاولة أخيرة، ثم استدار ليعود أدراجه، لكنه عاد وجمد أرضاً، إذ أبصر رأس السيدة هارتردج يظهر فجأة من وراء زاوية البيت.

"خيل لي أنني سمعت قرعاً على الباب"، بادرت السيدة هارتردج. "أنا في الحديقة الخلفية. تعال. لقد بلغني أنك عدت"، أضافت بنبرة رقيقة. "إنها لمفاجأة سارة."

يتم ويل صوب الحديقة الخلفية. ولاحظ فوراً وجود بساط صوفي مقلم مفروش على العشب. ثم سمع السيدة هارتردج تدعوه إلى الجلوس ريثما تعدّ له كوباً من عصير الليمون. لكنه بقي واقفاً في مكانه، وراقبها وهي تغيب داخل البيت. استرق النظر حوله مروراً بالبقعة المزروعة خضاراً، والقسم المعشوشب تحت نافذة المطبخ، والناحية المشجرة على مقربة من الدرب. ثم ندّت عنه شهقة خافتة حين وقعت عيناه على عربة للأطفال تحت ظلال الأشجار. تفرّس في العربة شبه خدر، من غير أن يجروء على التنفس خشية أن يزعج أياً كان موجوداً

فيها. وفي تلك اللحظة، كانت أني هارتردج تقف أمام نافذة مطبخها، وعلى وشك مناداته لتسأله إن كان يحب تحلية العصير بالعسل. لكنها حالما لاحظت تلك التعبيرات الغريبة المرتسمة على وجهه التزمت الصمت. أجل.. لقد كانت الأخبار تنتشر في القرية بسرعة النار المستعرة.. وكانت أني تعرف شيئاً عن معاناته.

وقف ويل غائباً وغافلاً عن كل شيء حوله سوى تلك العربية. ثم ونيداً.. ونيداً بدأ يتقدم منها، بخطى قصيرة لكن ثابتة. فجأة، اهتزت العربية بلطف، وانبتقت منها قدمان صغيرتان مكتنزتان، وراحتا تلاعبان الفراغ. فاستجمع الفتى شجاعته، واقترب أكثر، حتى أصبح أمامها تماماً. وهناك، تحت ظل سقف العربية الآمن وجد نفسه أمام أصغر مولودة رآها في حياته. كانت ذات شعر أسود لامع، وعينين مستديرتين بُنيتين برّاقَتين. وفي تلك اللحظة مدّت إحدى يديها ولوّحت بها في الهواء ضاحكة، ثم شخصت بعينيها فزعاً عندما اهتزت بعض الشراريب المتدلّية من حافة العربية. فبيس ويل في مكانه، واستغرق في تأمل الصغيرة استغراقاً كاملاً. وظلّت السيدة هارتردج تراقبه من بعيد. ولم تقتحم عليه المكان إلا بعد أن شعرت أنه هداً قليلاً.

"ها قد وصل عصير الليمون وكعك الزنجبيل"، قالت له بصوت مرح. فالتفت ويل بارتباك، وقد تملكه إحساس بالذنب لأنها ضبطته يحدق بتلك المخلوقة الصغيرة.

"اليسست جميلة؟" قالت أني وهي تدنو من العربية وتحمل صغيرتها. ثم نظرت في قلب عينيها، وقبّلت خديها بحنان. "سأدعك تمرحين على العشب يا حلوتي"، أردفت وهي تمتدّها على بطنها فوق البساط. "هاك، يا غاليّتي."

جلس ويل قرب الصغيرة ممسكاً كوب العصير بيديه، من غير أن تحيد عيناه عنها. راقب حركاتها الوديعة بذهول. وأدهشه ذلك النفوذ الهائل الذي كانت تلك المخلوقة الصغيرة العاجزة تسيطر به عليه. وبقي مع السيدة هارتردج في الحديقة حتى حل الغسق. تحدثا في تلك الأثناء عن الكتب، والوسائل التي قد تسهل له الحصول على الورق، والأماكن التي يستطيع شراء ألوان رخيصة منها. لم يأتيّا على ذكر

السيد هارتردج، ولم يشيرا إلى أمه أو ترودي أبداً. ولكنهما، كانا أحياناً، وفي وسط حديث ما، يصمتان فجأة، وينظران إلى بعضهما نظرة مليئة بالتفهم.

بدأت السيدة هارتردج في عيني ويل أكثر جمالاً من السابق. نعم، لقد أصبحت أكثر نحولاً من قبل، لكن عينيها ما زالتا واسعتين وزرقاوين كعهده بهما.. وما زال شعرها على شقرته الذهبية الخلابة.. وعذوبة صوتها الآسرة هي نفسها، بل وربما أكثر رخامة ورقّة. راقبها ترفع الصغيرة في الهواء وتعيدها مدنية إياها من وجهها، نافخة أنفاسها في بطنها، أو مكثّية بالتحديق بها، وقد اجتمعت في وجهها تعبيرات السعادة والحزن في اللحظة عينها.

وكانا غارقين في الحديث عندما سمع ويل طرقاتاً على الباب الرئيسي. فوقفت آني وهي تحمل بيغي بين ذراعيها.

"خذ"، قالت مناولة الصغيرة للفتى، "احملها ريثما أفتح الباب."

ثم غادرت من غير أن تجرؤ على الالتفات لتلقي نظرة عليه. لم تكن لديها أدنى فكرة عما إذا كان ما فعلته هو عين الصواب أو عين الخطأ. لكنها، وبإحساس فطري غريزي أرادت أن يعرف ويل ماهية الشعور الذي يتولد لدى المرء عندما يحمل بين ذراعيه رضيعاً حياً ودافئاً.

قبع ويل متيبساً، وأحاط الرضيعة بذراعيه وقد سرى فيه التوتر والارتباك. نفخت الصغيرة بالوناً بلعابها سرعان ما سال على ذقنها وتدرج نزولاً إلى ثوبها القطني الهفاهف. كانت ناعمة، رقيقة، وذات رائحة لم يسبق لويل أن شمّ أعذب منها. وما لبث أن بدأ يسترخي قليلاً، مأسوراً بالطفلة التي لم تتوقّف عن تكوير فمها مصدرة أصوات غرغرة خافتة لطيفة. ثم.. وبدون أي سبب حملقت وبدأت تبكي. فراحت عينا ويل تبحثان بذعر عن السيدة هارتردج. حاول هدهدة الرضيعة وملاغاتها، لكنها واصلت البكاء. وقف خائفاً وهو ما يزال يضمّها إليه، وانبرى يبحث عن زجاجة الحليب. في تلك اللحظة، فتحت السيدة هارتردج الباب الخلفي، واجتازت الحديقة، ثم أخذت بيغي بين ذراعيها، وابتسمت.

"أعرف ما الذي تريدينه يا حلوتي،" همهمت وجلست على كرسي مريح، ثم فكّت أزرار قميصها المطبّع برسوم الأزهار، وقربت أحد ثدييها من فم الصغيرة.

كان ويل أكثر ذهولاً من أن يشيح بعينه عنها، شعر أنه ينبغي عليه إغماض عينيه، أو الانسحاب. لكن قدميه تسمرت في الأرض تحته. ثم نسي ارتبأكه، وغدا أشبه بالمنوم مغناطيسياً وهو يراقب الصغيرة التي أقبلت على ثدي أمها بلهفة، وراحت تمصّه ببطء ورتابة، مواصلة ضغطه بأصابعها الصغيرة المتنتية، وقد تورّد خذاها بحمرة زاهية خفيفة.

وعندما شعرت السيدة هارتردج بأن صغيرتها نالت كفايتها من الحليب، نحتّها عن صدرها، وزرّت قميصها، ثم نظرت إليه. "السيد توم ينتظرك في الخارج يا ويليام."

شكرها الفتى على ضيافتها، وهرع للقاء السيد توم الذي كان يجلس على العشب مع سام، وعيناه تلاحقان تلابيب الغيوم المناسبة في المدى. وفي طريق العودة إلى البيت شعر ويل فجأة بارتياح عظيم يغمر قلبه الصغير. نعم، لقد كان السيد توم على حق. إذ ما كان ليستطيع أن يوفر للصغيرة ترودي ما هي في حاجة إليه، ولم يكن موتها نتيجة خطأ ارتكبه هو. أجل، إنه لا يزال يشعر بالحزن لفقدائها، ولكن عبء المسؤولية الجسيمة التي أثقلت كاهله وأعيته زال عنه أخيراً. حشر يديه في جيبي سرواله، وتابع المشي بخطى أكثر خفة. وحين وصل وتوم إلى البيت وجدا ماكس بانتظارهما في الحديقة الخلفية مع الدراجة القديمة.

"لقد أصلحتها! لقد أصلحتها!" صاح ماكس بصوت يملؤه الزهو. "والآن.. يا سيد توم، أتراك تعرف طول المسافة التي تفصلنا عن البحر؟" أضاف وهو يبتسم ابتسامة عريضة.



telegram @
yasmeenbook

البحر، البحر، البحر!

فتح ماكس فمه، وبدأ يترنم بتلك الأغنية اللطيفة من جديد..
أيها الراغبون في صيد السمك،

هلموا معي.. معــــــــــــي.. ي.. ي.. ي..
إلى بلياريل تحت بريتاني حيث يستلقي بحر بريتون،
ففي أعماقه عند أقاصي مداه، يتكاثر السمك.

وبما أن ماكس كان قد ردّد هذه الأغنية لعدة مرات على طول الطريق، تمكّن توم وويل من حفظها عن ظهر قلب تقريبا، فراحا يردّدانها معه.

أخضر مركبنا،
وأحمر هو الشراع،
ذاك الراقص مع النسيم المشرّب بالنور والإشعاع،
كلما عزف الموج الحانه على الدفة المتمائلة.
فأي بلسم يشفي القلب أكثر من هذا الهناء.
هيا.. هلموا معي إلى بحر بريتون الوديع الأخضر،
فلا شيء أروع من السفر إلى موطن السمك.

كانت شمس آب تشرق برزانة في كبد السماء الصافية اللازوردية.
وماكس وويل يجلسان على مقعد العربة الخشبي إلى جانب توم الذي
أمسك أعنة دويس، ومضى يقود بهما الطريق لليوم الثالث من أيام
رحلتهم. كانوا في ذلك اليوم يواجهون يوما قاتظا آخر، بعد أن
تناقصت طراوة الصباح المبكر شيئا فشيئا. ولذلك خلع الصبيان
قميصيهما، وألقيا بهما مع الجوارب والصنادل في مؤخرة العربة.
وجلسا بأقدام عارية، وقد تدلت حمالات سراويلهما على جانبيهما،
وراحت سيقانهما النحيلة التي لوحتها الشمس، تهتزّ ببطء وتناغم أثناء
اندفاع العربة.

"من المؤكد أننا قد اقتربنا الآن"، همهم توم بمرح وهو يهزّ أعنة
دويس، ويوقف العربة. ثم ترجّل منها ليجث عن مزرعة تقبل بإيواء

دوبس وإيداع العربية. فعثر على مزارع وافق على الاعتناء بهما مقابل الاستفادة منهما في الحصاد. ولم يتوان توم في القبول، فأفرغ مؤخرة العربية من الدراجتين والسلال المتكومة فيها التي كان سام منبطحاً قربها. ثم ساق هو وماكس الدراجتين إلى الطريق العام، وحمل ويل السلال.

ولما أشرف المصطافون الثلاثة على الطريق، أوقف ماكس دراجته التي كان قد دهن هيكلا بالطلاء الأحمر المماثل لحمرة صناديق البريد، وصبغ رفارفها باللون الأصفر، ثم تناول من ويل سلتيين ربطهما على إطار صغير مثبت فوق دولابها الخلفي. أما توم، فقام بتفحص إطارات دراجته، وربط بقية السلال إلى عجلتها الخلفية. ثم اعتلاها، وأمسكها جيداً بانتظار ويل الذي حمل سام، ووضعه في سلة من القش المجدول مثبت إلى مقودها، ثم صعد هو الآخر إلى مقعدها الخلفي. إذ كانت دراجة توم السوداء تختلف عن دراجة ماكس بمقعدها المزدوج، والمناسب لويل بما أنه لا يحسن قيادة الدراجات.

وفي تلك الأثناء، ركب ماكس دراجته، وجلس على أهبة الاستعداد، مثبتاً قدمه على الدواسة بانتظار إشارة توم.

"دعونا ننطلق يا أولاد!" هتف توم أخيراً، ودفع دراجته إلى الأمام بعزم.

"يا هو!" صاح ماكس طرباً، وتبع توم.

وهكذا، انطلق الركب إلى الأمام بتوازن وتناغم. متجاوزاً حقول الذرة اللينة المتمايلة، والأشجار الخضراء المرتوية. ومستمتعاً بأريج عطور الطبيعة الغريب، وبالفرشات البيضاء والعنبرية التي كانت تتناوب الطيران فوقه أثناء ارتحالها من الأجسام وإليها. ثم وصل المطاف بالمسافرين إلى قمة تل شديد الانحدار، فترجلوا عن الدراجتين لاهئين، وأجالوا الطرف حولهم، كان البحر يمتد تحت أبصارهم، مستلقياً عند سفح التل، ساكناً وهائل الاتساع.

وعلى الفور، طرحوا الدراجتين بين الأجسام، ويمموا نزولاً وهم يقفزون ويثبون ويتبخثرون، ويلوحون بأيديهم في الهواء جذلاً، ويصيحون بأعلى أصواتهم. فجأة، وعندما فطن ويل وماكس إلى أن توم كان يشاركهما الرقص والصياح، لم يستطيعا منع نفسيهما من

الانفجار بضحك صاخب مجلجل، اضطرهما إلى وضع أيديهما على بطنيهما، في حين راحت دموع البهجة تنفر من أعينهما، وتسيل لامعة على وجهيهما.

وعندما تمكن الثلاثة من تمالك أنفسهم قليلاً، انصرفوا إلى تجرّع عصير الليمون الذي جعلته أشعة الشمس مفرط الحرارة. ثم تسلّقوا التل بمشقة، وعادوا إلى الدراجتين، وساقوهما إلى السفح ببطء، وهم شبه مسحورين بتلك الزرقة الهائلة العظيمة التي تألأت حولهم. أما سام الذي ظل مضطجعاً تحت رقعة القماش المشمع المثبّته فوق سلته، فكان كلما استشعر هبوب نسمة ما، رفع رأسه بلسانه المتدلي، ودنا من حافة السلة أملاً بنفحة من البرودة.

لم يعثر المصطافون الثلاثة في الأرجاء على أي معلّم يرحب بهم. لكن توم بدا متأكداً من أنهم قد وصلوا إلى المكان المطلوب. كانت القرية التي حطّوا فيها رحالهم تدعى قرية سالماوث. ولم يكونوا المصطافين الوحيديين فيها. غير أن وعورة وضيق الطريق المؤدية إليها، جعلت الوافدين إليها يقتصرون على أصحاب الدراجات مثلهم، أو على الجوالين.

بعدئذ، بدأ توم بالبحث عن مأوى لهم في القرية. ومضى يطرق الأبواب باباً تلو باب، أملاً بالعثور عمّن يرضى باستضافة ثلاثة أشخاص وكلب لمدة أسبوعين، بحيث تتضمن الاستضافة وجبة الإفطار ووجبة العشاء. أخيراً، وبعد كثير من البحث العقيم، وصل بهم المطاف إلى أرملة متوسطة السن تدعى السيدة كلارنس، بدت سعيدة باستقبالهم ليمألوا عليها البيت. إذ كانت تعيش وحدها مع كلبها رمبل بعد أن تمّ استدعاء أولادها الأربعة للالتحاق بالجيش. وكان رمبل على خلاف سام، كلباً طاعناً في السن، يُمضي ما تبقى له من أيام وهو منبطح بكسل فوق طبقات وطبقات من لحمه السمين المترهل.

وهكذا، قاد توم وماكس الدراجتين على طول الممرّ الحجري الضيق المحاذي لكوخ السيدة كلارنس، ومنه إلى الحديقة المشدّبة المزروعة بشتى أنواع المون. ثم فكّ ويل أربطة السلال، وتعاون الجميع على حملها إلى الداخل.

"أرى أنه ما عليكم سوى الذهاب للتزهر،" اقترحت السيدة كلارنس. "سيعطيني هذا فرصة حتى أعد لكم الغرف."

أسعد الاقتراح المصطافين الثلاثة كثيراً، فغادروا البيت ومضوا يمشون الهوينى على امتداد طريق القرية الرئيسي باتجاه المرفأ الصغير. كان هناك مجازان ضيقان طفيفا الانحدار مرصوفان بالحصى يقودان إليه. عند زاوية أحدهما تقوم حانة قديمة عفا عليها الزمان، تدعى: "حانة القبطان مورغان"، وعلى واجهتها الخارجية علقت لوحة أكلتها الريح، تمثل صورة كلب بحر ضخم. وحالما وقعت عينا ماكس عليها همس بحماس وهو يستوقف ويل، ويتأبط ذراعه:

"يا للروعة! إنني لأتساءل ما إذا كان يوجد هنا مهرّبون أو قراصنة يا صاح."

ثم لحقا بتوم وسام اللذين مضيا صوب المرفأ الصغير. ومروا في طريقهم بالقرب من متجر سمك تحتشد في واجهته الزجاجية زرافات وزرافات من الكركند والسلطعون إلى جانب المحار الكسول. وتتبعث من مدخله رائحة السمك النفاذة. وطالعههم على بعد ياردات إلى الأمام متجر يحتوي على ما أطلق عليه ماكس اسم لوازم البحر، إذ كان يبيع كل الحاجيات المتعلقة بالبحر؛ ابتداءً من صنائير الصيد والبوصلات، وانتهاءً بالزوارق الصغيرة وملابس البحارة. هناك، وقف ماكس يحدق من خلال الواجهة الزجاجية بشغف.

"آه لو كنت قرصاناً!" هتف أخيراً، وبدأ يندن شيئاً عن: *لريك في أرجوحته الشبكية*، "وعن: *القبطان آرت النائم في قعر السفينة*."

أما ويل فشعر بأن شيئاً ما يسوقه كالمغناطيس نحو حوض السفن المتواضع. وما لبث أن وجد نفسه واقفاً عند طرف المرفأ الخشبي العتيق، وعيناه المذهولتان تحملقان في البحر. رأى الأمواج تحته ترقص بغنج حول الدعائم، وأحسن بنشوة لا مثيل لها. لقد كان يظن في البداية أن البحر سيخيفه كثيراً، وأنه سيبتلعه. لكنه دُهِش من ذلك الشعور بالارتياح والسكينة الذي غمره. وأحسن كما لو أن ذهنه قد انفتح فجأة، وأن جميع تلك المخاوف والأحزان المزمنة والذكريات المؤلمة التي تصطخب في عقله، راحت تطفو وتطفو على السطح،

وتتجرف مع الموج بعيداً عنه. ورغم أن سسام واصل النباح على النوارس التي نعقت عليه، وحلقت فوق رأسه، لم يكن ويل يسمع شيئاً من هذا النباح على الإطلاق.

رأى حول حوض السفن المتواضع جمعاً من الرجال في مراكب الصيد ذات الساريات العالية، والشباك المبللة المتدلية على جوانبها. وعند شمال الحوض، على مسافة تبعد ميلاً تقريباً، حطت عيناه على خليج ظليل، تتمايل على سطح مائه الرقراق مجموعة من المراكب الصغيرة الراسية فيه. فوقف ساكناً يتأمل الأرجاء حوله، ويدها محشورتان في جيبي سرواله. وبينما هو كذلك، شعر بسعادة عارمة لمجرد تفكيره بأنه سيبقى في قرية سالماوث لمدة أسبوعين. أربعة عشر يوماً بتمامها وكمالها. يمكنه خلالها أن يجلس على مقربة من رصيف المرفأ ليرسم ويرسم حتى يشعر قلبه بالاكتهاء. فهناك الكثير من الأشكال الجديدة التي تحفزه على الرسم. والكثير من الألوان الرائعة التي ستحفظها ذاكرته العطشى. وأشياء أخرى من تلك التي لن يستطيع أبداً القبض عليها وأسرها في أي لوحة؛ أشياء مثل الروائح والمشاعر.. أشياء يمكن الاستمتاع بها فقط في لحظة اختبارها. فجأة، أيقظه صوت توم من سباته المبحر.

"ألن تأتي يا ويل؟" سمع توم يقول، فالتفت بسرعة، ونظر باتجاهه. "إننا ننوي التوغل حتى ذلك الانحراف الحاد هناك"، أردف توم مشيراً إلى مصب الخليج. "أترغب في البقاء هنا أم تريد مرافقتنا؟" "سأتي معكم"، أجاب وهو يحث الخطى قدماً.

انعطف الجمع الصغير باتجاه رصيف ثان، ووجدوا أنفسهم أمام دكان لبيع الكتب المستعملة. فسارعوا جميعاً إلى دس أنوفهم في واجهته الزجاجية القذرة. كان أشبه بمستودع كنز لهم كلهم. ولولا سام الذي راح يجذب بنطال توم محتجاً على طول وقوفهم، لكانوا تواروا جميعاً داخل ذلك المكان، ولازموه، ربما لبقية الأمسية.

"هه، إنه دكان يوم ممطر"، علق توم وهم يتابعون سيرهم باتجاه الجانب الآخر من الرصيف.

وهناك، طالعهم متجر كتب على بابه: "متجر الدلو والمعول". وكانت واجهته تغص بمختلف أنواع الدلاء من القصدير الملون، وبالمعاول

الخشبية الكبيرة، وكرات الماء، وإطارات السباحة، ومضارب الكرة، وألبسة البحر القطنية الناعمة. ثم رأوا بنتاً سمينة في الثالثة من العمر تقريباً تخرج منه، وتدبّ على الرصيف المنحدر لتلحق بشقيقها الذي كان يرتدي زي البحارة. تابع المصطفون الثلاثة طريقهم، وسلكوا المنعطف المؤدي إلى الطريق الرئيسي. مشوا بمحاذاة صف من الأكواخ البيضاء، ثم تجاوزوا دكان بقالة صغير، ومتجر أدوات مكتبية، وحانوت أصواف، وحانوت إسكافي تشغل واجهته دمية آلية منكبّة على إصلاح حذاء.

كان أول شاطئ مجاور وصلوا إليه خليطاً من الرمل والحصى. فجلسوا عنده وراحوا يتمتعون أنظارهم بتأمل الخليج. كان على الشاطئ عدة عائلات وأزواج من المصطفافين. بعضهم يجلس مسترخياً على الكراسي البحرية، وبعضهم يسبح في البحر. ومع أن توم كان قد قرأ في الصحف مؤخراً، أن معظم شواطئ إنجلترا ملوثة، إلا أنه شعر بالارتياح لوجودهم في قرية سالماوث. فهي لم تكن مطروقة كثيراً كغيرها من الشواطئ. وهذا جعلها أكثر هدوءاً ونظافة. وبعد فترة من الوقت، غادر المصطفون الثلاثة الشاطئ، وسلكوا طريق العودة إلى كوخ السيدة كلارنس وهم يتصوّرون جوعاً.

"لقد وضعت لكم أغراضكم في غرفكم"، قالت لهم السيدة كلارنس حالما رأتهم. "وأنتما أيها الصبيان ستنامان معاً في الغرفة الخلفية، و.. السيد أوكلي"، أضافت وهي تنظر إلى توم، "ستنام في الغرفة الأمامية المجاورة لغرفتي".

شكرها توم على حسن ضيافتها. ثم جلسوا لتناول وجبة السمك المحمّر، والفاصولياء العريضة التي اقتطفتها السيدة كلارنس من حديقتها حديثاً، والبطاطس المشوية، وشرائح من القرع المقلي. وأعطى توم السيدة كلارنس حصته من السكر والزبد، وعرض عليها أخذ أي مؤونة أخرى تحتاج إليها.

كان قد سبق لماكس أن أكل السمك عدة مرات من قبل، لاعتياده على الاصطياف عند شاطئ البحر مع والديه أثناء عملهما في مواسم الصيف. ولكنها كانت المرة الأولى التي يحظى فيها برفيق من جيله

يشاركه مسرات الصيف. إذ كان يقضي معظم عطلاته السابقة وهو يتجول في الأرجاء وحيداً. وإن حاول مجازبة الغرباء أطراف الحديث، لم يلق منهم سوى الصدود. لأن مظهره الغريب وصراحته المباشرة وتلقائيته كانت تزعجهم، وتجعلهم يتجاهلونه. أما ويل فكان يُشعره بأنه يستطيع القيام بأي شيء، وقول أي شيء، بل وأن يكون أي شيء من غير أن ينقص ذلك من محبته له.

وبعكس ماكس، كان ويل يتذوق طعم السمك لأول مرة في حياته. لذا علمته السيدة كلارنس كيف يحدث شقاً صغيراً في السمكة، ثم يفتحها على الجانبين بحذر ودقة، لسحب الحسك الطويل منها.

في الحقيقة، لم يكن تأثر المصطافين الثلاثة مقتصرأ على حسن ضيافة السيدة كلارنس. فقد ترك منزلها في نفوسهم أعماق الأثر بترتيبه الخاص المختلف عما ألفوه في بيئتهم. إذ لم يكن يحتوي فقط على مطبخ منفصل، وعلى غرفة طعام تابعة لغرفة الجلوس، بل كان يوجد فيه أيضاً مرحاض وحمام في الطابق العلوي عند نهاية درج ضيق متعرج. وقد دُهِش ويل كثيراً من فكرة وجود غرفة منفصلة مخصصة للاستحمام، فيها صنابير ماء ساخن وماء بارد، ومرحاض له سلسلة معدنية ما إن يجنّبها المرء حتى يتدفق الماء في المرحاض لتنظيفه. كان كل ذلك مختلفاً كل الاختلاف عن كوخ المرحاض القائم وراء بيت توم، والمؤلف من ألواح خشبية تكشف عن فجوة تنفذ إلى حفرة أرضية عميقة.

بعد وجبة السمك، تناولوا التفاح المشوي والمُحَلَّى بالعسل. ونظراً إلى انسياق السيدة كلارنس في الحديث أثناء طهيها للتفاح في الفرن، لم تظن إليه إلا بعد أن كان قد تحول إلى أشكال عجيبة، تعلوها طبقات وطبقات من الرغبة. فاعتذرت كثيراً عن سهوها ونسيانها له. إلا أن توم وويل وماكس أكدوا لها أنهم يفضلون التفاح المشوي كما قدمته لهم.

وبينما هم جالسون، انبرى توم يتفحص الولدين وما آلا إليه. ولاحظ أن بشرة ويل التي مرّت بمراحل مختلفة من الاسمرار، بدءاً باللون الوردي خلال الرحلة، أصبحت في ذلك الوقت مائلة إلى اللون البرونزي، مع نمش غزير جداً غطى وجهه كله.

"اسمع،" هتف ماكس الذي لاحظ هو الآخر تلك الظاهرة الجديدة،
"أصبح لديك الآن ملايين وملايين من النمش يا صاح."
"أحقاً؟" قال ويل بدهشة.

"نعم. لا بد أنه كان كامناً تحت جلدك لسنوات وسنوات وسنوات."
سارع ويل إلى تفحص ذراعيه اللتين كشفت عنهما أكام قميصه
المشمرة.

"لدي الكثير من النمش على ذراعي أيضاً،" أعلن متعجباً. "يا للغرابة!"
"طعم فمي مالح. هل فمك كذلك؟" قال ماكس وهو يلحق شفتيه.
لحق ويل شفتيه وأوماً برأسه.
"وكذلك أنا،" أعلن توم.

"سوف أغير اسم هذه القرية إلى اسم: قرية الفم المالح!" قال ماكس،
ثم تراجع بظهره إلى الوراء مبدياً سعادته لتوصله إلى هذا الاختراع.
"يعجبني هذا،" قال ويل وهو يبتسم.

عندما انتهى العشاء، شعر ويل وماكس بالنعاس يزحف إلى أجانها
التي ألقها هواء البحر العليل. وكانت فكرة تقاسمهما لغرفة واحدة قد
ملأتهما حماساً، فغادرا إلى النوم بمحض إرادتهما. وخلفا توم والسيدة
كلارنس وحدهما ليستمعا إلى وقائع حفل إذاعي.

حينئذ، تناولت السيدة كلارنس أدوات حياكتها، وانبرت تحيك وتثرثر
في آن واحد. أما سام فحاول جاهداً بث شيء من الحيوية في رمبل
الذي كان يشغل الموقع الأفضل قرب المدفأة، إلا أن محاولته ذهبت
هباءً.

بادر ويل وماكس إلى ارتداء سروالي منامتيهما، حينما صعدا إلى
غرفتهما في الطابق العلوي. وأخذا يتأملان ترتيبها بسريريها اللذين
تتوسطهما النافذة القبلية المطلّة على البحر. كانت النافذة ذات إطارين
مؤلفين من قضبان خشبية متشابكة ومتعارضة مع الزجاج. ولكل إطار
مزلاج يمكن استخدامه لدفع الشباك نحو الخارج. وفي ذلك الوقت كان
الإطاران مفتوحين. لأن السيدة كلارنس قالت إنه مادام النور غير
مضاء، فهم ليسوا في حاجة إلى وضع ستائر التعقيم. اتكأ الصبيان
على النافذة، وتركوا نسيم الليل المنعش يداعب وجهيهما، وراحا يرنوان

إلى القمر المكتمل وهو يزين حلقة السماء الصافية، وينصتان إلى مهمات الأمواج تداعب الشاطئ وراء الحديقة الخلفية الصغيرة. أما في الطابق الأرضي، فسرعان ما استرخى توم في مجلسه. وحاول الالتفات إلى القراءة، في تلك اللحظات التي لم تكن السيدة كلارنس تقاطعه خلالها بأحاديثها اللانهائية. فقد كانت السيدة كلارنس في الحقيقة امرأة خجولة. وكانت تنفس عن خجلها بتلك الانفجارات المتواصلة من الثرثرة. لكن توم أدرك أن نفسها المضطربة ستهدأ قليلاً ما إن تعتاد على وجودهم في بيتها.

بالطبع، حاولت السيدة كلارنس تكهن حقيقة العلاقة التي تربط توم بالصبيين. ولم تنجح إلا في ملاحظة شيء من الشبه بينه وبين الصبي الأشقر، أوحى لها بوجود صلة من القرى بينهما. أما الصبي الأسمر المبكر النضج فلم يكن يشبه أي منهما. وراحت تتساءل في سرّها عن نوعية القرابة التي بين توم وويل، وهل هو ابنه أم حفيده؟ ثم وجدت نفسها في وضع محرج جداً ساعة اكتشفت أن توم أرمل، إذ رأت أنه رجل بالغ الجاذبية. وجعلها هذا تفقد شيئاً من رباطة جأشها. بل وتشعر بالفزع من اندفاعها الذي يشبه اندفاع المراهقات. وعندما فرغت وتوم من الاستماع إلى نشرة الأخبار، كان الفضول قد بلغ بها مبلغه، فوضعت أدوات حياكتها جانباً وسألته:

"هل ماكس صديق ابنك؟"

رفع توم عينيه من على كتابه مندهشاً.

"ابني؟" قال بنبرة هادئة.

"ويل، إنه يشبهك كثيراً، وتصرفاته تشبه تصرفاتك."

"إنه من النازحين"، بدأ توم، ولكنه لم يمض في الحديث أبعد من ذلك.

ففهمت السيدة كلارنس أن ماكس كان الطفل النازح الوحيد.

"كم هو لطيف منك يا سيد أوكلي، أن تأخذ طفلاً نازحاً في رحلة اصطيف"، قالت بحرارة وصدق كبيرين، لكنها شعرت رغم ذلك أنها لم تقه حقه من المديح.

أما توم الذي اعتراه ارتباك بالغ من هذا الإطراء، ففضل إغفال ذكر أن ويل هو أيضاً من الأطفال النازحين. فلم يعلق بكلمة. وأمل في

سرّه أن يتغير الموضوع. ثم غادر مجلسه وصعد إلى غرفة الصبيين ليطمئن عليهما، ووجدتهما عند حافة النافذة يحدقان في البحر. فوضعهما في سريريتهما، وداعب رأسيهما قبل أن يغادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه.

وبعد برهة، تقلّب ماكس في سريره، ثم استلقى على ظهره، وأسند رأسه على ذراعيه.

"أتعلم يا ويل،" همس، "إن هذا أروع وأبدع وأجمل شيء حدث في العالم الواسع كله."

"إيه،" وافقه ويل.

ثم التزما الصمت، واستلقيا يحملقان في الظلام الذي كسرت حدته أشعة القمر الفضية، المسترخية على الأرض الخشبية البيضاء.

"أليس هذا الصوت رائعاً؟" همس ويل، وعيناه تحدقان في السقف بسعادة لا مثيل لها.

"ممم ما ذا؟" سأله ماكس نصف نائم.

"صخب الأمواج."

كان ويل متربّعاً على حافة النافذة مع دفتر الرسم على ركبتيه، عندما شخر ماكس وتقلّب في سريره. فالتفت ويل ورنا إلى وجه صديقه الأسمر، وشعره الأسود المجعد المبعثر على الوسادة البيضاء، ثم عاد إلى رسمه من جديد. فشخر ماكس ثانية، لكنه هذه المرة فتح عينيه، ونظر صوب سرير ويل. ولما وجدته فارغاً، هبّ من سريره بسرعة ليبصره عند النافذة.

"هل استيقظت منذ وقت طويل يا صاح؟"

هزّ ويل كتفيه.

"منذ ساعة تقريباً، على ما أظن."

"ولماذا لم توقظني؟"

"ظننت أنك تودّ البقاء نائماً."

اتكأ ماكس على حافة النافذة قرب ساقي ويل. ورنا إلى البحر، فطالعه سديم طفيف كان يجلج سطح الماء البراق.

"أظن أنه سيكون يوماً سحرياً، ويوماً حاراً أيضاً،" قال وعيناه ترنوان إلى دفتر ويل. فرأى رسماً لنورسين يرفرفان فوق بحر هادئ. "أتمنى لو أنني أستطيع جعل الشمس تشرق على الأمواج، لتضفي عليها نوعاً من التلألؤ،" قال ويل وهو يتنهد ويرجع بجسمه إلى الورا، ليستند على الجدار.

"أوه يا ويل،" هتف ماكس، "إنها لوحة بديعة. ولو حاولت رسم هذا المنظر لما رسمت أكثر من خط متعرج وسط الورقة، مع مجموعة من الغيوم التافهة فوقه، وبعض الخطوط المائلة في الأسفل." فانبرى ويل يضحك من تعليق ماكس، لكن السيدة كلارنس قاطعتهم بنقر لطيف على الباب.

"الإفطار بعد خمس دقائق يا أولاد،" غرّدت منادية على الصبيين. "حاضر،" صاح ماكس بمرح، لأن ذلك الصباح كان يعني له بداية يوم آخر من أيامه الرائعة. وسارع ويل إلى مغادرة حافة النافذة، ثم وضع دفتر الرسم على الطاولة الخشبية الصغيرة تحت النافذة، واستعدّ للنزول. وفي الطابق السفلي اكتشف الصبيان أن توم أيضاً كان قد استيقظ باكراً، واصطحب سام في نزهة على الشاطئ.

جلس الثلاثة إلى المائدة مع السيدة كلارنس، وتناولوا إفطاراً غنياً. ثم غادروا إلى الشاطئ مع غدائهم. وبعد أن ساروا مسافة ميل تقريباً على امتداد البحر نحو بعض الأجراف، سلكوا درباً ضيقاً، حادّ الارتفاع، ثم شقه بين الأعشاب والحشائش. وعندما بلغوا نهايته تابعوا السير حتى وصلوا إلى فرجة صغيرة وسط مجموعة من الأشجار. هناك، شقّوا طريقهم عبر ممرّ آخر شديد الانحدار إلى أن بلغوا خليجاً رملياً ظليلاً، كانت الأجراف تحيطه من جانبيه كأنها أذرع أريكة هائلة الضخامة. فسارع ماكس وويل إلى خلع ملابسهما، وبقياً بسرواليهما الداخليين. وشمرّ توم بنطاله وأكمام قميصه، وغطّى رأسه بمنديل عقده من أطرافه الأربعة. أما سام فأخذ ينبش الرمل مرسلأ إياه في الهواء كالشلال، حتى تكوّم خلفه على شكل هضبة صغيرة. ولم تمض هنيهة إلا وكان ماكس وويل يتوجهان صوب البحر. فلازم ويل حافة الشاطئ، في حين اندفع ماكس إلى الماء، وراح يرش رشه على جسمه،

ويشهب من برودته. ثم بدأ يرشق ويل بالرزاذ، فتراجع الأخير إلى الوراء مجفلاً.

"تعال يا ويل،" صاح ماكس وهو يمضي قدماً. "ستكتشف أن هناك مواقع أكثر دفئاً من غيرها إذا واصلت التحرك."

أوماً ويل مكرهاً، وخاض في الماء إلى حدود كعبيه، تاركاً الموج يداعب قدميه.

كان توم في تلك الأثناء جالساً على الشاطئ الرملي يراقب ما يجري. ولما رأى ويل يتراجع، وينظر إليه بطرف عينه، قرّر المبادرة إلى التصرف. إذ كان الفتى راغباً في وجود السيد توم قرب، لكنه لم يرد الظهور بمظهر الجبان. وفي الوقت نفسه، كان توم راغباً في مساعدته، إلا أنه لم يشأ التدخل قبل الأوان.

"تعال يا سامو،" قال توم منادياً كومة الفراء الساخن التي قبع في إحدى الحفر لتستظل بها. "تعال، وامرح قليلاً في الماء المالح يا صغيري،" أردف وهو يحمل سام ويدنو به من الماء.

وعندما رأى ويل سام ينبج على البحر، مطارداً أمواجه تارة، وملاحقاً من تلك الأمواج تارة أخرى، زالت عنه بعض مخاوفه، لأن منظر سام بدا مسلياً ومضحكاً جداً. ولم تمض هنيهة إلا وكان توم يعوم في الماء وراء سام.

"ها تعال يا ويل،" قال توم مشجعاً. "أجمع الماء بيديك ورشه على جسمك. سيجعلك هذا تألف برودته. وسأمسكك إذا وقعت."

وهكذا، أوغل ويل في الماء إلى حدود خاصرته. وبمساعدة كل من ماكس وتوم، بدأ يخوض في البحر. لم يكن توم، في الحقيقة، قد زاول السباحة منذ أكثر من عشرين سنة، وكانت تلك السباحة مقتصرة على النهر في ويروولد الصغيرة. لكنه، لم يجلس والصبيين لتناول الغداء إلا وكان قد قرر شراء ملابس سباحة للجميع. وعندما فرغوا من الأكل، استسلموا إلى إغفاءة قصيرة في بقعة ظليلة من أحد الأجراف. ثم عادوا إلى السباحة مرة أخرى. واستطاع ويل أن يتعلم العوم بسرعة كبيرة، مما أثار غيرة ماكس. إذ كان ماكس يُقن السباحة على ظهره وصدره وباستخدام ساقيه، إلا أنه لم يستطع تعلم العوم أبداً. لأنه

كان من النوع الذي يفضل الحركة باستمرار. وكانت فكرة الاستلقاء بلا حراك تصيبه بالقلق. أما بالنسبة إلى ويل، فلم يجد شيئاً أكثر روعة من التزام الهدوء والامتناع عن الحركة. وفي البداية كان يستلقي، ويغمض عينيه، ويتلصص من خلال جفنيه على السماء المذهلة بضياؤها الأخاذ، وبحسب سرّاً كم يستطيع العَدّ قبل أن يغوص. ومع نهاية الأمسية، بدأ ينسى كل ما حوله حتى كاد في إحدى المرات أن يستسلم للنوم.

مرّ اليوم الأول والثاني بسرعة كبيرة، وكذلك الأيام التالية. وكان المصطافون الثلاثة يقضون معظم وقتهم عند الشاطئ، يسبحون بملابس السباحة القطنية الجديدة، أو يلعبون كرة المضرب، أو يبنون قصوراً رملية ويجمعون الأصداف.

وذات يوم مشوا على امتداد الأجراف، وحول الخليج حتى بلغوا منزلاً قديماً جداً. وفي يوم آخر قضى ويل نهاره عند الميناء الصغير يرسم الزوارق، في حين ذهب ماكس في رحلة على دراجته، واصطحب توم السيدة كلارنس في نزهة على دراجته المزدوجة.

ولم تمرّ عشرة أيام إلا وكان ويل قد تعلّم السباحة على صدره. وصار بإمكان ماكس أن يعدّ إلى العشرة وهو عائم على ظهره.

وخلال تلك الفترة كانت نشرات الأخبار الإذاعية قد بدأت تنذر بالشؤم. لدرجة أن ماكس القلق على والديه تسلل ذات أمسية من سريره، ليتنصّت إلى أخبار الساعة الثامنة. إذ كانت أمه في ذلك الحين قد تطوعت لقيادة سيارة إسعاف، وانضمّ والده إلى فريق الإطفاء المدني.

كان أهالي قرية الفم المالح على اقتناع كامل بأن القصف المؤخر الشديد على المدن الكبيرة ليس إلا مقدمة غزو شامل. وفي تلك الفترة تمّ العثور على سبعة عشر مظلياً في ميدلاند، وتعرضت ساوثمبتون إلى عدة غارات. وكان الطيران الملكي الحربي يُسقط حوالي ستين طائرة للعدو يومياً، ويشنّ غارات ثقيلة على ألمانيا. ثمّ أعلنت الأخبار الصاعقة عن الغارة الجوية على كرويدن التي قتل على إثرها ثلاثمائة عامل من عمال المصانع. حينئذ، استولي على توم هاجس كبير بضرورة العودة إلى ويروولد الصغيرة. إذ تملكه شعور مبهم بأن

ماكس وويل سيكونان أكثر أماناً هناك. لكن السيدة كلارنس أصرت على بقائهم. فقرّر به القرار على تكملة الأيام الثلاثة المتبقية التي كانوا قد خططوا لها.

في تلك الأثناء، ظلّ الطقس القائظ استوائي الحرارة. وهذا، جعل المصطافين الثلاثة يشعرون بالأسى على أي شخص تضطّره ظروفه إلى العمل في مدينة خالية من نسيم البحر العليل. وفي السبت الأخير من أيام عطلتهم، وبينما كانوا عاندين من يوم سباحة آخر، فوجئوا بعناوين منصّات الإعلانات التي طالعتهم خارج متجر الصحف. إذ جاء فيها: "جنوب غرب لندن يتعرّض للهجوم". قصف مالدن بضراوة لا مثيل لها". ثم اكتشفوا أن الصحف كانت قد نفدت من المتجر. لأن تقنين الورق جعل نسخ الصحف قليلة واستثنائية. والقليل المتوافر منها كان يوزّع تلقائياً على المواطنين. ثم، ولحسن الحظ، عثروا على نسخة من صحيفة ذلك اليوم عند السيدة كلارنس. فسارع ماكس إلى قراءة محتوياتها بقلق عظيم. وتبيّن أن ما أدى إلى مقتل ذلك العدد الهائل من الناس هو استخدام العدو للتقنيات الحربية العازلة للصوت، والتي استعصى على الناس سماعها.

"أظن أنك ترغب في الاطمئنان على والديك يا فتى"، قال له توم بحنان. أوماً ماكس بدون أن ينبس ببنت شفة. كان طيلة فترة اصطيفاه مواظباً على الكتابة لوالديه كل يوم تقريباً. أي أنهما كانا بدون شك يعرفان عنوانه. إلا أنه رغم ذلك لم يستلم أي كلمة منهما. ولم يكن شخّ الرسائل يقلقه في الأحوال العادية، فهو يعرف جيداً أن والديه غالباً ما يكونان منشغلين جداً في مهام اللحظات الأخيرة من أي عرض؛ مثل الإشراف على التقنيات وتجربة الملابس. حتى إنهما بالكاد يجدان متسعاً من الوقت لتناول الطعام أو النوم، فما بالك بكتابة الرسائل. ولكنهما كانا يسارعان دائماً إلى تعويض انشغالهما عنه برسالة طويلة مفصّلة، عندما يبدأ العرض. لذلك، ومع كل تلك الأخبار عن تعرّض لندن للقصف، كان صمتها يسبب له ذعراً عظيماً.

"سنبحث عن هاتف يا فتى لنتصل بآل ليل،" أعلن توم. "عسى أن يكون والداك قد أرسلاك لك كلمة إلى هناك."

"أشكرك شكراً جماً يا سيد توم،" قال ماكس.

"هل ستهتف لهم قبل العشاء أو بعده؟" سألتها السيدة كلارنس.

"الآن،" أجاب توم وهو ينظر إلى ماكس الذي بدا شحوبه جلياً رغم سمرته الحادة.

وهكذا، غادر الاثنان البيت. وبقي ويل مع السيدة كلارنس ليساعدها في إعداد الطاولة، وليدهن الخبز بالزبدة وهو يستمع إلى برنامج الأطفال في المذياع. وعندما عادا كان ماكس قد رجع إلى طبيعته المرححة السابقة. إذ علم أن والديه تركا له رسالة مع آل ليتل يقولان فيها أنهما بخير وعافية، وأنهما آسفان لعدم الكتابة له، ولكن كثرة الإصابات، وأنهماكهما في المساعدة استهلك معظم وقتهما.

أخيراً أطلّ يوم الأحد، اليوم الأخير لهم في قرية الفم المالح. فقصّد توم وويل كنيسة القرية للصلاة. أما ماكس فبحث لنفسه عن بقعة ظليلة عند شاطئ البحر ليركن إليها. ومع أنه لم يكن يحسن ترتيل الصلاة التي يعرفها الناس عادة، إلا أنه جلس في مكانه بخشوع، ودمدم بكلمات الشكر لمبدع هذا الكون. فبدا وكأنه يتلفظ بكلمات سحرية كانت كفيلة بإشاعة السلام في قلبه وفي العالم من حوله. وتذكر أن والديه كانا قد أوضحا له أن الله أياً ما كانت ماهيته، فهو قادر على فهم الأفكار الصامتة.. إلا.. إلا أنه شعر براحة كبيرة عندما جهر بكلمات الشكر والامتنان.

في ذلك اليوم، أعدت لهم السيدة كلارنس وجبة غداء استثنائية، اشتملت على الدجاج المحمّر، والبطاطس المشوية، والخضار، والبوظة التي صنعتها بنفسها مع الاستعانة بثلاجة بائع السمك. لذلك، كانت تلك البوظة بنكهة ومذاق الفانيليا، ولكنها حتماً برائحة السمك!

وفي المساء قام توم وماكس وويل بنزهة أخيرة على الدراجتين حول القرية، وعلى طول دروبها الجانبية الوعرة الممتدة فوق قمم الأجراف. ثم نزلوا الشاطئ، وجلسوا يتأملون غروب الشمس المغناج، في حين راح الغسق يجلل أفق السماء بملاءة وردية وبرتقالية.

وعندما عادوا استقبلتهم السيدة كلارنس بمفاجأة الوداع. إذ كانت قد أعدت لهم إبريقاً كبيراً من شراب التفاح المنزلي الصنع. وبما أن

الطقس كان يميل إلى البرودة في ذلك المساء، أشعلت لهم المدفأة. فتحلقوا حول نارها الوديعة، وتناولوا الخبز والجبن والبصل مع شراب التفاح الذي دفاً بطونهم، ورطب أجسامهم الملوحة بالشمس.

كان الاسمرار الذي اكتسبته بشرة ويل قد أخفى معظم النمش المنتشر في وجهه. أما الشمس وماء البحر فحولاً بعض خصلات شعره الشقراء إلى البياض. ولم يحل إحساسه بالاسترخاء العميق بينه وبين التفجر بالصحة والحيوية. وفي ذلك اليوم، حين جلس يعبّ شراب التفاح، ممسكاً الكوب النحاسي بكلتا يديه، كان ثغره المبتسم يكشف عن أسنان بدت ناصعة البياض بالتعاكس مع وجهه الأسمر.

أما ماكس الذي كاد يصبح أسود البشرة، فقد ازداد تجعد شعره وتطايره. وبدا واضحاً أن تجربة العوم التي اختبرها كانت ذات مفعول مهدئ عليه. إذ غدا أقل عصبية وتململاً وتقللاً. ورغم أنه لم يتوقف نهائياً عن تقمص دور البهلول لإضحاك الناس، كف عن بذل الجهد العظيم ليكون مسلياً ومحبباً. وسمح لنفسه، ولو لمرة واحدة على الأقل، أن يسترخي ويفسح المجال للآخرين ليرفّحوا عنه.

وبما أن توم كان قد قرّر منذ مغادرتهم ويروولد ألا يخلق لحيته، غدا وجهه مكتسباً بلحية مجمدة تبلغ من العمر أسبوعين. كما أن شعره تحول بتأثير هواء البحر إلى حلقات صغيرة ملتوية ومنبقة من رأسه بفوضى كبيرة.

جلس الثلاثة يحدقون ببعضهم من خلال غشاوة النشوة التي بعثها فيهم عصير التفاح. وبدا لهم أنهم كانوا يرون تلك التغيرات الطارئة على كل منهم لأول مرة. قال ماكس إن توم يبدو مثل ابن بابا نويل. وقال ويل إن ماكس يشبه دمية سوداء بشعة. وقال توم إن ويل يمكن أن يكون بيضة منقطة، بُنية اللون، تنبثق منها ريشة بيضاء.

بعد العشاء تجول ماكس وويل على رصيف الميناء الصغير. كانت ليلة نادرة بصفاتها. وكان البحر يستلقي بتكاسل مستحماً بأشعة القمر. تجاذبا أطراف الحديث بأصوات عالية، وأعربا عن حزنهما لمغادرة قرية الفم المالح. ولكنهما كانا في الوقت نفسه يتطلعان بشغف إلى لقاء جورج والتوام. وكانت حصيلة العطلة ثلاثة دفاتر مليئة بالرسوم

بالنسبة إلى ويل. ومطلع شعر ملحمي جديد لماكس، يتحدث عن رهط همجي من المهربين. ولكن، نظراً إلى أنه استهلك الحكاية بالحديث المستمر عنها، فترت طاقته على إتمام القصيدة مع نهاية البيت الثالث منها. تتأقشا حول ابتداع أفكار جديدة للعب في الخريف، وتحدث ماكس عن طموحاته المستقبلية، ورغبته في أن يكون ممثلاً ترفيهياً عالمي الشهرة. أما طموحات ويل فكانت أكثر تواضعاً وارتباطاً بمحيطه. إذ أعرب عن رغبته في مواصلة الرسم، والاشتراك في مسرحية موسم الخريف المقبل. تأملاً البحر بصمت، ثم عادا بخطى وئيدة إلى البيت. ووجدا توم والسيدة كلارنس مسترخيان قرب المدفأة وهما يتجاذبان أطراف الحديث. فجالسهما لبعض الوقت. ثم تناولوا شراب الكاكاو، وصعدا إلى الطابق العلوي ليأويا إلى الفراش.

حل الصباح التالي مؤذناً بالرحيل. ووقف الجميع خارج البيت مع سلالهم والدراجتين. وودّعا السيدة كلارنس التي أسعدتها رفقتهم كثيراً، وأحزنها فراقهم. وعندما مضوا يدفعون الدراجتين قدماً، ظلت واقفة تراقبهم حتى هبطوا التل، واختفوا عن ناظرها.

كان اليوم الأول على طريق العودة بعد جلب الفرس دوبس والعربة يوماً جميلاً. ولكن يوم الثلاثاء حمل معه المطر المدرار، وأرغم المسافرين العائدين علي ارتداء المعاطف والقبعات. ونظراً إلى أن رحلة العودة كانت جزءاً من العطلة أيضاً، توقفوا لتناول شيء من الطعام تحت ظلال قنطرة من أغصان الأشجار. لكن يوم الأربعاء حمل إليهم بشائر الخريف. ورغم تلك المعالم الصيفية التي كانت ما تزال مهيمنة على أشجار الحقول وأزهارها، دبّت في أوصالهم برودة الطقس، بينما أطلّت عليهم السماء بألوانها الرمادية، وأعافت الريح الصاخبة تقدمهم.

أخيراً، وصلوا إلى ويروولد الصغيرة مع الغسق تقريباً. وبادروا إلى إطعام دوبس على الفور. وعندما دخلوا البيت، وجدوا على طاولة غرفة المعيشة مجموعة أغراض أحضرها جورج والتوام. كانت تلك الأغراض تتألف من باقة أزهار ووعاء من ثمار العليق من التوام، وفطر وملفوف من جورج، وعدة بطاقات ترحيب. واكتشفوا أيضاً أن

السيدة فليتش قد جلبت لوازم البقالة، وتركت لهم قصعة كبيرة من حساء الخضار على الموقد المتأرجح.

بقي ماكس مع توم وويل لبعض الوقت، وتناولوا معاً الحساء والخبز، ثم غادر إلى منزل آل ليتل. واجتاز بدراجته مرعى دوبس، فالدرب المقنطر حتي وصل إلى سياج حديقة منزل آل ليتل. وهناك ركن دراجته جانباً ريثما يتعارك مع البوابة. وكان غارقاً حتى أذنيه في هذه المهمة عندما بُغت بصوت يهتف باسمه من بين أستار الظلام، فقفز من أرضه فزعاً.

"أوه، عفواً"، قال الصوت. "لم أقصد إخافتك."

نظر ماكس من فوق السياج.

"كاري!" صاح بدهشة. "ماذا تفعلين هنا؟"

ساعدته على فتح البوابة، وانتظرت حتى أدخل دراجته.

"إنك تبدو أشبه بالزئوج يا ماكس"، أعلنت وهي تمعن النظر إليه.

فابتسم ماكس بغبطة، وقال:

"مظهر مثالي لدور عطيل، أليس كذلك؟"

"ماذا تعني؟" سأله بنبرة ساخطة، بعد أن أعياها انتظاره لمدة ثلاث ساعات تقريباً.

"البربري المتيم"، أوضح ماكس. "تعرفين ما أعني، مسرحية شكسبير."

"آه، شكسبير!" زمجرت كاري. "ولكنك تعرف أنني لم أقرأ له بعد."

"بعد! أتعنين أنك تنوين القراءة له؟"

"أجل، أوه يا ماكس"، قالت وهي تمسك ذراعه، وتحقق برعب في قلب عينية.

"ماذا؟ ما بك؟" هتف ماكس، "ما الحكاية يا كاري؟"

"لقد.. لقد نجحت في الامتحان يا ماكس. وحصلت على منحة دراسية."

وهذا يعني أنني سأصبح تلميذة في المدرسة الثانوية."

كوخ الأشباح

في الحادي والثلاثين من شهر آب، وفي آخر يوم سبت قبل العودة إلى المدرسة، اجتمع ماكس وويل وجورج والتوأم وراء حقل آل بليك. وتواروا عن الأنظار تحت أغصان أشجار الزان، حيث اقتعدوا جذعاً ميتاً، وانهمكوا في مناقشة آخر تفصيل من تفاصيل خطة المغامرة التي ينوون القيام بها. إذ قرّر قرارهم أخيراً على غزو كوخ الأشباح.

طوى ويل الخريطة التي كانوا قد أعدوها، وحشّرها في جيبه. ثم تقاسموا في ما بينهم المصابيح اليدوية، وسلّكوا رفيعاً، ومطواة جيب، وحبلأ قديماً. ومضى جورج والتوأم يجتازون الحقل زحفاً بغية الوصول إلى طرفه. ووقف ويل وماكس يراقبانهم قبل أن يتبعا الوجهة المعاكسة لهم. وبدلاً من ارتياد الطريق المكشوف حيث يمكن ضبطهما بسهولة، دبا على درب الموازي له، وتواريا بين خمائل الأشجار الكثيفة. ولما وصلا إلى الغابة، أطلقا سيقانها للريح، وجريا بخفة وحيوية. وكانا بين مسافة وأخرى يختبئان وراء جذوع الأشجار، خشية أن يضبطهما مخلوق. لكنهما لم يكونا في حاجة إلى تكلف هذا العناء، لأن أحداً لم يكن في تلك الأنحاء، ما عدا السناجب التي انشغلت عنهما في جمع البندق استعداداً لبياتها الشتوي. وعندما بلغ مسامعهما خرير النهر الخافت، انحدرنا نزولاً إلى ضفته الطينية. ووقفنا أمامه بلا حراك ليتجرّعا بلسم سكينته العميقة. وكان ويل على وشك البدء بخربشة رسم تمهيدي لفأر حقل رآه عند الضفة عندما قاطعه ماكس.

"اسمع يا ويل، يجدر بنا أن نتحرك. فالآخرون سيصلون إلى هناك قبلنا بدهور. وحينئذ سيبدأ جورج بالنعيق بأعلى صوته. وإن لم نجبه سيظن أن شيئاً ما قد مزّقنا إرباً، والتهمنا."

وهكذا، سارعا إلى تسلق الضفة نحو قلب الغابة. ولاحظنا أثناء ذلك أن زرافات الغيوم بدأت تلتطّخ وجه الشمس، والريح تخش بين فروع الأشجار وأغصانها. وحين بلغا حدود الأجمات الباسقة الكثيفة المحيطة بكوخ الأشباح، كانت السماء قد اصطبغت كلها بلون رمادي داكن.

"أوه، أرجو ألا تمطر الآن"، قال ويل وهو يتطلع إلى السماء. "فمن المخجل أن نضطر إلى العودة بعد كل هذا العناء. مع ذلك، يمكننا في جميع الأحوال اللجوء إلى كوخ الأشباح."
لم يعلق ماكس بكلمة، إلا أنه جسمه ارتعش بعصبية.
"أ تشعر بالبرد يا ماكس؟" سأله ويل.
"آ... قـ... قـ... قليلاً."

حينئذ، جرفت الريح إليهما صدى نعيق ثلاثي متتالٍ، صادر من الناحية الأخرى من الغابة.

"سأعطيهـم إشارة: دعونا نتقدم أكثر"، قال ويل بحماس. وقبل أن يتمكن ماكس من منعه، أطلق عقيرته بالنعيق لثلاث مرات أيضاً، ثم عوى لمرتين متتابتين. كانت السماء قد غدت أكثر ظلمة، وتحولت همهمة الريح بين الأشجار من الخشخشة الخافتة إلى ما يشبه الحممة الغاضبة.

"م... م... ما كك... كان ذاك؟" نعب ماكس بذعر.
"لا شيء سوى صدى تكسر بعض الأغصان"، أجاب ويل.
فجأة، ومن وراء سياجات الأشجار الباسقة، طرق مسامعهما صوت غريب جعل جلدة رأس ماكس تخزه إلى أعماق أعماق جذور شعره.
"رباه!" همس ويل بانفعال.

كان الصوت الذي بدا أنه صادر من كوخ الأشباح نفسه عالي الطبقة. وكان لا يفتأ يعلو، ثم ينخفض، ثم يعلو مسبباً برودة مربعة في صميم الأرجاء المحيطة بالمكان.

جمد الصبيان في أرضهما، وحبسا أنفاسهما هلعاً. وطففت جميع أقاصيص ماكس الهزلية عن الأشباح على سطح خياله حتى بدأ يشعر بالدوار.

"أظن أنه علينا إرسال إشارة: نحن على ما يرام"، أعلن ويل الذي لم يلحظ ازدياد تخاذل ماكس وامتناعه. وبحماس بالغ سارع إلى إطلاق عواء طويل ثاقب لمرتين متتاليتين. ولم تمض برهة على إشارته إلا وجاءتهما الإشارة الأخرى من بين الأجماط. كانت تلك الإشارة عالية وممزوزة نوعاً ما. وكانت تنصّ على: دعونا نرحل من هنا.

"أكياس عجيب!" قال ويل. "تماماً عندما بدأ الأمر يصبح مثيراً،" ومن جديد، وبدون استشارة ماكس، أرسل إشارة: نحن بخير، ثم أتبعها بإشارة: سنقترب أكثر.

في تلك اللحظة، تصاعدت من الكوخ مرة أخرى أصداء الولولة الغريبة، وحلقت في الفضاء الواسع، فتبعتها حالاً إشارة: "نحن راحلون"، التي أطلقها جورج، وتلاها على الفور صدى تكسر أغصان واهتزاز أجسام. لكن ويل كان غافلاً عن كل ذلك، ومأسوراً بتلك الألحان المولولة المتناهية إليه.

"إنها تشبه ما يعزفه السيد توم على الأورغ في بعض الأحيان،" همس، ثم التفت إلى ماكس. "أما زلت عازماً على الاستمرار يا ماكس؟" أوماً ماكس برأسه عدة مرات، وهو مدرك ضمناً أن كل إيماءة من تلك الإيماءات لم تكن إلا كذبة كبيرة. كان يتمنى من صميم قلبه لو أنه يستطيع اللحاق بالآخرين الذين لاذوا بالفرار. ولكنه.. لكنه لا يقدر على خذلان ويل.

"جيد،" قال ويل بوجه باسم، وتابع شق طريقه وسط سياجات الأشجار الكثيفة المتشابكة. يلحق به ماكس من على مسافة أكثر أماناً. وكانا كلما ازدادا اقترباً من الكوخ، ازداد صوت الولولة الغريبة وضوحاً وقوة. أنا متأكد من أن شعري سيصيب.. قال ماكس لنفسه وهما يتجاوزان السياجات المتشابكة إلى الأرض المكسوة بالحشائش والهندباء البرية، والتي غاصا فيها حتى وسطيهما. فجأة، جذب ويل كم رفيقه وهمس:

"انظر، الباب مفتوح. وهذه الموسيقى الغريبة تأتي من داخل الكوخ." تفحصا الكوخ بحذر، وأبصرا على حافتي نافذتيه أصص فخار مزدانة بالفلّ الأحمر، بدت لهما مستهجنة وغريبة جداً بالمقارنة مع عشوائية الطبيعة، والكوخ القديم ذي النوافذ القذرة، والباب الخشبي المتآكل بفعل الريح والمطر.

تقدّم ويل إلى الأمام ببطء، ووقف مباشرة في مواجهة باب الكوخ وسط الحديقة المشبعة، وأخذ النظر إلى الداخل متفرساً في لجة العتمة السوداء. أما ماكس فبقي واقفاً بلا حراك بين أكوام الحشائش، ثم همس مخاطباً ويل وهو يرتعد فرقاً:

"أظن أنه يجدر بي تأمين الحماية الخلفية لك."

لكن، لم يبد على ويل أنه سمعه. إذ ظل متمسكاً في مكانه كشخص غارق في نشوة نوم أبدي. كان يشعر أن تلك الموسيقى الغريبة تلامس شغاف قلبه المرهف، وتسرب إلى أوصاله إحساساً بالخدر اللذيذ. ثم أفاق من غيبوبته حين توقفت الموسيقى عن الصداح، وحل محلها إيقاع حف متكرر، ثم نقر وطققة، ثم صدى صوت خشن يقول:

"يمكنك الدخول إذا شئت."

قفز ويل فزعاً، وصرخ ماكس من مكمنه، وخرّ على ظهره. ثم.. ثم بدأ وجيب النقر يزداد اقتراباً ووضوحاً. ولم تمض برهة إلا وكان الباب قد فتح، وظهر في فرجته شاب في أواسط العشرينات من العمر، يتكئ على عكاز مستعياً بها عن ساقه اليسرى المفقودة. كان ذا شعر بني متموج، وعينين زرقاوين، وشارب صغير، ووجه في حاجة ماسة إلى حلاقة جيدة. كان يرتدي قميصاً فاتح الزرقة، يسفر صدره المفتوح عن قميص داخلي قطني رمادي اللون. وكانت ساق بنطاله اليسرى مطوية إلى الأعلى ومثبتة على طرف وركه. حملق الصبيان بذهول في الفراغ الذي خلفته الساق المفقودة. ثم نظرا بسرعة إلى وجه الرجل، فاكتشفا أن إحدى أذنيه كانت مفقودة أيضاً. وحين رأى الرجل نظراتهما المتفحصة قال بمرارة:

"إنه ليس بالمنظر الجميل!"

لكن ويل وماكس كانا أكثر ذهولاً من أن يستطيعا الرد بأي شيء. "اعذراني لأنني أخفتكما"، قال الرجل. "ولكنني ظننت أنكما رأيتماني من النافذة"، أردف مبتسماً. "مع ذلك، وإذا أمعنا التفكير في الأمر، لا أظن أن أحداً يمكنه رؤية شيء من خلال هذا الزجاج. إذ لا شك أن الأتربة المتراكمة عليه يبلغ عمرها، على أقل تقدير، عشر سنوات." وعندما رأى الرجل أن ماكس ظل قابلاً في مكانه، لا يبدو منه إلا وجهه الأسمر المنبثق من بين الحشائش، توجه بالحديث إلى ويل.

"أتحب الموسيقى؟"

أوماً ويل.

"السيد توم يعزف على الأورغ"، قال بنبرة هادئة. "وأنا أعيش معه."

"لست من المنطقة إذن؟"

"كلا."

"من النازحين؟"

"آها."

"ومن أين جئت؟"

"من ديبنتفورد."

"هذا إذا كان قد بقي أحد منها. لقد عشت في لندن طويلاً. ولم أبرحها إلا قبل تسعة أشهر. وما من سبب يدعوني إلى العودة إليها الآن،" قال الرجل بوجه عابس.

"هل أنت من الجنود المقيمين في المزرعة التعاونية؟"

"أوما الرجل ومدّ يده مصافحاً.

"اسمي جيوفري ساندرسون."

خطا ويل إلى الأمام وصافحه.

"أنا ويل."

"وأنا ماكسيميليان ترينش،" قال ماكس وهو ينهض على قدميه.

"هه، يبدو أنه يستطيع الكلام، هذا الفتى،" علّق جيوفري، ثم انبرى

يحدث في الأشجار التي تمايلت بشدة بعد أن هاجمتها هبة ريح قوية.

"هذه الأشجار أعلى من أن أستطيع وضع أغطية التعقيم عليها، وظلمة

الكوخ أشدّ من أن تسمح لي بالرسم بارتياح. إنها حالة ميثوس منها."

"الرسم؟! سألّه ويل، بعينين مفتوحتين على وسعهما.

"نعم،" أجاب وهو يتجاوز درجتي العتبة الحجريتين قافزاً على ساقه

السليمة. "أستطيع أن أقدم لكما الشاي مع الخبز والمربى، فما رأيكما؟

ويمكنكما الجلوس هنا، أو الدخول إلى الكوخ."

"أنا أحب الدخول،" قال ويل فوراً. "أعني، إذا لم يكن لديك أي مانع."

"أما أنا فأفضل الجلوس على الدرج هنا،" قال ماكس.

وهكذا، تبع ويل جيوفري إلى الغرفة الرئيسية، وتفحصها بنظرة

سريعة شاملة. فأبصر في إحدى نهايتيها موقداً ضخماً، لم تكن شعلة

ناره قد تأججت بعد. وبمعزل عن بعض الأغراض القليلة المجلوبة من

مزرعة التعاونية، بدت له الغرفة خالية من الأثاث تقريباً. لكن انتباهه

تركز فوراً على أكوام الأوراق وقماشات الرسم المبعثرة على الأرض، وحامل الرسم الخشبي الطويل الذي تُبَتَّت عليه لوحة زيتية لمنظر طبيعي غير مكتمل.

"هل أنت رسام يا سيد؟" سأله ويل وهو يلحق به إلى المطبخ الفارغ إلا من رف يحتوي على بعض الأطعمة، والفناجين، والعديد من دوارق الدهان.

"أتعني أنني فنان؟ نعم. أقمت معرضي الأول في لندن قبل استدعائي إلى الجيش مباشرة."

"وهل كنت في دنكيرك؟"
"أجل."

"يا الله! من حسن حظك إذن أنك لم تخسر ذراعيك، أليس كذلك يا سيد؟"
"من حسن حظي؟! كرز جيوفري بمرارة.

لا.. هو لم يكن يعتقد هذا. فخطيبته أصيبت بقذيفة وهي بين ذراعيه وتبعثرت أشلائها أمام عينيه. ووالداه تم العثور عليهما ميتين تحت أكوام من الحجارة المنهارة. كما أنه خسر اثنين من أقدم وأعز أصدقائه، وفقد ساقه وأذنه، وتعرض إلى انهيار عصبي. فهل يسمى هذا حسن حظ؟

"أيه،" قال ويل، "إذ ما زال بمقدورك أن ترسم."
"وهل ترسم أنت؟" سأله جيوفري.
"آها."

"أين؟ في المدرسة؟"

"وفي أوقات فراغي."

"ها، أحقاً؟" قال جيوفري بدهشة. وكان على وشك تغيير الموضوع بحكم العادة. لأنه سابقاً كثيراً ما وجد نفسه مضطراً إلى مواجهة هواة الرسم الذين يلحون عليه لمعرفة رأيه برسومهم. وكان يجد ذلك محرّجاً للغاية. ثم، تردّد للحظة، وتناول قصاصة ورق وقلم فحم، وأعطاهما للفتى. "حسناً، أرني ما لديك."

"تريدني أن أريك رسمي؟" قال ويل بفرع. "ولكن.. ولكن أنت بارع كثيراً."

"وماذا عنك أنت؟"

"أوه، إنه عظيم!" هتف ماكس الذي كان في ذلك الوقت قد استجمع شجاعة كافية ليغادر العتبة ويدخل الكوخ. وللحال احمرّ وجه ويل حياءً.

"حسناً، ولكنني سأرسم في الخارج"، أجاب وهو يتجاوز ماكس، ويجلس على عتبة الباب.

وفي تلك الأثناء، تجاذب كل من ماكس وجيوفري بعض أطراف الحديث وهما يضعان المربي على الخبز. ثم حمل ماكس صينية الخبز والفناجين وإبريق الشاي إلى العتبة، وتبعه جيوفري، ووقف على مقربة من الباب. فأحسّ ويل أن أذنيه تشتعلان، وبدأت يده ترتعش رهبة. كان قد رسم سام رابضاً عند شجرة البلوط. وما كاد جيوفري ينظر إلى الرسم حتى سأله:

"كم تبلغ من العمر؟"

"سأبلغ العاشرة في الأسبوع القادم."

إذ ذاك، مضت فترة من الصمت، وقف خلالها جيوفري وهو يحدق في رسم ويل ملياً، ثم قال:

"أنت موهوب يا ويل."

غاص قلب ويل في صدره، وأحس بالحبور والخوف في لحظة واحدة. "من يعلمك الرسم؟"

"كانت السيدة هارتردج تُشرف علينا في المدرسة، ثم تركت التعليم بعد أن أنجبت. ولا يوجد الآن سوى السيدة بلاك، ولكن الآنسة ثورن تساعدني أحياناً."

"وبما أن عدد النازحين قد ازداد كثيراً الآن"، تدخل ماكس، "فإننا لا نعرف من الذي سيتولّى تعليمنا إذا لم يتوافر للمدرسة مدرسون جدد."

"ها؟ أتعني أن المدرسة تعاني من نقص في المعلمين؟" سأله جيوفري وهو يقوم بمناورة مدروسة ليجلس على الدرج بين الصبيين. ف شعر ويل بشيء من الاستغراب عندما وجد نفسه جالسا إلى جانب شخص مع وجود فراغ بينهما، كان يُفترض أن تشغله ساقه.

"نعم"، أجاب ماكس قبل أن يلتفت الجميع إلى تناول الخبز والشاي.

"سأرى إذا كان بإمكانني الإشراف على تعليمكم في المدرسة،" قال جيوفري بعد برهة. وفجأة، بدا كمن يحسن برضا لم يشعر به منذ وقت طويل. "أنا في الحقيقة لست خبيراً في هذا المجال، ولكني إن عزمت على القيام بعمل ما، أجد في نفسي القدرة على إنجازه. وأنت يا ويل،" أردف وهو يلتفت إلى ويل ويلامس يده. "ما رأيك في بعض دروس الرسم الخصوصية؟"

ظنَّ ويل أن قلبه سينفجر داخل صدره، وسيبتعثر نثراً ونبثاً. أوماً برأسه من غير أن يتكلم، ولم يستطع منع نفسه من الابتسام بسعادة لا يمكن وصفها.

"ياهاهو!" صاح ماكس. "قلت لك أنك ستصبح مشهوراً في يوم ما يا ويل. وأنا على يقين من أننا معاً سنصبح من المشاهير." "هه، أكيد،" قال جيوفري وهو يلوي فمه. "وما هو الشيء الذي سيكسبك الشهرة؟"

"إنني أنوي تسليّة العالم،" أعلن ماكس بتفاخر، ثم احمرَّ خجلاً من أسلوبه المتعطرس.

"في هذه الحالة ستكون مضطراً إلى العمل بجدّ كبير، وإلى بذل الكثير من التضحيات."

"أنا لا أريد أن أصبح مشهوراً،" قاطعهما ويل. "كل ما أبتغيه هو أن أرسم، وأن أكون رساماً بارعاً، بارعاً جداً." "وهل أنت مستعد لذلك؟"

"أوه، نعم،" أجاب ويل ببساطة صادقة.

"أما الآن، فقد حان الوقت لوضع أغطية التعقيم، وتأجيج النار،" أعلن جيوفري، بعد أن ألقى نظرة على السماء.

"سأساعدك،" هتف ويل على الفور.

"وأنا أيضاً،" أردف ماكس.

وهكذا، تعاون الثلاثة معاً حتى وجدت النار طريقها إلى المدخنة، وبدأت ترسل وهجاً دافئاً في الغرفة المضاءة بالشموع. ثم أرى جيوفري ويل أسطوانة ملفوفة بغلاف من الورق السميك عليه صورة كلب مع عبارة: *لسان حال سيده*. وتوجه إلى الحاكي المحطوط في

الزاوية قرب الموقد وأدار يده. ثم فتح صينية معدنية صغيرة مستديرة عند طرف الحاكي، وأخرج منها إبرة استبدل بها الإبرة الأخرى التي كانت مثبتة على نهاية ذراع ملتوية. بعدئذ، أخرج الأسطوانة من غلافها، وحملها من أطرافها ووضعها على أرضية الحاكي الدائرية، ودفع جانباً قرصاً معدنياً صغيراً. وحالما بدأت الأسطوانة تدور، رفع الذراع بتؤدة، ووضع الإبرة على حافة الأسطوانة، فصدرت عنها بعض الطقطقة، ثم تصاعدت الأنغام الموسيقية.

"ما سمعتماه وأنتما في الحديقة كان عزف برامز على الكمان،" قال جيوفري موضحاً، فدنا ماكس من ويل، ووقف إلى جانبه، وقال ضاحكاً:

"تخيل أنني كدت أموت فزعاً من هذا الصوت!" حينذاك، أخبر الصبيان جيوفري عن الاسم الذي يطلقونه على الكوخ، وعن رفاقهم الثلاثة الذين أسلموا سيقانهم للريح.

"وأنا الذي ما فتئت أتساءل عن سبب عدم تعرّضي للإزعاج هنا!!" قال جيوفري. "ولكني في الحقيقة كنت مرتاحاً لذلك. إذ كنت في حاجة إلى الوحدة لفترة من الزمن، حتى أنني تدبّرت أمر الحصول على الطعام من مزرعة التعاونية كي لا أضطر إلى الذهاب للقريبة."

"أوه!" هتف ويل وقد شعر بشيء من الحرج.

"أفضل أن نغادر؟" أضاف ماكس.

"لا، أظن أنه قد آن أوان خروجي من الصومعة."

انتهت الأسطوانة، فأعاد جيوفري وضع الإبرة عند بدايتها، ليستمعوا إليها مرة أخرى من غير أن يتكلموا. وتربّع الثلاثة أمام الموقد يراقبون كسر الحطب الصغيرة المحترقة، وألسنة اللهب التي كانت تططق وتزفر حممها في الموقد. وعندما انتهت الأسطوانة وقف ماكس وويل استعداداً للمغادرة، وألقيا على جيوفري تحية المساء. ثم شقّا طريقهما وسط الأجسام إلى قلب الغابة. وجريا على طول الطريق حتى بلغا البوابة الرئيسية لفناء المقبرة حيث وقفا يتحدثان.

"انظر،" قال ماكس وهو يتلفت حوالیه، "هناك سيارة خارج مدخل الكنيسة. لمن هي يا ترى؟"

هزّ ويل كتفيه.

"ربما كانت لشخص ما يبحث عن السيد بيترس"، أجاب وهو يفتح البوابة. ثم وقف يراقب ماكس أثناء تجاوزه الفناء ليتسلق السور المؤدي إلى الدرب المشجر. وما لبث أن سمعه يصيح مودعاً إياه قبل أن يختفي عن نظريه:
"أراك غداً يا ويل."

ولم يتمالك ويل نفسه فيمّ صوب البيت جرياً. فتح الباب الرئيسي بحماس، وصفقه خلفه بسرعة. كان يتحرّق شوقاً ليخبر السيد توم عن جيوفري، وعن دروس الرسم. دفع باب غرفة المعيشة، ودخل بوجنتين مشتعلتين، وقلب راقص.. راقص.. ثم.. ثم تسمّر أرضاً. رأى أمامه إضافة إلى السيد توم رجل شرطة من بلدة ويروولد، والحارس من ديبفورد، يصحبهما رجل متوسط السن يرتدي كنزة وسروالاً قطنياً، وامرأة بقبعة خضراء ومعطف.
"أهذا هو الفتى؟" قال رجل الشرطة على الفور.

أمعن الحارس النظر في وجه ويل المنمش الملوّح بالشمس، وشعره الأشقر الكثيف اللامع. وبدا له أن هذا الفتى الذي يقف أمامه بقامة منتصبه وساقين قويتين ممتلئتين، لا يكاد يشبه في شيء ذاك الصبي السقيم الهزيل الذي يُدعى ويلي. فالتفت بسرعة إلى توم الذي كان يقف قرب الموقد حاملاً سام لئلا يهاجم الغرباء.

"ألسن السيد أوكلي؟" قال الحارس بنبرة متشككة.

أوما توم.

"أعرف أنك تبدو مختلفاً قليلاً بهذه اللحية، ولكني مع ذلك ما زلت أستطيع التعرف عليك"، تابع الحارس قبل أن يعود ويتأمل ويل من جديد. "وهذا الفتى، أهو ويلي بيتش فعلاً؟"

"ويليام"، صحّح له ويل.

"أوه، لقد أصبح الآن ممثلناً صحة وجراًة أيضاً، أليس كذلك؟" قال الحارس بحنق. لكن المرأة سارعت إلى تهدئته بلمسة من يدها. كانت شابة في الثلاثين من العمر ذات بشرة نقية، وشعر بني فاتح، وعينين ودودتين دافئتين.

"أخشى أننا نحمل لك أخباراً سيئة يا ويليام،" قالت المرأة للفتى بصوت هادئ. "الموضوع يتعلق بوالدتك."
نظر إليها ويل برعب.
"أتريد استرجاعي؟" سألها بصوت متشنج.
"كلا،"

وعلى الفور تنفّس الفتى الصعداء، وافتر ثغره عن ابتسامة ارتياح.
"أ.. ترى.. يا.. ويليام،" تابعت المرأة بنبرة مترددة، "يحزنني أن أبلغك نبأ موت أمك. لقد.. لقد انتحرت."
نظر إليها ويل بذهول.
"لم أفهم ما قلته."
"لقد قتلت نفسها."
حدق ويل بها مصعوقاً.
"قتلت نفسها؟ ولكن.. ولكن لماذا؟"
"لا أعرف. أظن أنها لم تعد ترغب في أن تواصل حياتها أكثر مما فعلت."

رباه! كيف يمكن لأي شخص أن يرفض الحياة.. فكّر ويل.. ما دامت هناك أشياء كثيرة ينبغي العيش من أجلها. أشياء كثيرة كثيرة لا يمكن حصرها.. ليال ماطرة.. ورياح.. واصطخاب البحر.. ومداعبات القمر.. كتب ولوحات للرسم وموسيقى.. و.. و..
"أنا أعمل في ملجأ للأطفال في بلدة سوسكس يا ويليام،" قالت المرأة موضحة. "إنه مأوى مخصص للأيتام، وهو في الريف. ويعيش فيه عدد كبير من الأطفال. ونحن عادة نجد لهم أشخاصاً يرغبون في تبنيهم، وأخذهم للعيش معهم. أشخاص شبّان لديهم أبناء من صلبهم،" أضافت وهي تبتسم.
"ما تعنيه السيدة،" قال رجل الشرطة، "هو أنها ترغب في أخذك إلى الملجأ."

حشر ويل يديه في أعماق جيبي سرواله، ونظر في عينيها مباشرة.
"كلا،" قال، بصوت مرتعش قليلاً. "أنا لا أرغب في هذا. هذا هو بيتي وأنا باق هنا."

"اسمع يا بني"، قاطعه الحارس، "إن هذا ليس بأسلوب كلام لائق. واعلم أن لا خيار أمامك. السيد أوكلي هذا لم يعمل وفق ما يقتضيه القانون. والاختطاف جنحة خطيرة جداً." أخذ ويل نفساً عميقاً.

"عندما يختطف المرء شخصاً"، قال بصوت أجش، "فهو عادة يختطفه بغية الحصول على فدية. وفي كل هذا العالم لا يوجد شخص واحد قد يرغب في افتدائي سوى السيد توم." ثم نظر إلى توم. "وهو الشخص الذي تزعمون بأنه اختطفني. وفي هذه الحالة لا أعتقد أنك يمكن أن تسمي هذا اختطافاً، بل هو بالأحرى إنقاذ."

"تعتقد هذا؟ هه، هكذا إذن!" زمجر الحارس بنبرة ساخطة.

"نعم"، ردّ عليه ويل برباطة جأش. "نعم أنا أعتقد هذا."

بعد هذا الحوار الحادّ المقتضب، انشغل رجل الشرطة والحارس والسيدة في مناقشة أمر ويل، كما لو أنه لم يكن موجوداً في الغرفة. فاكتفى الصبي بتبادل النظرات الحائرة مع توم. أما الرجل المتوسط العمر الذي ظلّ جالساً بصمت قرب الموقد، فانبرى يراقب الجميع من خلال دخان غليونه.

"ويليام"، قال رجل الشرطة أخيراً، "تريد منك أن تذهب إلى غرفتك ريثما نتخذ قرارنا."

نظر ويل إلى توم. فأوماً له، وناولته سام.

"خذ يا فتى"، قال بصوت حنون. "دعه يسليك."

توجّه ويل إلى الباب والأسى يعتصر قلبه، ثم التفت مسعوراً كمن مسّه تيار كهربائي صاعق.

"لن أذهب معكم!" صاح بصوت جهوري حازم. "لن أذهب معكم ولو أوثقتموني بالحبال، وسجنتموني. سأهرب.. سأهرب وسأعود إلى هنا."

وبهذا الإعلان صفق الباب خلفه ووقف في الردهة وهو يرتجف، ثم تسلّق السلم إلى غرفته وسام بين ذراعيه. وجلس على السرير وسط الظلام ضائقاً من غضبه وشعوره بالعجز اللذين شلّا قواه.

"لن أذهب"، همس لسام. "لن أذهب. سأهرب. نعم سأهرب. هذا ما سأفعله. لكنني لا أستطيع الذهاب إلى ماكس. إنه أول مكان سيبحثون

عني فيه. ولا التوأم ولا جورج. لا.. يجب أن أجد شخصاً يمكن أن يخبئني عنده بدون أن يرتابوا فيه على الإطلاق."

أحد ذهنه بتصميم جبار، مستعرضاً في رأسه وجوه أهل القرية كلهم. "طبعاً،" صاح أخيراً. "ذاك هو الحل! لوسي! سوف تخبئني. سوف تخبئني لسنين لا يمكن عدّها. فهي تظن أن الشمس تشرق من بين أصابع قدمي."

وسرعان ما صوّرها له خياله وهي تُهرّب له إلى مكانه في مخزن التبن، في حظيرة آل بادفيلد، شطائر الخبز المدهونة بالمربي والإعجاب، والفناجين العامرة بالشاي والمحبة.

"سامو،" قال هامساً، "أنا مضطر إلى تركك يا صغيري." ثم، وبحرص وحذر بالغين، فتح باب السقيفة، وهمّ بالتسلل نزولاً، فبُغت بمرأى رجل الشرطة والحارس في الردهة. "تبا!" زمجر بسخط. "قات الأوان!"

كور قبضتيه بعنف، وثبتت وقفته استعداداً للمواجهة والمقاومة. كان جاهزاً لمحاربتهم بكل ما يملك من قوة. لكنه لاحظ أن أمراً ما غريباً وودياً كان يحدث هناك عند الباب. جثم، وحنّ أذنه على الأرضية الخشبية ليتمكن من التقاط شيء من الحديث الجاري بين الرجال، فلم يسمع سوى بضع كلمات عن عودتهم مع الأوراق. أخيراً، انغلق باب البيت، وتناهى إليه وقع خطوات توم أثناء ارتقائه درجات السلم.

"لقد رحلوا يا فتى،" قال وهو يفتح باب السقيفة. "يمكنك أن تنزل الآن." نزل ويل السلم حاملاً سام. فقفز الكلب من بين ذراعيه، وسبقه إلى غرفة المعيشة لينبح على الغرباء. واقتعد ويل المسند على مقربة من الموقد بوجه متجهم وقلب منقبض.

"لن أعذر عما بدر مني،" غمغم وهو ينظر إلى توم الذي جلس على الأريكة.

"أنا أسف بشأن أمك يا ويليام." وللحظة فتر غضب الفتى قليلاً، فرفع رأسه، والتقت عيناه بعيني توم. "لا أعرف لماذا فعلت هذا،" قال بحيرة مطلقة. "أكان ذلك بسببي، وبسبب ترودي؟"

"جزئياً،" أجاب توم، ثم تناول غليونيه وبدأ يحشوه بالتبغ. "ولكن الذنب ليس ذنبك يا بني. لقد كانت مريضة، ولم تستطع التأقلم مع مرضها."
"وماذا سيحل بي إذن؟"
نظر إليه توم بسرعة.
"سأبتناك."

"ماذا؟! هتف ويل.

"لا يوجد لديك أي أقرباء يا فتى. فالسلطات بحثت ودققت في هذا الموضوع. ولذلك سأبتناك. ذاك الرجل الذي يرتدي كنزة وسروالاً قطنياً هو واحد من أولئك الأطباء النفسانيين. لكنه مختلف قليلاً عن الآخر الذي نعرفه، فهو يتمتع بروح خفيفة مرحة. وقد قال إنه من الواضح أن هذا المكان هو أصلح مكان لك، وأن أي أحمق باستطاعته اكتشاف هذه الحقيقة. ووافقه الآخرون على رأيه. وسوف يقومون بتحضير الأوراق الرسمية وغيرها، ويعدون التقارير عني. وإذا جرى كل شيء كما ينبغي، وأنا لا أرى ما يوجب العكس، ستصبح ابني."
"ابنك!" صاح ويل قافزاً من مكانه. "أتعني.. أتعني أنك ستكون أبي؟"
أوما توم.

"نعم.. أظن هذا يا ولد."

وخلال ثوان، وضحت الصورة أمام عيني توم. ورأى أنه وويل سيكبران معاً.. وبصيحة فرح عظيمة هبّ من على الأريكة. فرمى ويل نفسه عليه وأحاطه بذراعيه، وراحا يقفزان ويرقصان معاً في أرجاء الغرفة وهما يهللان ويصيحيان. أما سام فأخذ يدور حولهما ملاحقاً ذيله، ومطلقاً عقيرته بنباح مجنون.. مجنون.

العودة إلى المدرسة

نهض ويل صباح يوم الخميس أبكر من المعتاد. وهرع إلى مقابلة ماكس خارج منزل آل ليتل، ثم قصدا بيت التوأم. ففتحت لهما جيني الباب وهي ما تزال بمنامتها. وقادتهما إلى المطبخ. وهناك، وجدا جورج الذي كان ما يزال يبدو عليه النعاس الشديد.

"هيا يا كاري، وإلا سيفوتك الوقت"، صاحبت السيدة تاتشر من الأسفل مستحثة ابنتها. فهرع ماكس إلى انتظارها أمام الدرج الضيق، وعندما رآها تظهر عند أعلى السلم الصغيرة، هتف بصوت يملؤه الإعجاب: "ياه! تبدين رائعة يا كاري."

رنت إليه الفتاة بحياء، وبدأت تهبط الدرج. كانت ترتدي قميصاً كحلي اللون، وصدراراً بلون القشدة، وربطة عنق كحلية اللون أيضاً، ومقلمة بأقلام عريضة خضراء، وأخرى رفيعة حمراء. وتحت الحذاء البني ذي الأربطة كانت تلبس جوارب بيضاء من الصوف الناعم.

"إن ربطة العنق هذه تسبب لي إحساساً غريباً جداً"، هتفت وهي تجذبها بيدها. "لقد علمني أبي كيف أعقدها."

حينئذ، خرج والدها من المطبخ ووقف يرنو إليها بفخر واعتزاز. فرغم أن السيدة تاتشر ظلت على موقفها المعارض من قضية التحاق ابنتها بالمدرسة الثانوية، لم يكف السيد تاتشر عن مساندة كاري، وتشجيعها. لدرجة أنه عمل بدوام إضافي ليؤمن لها زياً مدرسياً جديداً. إذ رأى أنها قد بذلت جهداً كبيراً لتصل إلى ما وصلت إليه، ولن يرضى لها أن تبدأ حياتها الجديدة بزي مدرسي مستعمل، بل لابد أن تكون البداية لائقة بها.

فجأة، تنهأ إليهم صوت اقتراب سيارة. فاشتعلت وجنتا كاري حماساً، وهتفت بانفعال:

"لاشك أن هذا هو السيد فيرغس."

ناولتها أمها طاقية عريضة من اللباد، وسترة كحلية فضفاضة مزدانة بأشرطة رفيعة. فبدت ضفيريها الناريان فاقعتي الحمرة بالتعاكس مع

اللون الكحلي الغالب على ملابسها. ثم سارعت إلى تناول حقيبتها المدرسية الجديدة الخالية إلا من غداها، فحفظت أربطتها وأبازيمها الجديدة، ولمع جلدها احتفاءً باليوم المدرسي الأول. "لا تتوقعي الكثير في يومك الأول يا ابنتي"، قال السيد تاتشر مهدئاً من روعها.

"أتمنى لك التوفيق"، هتف ماكس بحرارة. "وسأراك عندما تعودين." "تبدين في منتهى الروعة"، أضاف ويل. "في منتهى الروعة فعلاً." ابتمت كاري بعصبية، وجرت إلى الخارج حيث كانت السيارة تنتظرها. فتحت الباب، وجلست قرب السيد فيرغس، والتفتت لتتظر إلى الآخرين الذين وقفوا خارج البيت، ولوَحوا لها بأيديهم حتى غابت السيارة عن أنظارهم.

"يُستحسن أن تدخلتي وترتدي ثيابك يا جيني"، قالت السيدة تاتشر لابنتها عندما لاحظت أنها كانت ترتجف، ثم التفتت إلى الصبيان. "ما رأيكم يا أولاد في تناول الشاي مع الخبز والمربى؟" ابتمت الصبية، ولحقوا بها إلى المطبخ. وهناك، رأوا السيد تاتشر يغلق صندوق غداها، ويملاً إبريقاً صغيراً من الصفيح بالشاي استعداداً للذهاب إلى العمل.

بعد أن فرغ الصبية من تناول الطعام، غادر ويل وماكس معاً، وتوجَّها صوب الغابة، إذ كان ما يزال لديهما متسع من الوقت قبل أن يحين موعد المدرسة. وراحا يعبَّان في طريقهما هواء الصباح الباكر بنقائه المنعش، ويملَّيان أعينهما بمنظر الحقول والأجمات التي افترشها الندى، وغطَّاهما ببريقه الخلاب. وعندما بلغا الغابة كانت أشعة الشمس ما تزال في مطلع ازدلافها إليها من بين فرج الأشجار. فوجدا نفسيهما يواصلان التنقل من بقع معتمة، إلى بقع مشعَّة بالنور الدافئ، حتى بلغا النهر الصغير. وهناك، وقفا ساكنين ينصتان إلى خريره اللطيف أثناء جريانه. وكعادته أرخى ماكس ثقله على ساق واحدة، وحشر يديه في جيبي سرواله، وانبرى يحدق في الماء مشوَّش الذهن.

"أظن أن الحرب أصبحت جدية الآن"، غمغم أخيراً. "ولكن النازيين لن يقصفوا هذه المنطقة"، أجاب ويل. "أظن أنهم قد يفعلون ذلك؟ السيد توم لا يعتقد أنهم سوف يتكلفون هذا العناء."

تتهدّ ماكس.

"أنا قلق على والديّ يا ويل. أعرف أنهما مشغولان، ولكنني أتمنى لو يكتباني، أو يهتفا أكثر مما يفعلان، ليطمئن قلبي. ليلة أمس سمعت في المذياع أن القصف الشديد مستمر بلا انقطاع."
"ألا يمكنهما المجيء إلى هنا؟" سألته ويل.

"يقول أبي أنه إذا لم يستطع الدفاع عن إنجلترا، فهو على أقل تقدير يريد الترفيه عن المحاربين، والمساعدة في حماية العائلات المتبقية. ولذلك انضم إلى فريق المتطوعين."
"أي متطوعين؟"

"فريق إطفاء الحرائق الاحتياطي. وأمي لديها الشعور ذاته أيضاً،" قال وهو يلکم قبضة يده براحة يده الأخرى. "لا أتمنى سوى أن أتمكن من زيارتهما، لأطمئن عليهما."
"ربما هناك رسالة تنتظرك الآن في البيت،" قال ويل مشجعاً.
"أشك في هذا يا ويل."

رفعا رأسيهما، وتأملا أوراق الأغصان المكسوة بالألوان المختلفة التي تغلغت الشمس في لبّها، فبدت وكأن أشعة سينية دافئة اخترقت خطوطها الداخلية المتعرجة. وتجاذبا الحديث لبعض الوقت، وهما يتجرعان وداعة النهر الجاري حتى عمّ الهدوء قلبيهما. ثم عادا إلى القرية. وعرجا على منزل آل ليتل ليستعلما عن وصول بريد لماكس، لكنهما لم يجدا شيئا. فتابعا طريقهما إلى بيت توم، وأخذا سام في جولة حول الحقول. ولم يحن وقت المدرسة إلا وكانا يشعران أن اليوم يكاد يشرف على الانتهاء. وفي المدرسة أصيبا بالدهشة والفرح معا، عندما أبصرا جيوفري ساندرسون يجلس مع الأنسة ثورن في مقدمة الصف.
"قررنا أنا والسيد ساندرسون القيام بمشروع يتعلق بالطبيعة،" بدأت الأنسة ثورن. "يعني هذا أننا سوف نقوم برحلات استكشافية ستخططون لها أنتم بأنفسكم. وسيضطلع فريق منكم بإعداد مفكرة عن هذه الرحلات، وسيقوم فريق آخر بتصويرها."

بدت خيبة الأمل على وجه ماكس، لكن الأنسة ثورن أردفت بسرعة:
"بالإضافة إلى هذا المشروع، سوف نقوم بدراسة بعض الأشعار التي كتبها شعراء الطبيعة، مثل أشعار: ويليام وردزورث، وبعض مقطوعات شكسبير."

حينئذ، أشرق وجه ماكس ابتهاجاً.

"ونظراً إلى أننا مضطرون إلى التقدير بالدهان ومواد التلوين،" أضاف جيوفري، "رأيت أننا نستطيع إبداع لوحات فنية باستعمال أوراق الأشجار المختلفة الألوان، ولحاء الأشجار أيضاً، وأي شيء آخر مثير للاهتمام قد تعثرون عليه. وقد يكون من الممتع أن نؤلف أشعاراً قصيرة تتماشى مع تلك اللوحات."

"أو ربما ملحمة بطولية لها علاقة ببعض تلك الرحلات الاستكشافية،" أردفت الأنسة ثورن وهي تنظر مباشرة إلى ماكس. "وأنت يا جورج،" قالت ملتفتة إليه، "ستكون المسؤول عن بعض الرحلات التي سنقوم بها. والآن هناك أي..."

في تلك اللحظة—تعالى صوت قرع على الباب. فبادر جيوفري إلى فتحه. ووقعت عينا ماكس على الخالة نانس واقفة في الرواق، فذهش كثيراً من وجودها في المدرسة. ثم اختفت الأنسة ثورن معها، وعادت بعد وقت قصير، ونظرت مباشرة إلى ماكس.

"أنت مطلوب في البيت،" قالت بلطف.

شعر ماكس بحرارة شديدة في جسمه، وبدوار وغثيان. نهض بهدوء من مقعده وغادر حجرة الدراسة مضطرباً. أما ويل فقبع في مكانه ينصت إلى وقع خطواته وهي تخبو شيئاً فشيئاً على طول الرواق، ثم رنا إلى الأنسة ثورن محاولاً استشفاف شيء منها. ولكنها أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى، وقالت بنبرة سريعة وهي تنظر إلى بقية التلاميذ:

"حسناً، دعونا نرى الآن ما أفسدته العطلة الصيفية من معلوماتكم." انقضت فترة الدراسة الصباحية بمراجعة الحساب، وتوزيع الكتب، والتخطيط لأول رحلة استكشافية. ولكن تفكير ويل ظل طيلة الوقت في مكان آخر. وعندما حانت فرصة الغداء طار إلى منزل آل ليتل، وقرع الباب الخلفي بعصية.

"ادخل.. ادخل يا ويل،" قالت السيدة ليتل حالما فتحت الباب. "سيسرَ ماكس برؤيتك. إنه في الأعلى يوضّب حقيبته."

"يوضّب حقيبته؟!" شهق ويل. "لماذا؟ ماذا هناك؟"

"والده تعرّض لإصابة بليغة. فقد انهار أحد المخازن الكبيرة المجاورة لحوض السفن بعد أن شُبت فيه النيران، وبقي والد ماكس مدفوناً تحت الأخشاب لعدة ساعات. وهو الآن في إحدى مستشفيات لندن." جرى ويل إلى الطابق العلوي، ووجد ماكس مقرصاً أمام حقيبة صغيرة جلدية، وغارقاً في تأمل صورة والده التي كان يحملها بيده. ولما شعر بوجود ويل رفع رأسه، ونظر إليه بعينين حمرأوين متورمتين.

"سأستقل قطار يوم الجمعة إلى لندن"، قال بصوت مرتجف. "أمي لا تريدني أن أذهب، ولكنني توسّلت إليها لتسمح لي. أترى يا ويل، لا بد أن أراه في حال..". حينئذ، ازداد ارتجاف صوته حتى كاد يخنقه النشيج. "في.. حال.. لم يُقدّر لي أن أراه بعد ذلك أبداً."

قرفص ويل إلى جانبه.

"أريدك أن تعتني بهذه يا ويل،" تابع ماكس وهو يناوله نسخته البالية من أعمال شكسبير. "كانت ملكاً لجَدّ جدّي."

"أوه لا يا ماكس،" قال ويل محتجاً. ولكن تعبيرات وجه ماكس منعتة من الاسترسال في الرفض. فأخذ الكتاب منه، ومسّد غلافه الجلدي بيده، وهمس:

"سوف أعتني به خير عناية."

في ذلك اليوم، أمضى ويل وماكس مساءً تغيساً. جاءت جيني وجورج لرؤيته بعد الغداء. وأسرعت كاري لوداعه في وقت لاحق، وقضت معه وقتاً قصيراً قبل أن تطير إلى البيت لتتجز فروضها المدرسية. كان الوقت يمرّ ثقيلًا وعصيباً بالنسبة إلى ماكس، لدرجة أنه رغب في المغادرة فوراً، إذ كان الانتظار يحرق أعصابه، ويزيد من إحساسه بالإحباط واليأس.

وفي صباح اليوم التالي أخذه آل ليتل إلى المحطة في بلدة ويروولد، بانتظار عودته في نهاية الأسبوع، لأن أمه أبدت صرامة بالغة جداً بخصوص هذا الشأن. إذ لم تكن راغبة في أن يتعرّض لأي مكروه، وكانت على يقين من أن هذا هو رأي والده أيضاً.

كان اليوم التالي لرحيل ماكس والموافق ليوم السبت في السابع من شهر أيلول سنة ١٩٤٠، يصادف عيد ميلاد ويل العاشر. وأمضى

الفتى صباح ذلك اليوم في منزل آل هارتردج، ومنزل آل بادفيلد. وفي الظهيرة قام هو وتوم بتزيين غرفة المعيشة استعداداً لاستقبال الضيوف. وبعد وقت قليل جاءت السيدة فليتشر والسيدة تاتشر مع أحمالهما من الكعك والبسكويت. ثم حضرت الخالة ناناس جالبة معها شراب الزنجبيل، ورزمة أودعها ماكس عندها قبل سفره لتعطيها لرفيقه. وعندما حل المساء كان البيت قد اكتظّ بالأطفال الذين تولّى قيادتهم توم وجيني وجورج. وبلغت الحفلة ذروتها عندما لعب توم دور الوحش الشرير، فاندفع الأطفال خارج البيت وحوله وهم يتصايحون ويختبئون منه. ثم لعب الجميع لعبة: *الدوران حول الكرسي*، ولعبة: *أحزر ماذا يوجد معي*. وحاولوا التهام البسكويت وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم، وتبادلوا البرتقال في ما بينهم من تحت أذنانهم، وبالطبع احتفلوا بويل، وأكلوا الكعك والأطياب المختلفة.

ترك ويل هدية ماكس ملفوفة حتى انتهى الاحتفال، وخلا البيت من آخر المدعوين. وعندما جلس وتوم ليرتاحاً قليلاً مع فنان من الشاي أمام الطاولة المكتظة بالكتب والحلوى ودوارق الدهان، وغيرها من الهدايا، تناول رزمة ماكس وبدأ بفضتها.

كانت الرزمة تحتوي على الجزء الأول من قصيدة ملحمية تحمل عنوان: *الدكتور مرعب الخسيس*. وفي الحاشية السفلية من الورقة كانت هناك ملاحظة تقول: *سأكتب الجزء الثاني من القصيدة عندما أعود*. إضافة إلى القصيدة، وجد ويل فرسائين جديديتين للرسم، كتاباً مستعملاً عن الرسامين، ورسماً هزلياً يمثل ويل وهو يعتمر قبعة ومئزر رسام، ويقف أمام حامل لقماشة رسم نظيفة و فارغة، بينما تكاد لطح وبقع الألوان المختلفة تغطي ويل نفسه.

"سوف أعلق هذه اللوحة على جدار غرفتي"، قال ويل محدثاً نفسه وتوم. ثم جلسا يستمعان بانتباه شديد إلى أخبار الساعة الثامنة في المذياع.

أعلن المذيع أن القصف قد شمل جميع أنحاء لندن، وأن مئات من الطائرات الألمانية شوهدت في الجو، وأن نافثات اللهب والطائرات المضادة تحلق في السماء لصدها. وأكد أن هذه الغارة هي من أطول

وأعنف الغارات التي تتعرض لها لندن. وأن القصف الثقيل ما يزال جارياً حتى لحظة قراءة الأخبار.

"أرجو أن يكون ماكس بخير،" همس ويل بقنوط. فرنا إليه نوم ونفخ دخان غليونه، ثم قال:

"إنه نحيل جداً لدرجة أن القذائف ستخطئه."

"أوه، أرجو هذا،" أجاب ويل بقلب منقبض.

في اليوم التالي أمطرت السماء بعد انقطاع دام عدة أسابيع. واستيقظ ويل على وجيب المطر وهو يقرع السطح ويندفع إلى غرفته من النافذة المفتوحة. اغتسل وارتنى ملابسه على عجل، وأسرع للحاق بتوم الذي كان يضع مقاعد إضافية في الكنيسة، استعداداً ليوم الصلاة الوطني. وفي الساعة العاشرة صُنع أهل القرية بملحق نشرة الأخبار. "يُقدّر عدد القتلى منذ بدء القصف الجوي في الساعات القلائل الأولى من هذا الصباح،" أعلن المذيع، "بأربعمئة شخص على الأقل. ونظن أن هناك ألفاً وأربعمئة شخص مصابون بجروح بليغة. الحرائق تشتعل في حوض السفن في لندن، والعديد من المنازل في الناحية الشرقية من العاصمة نسفت نسفاً."

في ذلك اليوم ازداد قلق ويل على ماكس تفاقمًا، عندما علم أن آل ليتل لم يصلهما بعد أي خبر من ماكس أو أمه.

وفي وقت مبكر من صباح يوم الاثنين أيقظه من النوم كابوس رهيب، رأى فيه أنه محاط بأعضاء مبتورة، وأناس بلا رؤوس، وشاحنات مكتوب عليها: *الأموات فقط*، وأشخاص مشوهين وملطخين بالدماء يصرخون ويستغيثون من بين أكوام هائلة من الحجارة المتراكمة. سارع هو وتوم إلى المذيع، لعلهما يتمكنّا من سماع ملحق مبكر. وعلما وفقاً للتقارير الأخيرة أن القصف استمر طيلة الليل، وأن لندن تشتعل بالنيران. وأن مصنع الغاز في بيكتون قد قُصف، وأن مورغيت أصبحت ركاماً، وبالهام دُمّرت تدميراً رهيباً، وأن الهلاك الذي لحق بضواحي ويندسور كان ساحقاً، إضافة إلى سقوط القنابل على أحد أرصفة محطة فكتوريا.

أسرع ويل إلى المدرسة بعد أن أمضى الصباح المبكر وهو يعمل في الحديقة. وعند الظهيرة رافق جورج وجيني ولوسي وغريس لقطف العليق. وعاد إلى البيت مع الغسق، متورداً بالحيوية والتعب اللذيذ. ثم ما لبث أن سمع عن تعرّض دوفر للقصف.

وفي الصباح التالي استيقظ على جلبة أصوات في البيت، واستهجن وجود زوار لديهم في ذلك الوقت المبكر، إلا.. إلا إذا كان قد غطّ في النوم فلم يشعر بمرور الوقت. نهض من سريره بسرعة، وهرع إلى الأسفل. وعندما تقدّم من باب غرفة المعيشة استطاع تمييز أصوات آل ليتل فيها، فخفق قلبه بعنف وضراوة.

أتراهما يحملان أخباراً عن موعد وصول ماكس؟؟

لكنه، ما كاد يندفع إلى الداخل، حتى بُغت بمنظر وجوههم التي التفتت لتحقق به.

كان الوقار والحزن الهادئ يجلل وجه الطبيب ليتل، وكانت الخالة ناناس تبكي. لم يكن هناك من داع لأن يقولوا له شيئاً.. عرف فوراً أن ماكس قد مات..

مات ماكس.. مات ماكس.. مات.. ما... ت..

وخلال ثمانية واحدة، مظلمة، باردة، التوت ساقاه تحته، وخرّ على الأرض غائباً عن الوعي.



telegram @
yasmeenbook

التفجّع

أمضى ويل الأسابيع التي تلت نبأ موت ماكس في غيبوبة فكرية تشبه زهول ميت بُعث حياً. ظاهرياً، تابع ممارسة حياته اليومية كالعادة. يساعد توم في الأعمال والمهام المختلفة، ويواكب ما تتطلبه التطورات الدراسية من كدّ واجتهاد. أما باطنياً فكان يعاني من فقدان الحس بأي عاطفة يمكن أن تستحثّ دمه على الانهمار، ليتفجّع حزناً على رفيقه الغائب.

كان يتجنب المشي بالقرب من منزل آل لينل قدر المستطاع، سالكاً إلى المدرسة أو السوق طريق الكنيسة والبيوت الأخرى. وعندما اكتشف في المدرسة مرارة الألم الذي ولده في نفسه المقعد الفارغ المحاذي له، دأب على بعثرة أوراقه بفوضوية فوق المنضدتين، لعله يداري بها غياب ماكس. ولما طلبت منه الآنسة ثورن المشاركة في مسرحية الميلاد، وافق على طلبها. لكنه ظل يشعر أن كل ما يجري حوله غير حقيقي البتة. ولم يكف عن الإحساس بأن جسمه وصوته وانفعالاته كانت خالية من أي حياة أو تعبير على الإطلاق، رغم أن الآنسة ثورن أعربت له عن سرورها بأدائه. وحتى في ساعات الرسم والتلوين، كان يقبع في مقعده وينظر إلى الورقة الفارغة أمامه بذهول، خالي الرأس من الأفكار. وكانت دروسه الخاصة في الرسم تحت إشراف جيوفري ساندرسن في المستوى ذاته من الرداءة والعقم.

"ما عاد يوجد داخلي أي شيء!" هذا ما راح يواصل قوله بالحاج. مستسلماً للوجع الذي جعله يشعر أن نصف روحه قد بُتر منه بترًا. وجازماً لنفسه أن الحياة بدون ماكس ليست إلا نصف حياة، بل وأن ذلك النصف المتبقي له، ليس إلا نصفاً فارغاً ميتاً.

كان جيوفري يطلب منه في معظم الأوقات رسم أشياء ساكنة. وكان هذا يضطره إلى قضاء عدة ساعات من التركيز على الأشكال التي أمامه؛ مثل وعاء للفاكهة، أو لون زهرة، أو ظلال ضوء على زجاجة

وحذاء. وبدا أن لهذه الفترات المضنية من التركيز دوراً إيجابياً في مساعدته على نسيان الألم الفظيع الذي واصل افتراسه بقسوة. إلا أنه ما كان يغادر كوخ الأشباح حتى يعود إلى معاناة الإحساس بالموت الرابض على صدره. إحساس كان يضمحل ويتلاشى في غياهبه السوداء، فاقداً بذلك أي معنى من معاني حياته قد يستحثة على الاستمرار.

ومرت أربعة أشهر وهو على هذا الحال. ومع مقدم عيد الميلاد، انشغل وتوم بصنع ألعاب من الخشب وتلوينها، يشاركهما كل من جورج وجيني. ورغم أنه كان ميلاداً قاسياً نظراً لنقص المؤن في البلاد، لم يشعر ويل بذلك. بل وبدا له أنه كان ميلاداً غنياً، وافر الخير.

كان عدد الأطفال الوافدين إلى القرية منذ شهر أيلول، وبدء القصف الجوي على لندن، يزداد أسبوعياً ويتدفق كالطوفان. ولم يكن لدى العديد من أولئك النازحين مأوى في لندن ليعودوا إليه. وعندما حل عيد الميلاد قدم بعض أهالي الأطفال إلى القرية ليحتفلوا به مع أولادهم. إذ ذاك، قرّر توم وويل صنع ألعاب للصغار الذين فقدوا ذويهم، وللأطفال الذين كانوا أسوأ حظاً من أن يحصلوا على هدية من أي مكان. ورحّب ويل بهذه الفرصة التي قد تساعد على جرد أفكاره بعيداً عن ماكس، رغم أنه ظل لا يتكلم إلا لماماً. وبمعزل عن الأوقات التي كان يقضيها في التدريب على المسرحية، واصل انسحابه إلى قوقعة اليأس التي حبس نفسه فيها.

أما توم الذي عامله بصبر وحكمة، فتابع التعامل معه كما جرت عليه العادة. بانتظار ذلك اليوم الذي سيقبل فيه ويل فكرة موت صديقه، ليطلق عنان أحزانه، ويدعها تطفو على السطح.

في تلك الفترة كانت كاري قد نجحت في تجاوز الفصل الدراسي الأول في المدرسة، وبانت تحمل على عاتقها مسؤوليات كبيرة. وكانت غالباً ما تعود إلى البيت بعد حلول الظلام بوقت طويل، فتهرع إلى تناول عشاءها، وإنجاز فروضها المدرسية، ثم تأوي إلى فراشها منهكة. وفي الصباح التالي تنهض من النوم باكراً، وتدأب على حفظ تصريح

الأسماء اللاتينية، أو الأفعال الفرنسية قبل المغادرة إلى المدرسة من جديد. وبذلك، بات أمر الاجتماع بها متعذراً إلا أثناء عطل نهاية الأسبوع، وعطلة عيد الميلاد. ورغم أنها لم تكن سعيدة في المدرسة، لم تجرؤ على إخبار والديها بأي شيء. فأما ما زالت على معارضتها السابقة واستهجانها. ووالدها الذي خفف عليها من وطأة بعض مصاعبها عندما ضاعف جهوده ليؤمن لها زي المدرسة وملابس الرياضة، كانت تضمر له امتناناً أبدياً حال بينها وبين إزعاجه بمتاعبها. أما مشكلتها الأساسية التي فاقت قدرتها، فتجلت في لهجتها. إذ كانت ذات لكنة قروية مختلفة عن لهجة معظم البنات اللواتي كن يتكلمن الإنجليزية بلكنة متأنقة تشبه إنجليزية ماكس. إضافة إلى أنهن كن بنات ميسورات الحال، يدفع لهن ذويهن رسوم المدرسة. بعكسها هي الفقيرة التي دخلت المدرسة بمنحة دراسية، والتي كانت لكنتها تثير سخريتهن لغرابتها، أو لعجزهن عن فهمهما. لكن الأمر لم يقتصر على المدرسة فقط. ففي البيت كانت جيني تقول لها دائماً إنها صارت تتكلم بطريقة متحذقة، وأما لا تكف عن انتقادها وتحذيرها من الانسياق مع جو المدرسة لئلا يتلاعب بها ويسيطر على عقلها. كانت.. كانت في الواقع متأكدة من أنها لم تعد إلى تغيير لكنتها عن قصد. كل ما في الأمر هو أن اختلاطها اليومي بالبنات في المدرسة، وسماع لهجتهن المختلفة عن لهجتها، أدى إلى إحداث بعض التغيير في أسلوبها. حتى باتت في النهاية تشعر أنها غريبة عن محيط وبيروولد الصغيرة، وعن محيط المدرسة على حدّ سواء. وكانت في سريرتها شاكراً لفروضها المدرسية الكثيرة التي تأخذ منها معظم وقتها. بل ووجدت في الوحدة التي أطبقت عليها دافعاً للعمل بجهد عظيم. لكن هذه المعاناة التي أثقلت صدرها زادت من افتقادها الكبير لماكس. ماكس الذي اعتادت اللجوء إليه كلما رغبت في الفضفضة عن مكنون نفسها وشجونها. إذ كان واحداً من القلة الذين لم يشعروها يوماً أنها بنت غريبة الأطوار. ومع أنها زارت ويل عدة مرات، إلا أنها كانت كلما تطرقت إلى ذكر ماكس، حول دفة الحديث بسرعة. فزاد هذا من شعورها بالوحشة لأنها كانت ترغب في التحدث عنه مع شخص آخر يحبه.

وفي مساء ذات يوم صقيعي من شهر كانون الثاني، تعرّض ويل لحادث غير متوقّع، أرغمه أخيراً على الخضوع، وتقبّل موت ماكس. كان ذلك اليوم يوماً شتوياً قارساً وقاسياً. ورغم أن ويل لم يغادر البيت إلا بعد ارتدائه معطفاً سميكاً ووشاحاً وطاقيّة، شعر فور خروجه بالبرودة الصقيعية تتسرّب إلى لبّ عظامه. لكن هذا لم يثنه عن متابعة طريقه. فتجاوز بوابة فناء المقبرة تاركاً إياها تقعقع وراءه بصخب، وأغذّ السير باتجاه كوخ الأشباح، سالكاً إليه الطريق الملتفة حول الحقول من جهة المزرعة التعاونية. إذ ظلّ حتى ذلك الوقت يتحاشى الدرب التي سلكها هو وماكس في آخر صباح لهما معاً.

بدا له أثناء مضيّه في طريقه وكأن الأرض نفسها قد تجمّدت برداً، وأن أخاديد حقولها تصلّبت كأسياخ الحديد الملتوية. وكان لا ينفكّ يسمع خشخشة خصلات الحشيش الناجية من الهلاك، كلما وطئ طبقة الصقيع المتجمد التي غلّفتها. وحين وصل إلى فجوة في الأجمات تؤدي إلى بقعة جيوفري ساندرسن، عبر من خلالها إلى الحديقة المشعّنة وقرع الباب. ثم أخذ ينفخ في يديه ويحرك ساقيه ليعث في جسمه شيئاً من الدفء والحياة. ولبرهة، جالت عيناه في المكان، ثم حطّتا على الأشجار العارية الضامرة المحيطة به. فانبرى يفكر بمدى ضالة المناعة التي بدت عليها تلك الأشجار أمام غزو الصقيع العاتي. وفي تلك اللحظة فتح جيوفري الباب.

"أهلاً يا ويل"، قال جيوفري مرحباً. "لقد وضعت إبريق الماء على النار الآن. علّق معطفك على كرسي، ودفّئ نفسك قليلاً". تخلّص ويل من معطفه وطاقيته بسرعة، وقبع عند قدم الأريكة قرب المدفأة.

"حرك أصابعك، ودع الدم يجري فيها أولاً"، صاح جيوفري من المطبخ. "لا تعرّضها للنار مباشرة".

لكن ويل لم يكن في حاجة إلى هذه الملاحظة. إذ تذكّر ذلك الإحساس المؤلم المفاجئ الذي أصابه في الشتاء الماضي، يوم عرض يديه المتجمدتين لنار الموقد مباشرة. وبعد هنيهة، دخل جيوفري الغرفة وهو يحمل إبريقاً كبيراً من الشاي، ويعرج على ساقه الخشبية التي

حصل عليها مؤخراً. تلك الساق التي جعلته يستغني عن العكاز نهائياً، ويستعين على المشي بعضاً جميلة من خشب الأبنوس، ذات رأس مفصص منمق، ومقبض منحوت بزخرفة جميلة، أهنته إياها إميليّا ثورن.

كان الكوخ قد تغير تغيراً جذرياً منذ زيارة ويل الأولى له. إذ أثمر تعارف جيوفري وإميليّا عن إعجاب متبادل بينهما، فتعاونوا على تنظيف الكوخ، وطلايا جدرانها بالدهان، وأضافا له رفوفاً، ومجموعة من الأثاث، وأصص أزهار ونباتات مختلفة.

"ماذا أحضرت لي معك اليوم؟" سأله جيوفري بينما جلسا معاً أمام المدفأة.

نكس ويل بصره نحو الحصيرة. وفتح حافظة الأوراق الكرتونية وأخرج منها رسماً لعظمة متأكلة داخل خف من خفاف توم. فانبرى جيوفري يتفحصها بتمعن، لكن ويل تجنب التطلع إليه. وبعد أن شربا الشاي وضع جيوفري إبريق الشاي على الرف فوق المدفأة. وركز إلى جانبه صورة شابين متعانقين غارقين في الضحك، ثم حطّ غليونه أمام الإبريق.

"هذا هو موضوعك لهذه الأمسية."

ميز ويل واحداً من الشابين اللذين في الصورة، وعرف فيه جيوفري. "من يكون الرجل الآخر؟" سأل مستوضحاً. "هل هو شقيقك؟" "هذا أعزّ أصدقائي"، أجاب جيوفري. "ولقد قُتل في ساحة المعركة. كان واحداً من ألمع النحاتين الموهوبين."

"أوه!" همس ويل بصوت هادئ.

"وذاك في الحقيقة غليونه."

"أ تستعمل غليونه؟"

"نعم، فأنا أعرف أنه يرغب في أن أحصل عليه. وكلما استعملته يجعله هذا حياً بالنسبة لي على نحو ما. أتفهم ما أعني؟"

لا.. لم يفهم ويل. ولم يرغب في أن يفهم. كان يكفيه ألماً أن يمتلك كتاب شكسبير العتيق. ذلك الكتاب الذي لفه جيداً، وأعطاه لتوم كي يخبئه في الخزانة مع الرسم الهزلي الذي رسمه ماكس له. وهكذا،

جلس لمباشرة الرسم من غير أن يعلّق. كان عادة يجد في نفسه القدرة على الاستغراق الكلي في الأشياء التي يطلب منه جيوفري رسمها. ولكنه في ذلك اليوم، وكلما حطّت عيناه على ابتسامة الشاب الآخر في الصورة، وعلى الغليون، شعر بالضيق والانزعاج. أحسّ أن هذه الأشياء لم تعد مجرد أشياء ساكنة وميتة وفاقدة لأي نوع من أنواع الحياة. بل تحولت إلى رموز حية، جعلت خياله ينجرّف إلى التساؤل عما إذا كان الشابان قد سبق لهما أن شربا الشاي معاً من ذلك الإبريق الذي يراه أمامه.

حاول.. حاول جاهداً أن يركّز على الرسم، لكنه وجد يده ترتعش غصباً عنه. وفجأة، تراءى له ماكس معتلياً دراجته الزاهية الألوان، يغني، ويلوِّح بذراعيه في الهواء، ويصيح: "انظر.. انظر يا ويل! أنا أقودها بدون استعمال يديّ". ثم يقع مباشرة فوق إحدى الأجسام. وعلى الفور تذكر وجهه المخدوش وهو يتطلع إليه مبتسماً. ورغم أنه واصل الجلوس أمام رسمه لمدة ثلاث ساعات، صرف معظم الوقت وهو يحملق باكتئاب من خلال النافذة، متأملاً صفحة السماء المسافرة بالتدريج نحو الليل. وظلّ كذلك حتى قام جيوفري أخيراً بوضع ستائر التعقيم، وإشعال مصباح الغاز. ثم استرق النظر إلى رسمه غير المكتمل من فوق كتفه، وقال له:

"حان الوقت لتتوقف عن الرسم الآن."

"أنا.. أنا آسف،" غمغم ويل. "لا يبدو أنني قادر على... على..". وسرعان ما تلاشى صوته مختفياً في بحر من الصمت.

"ما رأيك في أن تجلس قرب المدفأة ريثما أحمّص بعض الفطائر؟" قال جيوفري بصوت رقيق.

فابتهج ويل قليلاً بهذا الاقتراح، وتوقع على الأريكة. وكان يحرق في النار غافلاً عما حوله عندما سمع تكتكة خفيفة. فرفع رأسه، وشاهد جيوفري يفتح الحاكي ويهمّ بتشغيله.

"ماذا تفعل؟"

"أعدّ الحاكي لنسمع الموسيقى،" أجاب جيوفري وهو يحطّ الإبرة على حافة الأسطوانة المستديرة. فصدر عنها صوت حفّ رتيب، ثم صدحت الموسيقى.

كانت الموسيقى ذاتها التي استمع إليها ويل وماكس لما جلسا وسط الفوضى، على ظلال الشموع، يوم زارا الكوخ لأول مرة. تمنى ويل من صميم قلبه أن يوقف جيوفري الحاكي، لكنه كان أضعف من أن يقوى على مخاطبته أو حتى النظر إليه، خشية أن ينهار أمامه. فعاد إلى التحديق بالمدفأة. وتراءى له فجأة أنه لم يكن يحرق في النار وحده، بل كان يفعل ذلك هو وماكس!

شعر بوجوده قربه، رآه يتفجر حيوية وحياة وهو يغالب رغبته في التمايل مع الأنغام طرباً، ورأى نفسه جالساً بسكون، مكتفياً كعادته بالاستماع من غير حراك. أحسّ بالانزعاج والكرب من خيالاته. رمقت عيناه الصورة المنتصبة على رف المدفأة، وتذكر تلك الصورة التي التقطتها السيدة كلارنس له ولماكس في قرية الفم المالح. ثم أفاق على صوت الإبرة التي راحت تواصل دورانها المركزي بعد انتهاء الأسطوانة، فهبّ واقفاً على قدميه، وهرع إلى تناول معطفه وطاقيته. "يجب أن أغادر حالاً"، يبيع بصوت أجش.

أوما جيوفري ورافقه إلى الباب، وضغط على كتفه برفق. "يجدر بك أن تتقبل الحقيقة، على أن تدعي بأنه لم يكن موجوداً قط"، قال له بصوت عطوف.

لكن ويل لم يرغب في سماع أي شيء مما قاله جيوفري. كانت عيناه مغرورتين بالدموع، وكان جسمه يؤلمه ألماً مبرحاً. فاندفع خارجاً بأقصى سرعته، ومضى هائماً، متخبطاً في قلب الظلام. وبدلاً من اختراق الفرجة التي بين الأشجار، وجد نفسه يسلك طريقاً مغايراً يؤدي إلى وسط الغابة والنهر.

وهكذا، سار على غير هدى، فتعثّر في مشيه، ووقع فوق جذوع الأشجار وجذورها، وجرح وجهه بالأغصان الحادة. وأزعج اقتحامه الصاخب للغابة بومة مختلية بنفسها، فنعتت بصوت عال، وطارَت فوق رأسه، لكنه بالكاد سمعها أو شعر بها. وفي النهاية، وجد نفسه أمام النهر، فوقف على ضفته يحملق ساخطاً في سطحه الزجاجي، وراح شيء ما يسحق صدره وكتفيه، وأخذت معدته تتشنج وتتقلص. أحسّ مرة أخرى بوجود ماكس إلى جانبه. وشعر به يحرق في الليل العميق المشعّ بالنجوم، مستنبطاً منه عدة أبيات شعرية عجيبة.

"لا.. لا.." همس، وهو يهز رأسه هزاً عنيفاً. "لا.. أنت لست هنا، ولن تكون هنا أبداً."

وبزفرة محمومة غاضبة النقط غصناً يابساً وراح يضرب به جذع شجرة قريبة منه، حتى تتأثر الغصن إلى قطع صغيرة. ثم انبرى يلتقط بجنون كل ما وجده حوله من أغصان، وأخذ يسحقها ويقذف بقاياها المتهشمة في النهر. غير أنه بإيذاء أي حيوان قد يكون حاجعاً في بيئته الشتوي. كان الألم يمزقه.. يمزقه تمزيقاً، ويمنعه من الإحساس بأي شيء سوى تلك العقدة البغيضة التي كانت تشد الخناق على روحه، وتخرقه نافذة إلى صميم الحياة فيه.

كان غاضباً لأن ماكس مات وتركه؛ تركه ورحل إلى الأرض التي لا عودة منها.

وبقوة خارقة توجبها رغبته في التشفي والانتقام، انتزع شجرة صغيرة يابسة من جذورها، وقذفها أرضاً. ثم وقف ليلتقط أنفاسه المتحشجة، ورفع رأسه عالياً فوق أغصان الأشجار، وصرخ بأعلى صوته:

"أكرهك أيها الموت.. أكرهك.. أسمعني؟! أكرهك! أكرهك! أكرهك!" وظل واقفاً يصيح ويزعق على السماء، حتى أصابه الإعياء الكامل. فخرّ على الأرض ينشج ويبكي بمرارة إلى أن غاب في سديم النوم. عندما استفاق، لم يعرف كم مضى عليه من الوقت وهو نائم. وبدأ له أن سنة كاملة مرّت عليه في هجوعه الثقيل. حرك جسمه ببطء، وزحف على قدميه المتجمدتين من البرد، ثم تحامل على نفسه حتى استطاع الوقوف، ومضى عبر الغابة.

كان توم ينتظره بقلق عظيم عند البوابة، وقد قرّر به القرار على انتظاره لخمس دقائق أخرى، قبل الذهاب إلى كوخ الأشباح للسؤال عنه. ثم هدأت نفسه قليلاً عندما تنهأ إليه وقع خطوات بطيئة. فحدق في الظلام جيداً، وميّز شعر ويل الأشقر المنبثق من أطراف طاقيته. وما كاد الفتى يقترب منه حتى لاحظ وجهه المبقع بالوحل والدموع، وشفثيه المتورمتين، وجفنيه المنفخين.

"تعال يا بني،" قال وهو يضع ذراعه حول كتفي الفتى، ويسير معه على طول الممر إلى البيت. ثم، وعندما توقّف ليفتح الباب، التفت ويل بسرعة ونظر إليه.

"سامحني يا أبي"، قال. "لم أكن أعتقد أنك ستقلق إلى هذه الدرجة. ولكنني كنت في حاجة إلى البقاء وحدي لبعض الوقت. كان يجب أن أبقى وحدي. كان يجب أن أفعل هذا. ونسيت أن غيابي سيقطعك. لم أكن أفكر على الإطلاق. سامحني."

"أنت هنا الآن، وهذا ما يهم"، أجاب توم بحنان. "إنك تبدو مشعناً للغاية. ويجدر بك أن تغتسل وتأوي إلى فراشك."

ولم يطلق توم العنان لأفكاره، إلا بعد أن وضع ويل في سريره، وأوى هو الآخر إلى غرفته. وكان مستلقياً في سريره، عندما ترك نفسه على سجيته، وسمح لها باسترجاع كلمات ويل، وتسريبها إلى أعماق قلبه. "لقد دعاني أبي!" همس بصوت أجش في الظلام. "لقد.. لقد دعاني أبي."

شعر بأمواج السعادة تجرّفه بعيداً.. بعيداً، ورغم ذلك، لم يستطع مغالبة تلك الدموع التي تدرجت بصمت على وجنتيه.

"ويــــــــــــل!" هتفت الخالة نانس بدهشة وهي تفتح الباب الخلفي للبيت. "أوه.. تعال! تعال! ادخل!" قالت بعد فترة صمت، عجزت خلالها عن العثور على كلام مناسب.

فحياها ويل بهدوء، ودخل المطبخ.

"ما رأيك في كوب من النبيذ بالتوابل؟" بدأت الخالة نانس ثم لجمت لسانها. إذ كان اسم النبيذ بالتوابل هو الاسم الذي يطلقه ماكس على عصير العنب الأسود.

"آها، نعم من فضلك"، أجاب ويل، وجلس يراقبها أثناء إعدادها للشراب.

"لقد افقدنا زيارتك يا ويل"، قالت وهي تتاوله كوب العصير وتجلس إلى الطاولة معه. ثم أشعلت نصف لفافة تبغ بشغف، كما لو أنها كانت آخر لفافة متبقية في جميع أنحاء بريطانيا العظمى، وسحبت منها نفساً عميقاً، وبدأت تسعل بشدة. "إن غرفة ماكس ما زالت على حالها"، قالت، بعد أن استعادت أنفاسها.

أوما ويل ونفخ على شرابه.

"ارتأينا أنا والدكتور ليبل أن نتركها على حالها حتى تكون.. حتى.. حتى تطلب منا أن نفعل غير ذلك يا ويل. فما رأيك؟"
نظر إليها ويل ملياً، ثم ابتسم.
"لا بأس."

"جيد"، قالت، واسترخت في قعدتها مستشعرة في نفسها إحساساً بالارتياح.

"أيمكنني أن أقود دراجته؟"
لم تكن السيدة ليبل واثقة تماماً من أن أذنيها لم تخطئ ما سمعته.
"ماذا؟" استفهمت. "ماذا قلت يا ويل؟"
"أيمكنني أن أقود دراجته؟"
"دراجة ماكس؟"
"نعم."

"إذا كنت ترغب في هذا"، أجابت ثم صمتت وحدقت به لبرهة.
"سيكون عليك أن تخفض المقعد قليلاً."
"آها، أعرف هذا."

"لم أكن أعرف أنك تستطيع قيادة الدراجة."
"ليس بعد، ولكنني سأتعلم."
"إنها في الملجأ، ومن المؤكد أنها في حاجة إلى التشحيم، وإلى نفخ دواليها."
"أ لديك أي زيت؟"

"نعم وهناك منفاخ معلق بها"، أجابت وهي تنهض بسرعة، لتأخذها الطريق إلى حجرة المؤن. ثم توجهت نحو صندوق كبير تحت أحد الرفوف السفلية، فيه مجموعة من الأدوات المختلفة والأسلاك. فانحنت عليه، وبدأت تفتش فيه، ناقله الأغراض من جانب إلى آخر.
"ها..ها.. هتفت، ملوحة في الهواء بمفتاح الربط. "سوف أخفض لك المقعد."

"لا"، قال ويل وهو ينهض على قدميه. "أريد أن أقوم بهذا العمل بنفسي."
"هل أنت متأكد؟"

"أها."

"اسمع، قُم أنت بالعمل المجهد والقدر، وسأقوم أنا بإمساك الدراجة لك، كي لا تقع."

كان ويل على وشك الرفض مجدداً، ولكنه عاد وغيّر رأيه.
"انطلاق.. آهو،" هتف بمرح ثم تضرّج وجهه بالحمرة، لأن هذا التعبير كان واحداً من مصطلحات ماكس.

سحب الدراجة من الملجأ، وجفّفاها من الندى بخارقة قديمة، ثم زيّناها، وركباً دولابها الخلفي. وأعاد ويل وضع سلسلة الدواسة في مكانها بعناية، ورقّع إطاراً داخلياً منقوباً، مستعيناً على ذلك بمعدات ماكس، ومساعدة الخالة نانس. ثم أزال عنها الوحل، وحفّ الصدأ المتراكم حول مقودها. وانتابه شعور غريب جداً عندما وجد نفسه منهمكاً في تحضير الدراجة، إذ أحس وكأنه يلمس جسم ماكس نفسه. وبعد أن انتهى، جرّها حول المنزل فوق العشب الطويل المفرط في النمو. وما إن وصل إلى البوابة، ووقف للتعارك معها، رأى السيدة ليتل تهرول نحوه وهي تحمل حقيبة الخيش الصغيرة التي كانت تخصّ ماكس.

"لقد صنعت لك بعض شطائر المربي،" قالت لاهثة، بينما راح صدرها النحيل يعلو ويهبط. "ووضعت لك أيضاً قنينة فيها شراب الزنجبيل."

تفرّس في الحقيبة بتردد، ثم قال أخيراً:
"شكراً يا خالتي نانس."

تناول الحقيبة وأدخل رباطها من رأسه، تاركاً إياها تتدلى على ظهره. ودفعت له السيدة ليتل البوابة ليخرج، ثم وقفت تتأمله أثناء مضيّه بالدراجة على امتداد الدرب.

تقدّم ويل من البيوت الريفية وهو يشعر بالنار تشتعل في أذنيه. ثم انعطف شمالاً من غير أن ينظر حوله لئلا تلتقي عيناه بعيني أي عابر سبيل. كان في ذلك اليوم غائباً عن المدرسة بدون عذر. وهو عمل لم يسبق له أن تجرّأ على القيام به من قبل أبداً. وعندما مرّ بالقرب من المدرسة، لم يلاحظ وجود الأنسة ثورن عند إحدى نوافذها. إلا أن الأخيرة كانت قد رآته فوراً، وظلّت واقفة تراقبه وهو يبتعد من غير أن تقول شيئاً.

تابع ويل طريقه حتى أصبح بعيداً عن البيوت. وعثر على طريق ممهّد مستو نسبياً. فاعتلى مقعد الدراجة وجلس ساكناً للحظة، ثم وضع قدمه على الدواسلة وصرّ على أسنانه وأخذ نفساً عميقاً دافعاً بالدراجة إلى الأمام. فترنّحت ثم وقعت على مقربة من إحدى الأجسام. نهض، واعتلى المقعد ثانية. ومرة أخرى تأرجحت الدراجة وخرّت به أرضاً، فوقع على وجهه، وكشط ركبتيه بالأرض الوعرة. ولكن شيئاً ما كان ليثنيه عن عزمه. وفي كل مرة كرّر فيها المحاولة كان لا ينفكّ يقع، وكان ذلك لا يزيده إلا عناداً وتصميماً.

ورغم الإحباط الذي سبّبه له الصقيع المنتشر في الأجسام والحقول، والذي ما فتئ يلسعه لسعاً، كان تعلّم قيادة دراجة ماكس هو الفكرة الوحيدة المسيطرة على كل حواسه. لذلك سارع إلى خلع معطفه عنه، وعلّقه على جذع شجرة، وعاد ليكرّر مهمته المستحيلة.

كان في بعض الأحيان ينجح في موازنة الدراجة لبضع ياردات، قبل أن تميل به موقعة إياه فوق كومة من أجسام العليق، أو الأعشاب اليابسة. وكان لا يكف عن سماع كلمات أبيه وهي تتردّد مرة تلو مرة في رأسه: "خذ وقتك يا بني، فكل شيء وقته المناسب." إلا أن ذلك لم يزدّه إلا تحدياً ونفاد صبر. وسواء كان السبب يعود إلى أنها دراجة ماكس، أو إلى أن ألوانها كانت فاقعة جداً بالنسبة إليه، أراد أن يتعلّم قيادتها فوراً. أراد أن يتعلّم قيادتها في اللحظة ذاتها، واليوم ذاته. وما كاد ينجح في قيادتها لمسافة معقولة من غير أن يقع، حتى بادر إلى مكافأة نفسه بشطيرة من شطائر الخالة ناناس، وجرعة من شراب الزنجبيل.

كان عرق الجهد والانفعال المتصبّب على وجهه وجبينه قد صار بارداً ورطباً، بفعل هواء شهر كانون الثاني اللاذع. لكن ذلك لم يكن ليحبط من همته. وحين استعاد قواه قليلاً، علّق الحقيبة على غصن شجرة، ودفع الدراجة قدماً. وبدا من الواضح أنه كان لتلك الاستراحة مفعول إيجابي، لأنه عندما انطلق بالدراجة مجدداً وجد قيادتها أكثر سهولة وأقلّ طلباً لبذل الجهد.

ثم بدأت نفسه تمتلئ بالثقة، فارتنى معطفه من غير أن يزرّه، وقذف الحقيبة على كتفه، وانطلق يختبر إحساساً رائعاً بالحرية. إحساس لا

يمكن عيشه إلا بعد إتقان قيادة الدراجة. وحينئذ فقط، فهم سبب ولع ماكس البالغ بقيادة الدراجات.

وهكذا، مضى ومضى قدماً، تاركاً معطفه يتطاير خلفه بحرية، والريح تلتصق وجهه، وأحس أن ماكس لم يعد وجوداً منفصلاً عنه. بل أصبح حياً داخله؛ حياً بكل معنى الكلمة. وشعر فجأة، أن ذاك الخدر الذي كان يعيق جسمه، ويطبق على صدره قد ذاب، وتحول إلى إحساس عارم بالحيوية والانتعاش.

"يا هو.. كالو كالو كالاي!!" صاح بملء صوته، تاركاً العنان للدراجة التي رفرفت فوق الطريق الوعر، وهي تهز عظامه بطريقة جعلته يرغب في الضحك.

"وزرز!!" صاح من جديد، متولياً توجيه المقود عند المنعطف بحذق ومهارة جديديتين. لكن ساقيه غير المعتادتين على القيادة ما لبثتا أن أبطأتا عندما واجهتا تحدي التل المنحدر. فترجل عن الدراجة، وساقها إلى القمة العالية، ووقف هناك ساكناً.

رباه.. كم هو رائع أن يقف عند القمة مع الدراجة المرتكزة بوداعة عليه، ليملي عينيه من الحقول المنبسطة، والغابة الشاسعة، والجداول الصغيرة المتجمدة.

كان وجه السماء الغائم شاحباً، والغابة المعتمة ملطخة ببعض بقع الضوء التي جاهدت الشمس لتسرّبها من بين فروع الأشجار. وبينما هو واقف ينظر حوله، ويرنو إلى الحقول بعينين حالمتين، أخذ نفساً عميقاً وغمغم محدثاً نفسه بصوت مسموع:

"ماكس ليس ميتاً! ليس ميتاً أبداً! أجل، روح ماكس لم تمت. لا أحد يستطيع قتل الذكريات. الذكريات لا تموت. ويمكنني متى شئت أن أتكلم معه."

راقب أشعة الشمس المتسللة وهي تغوص بالتدرج في جذور الأشجار.

"والآن يا ماكس،" هتف بصوت عال. "ما الذي ينبغي لي فعله؟"

"عد أدراجك بهدوء واتزان،" أجاب قائلاً لنفسه. "ولا بأس من زيارة أني هارتردج يا صاح."

"يالها من فكرة جيدة!"

"و.. أوه.. اسمع يا صاح،" قاطعه ماكس الخيالي. "أحسنت صنعاً بتعلّمك ركوب دراجتي،" أردف وهو يربّت على نفسه. ثم اعتلى الدراجة وقادها هابطاً التل، وقد أحكم سيطرته عليها ليضبطها من الانحدار السريع. وأحسّ أن متعة قيادتها ازدادت بعد وقفته المليّة عند قمة التل. إذ جعلته تلك الوقفة يشعر بالاسترخاء والسلام النفسي. وحين استدار ليلفّ عند المنعطف حطّت عيناه على منزل آني هارتردج، فقاد الدراجة إلى بيتها وأسندها على الجدار.

"لو كنت مكانك لقرعت الباب فوراً،" قال ماكس الخيالي. فأمسك ويل مطرقة الباب النحاسية وقرعها بعزم. فهرعت آني وفتحت الباب بوجه باك وهي تحمل برقية بيدها.

"أوه، أهلاً يا ويل، تعال، ادخل،" قالت نصف ضاحكة، نصف باكية. "أترى، لقد استلمت للتوّ برقية تحمل لي أروع خبر سمعته في حياتي،" أردفت وهي تغلق الباب وراءه. "السيد هارتردج على قيد الحياة يا ويل. وهو مسجون في معتقل حربي في ألمانيا. ولكن باستطاعتنا تبادل الرسائل، ويمكنني أن أرسل له رزم الصليب الأحمر. رزم مأكولات وأدوية. أوه يا ويل..". تابعت باكية. "أنا سعيدة جداً لدرجة أنني عاجزة عن التصديق. وسأكتب له رسالة الآن، حالا." فجأة، استوقفها وجه ويل المليء بالخدوش، فتفحّصته من رأسه حتى أخمص قدميه. "ما الذي كنت تفعله حتى أصبت بكل هذه الخدوش والكدمات؟!" سألته مستهجنة.

"كنت أتعلّم قيادة دراجة ماكس،" قال بذهن شارد. "و.. هل.. نجحت؟" سألته آني أخيراً بعد أن تجاوزت دهشة المفاجأة. "بعد جهد،" أجاب ويل وهو يحشر يديه في جيبي سرواله، ويسند جسمه على ساق واحدة.

"و.. لكنك.. ولكن..". تأتأت آني التي كانت على وشك القول أنه بدا في تلك اللحظة شديد الشبه بماكس، بل وإنه يتكلم بطريقة مماثلة لطريقته، وأن في أسلوبه نوعاً من الانفتاح غير المعهود. إلا أنها أحجمت عن ذلك.

خلال الأسابيع التي تلت حادثة قيادة الدراجة، لاحظ الجميع ذلك التغيير الجذري المفاجئ الذي طرأ على ويل. خصوصاً إميلي ثورن

التي قررت إخراج النص المسرحي الذي أعدته هي بنفسها لحكاية بيتر بان. وأسندت إلى ويل دور بيتر بان نفسه. ولكن، ولدهشتها الكبيرة فوجئت به يقف في مقدمة الصالة أمام الجميع، ويقول بصوت واضح:

"أنا أرغب في لعب دور القبطان هوك يا آنسة ثورن."

شعرت الآنسة ثورن أنها قد أخذت علي حين غرة، فدور القبطان هوك كان دوراً هزلياً، يتطلب الكثير من الخفة والحيوية.

"دعنا نقوم بتجربة"، قالت بعد أن استعادت صوتها.

عندئذ، فاجأها ويل بأدائه للدور، بل وفاجأ الجميع بذلك الأداء. وكان أثناء تدريبه على دوره في غرفته، ومن غير أن يدع أحداً يطلع على الأمر، يقوم بوضع وسادة أمامه ويقول مخاطباً إياها:

"دلني على طريقة أداء هذا السطر يا ماكس." أو "أخبرني كيف ينبغي أن يكون شعور القبطان هوك عندما يظهر له التمساح للمرة الثالثة؟"

ثم كان يجلس على الوسادة، ويجيب على أسئلته مثملاً قد يجيب عليها ماكس، قارئاً السطور، وممثلاً المشاهد مثله تماماً.

لاقت المسرحية يوم عرضها نجاحاً باهراً. إذ جعل ويل الناس يضحكون غصباً عنهم على القبطان هوك، وانفجاراته الغاضبة، وقلة صبره، وعراكه المتكرر المتخاذل مع التمساح. وبدأ من الواضح أن الجمهور كله أحب ويل، لدرجة أن رفاقه في المسرحية دفعوه إلى الأمام لينحني وحده للصالة التي ضجت بالهتاف والتصفيق. وكان توم أكثر الناس فخراً به. ولكن، ألم يكن كذلك منذ البداية؟ وبعد انتهاء المسرحية قابله خارج الباب الخلفي الصغير، ومشياً معاً إلى البيت وهما يثرثران بمرح على طول الطريق.

تلك الليلة، ولما انفرد ويل بنفسه، وأخذ إلى الفراش، شعر بشيء من الحزن، رغم كل ما لقيه من استحسان وتقدير. كان حزيناً لأن ماكس ليس موجوداً معه ليشاركه نجاحه. إذ أدرك أخيراً أن ماكس الذي لم يكف طيلة الأسابيع السابقة عن محادثته، لم يكن إلا شخصاً وهمياً من ابتداء خياله، وحفنة من الذكريات. وكل ما في الأمر هو أن ذلك الجزء من شخصية ماكس فيه، ذلك الجزء المنطلق المرح من نفسه،

كان من مواصفاته المدفونة داخل أعماقه. مواصفات، أبرزتها صداقته
لماكس، وجعلتها تطفو على السطح.
غاص في سريره، وكمر نفسه بالملاءات. وكان على وشك الاستسلام
للنوم عندما.. عندما نذت عنه صيحة مليئة بالفزع والدهشة.
"أنا ما عدت مجرد نصف مخلوق"، قال لنفسه. "أنا.. أنا شخص
كامل! وأنا حيّ بدون ماكس، رغم أنني أفقده بحرقة."
استدار على أحد جنبيه، وأنصت إلى عويل الريح في فناء المقبرة.
كان ينعم بالدفء، وكان سعيداً. تتهدّ بارتياح وهمهم لنفسه..
إنه لمن الرائع حقاً أن يكون المرء حياً!

الخاتمة

بينما هو جاثم أرضاً، ومنشفة في يده، أجال ويل الطرف حوله، ملقياً نظرة شاملة على ما آلت إليه الحديقة مؤخراً. فمِنذ إعلان تجنيد كافة الطاقات للمساهمة في حملة النصر، قام هو وتوم باقتلاع جميع الأزهار منها، وراحا يزرعان الخضار في جميع المساحات التي توافرت لهما. وقد أحزنهما ذلك بالفعل. لأن منظر الأزهار الزاهي، لم يتبق منه إلا صفوف منتظمة من تربة بُنيّة، تثبثق منها رؤوس وعناقيد نباتات خضرة.

كان في ذلك اليوم يرتدي كنزة ماكس الحمراء القديمة ذات الرتق التي لا تعدّ ولا تحصى. وإذ تهيأ لمباشرة العمل شمر أكمامها، ثم حط المنشفة أرضاً، واستند عليها جيداً، وشرع يحفر في التربة خندقاً صغيراً. وما إن بدأ يزيح التراب جانباً، حتى خرجت ديدان الأرض الفزعة من مكانها، وراحت تزحف مبتعدة. فاستكان قليلاً ليراقب أجسامها اللامعة المتلويّة وهي تتجه نحو بقعة الملفوف. ثم ارتكز على عقبه وتناول حفنة بذور من كيس ورقي صغير، وبدأ يلتقط كل بذرة على حدة ويغرزها بحرص في الخندق. كان مأخوذاً جداً بهذه المهمة، لدرجة أنه لم يسمع وقع الخطوات التي اقتربت من البوابة. غير أنه، وحالما تنأى إليه صوت قعقة البوابة أثناء ارتدادها، رفع رأسه مستطلعاً. فرأى كاري تجري على طول الممر متوجهة نحوه بوجه متوهج.

"هل حصلت عليها يا ويل؟" سألته لاهثة.

أوما برأسه.

"إنها في غرفتي. أتريدنيها الآن؟"

رنت إلى يديه المعفرتين بالتراب بتردد، وقالت:

"يمكنني الذهاب وإحضارها بنفسي. أما زال لديك الكثير من العمل؟"

"بقي لي صفان فقط، وبعدها أكون قد انتهيت."

"أيمكننا الذهاب إلى النهر بعد ذلك؟"

بدت الدهشة على ويل.

"أيعني هذا أنك أنهيت جميع المهام الموكلة إليك في البيت؟"
هزّت كاري رأسها وابتسمت.

"لقد تسللت من النافذة يا ويل. كانت هذه الطريقة الوحيدة للفرار. إذ
حالما أفرغ من عمل ما، تجد لي أمي عملاً جديداً. وإذا صدف ورأيتي
ألمس كتاباً تتصدّى لي كالمجنونة."

"أوه.. كنت أظن أنها أصبحت أفضل حالاً الآن."

"نعم، إنها أفضل من السابق. ولكنها ما زالت ترى أن القراءة ليست إلا
وسيلة للتقاعس عن العمل." أجابته كاري وهي تجثم إلى جانبه،
وتحدق ملياً في قلب عينيه. "أعتقد يا ويل أنني سأنفجر كمداً إذا لم أقرأ
كتاباً في أسرع وقت ممكن."
ضحك ويل.

"في هذه الحالة أرجو ألا تتفجري فوق مزروعاتي يا كاري."
"إذا كان لديك منشقة أخرى يمكنني معاونتك في العمل. حينئذ نستطيع
المغادرة باكراً. لأنها إذا وجدتني هنا فستجبرني على العودة إلى
البيت."

"لا يوجد عندي منشقة أخرى. ولكن اسمعي، يمكنك الصعود إلى
غرفتي. وإذا جاءت أمك للبحث عنك ستراني وحدي. وعندما أنتهي
سأصحبك إلى النهر على الدراجة المزدوجة، بعد أن أخفض لك
مقعدها الثاني."

لمعت عينا كاري حماساً.

"فكرة سحرية!" قالت وهي تهبّ على قدميها لتسلك الطريق إلى
البيت. "أوه!" صاحبت فجأةً بقنوط، والتفتت نحوه. "كيف سأقود
الدراجة وأنا أرتدي هذا؟" أردفت مشيرة إلى فستانها الصوفي
الأخضر. "ألن يتطاير ويرتفع في الهواء؟"

قطب ويل لبرهة، ثم خطرت له فكرة فهتف:

"يمكنك ارتداء أحد سراويلي القصيرة!"

بدا التردد على وجه كاري، إذ كان ويل أصغر حجماً منها.

"أو سروال ماكس فهو سيناسبك أكثر."

"إنني لن أجزؤ على هذا،" قالت ونفسها تعتمل بإثارة كبيرة من مجرد تخيل الفكرة. إذ ما فتئت منذ وقت طويل ترجو أمها أن تسمح لها بارتداء سروال قصير. ولكن أمها كانت تجيبها بأنها في تلك الحالة ستتحول إلى صبي، وحينذاك لن يرغب أي رجل في الزواج منها. أما والدها فلم يعارض، بل وأضاف إنه لا يجد سبباً يمنعها من هذا. ولكنه في الوقت نفسه لم يرغب في خلق المزيد من الشقاق في البيت، بعد أن ترك لها حرية القيام بكل ما يحلو لها.

"لَمْ لَا؟" سألها ويل.

"ألن تظن أنني سأتحول إلى صبي إذا رأيته ارتدي سروالاً؟" نظر إليها ويل بعينين متفحصتين. تأمل حلقات شعرها المجدد الملتفة حول جبهتها وأذنيها، وعينيها الخضراوين الواسعتين اللتين كانتا ترنوان إليه من خلال وجهها الدقيق المليء بالنمش.

"لا شيء فيك يا كاري يشبه الصبيان إطلاقاً. وعلى العموم، من ذا الذي سيهتم إذا كنت كذلك؟"

"أوه، معك حق. وفي جميع الأحوال أنا لا أريد الزواج،" أجابت بنفور. "رباه! تخيل أنني حينذاك سأكون مضطرة إلى تولي جميع الواجبات المنزلية طيلة اليوم، وكل يوم. أع.. تفو!" وبهذا، استدارت، وطارَت إلى البيت.

عندما انتهى ويل من عمله، وصعد إلى غرفته، وجدها مستلقية على السرير ومستغرقة في القراءة. ولما آنست حسه، قفزت، وأغلقت الكتاب بسرعة، ثم نظرت إليه، وقالت ضاحكة:

"أوه يا ويل، ظننت أنك أُمي!"

اتجه ويل نحو صندوق في زاوية غرفته يحتوي على العديد من ملابس ماكس المطوية بعناية. واستخرج منه سروالاً قطنياً أحمر اللون ذا رقع مختلفة على مؤخرته. ثم عثر على ملابس تحتانية خضراء كانت أقل رثانة من غيرها.

"خذي،" قال وهو يرمي لها بالثياب، ويقذف حمالة السراويل على السرير.

"ينبغي أن ارتدي قميصاً"، أعلنت فوراً، ثم انضمت إليه عند الصندوق. وما لبثت أن عثرت على قميص فضفاض من القطن الأبيض. "يُستحسن أن تلبسي هذه أيضاً"، قال مناولاً إياها سترة ماكس الصوفية. "أوه.. لا.. لا أستطيع."

"لَمْ لَا؟"

"إنها.. إنها عريضة على قلبك كثيراً يا ويل".

"ولكن ماكس كان سيسرّ كثيراً لو رآك ترتدينها، وأنت تعرفين هذا."

عندئذ، أطرقت كاري برأسها لتغالب الدموع التي تغرغرت في عينيها. فظهرت علامات الانزعاج على وجه ويل.

"أوه، لا تخف يا ويل، فكل شيء على ما يرام"، قالت بسرعة. "وتأكد من أنني لن أبدأ بالنحيب الآن"، أردفت وهي تبادر إلى ارتداء السروال الذي بدا ملائماً رغم خصره الواسع. "إنه واسع قليلاً من هنا، ولكن الحمالة ستحل هذه المشكلة"، هتفت بمرح، ثم فكت أزرار فستانها ونزعته عنها. وأتبعته بالرداء التحتاني الذي سحبتَه من رأسها. وساعدها ويل على تثبيت حمالة السروال. وحين فعل هذا، دهش من رؤيته لكتلتين صغيرتين متكوريتين، كانتا بازغتين بحياء من تحت قميصها التحتاني. وشعر برغبة في مدّ يده وملامسة ذراعي الفتاة، إلا أنه تراجع فوراً.

"حسناً، انتهينا من الحمالة"، قال، ووجد نفسه يضحك بسعادة من غير أن يكون هناك أي سبب موجب للضحك.

ارتدت كاري القميص الخارجي. وبعد أن حشرتَه داخل السروال رفعت الحمالة إلى كتفيها، ومضت تختال في الغرفة واثبة وملوحة بذراعيها في الهواء.

"إنها ثياب مريحة جداً"، هتفت وهي تقفز على السرير. ثم رأت ويل يتناول أربعة كتب من خرجه. "أوه، لقد كانت مخبأة هنا إذن!"

صاحت بابتهاج.

"لم أستطع الحصول على كتاب: *إننا لم ننو الذهاب إلى البحر*. ولكنني حجزته لك. ولذلك جلبت لك هذا بدلاً منه."

تناولت الكتاب من يده وقرأت:

"وراء رياح الشمال، بقلم: جورج ماكدونالد. لم أسمع به من قبل قط،" تصفحت أوراقه، وطالعت مقدمته. "إنه يبدو كتاباً جيداً يا ويل. وهل حصلت على جميع الكتب الأخرى؟"

"آها، هاك،" قال ويل مناولاً إياها الكتب، "الأميرة الصغيرة، بيفيد كوبر فيلد، والجميلة السوداء."

"رائع يا ويل!"

"ولكن، لا تبدئي بالقراءة الآن، وإلا فإننا لن نذهب إلى النهر أبداً." قال ويل فوراً، فبدأت الخيبة على وجه كاري. "حسناً.. حسناً، خذي معك كتاباً واحداً، وسوف آخذ معي دفتر الرسم،" أردف قبل أن يلتفت إلى خرجه ليفرغ محتوياته. ثم وضع فيه دفتر الرسم ورقعة قماش من المشمع.

أما كاري فوقفت حائرة في أمرها، تفكر بالكتاب التي ستأخذها، وقرّ قرارها أخيراً على كتاب: وراء رياح الشمال. ثم وضعت عليها سترة ماكس، وقذف ويل الخرج وراء ظهره.

"سأنزل قبلك لأتأكد من أن الساحة خالية من المتطفلين،" همس قبل هبوطه السلم.

حينئذ شعرت كاري برغبة ملحة في الضحك. فوضعت يدها على فمها لتكتم قهقهتها. وجثمت عند فتحة السقيفة، بانتظار إشارة ويل الذي تسلل نزولاً إلى الردهة، ومنها إلى الباب الخلفي للبيت. لكنه ما لبث أن عاد إلى الردهة.

"تباً!" همهم بحنق. "نسيت أنني في حاجة إليك لتمسكي لي الدراجة حتى أخفض المقعد لك."

وهكذا، تسللت كاري من مكنها، وتبعته إلى الحديقة الخلفية، وأمسكت له الدراجة. وبينما انهمك في التعارك مع مفتاح الربط، كان القلق يكبر في أعماقها، واستشعرت حرارة الانفعال تتصاعد إلى جبهتها. نعم.. سيكون من المخيب للآمال حقاً، أن تضبطها أمها الآن، في هذه اللحظة بالذات.

"أخيراً!" هتف ويل بعد أن عدل وضعية المقعد، ودس مفتاح الربط في جيب خرجه. "والآن يا كاري دعينا نجرّها بحذر."

دفع الصغيران الدراجة إلى البوابة الخلفية، والتفأ يميناً مرتين حتى أصبحا قرب سور فناء المقبرة. ثم نظر ويل إلى كاري وابتسم لها مشجعاً، وأوماً لها لتجثم على الأرض. وبعد مناورة حذرة حرصاً على بقائهما بمنأى عن أعين المارة الفضولية، أشار لها لتتهض.

"بسرعة، بسرعة، اركبي الدراجة"، استحثها بقلق.

"إذا رأياني أي مخلوق الآن"، قالت مغالبة قهقهتها، "سينتشر الخبر في القرية بأسرع من لمح البصر"، ثم سارعت إلى ارتقاء الدراجة، مثبتة قدميها على الدواستين اللتين بلغتهما بسهولة. وخلال لحظة جاراها ويل، واعتلى الدراجة هو أيضاً وباشر قيادتها.

قاد ويل وكاري الدراجة من غير أن يريا أحداً، حتى بلغا منزل آني هارتردج التي كانت في الحديقة الأمامية مع طفلتها الصغيرة. وما إن وقعت عيناها عليهما حتى تسمّرت كمن أصابه مس، وانبرت تحديق بكارى فاغرة الفم. ولكن الصغيرين تجاوزاها، ومضيا قدماً على طول الطريق الصاعد وهما على وشك الانفجار من الضحك. ثم توقفا عند إحدى الأجمات التي تحدّ الغابة، وترجلاً من الدراجة، وراحا يدفعانها من خلال فرجة صغيرة تُشرف على المنحدر.

"يمكننا تركها هنا"، قال ويل وهو يسند الدراجة على جذع شجرة بلوط ضخمة. "ولا أظن أن أحداً سيراها."

ثم جريا برشاقة وحذر بين الأشجار. وحرصاً على الاختباء وراء جذوعها بين فينة وأخرى للتأكد من عدم وجود مخلوق غيرهما في الغابة. وما كادا يبلغان النهر حتى أفلتا عنان ضحكهما الصاخب المدوي.

"أوه، كان يجب أن ترى وجهها يا ويل"، بقّبت كاري، بينما حمل ويل خرجه كما يحمل الناس المولود الصغير، ولّد آني هارتردج وهي تحمّل فيهما أثناء عبورهما الطريق أمامها. فأمسكت كاري معدتها وضحكت حتى أعجزها الضحك.

"أوه، لا، بالله عليك توقّف!" صاحبت أخيراً. "سوف أبلل سروالي إذا لم تتوقّف فوراً."

"تقصدين أنك ستبللين سروال ماكس"، صحّح لها ويل.

"أرجوك.. أرجوك يا ويل!" عادت تتوسل إليه وهي تشبك ساقها، وتحاول يائسة أن تفكر بكارثة أو مصيبة ما، لعلها تساعد على ضبط نفسها. حينئذ، توقف ويل، وانهار على الأرض لاهثاً، ثم استند على جذع شجرة، والتفت محققاً في النهر، تاركاً لها الفرصة لتهدأ وتتضمّن إليه.

"هاك"، قال بعد أن سحب رقعة المشمع من الخرج، وفردها تحت جذع الشجرة. "اجلسي هنا."

"ولكن إلى أين أنت ذاهب؟" سألته عندما رآته يبتعد عنها.

"سأجلس في تلك البقعة، لأنني أريد أن أرسمك."

عندئذ، تناولت كاري كتابها، وأسندته على ركبتيها المطويتين لتباشر القراءة. لكنها انشغلت عنه بتأمل النهر الجاري، ثم رنت إلى ويل. كان يجلس فوق خرجه على بعد عدة ياردات منها، وقد فتح دفتر الرسم أمامه. وعندما شعر الفتى بنظرها تطلع إليها وابتمس.

"ألا تشعر بالغربة وأنت تراني أردي ملابس ماكس؟"

هزّ ويل رأسه.

"أنا أيضاً أردي كنزته يا كاري."

"نعم أعرف ولكن..". نأى صوتها فجأة. "أنا لم يسبق لي أن ارتديت ملابس شخص ميت من قبل. ولا بد أن يصيبني هذا بشيء من الفزع، أليس كذلك؟ مع ذلك، أنا لا أشعر الساعة إلا بالارتياح." تنهدت وتركت جسمها يغوص بين أحضان جذع الشجرة. "أتمنى يا ويل لو أن جميع الفرص المدرسية تشبه هذا اليوم،" غمغمت. "لقد كانت أمني فظيعة في الآونة الأخيرة."

"وهل تعامل جيني بالطريقة ذاتها؟"

"جيني تحب الأعمال المنزلية، ولا تتذمر منها قطّ. وهي ترى أنها كلما تعلّمت المزيد الآن، تسنى لها أن تصبح زوجاً مستقبلية ماهرة. وفي جميع الأحوال، تصرّ أمني على تكليفي بأعمال إضافية، بحجة التعويض عن تقصيري أثناء الدوام المدرسي. وتقول إن أعمال المنزل ليست أعمالاً ولكن ضرورات. وتقول أيضاً أنني أصبحت بنتاً مغرورة. أ صحيح هذا يا ويل؟"

"كلا".

عادت وحدثت في النهر من جديد. فوضع ويل دفتر الرسم جانباً وسألها:

"أما زلت غير سعيدة في المدرسة؟"

"إن الوضع يتحسن الآن. لقد جاءت مرتبتي الخامسة في امتحانات نهاية الفصل الدراسي."

"أعرف، لقد أخبرتني بهذا."

"أوه.. أفعلت؟"

أوما برأسه.

"أترى يا ويل، إن الأمر مهم جداً بالنسبة لي. لأن نجاحي أصاب الجميع بصدمة حقيقية. فالكل في المدرسة يعتقد أنني لمجرد كوني أتحدث بطريقة مغايرة ينبغي أن أكون غبية. أ أخبرتك أن إحدى البنات قصدتني، وبدأت تتحدث معي بمودة في آخر يوم لنا في المدرسة؟"

"لا، لم تخبريني."

"أوه، هذا ما حصل يا ويل. قالت لي إنه لا يجدر بي الاكتراث لما تقوله بقية البنات عني، وأني أذكى من معظمهن."

فجأة، نظر إليها ويل بدهشة.

"ما الحكاية يا ويل؟"

"إنك تتحدثين بطريقة مختلفة الآن."

احمرّ وجه كاري، وشعرت بالخزي. فنظرت إليه من غير أن تقول شيئاً.

"لقد أصبحت لهجتك تشبه لهجة ماكس قليلاً،" أردف ويل.

حينئذ أشرق وجه الفتاة، فهتفت:

"أوه، هذا حسن إذن."

"هيا ألن تعودي إلى القراءة الآن؟ فأنا أريد الانصراف إلى الرسم."

أومات برأسها، وبسعادة غامرة عكفت على قراءة الفصل الأول من كتابها. وأبحرت في متاهة عالم رياح الشمال ملتهمة الصفحات بنهم ما بعده نهم. أما ويل فغرق كلية في رسم وجهها وجسمها وقدميها ويديها

القابضتين على الكتاب وركبتيها. وشعر وهو يفعل هذا بغبطة عظيمة تملأ قلبه الصغير. ولم يلحظ أي منهما مرور الوقت إلا بعد اكتشافهما أنهما شرعا يزويان ما بين أعينهما ليتمكنّا من الرؤية.

"يا الله!" صاحت كاري بفرع، "يجدر بي العودة إلى البيت."

جمع ويل الأغراض بسرعة، ووضعها في الخرج. وجريا معاً خلال الغابة فالمرتفع، حتى وصلا إلى الدراجة فأخرجاهما من بين الأجمات وارتيقياها عائدين. ولم تضبطهما أنني هارتدرج هذه المرة، لأن ستائر التعقيم كانت مسدلة على نوافذ بيتها. وعندما بلغا سور فناء المقبرة، ترجّلا عن الدراجة، وزحفا بمحاذاته، واستدارا عند الزاوية، ثم جريا وهما يجريان الدراجة حتى عبرا البوابة، ومنها إلى باب البيت الخلفي. وفي لحظة كان ويل قد فتحه بهدوء، وأطل برأسه مسترقاً النظر إلى الداخل.

"اركضي"، همس لكاري وهو يشير إليها لتدخل. ولكنه لحظة أغلق الباب وراءهما سمع نباح سام ينبعث من غرفة المعيشة. "تباً!" غمغم مستحثاً كاري على الإسراع، فاندفعت إلى ارتقاء السلم، وقذفت نفسها داخل السقيفة قذفاً. وما لبث ويل أن تبعها، ووجدها تتلمس طريقها في الغرفة المعتمة بحثاً عن حاجياتها. ثم نزعت عنها ثياب ماكس، وراحت تزرع الغرفة بملابسها التحتانية، مستغرقة استغراقاً كاملاً في ارتداء ملابسها لدرجة أنها لم تشعر بأي ارتباك. ودُهِش ويل من نفسه لأنه هو أيضاً لم يشعر بأي ارتباك. أخيراً، نزلا السلم، وغادرا البيت من الباب الخلفي على رؤوس أصابعهما.

"لقد نجحنا يا ويل"، همست له.

"ولكنك نسيت بقية الكتب"، قال ويل حين لاحظ أنها لا تحمل إلا الكتاب الذي بدأت بقراءته.

"سوف أخذها تباعاً. وسأخفي هذا تحت فستانني لئلا يُصادر مني في حال تمّ ضبطي بالجرم المشهود. لا أعرف يا ويل متى سيتسنى لي لقاءك ثانية، إذ أظن أنني سأعاقب الآن بملازمة البيت لأسبوع"، قالت بوجه باسم. "لكن الأمر كان يستحق العناء يا صديقي!" اختتمت

ضاحكة. ثم مشت وويل حتى حدود مرعى دوبس، ووقفاً هناك صامتتين يتشربان وداعة المساء.

"يبدو أنه سيكون ربيعاً جميلاً"، قالت كاري أخيراً مشيرة بيدها إلى مجموعة من الأزرار المنتفخة على أغصان شجرة قريبة بأسقة. "أتظنين"، قال ويل وهو ينظر من فوق السور إلى شجرة البلوط العتيقة، "أتظنين يا كاري أن المرء يمكن أن يموت من فرط السعادة؟" نظرت إليه كاري بدهشة.

"أنا.. أنا أشعر اللحظة أنني على وشك الانفجار من السعادة. وإذا حدث هذا يا كاري سأبتعثر نتفاً وأشلاء في جميع أرجاء هذا الحقل." ضحكت كاري من كلامه، ثم افترقا أمام البوابة المؤدية إلى الدرب المقنطر. فعاد ويل أدراجه ميمماً شطر البيت. وقبل الدخول إليه، عرج على مضخة الماء، وملأ إبريقاً كبيراً من الصفيح بالماء، وحمله مروراً بالملجأ المهجور، فعتبة الباب الخلفي للبيت، فالردهة. وعندما وقف يعلق طاقيته على مشجبه المعهود، اكتشف فجأة أن المشجب كان واطناً عليه.

كنت معتاداً على التمطي لأبلغه.. غمغم محدثاً نفسه. ثم حمل إبريق الماء إلى غرفة المعيشة، حيث استقبله سام واثباً ومستجدياً اهتمامه. فوضع الإبريق أرضاً وقرص ليداعبه. من المضحك يا سامو.. فكّر وهو يتأمل سام.. أن أكون قد شعرت بالفزع منك في يوم من الأيام.

كان توم في تلك الأمسية يجلس على أريكته كالمعتاد، يتفحص برامج المذياع في الصحيفة. وكان إبريق تسخين الماء يغلي على الموقد. فدنا ويل منه، ورفع بخرقة، وصب قليلاً من الماء الساخن في إبريق الشاي، وخضنه ليشتيع فيه الحرارة، ثم أفرغه. وعاد وأضاف له كمية من الشاي ومزیداً من الماء، وتركه ليتخمر قليلاً قبل أن يصب الشاي في فنجانين. ثم جلس قرب سام الذي انبطح أمام المسند، وقال لتوم:

"أ يوجد شيء جيد في برامج المذياع؟"

طوى توم الجريدة، ونظر إليه.

"ليس تماماً. فجميعها تتضمن موسيقى عسكرية للجنود،" أجاب توم، ثم تناول غليونيه من على الطاولة الصغيرة، وبدأ يحشوه بالتبغ. جلس ويل، وراقب توم بصمت وهو ينفخ الدخان من غليونيه، ويحرك التبغ المشتعل بطرف عود ثقاب. حينئذ.. وكما اكتشف فجأة أن مشجبه بات واطناً عليه، لاحظ أن توم يبدو طاعناً في السن، ومرهفاً. فأزعجته هذه الملاحظة في البداية، إذ لطالما بدا توم في عينيهِ شخصاً قوياً صلباً.

عبّ عدة جرعات من الشاي، ووضع بعض الفحم الجديد في الموقد. وبينما انبرى يتأمل ذلك الفحم وهو يتشقلب ويغوص وسط أكوام الحطب والجمر المشتعل، خطر له فجأة أن القوة شيء مختلف اختلافاً جذرياً عن القسوة. وأن كون المرء مرهفاً لا يعني بأي حال أنه ضعيف. فرفع رأسه، ومال نحو توم، وهتف بصوت جري واثق:

"أبي.."

"نعم؟" قال توم وهو يضع كتابه جانباً، "ما الحكاية؟"

"أبي،" كرّر ويل بنبرة مفعمة بالدهشة، "لقد بدأت أنمو!"



telegram @
yasmeenbook

